مفاهيم القرآن

تأليف

جعفر السبحاني

الجزء الخامس

منشورات

مؤسسة سيد الشهداء العلمية

ايران - قم المقدسة

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

Subhani

تفسير موضوعي للقرآن الكريم

مفاهيم القرآن

الجزء الخامس

تأليف

جعفر السبحاني

يبحث عن عصمة الانبياء ويعالج ادلة المخطئة لها ،

وعن مفهوم الامام وعصمته ، وعدالة الصحابة ،

واطاعة السلطان الجائر في القرآن الكريم

من منشورات مؤسسة سيد الشهداء العلمية

2273
.935
.3
v.5

مواصفات الكتاب

١ ـ اسم الكتاب : مفاهيم القرآن

٢ ـ المؤلف : جعفر السبحانى

٣ ـ الموضوع : دفاع عن عصمة الانبياء و تبيين مفهوم الامام و...

٤ ـ عام الطبع : ١۴٠٧ هـ ق

٥ ـ المطبعة : العلمية ـ قم

٦ ـ الناشر : مؤسسة سيد الشهداء العلمية

٧ ـ حقوق الطبع : محفوظة للناشر

٨ ـ عدد النسخ : ٢٠٠٠

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 016079525

كلمة قدسية

تفضل بها سماحة العلامة الحجة الاستاذ المحقق الشيخ لطف‌الله الصافى
صاحب المؤلفات الاسلامية القيّمة، والمواقف الجهادية المشكورة
دام ظله الوارف

بسم‌الله الرحمن الرحيم

العصر الحاضر و المفاهيم الدينية

يشهد عصرنا الحاضر المسمى بعصر الذرة والفضاء ، صورة جديدة من رفض النصوص الشرعية، يتمثل فى موقف خاص من قضايا الدين ، وهو تفسير الحوادث الخارقة للعادة والحقائق الغيبية ومايتحقق فى مستقبل الزمان من الآيات والملاحم الثابتة كلها فى الدين، والتى اخبرت بها نصوص الكتاب والسنة، وتحققت او تتحقق بارادة الله تعالى واذنه ـ بالتفسير والتعليل المادى الذى ينكر تأثير عالم الغيب فى عالم الشهادة .

وهو موقف نابع وناشىء من انبهار طائفة كبيرة من المثقفين ببريق النهضة المادية الحديثة، ومن الافتتان بالتقدم الصناعى الراهن ، الأمر الذى آل الى ظهور الاتجاهات العلمانية التى تعتقد بفصل الدين عن الدنيا ، والدنيا عن الدين حيناً وباخضاع المفاهيم الدينية الغيبية لمقاييس العلوم المادية الحديثة حيناً آخر.

ومما يزيد الطين بلة، والداء تفاقماً، ان هذا الفريق يظهرون الاسلام ويتظاهرون

بالنصيحة له وللمسلمين ، ويدعون انه لابد من تفسير الدين بنحو يقبله المفكر الغربي ، ولايستنكره الملحد الشرقي ، وبالتالي : لابد من تأويل اصطلاحاته وقضاياه بنحو يوافق المذاهب المادية، والقوانين الطبيعية ، بينما يسعى فريق آخر الى التوفيق بين الدين ونظاماته في الادارة والحكم وغيرهما ، وبين الانظمة الديمقراطية ، كما يريد بعضهم التوفيق بين الدين ـ وهو دين الهي ـ مع الانظمة الماركسية الملحدة .

فالثقافة عند هؤلاء هو الترديد والتشكيك في الحقائق المقبولة في الدين والتي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة ، مما لايمكن ان يعلل بالعلل ، وبالتالي اخضاع الدين لمعطيات الحضارة المادية الحديثة، ومقاييسها فاذن نحن في عصر يزداد فيه التخوف من تعريض المفاهيم الدينية لخطر التحريف والتأويل واخضاع الدين للاهواء والامزجة والاذواق الشخصية ، على ايدى الجهال والانهزاميين .

فما احوجنا ـ في هذا العصر ـ الى تبيين مفاهيم الكتاب والسنة ، وتثبيت ما اتى به الاسلام ، على حقيقته ، و ارجاع الناس الى النصوص ودلالاتها ورد المتشابهات الى المحكمات ، في ضوء الكتاب العزيز والسنة المطهرة الشاملة لما ورد عن العترة الطاهرة .

ولقد نهض بهذه المهمة منذ اقدم العصور ولله الحمد رجال من رواد مذهب اهل البيت عليهم السلام و اصحابهم ممن دفعتهم غيرتهم الدينية الى الدفاع عن حياض الشريعة المقدسة ، مع الاحتفاظ بنصوص الكتاب و السنة ، فابقوا على مفاهيم الاسلام غضة طرية ، ناصعة ، ساطعة ، فشكر الله مساعيهم الجميلة وجزاهم عن الاسلام خير الجزاء .

ومما يثلج الصدر ان تستمر هذه الجهود الخالصة المخلصة في سبيل الحفاظ على مفاهيم الدين، حيث قام في عصرنا هذا جماعة من الاعلام بنفس هذا العمل العظيم ونخص بالذكر صديقنا العلامة الفقيه والبحاثة المحقق الاستاذ الشيخ جعفر السبحاني

فی ما کتب فی سلسلة «مفاهیم القرآن الکریم» هذه المجموعة التی صدرت منها الی الان اربعة اجزاء والتی سدت فراغاً واسعاً فی هذا المجال حیث اوضحت - فی غایة القوة والاحاطة والاتقان والتحقیق - کثیراً من المفاهیم القرآنیة الاسلامیة وسدت الطریق فی وجه المبدعین والمحرفین ، والمأولین والمشککین واجابت باسلوب برهانی مقنع علی أسئلة طالما شغلت اذهان الشباب، واصحاب المدارس الحدیثة .

وقد جاء الجزء الرابع رداً علی الاتجاه المذکور وهو تفسیر الجوانب الغیبیة بالتعلیلات المادیة .

فلله در مؤلفه الفقیه المحقق العلامة وحفظه الله ذخراً للحوزة والامة ، ونفع المسلمین جمیعاً بعلومه ومؤلفاته . انه سمیع مجیب .

لطف الله الصافی

۲۳ - ربیع الثانی ۱٤۰٦

كتاب كريم

تفضل به العلامة الحجة الاستاذ المحقق الشيخ ناصر مكارم الشيرازى
دام ظله ننشره تقديراً لجهوده العلمية الكبرى مشفوعاً
بالشكر والتكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين »

المائدة : ١٥

ان الواصف المطرى مهما جدّ واجتهد ، ومهما بلغ شأواً عظيماً فى القدرة على التحديد والتوصيف ، لايتمكن من ان يصف كلامه سبحانه ويحدده بما هو لائق به كيف وهو كلام من لايتناهى كمالا وجمالا ، كما لايتناهى علماً وقدرة .

فلو كانت هناك صلة بين الاثر والمؤثر و كان الاثر ظلاً له ، فكلامه سبحانه لايتناهى فى الروعة والجمال ، لكونه اثراً للكمال المطلق والجمال غير المتناهيين وعند ذلك لايجد الباحث معرفاً محدداً لكلامه احسن مما ورد فى الذكر الحكيم فى هذا المضمار ، قال سبحانه : « قد جائكم من الله نور و كتاب مبين » .
(المائدة : ١٥)

وقال سبحانه : « يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبيناً » (النساء : ١٧٤)

وقال تعالى : « و كذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط

مستقيم » (الشورى : ٥٢) الى غير ذلك من الايات التى تعد الذكر الحكيم نوراً منزلاً من الله سبحانه الى البشر كله فى جميع العصور والقرون ولجميع الاجيال والمجتمعات فيجب علينا ان نقف على السر الذى اصبح به القرآن نوراً وضياء .

اقول ان علماء الطبيعة كشفوا عن اسرار النور وخواصه ، فلاحظوا :

اولا : ان سرعة النور لاتضاهيها سرعة اى شىء آخر .

ثانياً : ان حياة النبات والحيوان رهن للنور ، فلولاه لما استقرت الحياة وما اخضّر لها عود .

ثالثاً : ان النور يكشف الحجب فى المجتمع فلايرى اجرام المجرم فى وضع النهار ، واذا طرأت الظلمة خرج المجرمون من اوكارهم ابتغاءً للفساد ، ونشراً للرذيلة .

رابعاً: ان النور يكافح العوامل الهدامة للحياة فيقتل الجراثيم والميكروبات المضرة ، ويبقى الذرات النافعة للحياة الى غير ذلك من الاثار المشكوفة الثابتة للنور فى مجال علم الطبيعة .

هذا هو حال النور الحسى الذى يمشى به الانسان فى حياته المادية ، واذا كان هذا حال النور الحسى فالنور المعنوى الذى به حياة الانسان الروحية ، اولى ان يكون كذلك .

ومن حسن الحظ أن نجد النور المعنوى (القرآن والسنة) حاملا لهذه الاوصاف والاثار على الوجه الاكمل والاتم .

فاذا كان النور الحسى اسرع الاشياء المادية فى السير والدوران ، فالنور الذى يحمله القرآن الكريم مثله فى السرعة والانتشار ، فقد انبثق نور القرآن من ام القرى وانتشر بسرعة فائقة فى اجواء العالم وبدد الظلام عن أم القرى وما حولها الى ان وصل الى منتهى الخف والحافر .

واذا كانت الحياة المادية لاتستقر فى هذا الكوكب الا بضوء الشمس فالحياة المعنوية لاتستقر فى هيكل الفرد والمجتمع ، الا بالايمان والعمل الصالح

ولايهتدى الانسان الى كل منهما ، الا ببركة الوحى المجسد فى الذكر الحكيم .

واذا كان ضوء الشمس ونور الكوكب يبدد الحجب فى البوادى والصحارى والمدن والبلدان فيغيب المجرم ويختفى المسىء ، فالنور المعنوى الذى يحمله القرآن ومثله كل وحى سماوى، يضىء المجتمع وينور القلوب فلاتجدفيه مجالا لظهور الرذائل وانتشار المساوىء وانما تظهر رذائل الاخلاق فى غياب الايمان والقرآن عن المجتمع .

واذا كان النور الحسى يكافح العوامل الهدامة للحياة فالنور المعنوى ايضاً يكافح الغى والفساد ، والهرج والمرج ، والجهل والفقروغيرها من الامور التى تعد من العوامل الهدامة لحياة الانسان المعنوية .

ولاجل ذلك نرى ان الرسول (ص) يأمر بالتمسك بالقرآن الكريم عند التباس الفتن على الانسان كقطع الليل المظلم ويقول : اذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع وماحل مصدق...) (١)

ولاجل هذا الامروغيره عكف علماء الاسلام منذ فجر الدعوة الاسلامية على دراسة القرآن وقرائته وحفظه وتفسيره والعناية به بشتى الطرق والوجوه . وقد بلغ اقبال المسلمين والعناية بكتابهم ملبغاً لايوجد له نظيرفى جميع انحاء العالم والمجتمعات البشرية . كيف وقد اسسوا للاستضائة من ذلك النور ، علوماً كثيرة خدموا بها القرآن الكريم وعالجوا بها مشاكله ومبهمانه ومعضلاته ، شكرالله مساعى الجميع .

منهج التفسير الموضوعى :

ان السيرة الرائجة فى تفسيرالقرآن الكريم هى تفسيره سورة بعد سورة ، فالمفسرالموفق هومن يأخذبتفسيرسورة الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران وهكذا الى ان ينتهى الى آخرالقرآن اوالى ماتصل اليه جهوده ، وهذه سيرة رائجة فى

(١) الكافى ج ٢ ص ٢٣٨ .

جميع القرون ، غير ان هناك منهجاً آخر لتفسير الذكر الحكيم لم يقع موضع العناية الكبيرة للسلف الصالح من المفسرين وهو «**المنهج الموضوعي**» لتفسير القرآن .

والمقصود منه جمع الايات الواردة في كل موضوع والبحث عنها دفعة واحدة وهذا هو الطريق الامثل الذي ستحل به معضلات الايات وترتفع مبهماتها، فان القرآن يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه ببعض ، ولامناص للمجتمع القرآني من العناية بهذا المنهج ايضاً كما كان له العناية بالمنهج الاول ، فالمنهجان متواكبان في الاضائة والتنوير . ولكل مزيته ومحاسنه .

ثم ان من الذين عانوا في سد هذا الفراغ وبذلوا جهوداً واسعة في سبيله العلامة الحجة المحقق الاخ الشيخ جعفر السبحاني ادام الله تأييده .

فقد سلك هذا الطريق وكشف حقايق قيّمة فشكر الله مساعيه ووفقه لادامة هذا المشروع .

فقد اختار من بين الموضوعات اولا مايتصل بالله سبحانه وصفاته وافعاله والنبوات العامة والخاصة فلاجل ذلك قام بطرح مباحث التوحيد في الجزء الاول في اثنى عشر فصلا على وجه بديع .

ولقد اعجبني من هذه الفصول الفصل المعقود لتفسير التوحيد في العبادة ، ومايتميز به مايشبه العبادة عن غيره فقد اعتمد في هذا المبحث على ضابطة قيّمة استنبطها من الذكر الحكيم .

ولما انتهى بحثه في هذا الجزء الى قسم خاص من التوحيد وهو «**التوحيد في الحاكمية**» وان الحكم حق مختص بالله سبحانه ، لاينـاله غيره الا باذنه ، جعل مدار البحث في الجزء الثاني **معالم الحكومة الاسلامية** باسلوب رائق وطريقة جديدة في نوعه ، الى غير ذلك ممـا يراه القارىء في اجزاء هذا الكتاب القيّم من الموضوعات الهامة .

اضف الى ذلك كله ان الكتاب يشتمل على مزايا اخرى قيّمة في ذاتها

منهاالصراحة فى البحث ، وطرح المباحث بقلم واضح بعيد عن التعقيد ، والايجاز المخل ، والاطناب الممل .

ومنها الحفاظ على المفاهيم الاسلامية من دون اى تحوير فيها وتغيير ، والتحرز عن المناهج المزيجة الملفقة ، التى تأخذ من الاسلام شيئاً ، ومن المناهج غير الاسلامية شيئاً آخر ، فتمزجهما و تقدم المجموع الملفق باسم الاسلام ، من المناهج التى لها الضرر الكثير على الاسلام واهله ، اعاذنا الله من شرورهذه الفكرة وخطورة هذه المناهج .

وقد مشى المؤلف فيما يمتّ الى هذه المباحث فى ضوء القرآن الكريم من دون اىّ خضوع للافكارالمادية او اخضاع المفاهيم الاسلامية لتلك المناهج فشكرالله سعيه ، وضاعف اجره وجزاه الله عن الاسلام واهله خيرالجزاء .

قم - الحوزة العلمية

ناصرمكارم الشيرازى

١٢ من شوال سنة ١٤٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المفاهيم القرآنية بين الجمود والتأويل

ان الذكر الحكيم يشتمل على معارف واصول كما يشتمل على احكام وفروع ، والغاية المتوخاة من المعارف والاصول ، هي تحصيل العلم والمعرفة اولا والاذعان والايمان ثانياً ، كما ان الهدف من تشريع الاحكام والفروع هو الدعوة الى العمل والتطبيق .

فلو كان شرف كل علم بشرف موضوعه ، فالعلم الاول ـ بما انه يبحث عن معرفة الله سبحانه ومعرفة اسماءه وصفاته وافعاله وما ينبغي له ومالاينبغي له ـ يكون هو الاشرف والفقه الاكبر ، كما ان العلم الثاني ـ بما انه يبحث عن حكمه سبحانه بما يتعلق بافعال العباد ـ يكون هو الفقه الاصغر . ولكل، ائمة وقادة فكريين ، و كثيراً مايكون الانسان اماماً في باب المعارف والعقائد ، وفي الوقت نفسه يكون غير رفيع المستوى في باب معرفة الاحكام ، و، بما يكون على العكس ، فالكل اذا تكلموا فيما احسنوا ، ارشدوا الى الطريق المهيع والحق المبين، فاذا نطقوا في غيره أتوا بماتندهش منه العقول ويقضي منه العجب(١) .

---

(١) قال اميرالمؤمنين على عليه السلام : «لوسكت من لايعلم لرفع الاختلاف » لاحظ درر الحكم للامدي .

فاللازم على رواد العلم حسب ما أمر به الرسول - تنزيل كل امرء منزلته(١) والاخذ عنهم فيما برعوا وفاقوا فيه ، وترك الاقتفاء والتبعية فيما لاحذق لهم فيه ولابراعة ، وهذا هو دأب الدين ، وهى السنة القرآنية التى أمر الله بها سبحانه حيث قال : « وأتوا البيوت من ابوابها » . (البقرة : ١٨٩)

وكذلك علم الحديث والسنة ، فربما يكون الرجل قدوة فى الحفظ ، عارفاً بمتون الاحاديث واسانيدها ، وليس له مقدرة علمية لتحليل مفادها والغور فى اعماقها فيكون ذلك من موارد قوله ﷺ : «نضر الله عبداً سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلّغها فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو افقه منه»(٢)

فليس كل من روى كلاماً للنبى ﷺ ، يقبل رأيه الذى رأى ، ولا كل من حفظ اللفظ ، كان اهلا لبيان كنه المعنى وما يستنبط منه ، بل لكل من الحفظ والنقد والتحليل رجال متخصصون ، ولكل فن اهل وارباب ، فمن خاض فى علم بلا كفاءة كان خطأوه اكثر من صوابه و« كان ما يفسده اكثر مما يصلحه»

هذا هو الاصل الذى دعى اليه القرآن ، واستقرت عليه سيرة العقلاء ، ولكن الغفلة عن هذا الاصل فى بدايات القرون الهجرية الاولى ، احدثت تخبطاً فى الاوساط الاسلامية فنجمت بين المسلمين بدع يهودية وآراء مسيحية من القول بالتشبيه واثبات المحل لله تعالى والجهة له سبحانه فوصف البارى المنزه عن كل نقص ، بالجلوس والنزول الى الارض ، واثبتت له الاجزاء والاعضاء كالوجه والعين واليد والرجل ونسب اليه الاستعلاء الحسى على العرش ، وكان السبب لهذا التخبط أمران :

اولا : الاغترار بما وضعه اعداء الاسلام من الاحبار والرهبان الذين تظاهروا بالايمان واضمروا الكفر تنفيذاً لحقدهم وعدائهم ، ويقف القارى على نماذج

---

(١) روى مسلم فى صحيحه ج١ ص٥ عن عائشة ان رسول الله (ص) امرنا ان ننزل الناس منازلهم .

(٢) سنن الترمذى ج٥ كتاب العلم الباب٧، الحديث٢٦٥٧ مسند احمد ج٢ ص٢٢٥

كثيرة من هذه الاسرائيليات فيما روى عن كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الملك بن جريج ، ومن شاكلهم من المتأسلمين لا المسلمين الحقيقيين .

ثانياً : الجمود على ظواهر بعض الايات والاحاديث من دون تعمق في اغوارها ولا تفحص في مفاهيمها واعماقها حتى عاد التفكر في مفاد الاية والحديث تأويلا بغيضاً ، فعند ذاك هاجت بحار الفتن وتلاطمت امواجها بالبدع المهلكة ، فسمّى التفكر في القرآن والتدبر في كلمات الرسول « كفراً » و « زندقة » ، وعد اقصاء العقل وعزله عن القضاء في المعارف والاصول « قداسة » و « نزاهة » ! ! !

ففي هذه الظروف و الاحوال قامت قيامة تأسيس المناهج ونجمت فرق كثيرة كل يدعي الانتساب الى الوحي والسنة .

وكل يدعي وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

واليك تسمية بعض هذه الفرق وبيان رؤوسها :

١ ـ مبتدعة السلف :

وهم المغترون بكل حديث وقعت أعينهم عليه ، فجمعوا في حقائبهم كل رطب ويابس، وأخذوا بالظواهر وتركوا الاستعانة بالقرائن ، وسموا كل بحث من اى أصل من الاصول والمعارف «تأويلا» و« خروجاً عن الدين » ، وكبحوا العقل بتهمة الزندقة ، واستراحوا لما رووا عن ائمتهم من ذم علم الكلام ، فوصفوا الجمال المطلق والكمال اللامتناهي بالمحل والجسم والنزول والصعود ، وخرقوا له كثيراً من الاشباه والنظائر .

ترى كثيراً من هذه الاحاديث في مرويات حماد بن سلمة ونعيم بن حماد ومقاتل بن سليمان ومن لف لفهم ، ففي مروياتهم تلك الاثار المشينة ، وقد قلدهم كثير من البسطاء في القرون المتأخرة ، فحسبوها حقائق راهنة وألفوا فيها الكتب.

وعلى هذا الاساس الف كتاب التوحيد لمحمد بن اسحاق بن خزيمة المتوفى عام ٣٢١ و كتاب السنة لعبدالله بن احمد بن حنبل، و كتاب النقض لعثمان بن سعيد الدارمي السجزي المجسم فانه اول من اجترأ من المجسمة بالقول : «بان

الله لوشاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته فكيف على عرش بعيد » (١)

ولقد عزب عن هؤلاء المساكين ان التفكر فى آى الذكر الحكيم والغور فى اعماقها مما أمر به منزّله سبحانه حيث قال « كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته» (ص : ٢٩) . وليس صرف آيات الاستواء على العرش والوجه واليد والعين وماشابهها، عن الظاهر المتبادر من مفرداتها، الى ماهو المتبادر عند ائمة البلاغة، تأويلا وخروجاً عن ظاهر الكلام . اذ للكلمة بمفردها حكم ، وللجملة المتكوّنة من بعض الكلمات حكم آخر .

وان كنت فى ريب من هذا فلاحظ لفظ الاسد بمفرده ، ونفس اللفظ فى قول القائل : « رأيت أسداً يرمى» ، فحملها فى الجملة الثانية على الحيوان المفترس صرف لظاهر الكلام بلادليل ، وتأويل بلامسوّغ .

وبهذا يظهر ان الصفات الخبرية الواردة فى القرآن كالوجه وغيره لها حكم عند الافراد ولها حكم آخر اذا ما جاءت فى ضمن الجمل فلايصح حملها على المعانى اللغوية اذا كانت هناك قرائن صارفة عنها فاذا قال سبحانه : « ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً» (الاسراء :٢٩) فيحمل على ماهو المتبادر من الآية عند العرف العام اعنى الاسراف والتقتير فبسط اليد كناية عن الانفاق بلاشرط كما ان جعل اليد مغلولة الى العنق كناية عن البخل والتقتير، ولايعنى به بسط اليد بمعنى مدها، ولاغلّ اليد الى العنق بمعنى شدها اليه .

و على هذا يجب ان يفسر قوله سبحانه : « الرحمن على العرش استوى» (طه - ٥) فالعرش فى اللغة هو السرير و الاستواء عليه هو الجلوس غير ان هذا حكم مفرداتها ، واما معنى الجملة فيتفرع الاستظهار منها ، على القرائن الحافة بها ، فالعرب الاقحاح لايفهمون منها سوى العلو والاستيلاء وحملها على غير ذلك يعد تصرفاً فى الظاهر ، وتأويلا لها فاذا سمع العرب قول القائل :

---

(١) لاحظ مقدمة الشيخ محمد زاهد الكوثرى على كتاب الاسماء و لصفات للبيهقى

قد استوى بشر على العراق من غيرسيف ودم مهراق

اوسمع قول الشاعر :

ولما علونا واستوينا عليهم تركناهم مرعى لنسر وكاسر

فلايتبادر الى اذهانهم سوى العلووالسيطرة والسلطة لاالعلوالمكانى الذى يعد كمالا للجسم واين هومن العلو المعنوى الذى هو كمال الذات .

وقد جاء استعمال لفظ الاستواء على العرش فى سبع آيات مقترناً بذكر فعل من افعاله وهو رفع السموات بغير عمد اوخلق السموات والارض ومابينهما فى ستة أيام فكان ذاك قرينة على ان المراد منه ليس هوالاستواء المكانى بل الاستيلاء والسيطرة على العالم كله، فكما لاشريك له فى الخلق والايجاد لاشريك له ايضاً فى الملك والسلطة، ولاجل ذلك يقول فى بعض هذه الآيات «الاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين» . (الاعراف ـ ٥٤)

فالتأويل بلاقيدوشرط، اذاكان ضلالا كما سيوافيك بيانه، فكذلك الجمود على ظهور المفردات وترك التفكر والتعمق ايضاً ابتداع مفض الى صريح الكفر فلو حمل القارىء قوله سبحانه «ليس كمثله شيىء» (الشورى : ١٣) على ان لله مثلاوليس لهذا المثل مثل. . . اذن يقع فى مغبّة الشرك وحبائله وقد نقل الرازى فى تفسيره لهذه الاية كلاماً عن ابن خزيمة فراجعه (١) .

وما احسن قول ابن العربى فى هؤلاء المجسمة المشبهة :

قالوا الظواهر اصل لايجوز لنا عنها العدول الى رأى ولانظر
بينوا عن الخلق لستم منهم ابداً ما للانام و معلوف من البقر

وهؤلاء سلف المشبهة وائمة المجسمة ، وقد اغتر بقولهم جماعة من البسطاء المحدثين الى ان طلع امام الاشاعرة فادعى فى الفترات الاخيرة من حياته انه

(١) مفاتيح الغيب ج ٨ ص ٣٨٨ .

تاب من الاعتزال وصار من شيعة منهج احمد بن حنبل وان مذهبه لايفترق عنه قيد شعرة، فقام بتعديله واصلاحه بشكل خاص خال عما يناقض عقول الناس الافيما شذ وندر. وليس مذهب الاشعرى الاصورة معدلة من مذهب الحنابلة وأهل الحديث كما سيوافيك فصار القول بالتشبيه والتجسيم الصريح متروكاً بعده الى قرون

ولكن العجب ان هذه البدع بعد اخمادها، اخذت تنتعش فى اوائل القرن الثامن بيد احمد بن عبدالحليم بن تيمية الحرانى المتوفى عام ٧٢٨ هـ فجدد ما اندرس من آثار تلك الطائفة المشبهة، وقد وصفه السبكى فى السيف الصقيل «بانه رجل جسور يقول بقيام الحوادث بذات الرب»، ولكنه يقول بأنكر من ذلك، وقد أتى بنفس ماذكره الدارمى المجسم فى كتابه «غوث العباد» المطبوع بمصر عام ١٣٥١ هـ فى مطبعة الحلبى.

وعلى ذلك فابن تيمية أذن امام المدافعين عن بيضة أهل التشبيه وشيخ اسلام أهل التجسيم ممن سبقه من الكرامية وجهلة المحدثين، الذين اهتموا بالحفظ المجرد، وعفلوا عن الفهم والتفكير، ولاجل ذلك نرى ان الشيخ الحرانى يرمى المفكرين من المسلمين كامام الحرمين والغزالى فى كتابيه (منهاج السنة و الموافقة المطبوع على هامش الاول)، بانهما أشد كفراً من اليهود والنصارى. مع انه (اى ابن تيمية) يعتنق عقائد يخالف جمهرة المسلمين وائمة اهل البيت عليهم السلام.

معطلة السلفية:

وهذه الزمرة من السلفية وان كانت بريئة مما ذهبت اليه المجسمة فهم لايقتفون اثر الظواهر، بل يصرفونها عما يتبادر منها فى بادىء النظر، الاانهم لايخوضون فى المراد منها حذراً مما يسمى بـ «وصمة التاؤيل».

فعقيدة هؤلاء فى الصفات الخبرية ان لله سبحانه يداً وعيناً واستواءاً على العرش، لكن لانعلم كنهها. و فى مقدم هؤلاء مالك ابن أنس، وقد سأل عن

معنى قوله سبحانه «الرحمن على العرش استوى» انه كيف استوى ؟ فقال فى جواب السائل : ماأظنك الاصاحب بدعة ، فالاستواء مذكور، والكيف مجهول، والايمان به واجب . وفى رواية «والكيف غير معقول» .

فلو صحت نسبة هذا الكلام الى امام المالكية فهو بلاشك من المعطلة، خصوصاً اذا كانت الرواية على قوله : «الكيف مجهول» ، فهو يعتقد ان لله سبحانه جلوساً على العرش ، لكن مجهولا كنهه اومحالا دركه، فيجب الايمان به لاالسؤال عن حقيقته فيتوجه السؤال الى امام المذهب المالكى انه لماذا هجم على السائل بقوله ماأظنك الاصاحب بدعة ! مع ان وظيفة العالم ارشاد الجاهل لاالهجوم عليه بكلمة لاذعة ، كماانه يتوجه اليه، أن الآية ونظائرها تصبح عندذاك من الالغاز التى لايفهم معناها بل يجب الايمان بها ، ومع ذلك كله فقد راج هذا المذهب بعد مارجع الامام الاشعرى من مذهب الاعتزال الى مذهب المحدثين وفى مقدمهم احمد بن حنبل ، يقول ابن خلكان : كان ابوالحسن الاشعرى اولا معتزلياً ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن فى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ورقى كرسياً ونادى باعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفن فانا اعرفه بنفسى انا فلان بن فلان كنت اقول بخلق القرآن وان الله لاتراه الابصار وان افعال الشر انا افعلها وانا تائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم (١) .

فغـايه ما عند الامام الاشعرى و اتباعه ان لله سبحانه صفات خبرية مثل اليدين والوجه ولكن لا نعرف كنه اللفظ الوارد فيه ولسنـا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الايات وتأويلها ، بل التكليف قدورد بالاعتقاد بانه لاشريك له وليس كمثله شيىء ، وذلك قد اثبتناه يقيناً (٢) .

وهذه الطائفة قد خرجت مـن مغبة التشبيه والتجسيم غيرانهم تورطوا فى اشراك التعطيل وحبائله فعطلوا العقول عن التفكر فى المعارف والاصول كماعطلوها

(١) وفيات الاعيان ج٣ ص ٢٨٥

(٢) الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص ٩٢ .

عن التدبير في الآيات والاحاديث فكأن القرآن الغاز نزل الى البشر وليس كتاباً للتعليم والارشاد قال تعالى : «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء» (النحل:٨٩) فاذا كان القرآن مبيناً لكل شيء فكيف لايكون مبيناً لنفسه و كيف يكون المطلوب منه نفس الاعتقاد من دون فهم معناه. وفي الختام نشير الى عدة أمور :

١- ان القوم يطلقون عنوان « المعطلة » على القائلين بوحدة الذات و الصفات بمعنى ان صفاته سبحانه عين ذاته لاشيء زائد عليه وان الذات كلها علم و كلها قدرة ، و كلها حياة، وليست هذه الصفات اموراً زائدة على نفس الذات .

والقوم لمالم يصلوا الى مغزى تلك العقيدة رموا القائلين بها بالتعطيل اى (تعطيل الذات عن الاتصاف بالصفات) وهم برآء عن هذه التهمة اذ لم يعطلوها عن الاتصاف بها، بل نزهوا الذات عن الاتصاف بالصفات الزائدة ، فكم فرق بين تعطيل الذات عن الصفات وبين تنزيهه عن الصفات الزائدة . فتوصيفهم بالتعطيل ظلم واضح بل المعطلة حقيقةهم الذين عطلوا العقول عن البحث حول المعارف واكتفوا بالايمان المجرد الخالي عن التعمق والتفهم .

٢- انمعطلة السلف كانوا يحرمون النظر في المعارف بحجة ان النبي ﷺ قال: عليكم بدين العجائز، فانه الفائز. غير ان هذا النص لم يوجد في صحاح القوم. ولا في مسانيدهم ، بل الصحيح ما روى ان « عمرو بن عبيد » لم اثبت منزلة بين الكفر والايمان فقالت عجوزة : « قال الله تعالى : هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، فلم يجعل الله من عباده الا الكافر و المؤمن » فقال سفيان : عليكم بدين العجائز .

واقصى مايمكن ان يقال ان الرواية صدرت من النبي ﷺ عند ما استدلت العجوزة على وجود الصانع بحركة دولابها و كف اليد عن تحريكها على ما هو معروف فاستدلت بحركة الاجرام السماوية على ان لها محركاً كما ان لحركة دولابها محركا ، واين هذا من تعطيل العقول عن المعارف .

٣- ثم ان تعطيل العقول عن البحث والمعرفة اخذ في هذه الاعصار صبغة

علمية مادية بحتة بحجة ان مبادئها ومقدماتها ليست في متناول الباحثين لانها موضوعات وراء الحس والطبيعة ولاتعمل فيها حواس الانسان، فهذا هو السيد الندوى يتمسك بهذا الوجه و يعدّ ترك البحث فضيلة، و البحث عن المعارف القرانية كفراناً للنعمة.

يقول: «وقد كان الانبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله و صفاته و أفعاله، وعن بداية هذا العالم ومصيره، ومايهجم عليه الانسان بعد موته، وآتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب، و كفوهم مؤونة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مبادئها ولامقدماتها التي يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا الى مجهول، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة، لاتعمل فيهما حواسهم، ولايؤدى اليها نظرهم، وليست عندهم معلوماتها الأولية».

«لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعاً، وأبدوا البحث أنفاً وبدأوا رحلتهم في مناطق مجهولة لايجدون فيها مرشداً ولاخريتا» (١).

ان الكاتب حسب ماتوحى عبارته متأثر بالفلسفة المادية التي تحصر ادوات المعرفة بالحس ولايقيم وزناً للعقل الذى، هو احدى ادواتها. وهذا من الكاتب امر عجيب جداً، فان الله سبحانه كما دعا الى الانتفاع بالحس ومطالعة الطبيعة و كشف قوانينها وانظمتها دعى الى التعقل والتفكر في كل ماورد في القرآن الكريم حيث قال: افلايتد برون القرآن، ام على قلوب اقفالها (محمد: ٢٣)

وليست الآية ناظرة الى التدبر في خصوص الانظمة السائدة على النبات و الحيوان والانسان، بل التدبر في مجموع ماجاء في القرآن، فقد جاء في القرآن الكريم معارف دعى الى التدبر فيه نظير:

«ليس كمثله شيء». «ولله المثل الاعلى». «له الاسماء الحسنى».

«الملك القدس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر».

«اينما تولوا فثم وجه الله».

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٩٧.

هوالاول والاخر والظاهر والباطن وهوبكل شيء عليم .

وان من شيء الاعندنا خزائنه وماننزله الابقدرمعلوم وهومعكم اينما كنتم يمحوالله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب .

الى غير ذلك من المعارف العليا الواردة فى القرآن الكريم ولايحصل اليها الانسان الابالتدبر والتعقل ولايكفى فى التعرف عليها العلوم الحسية وان بلغت القمة .

ثم ان لصدر المتألهين كلاماً حول هذه الطائفة طوينا عن ذكره الكلام كما ان للسيد العلامة الطباطبائى كلاماً قيماً آخر تركنا ذكره روماً للاختصار(١) .

٤ - ان العقيدة الاشعرية هى عقيدة حنبلية معدلة ، وقدتصرفت فى جميع ما كان غير معقول فى العقيدة الاولى فلاجل ذلك حلّت محل ذلك المذهب بعد اضطرابات واشتباكات بين معدل المذهب واتباع العقائد الحنبلية .

وقد توفق الرجل فى تعديل المذهب واول منه ما يناقض العقول ومع ذلك كله أبقى من المذهب الحنبلى اموراً على وجهها ولم يقدر على تأويلها وهى عبارة عن مسألة قدم القرآن اولا ، ورؤية الله سبحانه ثانياً ، والقول بالقضاء والقدر على وجه يجعل الانسان مكتوف الايدى ، فلو اغمضنا عن هذه المسائل الثلاث فقد توفق الامام الاشعرى فى اصلاح العقائد الحنبلية بعد ثبوتها فى نفوس الناس وانتشارها فى العالم:

المؤولة :

ان المؤولة من الباطنية ليسوا بأقل خطراً من اصحاب الجمود فقد وضعوا لتفسير المفاهيم الاسلامية ضابطة باطلة لايوافقها العقل ولادل عليها من الشرع شيء قالوا :

للقرآن ظاهر و باطن والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة ، ونسبة الباطن الى الظاهر كنسبة اللب الى القشر وان باطنه يؤدى الى ترك العمل بظاهره واستدلوا على ذلك بقوله سبحانه : «فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه

(١) لاحظ الاسفار الاربعة ج ١ ص ٥ - والميزان ج ٨ ص ١٥٧ .

الرحمة وظاهره من قبله العذاب» (١) .

فاذا كانت تلك الضابطة فى فهم الشريعة والعمل بالقرآن صحيحة ، اذن اصبحت الشريعة غرضاً لكل نابل، وفريسة لكل آكل فلا يبقى منها شيء ، وفى هذه الحالة يدعى كل مؤول ان الحق معه وان المراد ما اختاره من التأويل على الرغم من اختلاف تأويلاتهم . انظر الى مايقولون حول المفاهيم الاسلامية وانهم كيف يتلاعبون بها فالصلاة عبارة عن الناطق الذى هو الرسول لقوله سبحانه : «ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» .

والغسل عبارة عن تجديد العهد ممن افشى سراً من اسرار الباطنية من غير قصد ، والاحتلام عبارة عن افشائه، والزكاة هى تزكية النفس بمعرفة ماهم عليه من الدين ، والجنة راحة الابدان من التكاليف ، مشقتها بمزاولتها (٢) .

فاذا كان ما ذكروه حقيقة الدين والتكاليف فلم يبق بين الديانة والالحاد حد ولا فصل. هذه نماذج من تأويلات الباطنية وقد ظهرت بوادر هذه الفتنة ونبتت نواتها زمن المأمون العباسى الى ان صاروا طائفة كبيرة حاقدة على الاسلام والمسلمين ومحاربة لهم بغير السيف والنار بل عن طريق الاحتيال الموصل لهم الى مآربهم واهوائهم

ويليهم فى التخريب والاضرار التصوف الذى جاء به ابن العربى شيخ هذه الطريقة فقد قام بتأويل المفاهيم القرآنية على وجه لادليل عليه فيقول ان جبرائيل هو العقل الفعال ومكائيل هو روح الفلك السادس ، واسرافيل هو روح الفلك الرابع ، وعزرائيل هو روح الفلك السابع (٣) ، كما يفسره قوله سبحانه : « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لايبغيان » ان مرج البحرين هو بحر الهيولى الجسمانية الذى ، هو الملح الاجاج، وبحر الروح المجرد ، وهو العذاب الفرات يلتقيان فى الموجود الانسانى ، و ان بين الهيولى الجسمانية والروح المجرد ، برزخ، هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها

(١) الفرق بين الفرق ص١٨ (٢) المواقف ج٨ ص٣٩٠
(٣) تفسير ابن العربى ج١ ص١٥٠

ولافى كثرة الاجساد الهيولانية وكثافتها .

ولكن مع ذلك لايبغيان اى لايتجاوز احدهما حده فيغلب على الأخر بخاصيته فلا الروح المجردة ، تجرد البدن وتخرج به وتجعله من جنسه ، ولا البدن يجسد الروح ويجعله مادياً . (١)

تجد نظائرهذا الغرارفى كتبه كالفتوحات المكية والفصوص فيطبق كثيراً من الآيات القرآنية على كثير من نظرياته الصوفية وقدمنى الاسلام باهل اصحاب الجمود فى القرون الاولى وحتى الأن ، كما منى بالمؤولة من الباطنية والمتصوفة من اوائل القرن الثالث حتى الان .

التأويل باسم التفسير العلمى :

غير ان التأويل قد اتخذ فى العصر الحاضرلونا خاصاً واسماً فخماً ، يطلق عليه التفسير العلمى فالغاية عند هذه الطبقة ، اخضاع القرآن على المكتشفات العصرية فيمايتعلق بالاجرام السماوية والارضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية ، وقد ظهرت هذه النزعة فى اواخر القرن الثالث عشر الهجرى وألّفت هناك كتب ابسطها كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوى جوهرى المصرى .

لكن التفسير بهذا النمط ، انما يستحسن اذا وافق ظاهر الآية ، غير ان المؤلفين فى هذا القسم لايكتفون بذلك بل يفسرون القرآن لغاية اخضاعه على المكتشفات ، ترى أنهم يفسرون قوله سبحانه : « وأرسل عليهم طيراً أبابيل » بالميكروب ، وقد ناقشنا هذا اللون من التفسير فى بعض مسفوراتنا .

التأويل الالحادى :

هذا النوع من التأويل منى به الاسلام من زمن بعيد غير أنه أخذ فى هذه الاعصار صبغة علمية تخدع عقول الشباب ، والحافز الى هذا النوع من التأويل

(١) المصدر نفسه ج٢ ص ٢٨٠

هواخضاع المفاهيم الغيبية على الامور الحسية المادية ، ونأتى بنماذج من هذا النوع حتى يقف القارىء الكريم على ان هذا النوع من التأويل فى العصر الحاضر ، والتأويل عند الباطنية فى الاعصار السالفة، وجهان لعملة واحدة .

١ـ انه سبحانه عندما يعدّ معاجز عيسى وآياته يقول: «قد جئتكم بآية من ربكم انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وابرىء الاكمه والابرص وأحيى الموتى وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين» (آل عمران ـ ٤٩) فاصحاب تلك المدرسة يزعمون انه تمثيل لاخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته الى خفة العلم ونوره ، وان المراد من «الاكمه» من ليس عند نظر ، كما ان المراد من « الابرص » المتلون بما يشوه الفطرة . (١) .

فاذا كان هذا هو المقياس فى تفسير القرآن الكريم فهو تفسير للقرآن على عمى فلا تراعى فيه اللغة ولا قوانين الادب ولا قوانين البلاغة ولا السنة الصحيحة ولا . . . ولا . .

وعلى هذا الاساس عاد الكاتب ينكر ان يكون ابراهيم قد ألقى فى النار وخرج منها سالماً (٢) كما ينكر معاجز داود وسليمان وينكر الملائكة والجن والشيطان (٣) ، الى غير ذلك من التأويلات المزيفة التى تساير الروح الالحادية .

والعجب ان علامة مصر الشيخ عبده شيخ الازهر الذى كان يترجى منه الحفاظ على المفاهيم الاصيلة، تورط فى هذا المأزق ففسر الملائكة وابليس تفسيراً مادياً بعيداً عن ساحته (٤) .

كما ان موقفه فى تفسير السحر كذلك ايضاً ، حيث يفسر قوله سبحانه : «ومن شر النفاثات فى العقد» بالنمامون المقطعون لروابط الالفة، المحرقون لها بما

(١) الهداية والعرفان فى تفسير القرآن ص٤٥

(٢) ، (٣) لاحظ المصدر نفسه ص ٧، ٢٥٦ ، ٣٥٧

(٤) لاحظ المنار ج١ ص٢٦٧

يلقون عليها من ضرام نمائمهم (١).

وقد تأثر بهذا المنهج تلميذة الشيخ محمد رشيد رضا، فعاد ينكر ان يكون للنبي معجزة غير القرآن الكريم، ويقول في جواب المحتجين بانشقاق القمر: قد بينا ان ما تدل عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته في القرآن، هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شيء (٢).

فاذا كان شيخ الازهر (عبده) وتلميذه سائرين على هذا النمط من التأويل فما الظن بغيرهما من البسطاء.

اذا كان رب البيت بالدف مولعاً　　فشيمة اهل البيت كلهم الطرب

ولقد كان المفسر المعاصر سيد قطب يميل الى هذا النوع من التأويل ولكنه عند ما وصل الى تفسير سورة الجن تنبه الى ان في هذا اللون من التأويل ضرراً وبيلا وقال: الجزم بنفي وجود الجن، و معلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح بانسان يحترم عقله ان يجزم بشيء.

ان طريقتنا هو ابطال الخرافات والاساطير كما صنع القرآن الكريم لا التبجح بنفي وجود هذا الخلق من الاساس بلا حجة ولا دليل (٣).

وهذه المناهج المنحرفة مما لا يوافق عليها العقل ولا الكتاب العزيز ولا السنة النبوية ولا احاديث العترة الطاهرة، فلا مناص من الحفاظ على المعارف الغيبية والتعمق فيها، مجانباً من الجمود على الظواهر، والتأويل بلا دليل وحجة، وهذا هو الذي سلكنا عليه في فهم كتاب الله واستخراج معارفه ارجو سبحانه ان يجعله ضياءاً ونوراً يسعى بين ايدينا في يوم القيامة انه بذلك قدير وبالاجابة جدير.

قم - جعفر السبحاني

١٥ شوال المكرم ١٤٠٧

---

(٢) تفسير جزء عم ص١٨١

(٢) تفسير المنار ج١١ ص٣٣٣. والوحي المحمدي ص٦٩

(٣) في ظلال القرآن الكريم ج٢٩ ص١٤٠

١

عصمة الانبياء

وما تمسكت به المخطئة من الايات :

فى هذا الفصل :

١ ـ عصمة آدم والشجرة المنهى عنها ، وجعل الشريك لله .

٢ ـ عصمة شيخ الانبياء : نوح والمطالبة بنجاة ابنه العاصى .

٣ ـ عصمة ابراهيم الخليل ، وقوله للنجم : هذا ربى ، ومسألة نسبة تحطيم الاصنام الى كبيرها ، وقوله لقومه : انى سقيم .

٤ ـ عصمة يوسف ، وقول الله : «وهمّ بها» .

٥ ـ عصمة موسى ، وقتل القبطى ، ومشاجرته مع اخيه هارون .

٦ ـ عصمة داود وقصة قضائه فى النعجة .

٧ ـ عصمة سليمان ومسألة عرض الصافنات وطلبه الملك .

٨ ـ عصمة أيوب ومسألة مس الشيطان له بنصب وعذاب.

٩ ـ عصمة يونس وتركه قومه وذهابه مغضباً

١٠ ـ عصمة النبى الاكرم خصوصاً وما تمسكت به المخطئة من الايات الخمس

١١ ـ عصمة النبى الاكرم من الخطأ والسهو .

١٢ ـ دين النبى الاعظم قبل البعثة والايات الخمس التى تمسكت بها المخطّئة فى ذلك المجال .

١

عصمة آدم والشجرة المنهى عنها

ان المخطئة لعصمة الانبياء (فى غير مجال تلقى الوحى) تمسكت بطائفتين من الآيات :

الاولى : ما يمس ظاهرها عصمة جميع الانبياء .

الثانية : ما يمس ظاهرها عصمة عدة خاصة منهم كآدم ونوح . . .

وقد فرغنا عن البحث حول الطائفة الاولى من الايات فى الجزء السابق ، وحان حين البحث حول الطائفة الثانية منها

وقد طرحنا فى هذا الجزء ابرز الايات التى وقعت ذريعة بايدى المخطّئة فى مجال نفى العصمة عن عدة معينة من الانبياء وراعينا الترتيب التاريخى لهم ، فنقدم البحث عن عصمة آدم على البحث عن عصمة نوح وهكذا .

ان حديث الشجرة المنهى عنها هو اقوى ما تمسك به المخالفون للعصمة، المجوزون صدور المعصية من الرسل والانبياء ويعد ذلك فى منطقهم « كبيت القصيدة» فى ذلك المجال ولاجل ذلك ينبغى التوسع فى البحث واستقصاء ما يمكن ان يقع ذريعة فى يد المخالف فنقول :

ان حديث الشجرة ورد على وجه التفصيل فى سور ثلاث نذكر منها ما يتعلق بمورد البحث قال سبحانه : «وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة و كلا منها رغداً حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فازلهما الشيطان عنها

فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم» (البقرة - ٣٥ - ٣٧).

ويقول سبحانه: «ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال مانهيكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين اوتكونا من الخالدين. وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين. فدليهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناديهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة و أقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين» (الاعراف ١٩-٢٤)

فانت ترى انه سبحانه يتوسع فى بيان القصة فى هذه السورة، بينما هو يختصر فى بيانها فى السورة السابقة و وجه ذلك ان سورة الاعراف مكية و سورة البقرة مدنية ولما توسع فى البيان فى السورة المتقدمة أوجز فى السورة اللاحقة ولم يفصّل.

ويقول سبحانه: «ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما. واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى. فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى. وانك لا تظمؤا فيها ولا تضحى. فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى. فاكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى» (طه - ١١٥ - ١٢٣).

هذه السور الثلاث قد احتوت على مهمات هذه القصة فينبغى علينا توضيح ماورد فيها من الجمل والكلمات التى تعتبر مثاراً للتساؤلات الآتية:

التساؤلات حول الايات :

ان التساؤلات المطروحة حول الايات هي عبارة عن :

١ ـ ماهى نوعية النهى فى قوله «لاتقربا» ؟

٢ ـ ماهو المراد من وسوسة الشيطان لآدم وزوجته ؟

٣ ـ ماذا يراد من قوله فازلهما الشيطان ؟

٤ ـ ما ذا يراد من قوله « فعصى آدم ربه فغوى » فهل العصيان و الغواية بلازمان المعصية المصطلحة ؟

٥ ـ ما معنى اعتراف آدم بظلمه لنفسه فى قوله «ربنا ظلمنا انفسنا» .

٦ ـ ماذا يراد من قوله سبحانه «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه» فهل التوبة دليل العصيان ؟

٧ ـ ما معنى قوله «وان لم تغفر لنا وترحمنا» ؟

فلنرجع الى الاجابة على هذه الاسئلة واحداً بعد واحد وعند ختام البحث يقف القارىء على ان آدم ابا البشر كان نزيهاً عما الصق به من المخالفة للتكليف الالهى الالزامى المولوى الموجب للعقوبة .

ماهى نوعية النهى فى «لاتقربا» ؟

ان النهى ينقسم الى قسمين : مولوى و ارشادى و الفرق بين القسمين بعد اشتراكهما غالباً فى ان كلا منهما صادر عن آمر عال الى من هو دونه ، هو ان الآمر قد ينطلق فى امره ونهيه من موقع المولوية والسلطة متخذاً لنفسه موقف الآمر، الواجبة اطاعته ، فيأمر بما يجب ان يطاع كما انه ينهى عما يجب ان يجتنب فعند ذلك يترتب الثواب على الطاعة ، والعقاب على المخالفة وهذا هو شأن اكثر الاوامر والنواهى الواردة فى الكتاب والسنة .

وقد ينطلق فى ذلك من موقع النصح والارشاد ، والعظة والهداية من دون

ان يتخذ لنفسه موقف الآمر ، الواجبة طاعته بل يتخذ لنفسه موقف الناصح المشفق، القاصد لاسعاد المخاطب و انجائه من الشقاء ، و عند ذلك يترك انتخاب احد الجانبين للمخاطب ، مذكّراً له ما يترتب على نفس العمل من آثار خاصة من دون ان تترتب على ذات المخالفة اية تبعة .

وان شئت قلت : ان نفس العمل والفعل ذو آثار طبيعية ومضاعفات تترتب عليه فى كل حين وزمان ، من دون فرق بين فاعل وآخر فيذكر المولى العالم بعواقب الاعمال و آثار الافعال، بما يترتب على ذات العمل من سعادة وشقاء فيجعل المخاطب فى موقف العالم بآثار الشيء ويترك اختيار احد الطرفين اليه، حتى يكون هو المختار فى العمل فان اتبع نصحه وارشاده فقد نجا عما يترتب على العمل من الهلاك والخسران، وان خالفه تصيبه المضاعفات التى تكمن فى ذات العمل .

ولتوضيح ذلك نأتى بمثال :

ان الطبيب اذا وصف دواء لمريض وامره بتناول ذلك الدواء و الاجتناب عن امور اخرى ، فلو قام المريض بالطاعة والامتثال ، تترتب عليه الصحة والعافية وان خالف امر الطبيب لم يترتب على تلك المخالفة سوى المضاعفات المترتبة على نفس العمل وذلك لان الطبيب لم يكتب له تلك الوصفة الا بما انه طبيب ناصح ومعالج مشفق .

ومثل ذلك ما اذا قال سبحانه « اطيعوا الله واطيعوا الرسول » بعد ما امر الناس بواجبات ونهى عن امور فلو خالف المكلف وترك الواجب كالصلاة والصوم وارتكب المنهيات كالكذب والغيبة فقد خالف عند ئذ امرين:

١ ـ الامر بالصلاة والصوم .

٢ ـ الامر باطاعة الله ورسوله .

فلا يترتب على تينك المخالفتين سوى عقاب واحد لاعقابين و ذلك لان الامر الثانى لم يكن امراً مولويا بل كان امراً ارشادياً لايترتب على مخالفته

سوى مايترتب على مخالفة الامر الاول، وذلك لان المفروض ان الآمر لم يتخذ لنفسه عند الامر باطاعة الله ورسوله، موقف الآمر، الواجب الطاعة، بل امر بلباس النصح والارشاد.

اذا عرفت ذلك فنقول: ان مخالفة النهى عن الشجرة انما تعد معصية بالمعنى المصطلح اذا كان النهى مولويا صادراً عنه سبحانه على وجه المولوية لا امراً ارشادياً وارداً بصورة النصح، والقرائن الموجودة فى الايات تشهد بانه ارشادى لايترتب على مخالفته، سوى مايترتب على ذات العمل من الآثار الوضعية والطبيعية لامولوى حتى يترتب عليه وراء تلك الاثار، عقاب المخالفة و مؤاخذة التمرد، واليك هذه القرائن:

١ ـ لو كان النهى عن الشجرة نهيا مولويا يجب ان يرتفع اثره بعد التوبة والانابة مع انا نرى ان الاثر المترتب على المخالفة بقى على حاله رغم توبة آدم وانابته الى الله سبحانه وهذا دليل على ان الخروج عن الجنة والتعرض للشقاء والتعب، كان اثراً طبيعياً لنفس العمل وكان النهى لغاية صيانة آدم عن هذه الآثار والعواقب كما اذا نهى الطبيب، المصاب بمرض السكر عن تناول المواد السكرية.

٢ ـ ان الآيات الواردة فى سورة «طه» تكشف النقاب عن نوعية هذا النهى وتصرح بان النهى كان نهيا ارشاديا لصيانة آدم عما يترتب عليه من الآثار المكروهة والعواقب غير المحمودة، قال سبحانه: ـ «فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى. وانك لا تظمؤا فيها ولا تضحى» (طه ١١٧ ـ ١١٩) فان قوله سبحانه «فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى» صريح فى ان اثر امتثال النهى هو البقاء فى الجنة ونيل السعادة التى تتمثل فى قوله: «ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى. وانك لا تظمؤا فيها ولا تضحى» وان اثر المخالفة هو الخروج من الجنة والتعرض للشقاء الذى يتمثل فى الحياة التى فيها الجوع والعرى والظمأ وحر الشمس. كل ذلك يدل على انه سبحانه لم يتخذ لدى النهى موقف الناهى، الواجبة طاعته بل كان ينهى بصورة الارشاد والنصح والهداية وانه لو خالفه لترتب عليه الشقاء فى الحياة والتعب فيها.

٣- انه سبحانه - بعد ما ذاق آدم وزوجته الشجرة وبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة - ناداهما : «الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين» (الاعراف - ٢٢).

فان هذا اللسان ، لسان الناصح المشفق الذى ارشد مخاطبه لمصالحه ومفاسده فى الحياة ولكنه خالفه ولم يسمع قوله فعندئذ يعود ويخاطبه بقوله : الم اقل لك . . . الم انهك عن هذا الامر؟

٤ - انه سبحانه يبين ان وسوسة الشيطان لهما لم يكن الا لابداء ما ووري عنهما من سوءاتهما حيث يقول: «فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما». (الاعراف - ٢٠)

وهذا يكشف عن ان ما يترتب على الوسوسة ومخالفة آدم بعدها لم يكن الا ابداء ما ووري عنهما من السوأة ، الذى هو اثر طبيعى للعمل من دون ان يكون له اثر آخر من ابتعاده عن لطفه سبحانه ، وحرمانه عن قربه ، الذى هو اثر المخالفة للخطابات المولوية .

٥- انه سبحانه يحكى ان وسوسة الشيطان لهما كانت بصورة النصح والارشاد حيث قال: «وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدليهما بغرور»-(الاعراف - ٢١) وهذا يكشف عن ان خطابه سبحانه اليهما كان بصورة النصح ايضاً وهذا واضح لمن له ادنى المام باساليب الكلام .

وهذه القرائن وغيرها الموجودة فى الآيات الواردة حول قصة آدم تدل بوضوح على ان النهى فى هذا المقام كان نهيا ارشاديا لامولويا وكان الهدف تبقية آدم بعيداً عن عوامل الشقاء والتعب ولكنه لم يسمع قول ناصحه فعرض نفسه للشقاء وصار مستحقا لان يخاطب بقوله سبحانه : «قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين» (الاعراف - ٢٤) وقال سبحانه ! «قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو» (طه-١٢٣).

اضف الى ذلك ان الظرف الذى تلقى فيه آدم هذا النهى ، (النهى عن الاكل

من الشجرة) لم يكن ظرف تكليف حتى تعد مخالفته عصياناً لمقتضاه فان ظرف التكليف هو المحيط الذى هبط اليه مع زوجته بعد رفض النصح، اما ذلك المحيط فكان معداً لتبصير الانسان باعدائه واصدقائه، ودورة تعليمية لمشاهدة نتائج الطاعة وآثار المخالفة اى ما يترتب على قبول قوله سبحانه من السعادة، ومايترتب على قبول قول ابليس من الشقاء وفى مثل ذلك المحيط لايعد النهى ولاالامر تكليفا بل يعد وسيلة للتبصير وتحصيل الاستعداد لتحمل التكاليف فى المستقبل وكانت تلك الدورة من الحياة دورة اعدادية لابى البشر وامهم حتى يلمس الحقائق لمس اليد. الى هنا تمت الاجابة عن السؤال الاول غيران هناك جواباً آخر ذكره اكثر المفسرين ونحن نأتى به بشكل موجز.

جواب آخر عن الاشكال :

ان اكثر المفسرين من العدلية اختاروا ان مخالفة آدم لم تكن الامخالفة لنهى مولوى غير الزامى وهو ما يعبر عنه بترك الاولى وترك الافضل واما اطلاق العصيان وغيره من الكلمات الموهمة فى المقام، فحاصل كلامهم فى ذلك، ان الذنب على قسمين ذنب مطلق وهو مخالفة الارادة القطعية الالزامية للمولى الحكيم من غير فرق بين انسان وانسان فمن خالفه يكون عاصياً سواء فيه العاكف والباد، وذنب نسبى وهو مايعد ذنباً وامراً غير صحيح بالنسبة الى شخص دون شخص وهو مايكون العمل بالذات مباحاً وجائزاً غير قبيح فى حد نفسه، غيران العرف والمجتمع يستقبح صدوره من شخص خاص ويعده امراً غير صحيح ومثاله مايلى :

ان المساعدة المالية القليلة ممن يمتلك الآلاف المؤلّفة وان كانت جائزة لكنها تثير اعتراض الناس على الفاعل مع انه لم يرتكب عملا قبيحاً بالذات .

كما ان اقامة الصلاة مع عدم تفرغ البال مبرئة للذمة ومسقطة للتكليف الا انه اذا اتى بها النبى بهذه الصورة يعد امراً غير لائق بمقامه وغير مترقب منه فوزان الاكل من الشجرة الممنوعة وزان صدور بعض الاعمال المباحة بالذات

من الشخصيات الكبيرة المحترمة .

ونزيد توضيحاً فى ذلك: اذا وقفنا على انه سبحانه اعزّ آدم بتعليمه الاسماء وجعله معلماً للملائكة ومسجوداً لهم وفى هذه الحالة طلب منه ان يترك الاكل من الشجرة المعينة، كان المترقب من مثله ان يتورع عن أية مخالفة مهما صغرت ومهما كان الامر والنهى غير الزاميين ولاجل ذلك يعد هذا العمل مع ملاحظة ماحفّه من الشرائط ، عصياناً محتاجاً الى التوبة .

جواب ثالث عن الاشكال :

وهاهنا جواب ثالث: وهو ان محور البحث عند المتكلمين فى عصمة الانبياء عبارة عن مخالفة الانسان المكلف، للتكليف الالهى بعد تشريع الشرائع وانزال الكتب ولو كان هذا هو المعيار لما صدق فى قصة آدم لان البيئة التى كان ابو البشر يعيش فيها قبل الهبوط ، لم تكن دار التشريع والتكليف ولم تكن هناك أية شريعة والمخالفة فى هذا المحيط لاتعد نقضا للعصمة فلاحظ ، فقد تقدم بعض ذلك الكلام فى ذيل الجواب الاول .

الى هنا تبين ان مخالفة آدم لنهيه سبحانه لاتضاد عصمته وقد عرفت الاجوبة الثلاثة فحان حين البحث عن بعض المفاهيم الواردة فى الآيات التى تقدمت عليك وربما يعد بعضها دليلا على ان المخالفة من آدم كانت ذنباً شرعياً ولاجل ذلك يجب علينا توضيح هذه المفاهيم الواردة فى القصة .

١ - ما معنى وسوسة الشيطان لادم :

وحقيقة هذا السؤال ترجع الى ان ظاهر الايات الماضية هو تأثير الشيطان فى نفس آدم بالوسوسة قال سبحانه : «فوسوس لهما الشيطان» (الاعراف - ٢٠) وقال سبحانه : «فوسوس اليه الشيطان» (طه - ١٢٠) وعند ئذ يتسائل: ان تطرق الوسوسة الى آدم من جانب الشيطان ، كيف تجتمع مع ماحكاه سبحانه من عدم

تسلط الشيطان على عباد الله المخلصين اذ قال : «ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين» (الحجر ـ ٤٢) وقال سبحانه حاكيا قول ابليس : «فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين» (ص ـ ٨٢ ـ ٨٣) .

والجواب عن ذلك : ان المراد من المخلصين هم الذين اجتباهم الله سبحانه من بين خلقه قال تعالى مشيراً الى ثلة من الانبياء : «اولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح و من ذرية ابراهيم و اسرائيل وممن هدينا واجتبينا» (مريم ـ ٥٨) وقال سبحانه مشيراً الى طائفة من الانبياء : « ومن آبائهم و ذرياتهم واخوانهم و اجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم » (الانعام ـ ٨٧) .

فاذا كان المخلصون هم الذين اجتباهم الله سبحانه بنوع من الاجتباء ، لم يكن آدم عليه السلام يوم خالف النهى من المجتبين وانما اجتباه سبحانه بعد ذلك قال سبحانه : «وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» (طه ـ ١٢١ ـ ١٢٢) وعلى ذلك فوسوسة الشيطان لادم لاتنافى ماذكره سبحانه فى حق المجتبين وان الشيطان ليس له نصيب فى حق تلك الصفوة وليس له طريق اليهم .

اضف الى ذلك: ان وسوسة الشيطان فى صدور الناس انما هى بصورة النفوذ فى قلوبهم والسلطان عليهم بنحو يؤثر فيهم، وان كان لايسلب عنهم الاختيار والحرية ويؤيد كون الوسوسة بصورة النفوذ، الاتيان بلفظة «فى» فى قوله سبحانه «يوسوس فى صدور الناس» (الناس ـ ٥) واما وسوسة الشيطان بالنسبة الى ابى البشر فلم تكن بصورة النفوذ والتسلط بشهادة تعديته بلفظة «لهما» او «اليهما» (الاعراف ـ ٢٠ وطه ـ ١٢٠) وهذا التفاوت فى التعبير يفيد الفرق بين الوسوستين وان احداهما على نحو الدخول والولوج فى الصدور ، والاخرى بنحو القرب والمشارفة .

واما قوله سبحانه: «فازلهما الشيطان عنها» (البقرة ـ ٣٦) وقوله : «فدليهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما» (الاعراف ـ ٢٢) فلايدلان على كون العمل الصادر منهما عصياناً بالمعنى المصطلح واما التعبير الوارد فى الآية فهو لاجل ان

عمل آدم لم يكن مقروناً بالمصلحة بل كان مقروناً بالشقاء والبعد عن الحياة السعيدة فكل من افتقد هذه البركات والمصالح يصدق عليه انه «زل» او «ان الشيطان انزلهما عن مكانتهما بغرور» وبالجملة: فان هذه التعابير تجتمع مع كون النهى ارشاديا غير مولوى اونهيا مولويا تنزيهيا كما هو المقرر فى الجوابين الاولين.

مامعنى «قوله «وعصى» و«فغوى»:

ربما يتمسك المخالف بهذين اللفظين، حيث قال سبحانه: «وعصى آدم ربه فغوى» لكن لادلالة لهما على ما يرتأيه المستدل.

اما لفظة «عصى» فهى وان كانت مستعملة فى مصطلح المتشرعة فى الذنب والمخالفة للارادة القطعية الملزمة ولكنه اصطلاح مختص بالمتشرعة ولم يجر القرآن على ذلك المصطلح بل ولا اللغة فان الظاهر من القرآن ومعاجم اللغة ان العصيان هو خلاف الطاعة قال ابن منظور: «العصيان خلاف الطاعة، عصى العبد ربه: اذا خالف ربه، وعصى فلان اميره، يعصيه، عصيا وعصياناً ومعصية: اذا لم يطعه» وعلى ذلك فيجب علينا ان نلاحظ الامر الذى خولف فى هذا الموقف فان كان الامر مولويا الزاميا كان العصيان ذنبا واذا كان امراً ارشاديا اونهياً تنزيهيا لم تكن المخالفة ذنباً فى المصطلح ولاجل ذلك لايصلح التمسك بهذا اللفظ واثبات الذنب على آدم.

واما اللفظة الثانية اعنى «فغوى» - فالجواب عنها: ان الغى يستعمل بمعنى الخيبة، قال الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس امره　　ومن يغو لايعدم على الغى لائما

اى ومن حرم من الخير ولم يلقه، لايحمده الناس ويلومونه.

وفى حديث موسى وآدم: «اغويت الناس» اى خيبتهم. كما انه يستعمل فى معنى الفساد وبه فسر قوله سبحانه «فعصى آدم ربه فغوى» اى فسد عليه عيشه كما سيأتى (١).

(١) لاحظ لسان العرب ج ١٥ ص ١٤٠

اذاعرفت ذلك فنقول : ان المراد من الغى فى الاية هو خيبة آدم وخسرانه وحرمانه من العيش الرغيد الذى كان مجرداً عن الظمأ والعرى بل من المنغصات والمشقات وليس كل خيبة تتوجه الى الانسان ناشئة من الذنب المصطلح كما انه يحتمل ان يكون المراد منه هو الفساد وبذلك فسر ابن منظور المصرى فى لسانه قوله سبحانه «وعصى آدم ربه فغوى» اى فسد عليه عيشه(١) ولاشك ان العيش فى الجنة لايقاس بالعيش فى عالم المادة الذى هو دار الفساد والانحلال .

ولو سلم ان الغى بمعنى الضلال فى مقابل الرشد لكن ليس كل ضلال معصية فان من ضل فى طريق الكسب او فى طريق التعلم يصدق عليه انه غوى اى ضل ولكنه لايلازم المعصية .

وكان سيدنا الاستاذ العلامة الطباطبائى رضوان الله عليه يقول فى مجلس بحثه : ان لفظة «غوى» تعنى الحالة التى تعرض للغنم عند ما تنفصل عن القطيع فتبقى حائرة تنظر يمينا وشمالا ولاتشق طريقاً لنفسها، وكان آدم ابو البشر حائراً بعد ماخالف نهى ربه وابتلى بما ابتلى به لايدرى كيف يعالج مشكلته وكيف يتخلص من هذا المأزق الحرج .

وعلى الجملة: فالغى ان اريد منه الخروج عن جادة التوحيد ، والانحراف عما رسم للانسان من الواجبات والمحرمات ، فهو يلازم الكفر تارة والذنب اخرى ولكن ليس كل ضلال ـ على فرض كون الغى بمعنى الضلال ـ ملازماً للجرم والذنب فمن ضل عن الطريق وتاه عن مقاصده الدنيوية اوالمصالح التى يجب ان ينالها ، يصدق عليه انه «غوى» مقابل انه «رشد» ولكنه لايلازم المعصية المصطلحة.

ولاشك ان آدم بعد ما اكل من الشجرة المنهية بدت له سوءته وخرج من الجنة وهبط الى دار الفساد فعندئذ غوى فى طريقه وضل عن مصلحته .

وبالجملة فهذه الوجوه الثلاثة المذكورة حول «غوى» تثبت وهن الاستدلال بها على العصيان .

(١) لاحظ لسان العرب ج١٥ ص١٤٠ مادة غوى

مامعنى قول آدم : «ربنا ظلمنا انفسنا»

ان الظلم ليس الا بمعنى وضع الشيء في غير موضعه ومن امثال العرب قولهم «من اشبه اباه فما ظلم» قال: الاصمعي: الظلم «وضع الشيء في غير موضعه» وفي المثل «من استرعى الذئب فقد ظلم» ولاجل ذلك يعد العدول عن الطريق ظلما ، يقال : «لزموا الطريق فلم يظلموه» اى لم يعدلوا عنه (١) .

فاذا كان معنى الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه وتجاوز الحد لايلزم ان يكون كل ظلم ذنباً بل يشمله وغيره فمن لم يسمع قول الناصح المشفق وعمل بخلاف قوله فقد وضع عمله في غير موضعه كما ان من خالف النهي التنزيهي فقد عدل عن الطريق الصحيح ، وبالجملة : فكل مخالفة وانحراف عن طريق الصواب ظلم . سواء كان الامر المخالف، مولويا او ارشادياً الزامياً اوغيره.

اضف الى ذلك انه سبحانه يعد الظلم للنفس مقابلا لعمل السوء و يقول «ومن يعمل سوءاً او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما» (النساء - ١١٠)

والاية تعرب عن ان الظلم للنفس ربما يكون غير عمل السوء وعند ذلك يتضح ان قول آدم « ربنا ظلمنا انفسنا » لا يستلزم الاعتراف بالذنب لان الظلم للنفس غير عمل السوء فالأول موجب لحط النفس عن مكانتها ولايستلزم تجاوزاً عن حدود الله بخلاف عمل السوء فانه تجاوز على حدوده وبذلك يعلم ان المراد من قوله سبحانه «ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» (البقرة - ٣٥) هو الظلم للنفس المستلزم لحط النفس عن مكانتها في مقابل عمل السوء المستلزم للتجاوز على حدوده سبحانه .

ماالمراد من قوله : فتاب عليه

«التوبة» بمعنى الرجوع فاذا نسبت الى الله تتعدى بكلمة «على» قال سبحانه :

---

(١) لسان العرب مادة «ظلم»

« لقد تاب الله على النبى و المهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » (التوبة-١١٧) اى رجع عليهم بالرحمة، واذا نسبت الى العبد تتعدى بكلمة «الى» قال سبحانه «فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم» (البقرة - ٥٤) و قال سبحانه : «أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم» (المائدة - ٧٤).

فاذا كانت التوبة بمعنى الرجوع ، فعند ما تعدت بـ« على » يكون معني قوله : « فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » (البقرة - ٣٧) ان الله رجع عليه بالرحمة ، فالتوبة فى هذه الجملة توبة من الله على العبد لا من العبد الى الله ومعنى الاول هو رجوعه سبحانه على العبد، باللطف والمرحمة .

ومثله قوله سبحانه : «ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» (طه - ١٢٠) فالتوبة هنا من الله على عبده ومعنى الاية انه سبحانه اصطفى آدم لاجل تلقيه الكلمات وسؤاله بها فعند ئذ رجع الله عليه بالرحمة وهداه سبحانه واخرجه من الغواية التى غشيته ، والظلمة التى اكتنفته لاجل عدم الاصغاء الى نصحه سبحانه وتقديم نصح غيره عليه .

نعم ان لفظة «فتاب عليه» فى سورتى البقرة وطه دالة على ان آدم « تاب الى ربه» ولاجل توبته الى الله ورجوعه اليه بالندامة ، تاب الله عليه ورجع عليه بالرحمة والهداية ولكن لادلالة لكل رجوع وانابة الى الله، على وقوع الذنب وصدوره منه خصوصاً بالنظر الى ما قدمناه فى التفسير الثانى لمخالفة آدم و قلنا ان من الممكن ان يكون نفس العمل جائزاً ومباحاً ولكن يعد صدوره من بعض الشخصيات محظوراً وامراً غير صحيح فانابة تلك الشخصيات الى الله فى تلك المجالات لاتعد دليلا على صدور الذنب بل تعد دليلا على سعة علمها بالعظمة الالهية ولاجل ذلك يقال «حسنات الابرار سيئات المقربين» وقال النبى صلى الله عليه وآله : «انه ليران على قلبى وانى استغفر الله كل يوم سبعين مرة» (١) وليس هذا الاستغفار دليلا على صدور

(١) صحيح مسلم ج٨ كتاب الذكر ص٧٢ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه . وفيه «ليغان» مكان «ليران» وهو من مادة «الغين» اى الستر

الذنب بل هو دليل على سعة علمه وعمق ادراكه لعظمة الله .

ما معنى الغفران فى قوله : «وان لم تغفرلنا»

بقيت هنا كلمة وهى توضيح قوله سبحانه «وان لم تغفرلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» فربما يتبادرالى الذهن من هذا المقطع من الاية صدورالذنب من ابينا آدم عليه السلام فنقول : لادلالة فيه ولافى واحدة من كلماته على مايتوخاه الخصم واليك بيان هدف الاية ومفرداتها .

اما الغفران فان اصله «الغفر» بمعنى التغطية والستر يقال غفره ، يغفره ، غفراً : ستره . وكل شيء سترته فقد غفرته فاذا كان الغفران بمعنى الستر فلا ملازمة بين الستر والذنب فان المستور ربمايكون ذنباً وربما يكون امراً جائزاً غير مترقب الصدور من الانسان ولاجل ذلك طلب آدم من الله سبحانه على عادة الاولياء والصالحين فى استصغارهم مايقومون به من الحسنات واستعظامهم الصغير من العيوب فقال : «وان لم تغفر لنا» اى لم تستر عيبنا « ولم ترحمنا » اى لم ترجع علينا بالرحمة « لنكونن من الخاسرين » ولاشك ان آدم قد خسر النعيم الذى كان فيه ، بسبب عدم سماعه لنصح الله سبحانه و لاجل ذلك طفق يطلب منه ان يرجع عليه بالمغفرة اى بسترعيبه ، والرحمة اى باخراجه من الخسران الذى عرض له .

اذا وقفت على ما ذكرنا حول هذه الايات و الجمل وتأملت فيها بامعان ودقة يظهر لك ان الاستدلال بها على صدور الذنب المصطلح من آدم من غرائب الاستدلالات وعجائبها ولايصح لباحث ان يفسر آية دون ان يستعين لفهمها باختها وبذلك يتضح ان ما سلكناه من المنهج فى تفسير القرآن ، هو الطريق الصحيح الذى يرفع النقاب عن وجوه كثير من الحقائق التى قد تخفى على الباحثين وهذا الطريق هو تفسير كتابه سبحانه بالطريق الموضوعى اى جمع الايات الواردة فى موضوع واحد وعرض بعضها على بعض .

٢ـ عصمة آدم وجعل الشريك لله !

قد وقفت على اعظم شبه المخطئة للانبياء كما وقفت على الجواب عنها فهلم معي ندرس شبهة اخرى لهم جعلوها ذريعة لفكرتهم الفاسدة حيث استدلوا على عدم عصمة «آدم» (ع) بقوله سبحانه : «هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين. فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون. ايشركون . مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصراً ولا انفسهم ينصرون» . (الاعراف ـ ١٨٩ ـ ١٩٢)

استدل المخطئة لعصمة الانبياء بقوله سبحانه «فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء» قائلين بان ضمير التثنية فى كلا الموردين يرجع الى آدم وحواء اللذين اشير اليهما بقوله سبحانه فى صدر الاية «من نفس واحدة وجعل منها زوجها» .

ولكن الاستدلال بالاية مبنى على القول بان المراد «من نفس واحدة» هى الواحدة الشخصية لا الواحدة النوعية اعنى كل اب وام بالنسبة الى اولادهما ولكن القرائن تشهد بان المراد هو الواحد النوعى لا الشخصى .

توضيح ذلك ان تلك اللفظة قد استعملت فى القرآن الكريم على وجهين :

الاول : ما اريد منه الواحد الشخصى كقوله سبحانه: «يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء» (النساء ـ ٢) فالمراد من «نفس واحدة» هو آدم ومعنى خلق الزوجة منهما كونها من جنسها والدليل على ان المراد هو الواحد الشخصى قوله «وبث منهما رجالا كثيراً ونساء» والمعنى انه سبحانه خلق الخلق من اب واحد وام واحدة فهذه الجماهير على كثرتها تنتهى اليهما ومثله قوله سبحانه «يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» . (الحجرات ـ ١٣)

الثانى : ما اريد منه الواحد النوعى اى الاب لكل انسان ومثله الام وذلك

مثل قوله «خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث» (الزمر - ٦) فالمراد من «نفس واحدة» هوالواحد النوعي والمرادان كل واحد منّا قدولد من اب واحد وام واحدة والدليل على ذلك قوله سبحانه «يخلقكم في بطون امهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث».

ومثلهاالآية المبحوث عنها في المقام اذليس المراد منهاشخص آدم ابو البشر بعينه بل المراد والد كل انسان ووالدته، فالجنسان يتقاربان ويتولد منهما الولد وتدل على ما اخترنا من المعنى قرائن في نفس الايات.

الاولى: ان الاية وقعت في عداد الآيات التي تعرب عن الميثاق الذي اعطاه الانسان لربه في شرائط خاصة ولكنه حينمانال النعم ورفل فيها، طفق ينقض ميثاقه وهذه طبيعة الانسان المجهز بالغرائز ويشير اليهاقوله سبحانه: «واذاانعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذودعاء عريض» (فصلت - ٥١) فاذا كانت هذه طبيعة الانسان فلايبعد ان يسأل الله ان يرزقه ولداً صالحاً، معطيا لله ميثاقاً بأن يشكره على تلك النعمة ولكنه عند ماينال النعمة يجعل له شركاء فيما آتاه وعلى ذلك فالاية جارية مجرى المثل المضروب لبني آدم في نقضهم ميثاقهم الذي واثقوه به:

والدليل على ان الآية واردة في ذاك المجال، ما ورد قبل هذه الآية من حديث الميثاق الذي اعطاه الانسان لربه ولكنه نقضه بعده قال سبحانه قبيل هذه الآيات: «واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين. او تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بمافعل المبطلون (الاعراف - ١٧٢ - ١٧٣).

والميثاق الذي وردفي الاية، معطوف على ذلك الميثاق الذي وردفي الايتين وهذا دليل واضح على ان المراد هوتعريف طبيعة الانسان وتوصيفها بالتعهد اولا

والنقض ثانيا وليس بصدد بيان حال الانسان الشخصي اعني ابانا: آدم .

الثانية: ان سياق الآية ولحنها يوحيان بان الشخص الذي سأل الله ان يرزقه ولداً صالحاً ، كان يعيش في بيئة كان فيها آباء واولاد بين صالح وطالح ، فنظر اليهم فتمنى ان يرزقه الله ولداً صالحاً على غرار مارآه ، غير انه لما رزقه الله ذلك الولد الصالح ، نقض ميثاقه اى شكره لله على مارزقه من صالح الاولاد وهذا غير صادق في شأن ابينا آدم وامنا حواء، اذ لم يكن في بيئتهم آباء واولاد ، صالحون وطالحون حتى يتمنيا لنفسهما ولداً مثل ما رزقهم الله سبحانه .

الثالثة : ان ذيل الاية يشهد بوضوح على انها غير مرتبطة بصفي الله آدم وذلك لانه سبحانه يقول في ذيلها : «فتعالى الله عما يشركون» فلو كان المراد من النفس وزوجها في الآية شخصين معينين كآدم وحواء كان من حق الكلام ان يقول : « فتعالى الله عما يشركان » وهذا بخلاف ما اريد من النفس وزوجها ، الطبيعة الانسانية في جانبي الذكر والانثى ، اذ حينئذ يصح الجمع لكثرة افراده .

الرابعة : انه سبحانه يقول : «ايشركون مالا يخلق شيئا و هم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا انفسهم ينصرون» ومن المعلوم ان المراد من الشرك هو الشرك في العبادة وحاشا ان يكون آدم صفي الله مشركا في العبادة كيف وقد وصفه الله سبحانه بالاجتباء حيث قال «ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» (طه ـ ١٢٢) وقال سبحانه : «ومن يهد الله فهو المهتد» (الاسراء ـ ٩٧) وقال سبحانه : «ومن يهد الله فماله من مضل» (الزمر ـ ٣٧) وقال ايضا : «و من اضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة» (الاحقاف ـ ٥) .

كل هذه الايات تشهد بوضوح على ان الآية تهدف الى ذكر القصة على سبيل ضرب المثل وبيان ان هذه الحالة ، صورة تعم جميع الافراد من الانسان الامن التجأ الى الايمان فكأنه سبحانه يقول : «هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة و جعل من جنسها زوجها انساناً يساويه في الانسانية فلما تغشى الزوج الزوجة وظهر الحمل دعوا ربهما بانه سبحانه لو آتاهما ولداً صالحاً سويا

ليكونا من الشاكرين لآلائه ونعمائه فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سويا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فى ذلك الولد الذى آتاهما فتارة نسبوه الى الطبيعة كما هو قول الدهريين واخرى الى الكواكب كما هو قول المنجمين وثالثة الى الاصنام كما هو قول عبدتها فرد الله سبحانه على تلك المزاعم بقوله: فتعالى الله عما يشركون» (١). وعلى ما ذكرنا يحتمل ان يكون المراد من الشرك هو الشرك فى التدبير ومثل هذا لايليق ان ينسب الى من هو دون الانبياء والاولياء فكيف يمكن ان يوصف به صفى الله آدم عليه السلام.

واقصى ما يمكن ان يقال هو ان المراد من النفس الواحدة وزوجها فى صدر الاية هو آدم وحواء الشخصيان، ولكنه سبحانه عندما انتهى الى قوله «ليسكن اليها» التفت من شخصهما الى مطلق الذكور والاناث من اولادهما او الى خصوص المشركين من نسلهما، فيكون تقدير الكلام «فلما تغشاها» اى تغشى الزوج الزوجة من نسلهما «حملت حملا خفيفا فمرت به» ... الى آخر الاية.

وهذا ما يسمى فى علم المعانى بالالتفات وله نظائر فى القرآن الكريم قال تعالى: «هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك و جرين بهم بريح طيبة» (يونس - ٢٢) ترى انه سبحانه خاطب الجماعة بالتسيير ثم خص راكب البحر بامر آخر ومثله الآية: ترى انه سبحانه اخبر عن عامة امر البشر بانهم مخلوقون من نفس واحدة وزوجها و هما آدم و حواء ثم ساق الكلام الى مطلق ذرية آدم من البشر.

وهذا الوجه نقله المرتضى فى «تنزيه الانبياء» عن ابى مسلم محمد بن بحر الاصفهانى (٢).

وتوجد وجوه اخر فى تفسير الاية غير تامة (٣) وفيما ذكرنا غنى و كفاية.

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٣٤٣. (٢) تنزيه الانبياء ص ١٦.

(٣) لاحظ مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٣٤١ الى ٣٤٣ ومجمع البيان ج ٤ ص ٥٠٨ - ٥١٠ وامالى المرتضى ص ١٣٧ - ١٤٣

٢

عصمة شيخ الانبياء نوح والمطالبة

بنجاة ابنه العاصى

قد استدل المخطئة لعصمة الانبياء على عدم عصمة نوح بماورد فى سورة هود من الاية ٤٥ الى ٤٧ واليك الايات :

«ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين. قال يانوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى اعظك ان تكون من الجاهلين. قال رب انى اعوذبك ان اسألك ما ليس لى به علم والا تغفرلى و ترحمنى اكن من الخاسرين » وقد استدل بهذه الايات بوجوه :

١ ـ ان ظاهر قوله تعالى «انه ليس من اهلك» تكذيب لقول نوح «ان ابنى من اهلى» واذا كان النبى لايجوز عليه الكذب فما الوجه فى ذلك ؟

٢ ـ قوله «فلاتسألن ماليس لك به علم انى اعظك ان تكون من الجاهلين» فان ظاهره صدور سؤال منه غير لائق بساحة الانبياء ولاجل ذلك خوطب بالعتاب ونهى عن التكرار .

٣ ـ قوله «والا تغفرلى وترحمنى اكن من الخاسرين» فان طلب الغفران آية الذنب وهو لايجتمع مع العصمة .

واليك الجواب عن الوجوه الثلاثة .

اما الوجه الاول فتوضيح دفعه : انه سبحانه قد وعد نوحاً بانجاء اهله

الامن سبق عليه القول وقال : «حتى اذاجاء امرنا وفارالتنور قلنا احمل فيهامن كل زوجين اثنين واهلك الامن سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الاقليل» (هود - ٤٠) وهذا الكلام يعرب عن انه سبحانه وعد بكلامه شيخ الانبياء بانه ينجّى اهله هذا، من جانب ومن جانب آخر يجب ان نقف على حالة ابن نوح و انه اما ان يكون متظاهرا بالكفر وكان ابوه واقفا على ذلك واما ان يكون متظاهرا بالايمان مبطنا للكفر وكان ابوه يتصور انه من المؤمنين به .

فعلى الفرض الاول يجب ان يقال: ان نوحاً قد فهم من قوله سبحانه «واهلك الامن سبق عليه القول» فى سورتى هود الاية ٤٠ والمؤمنون الاية ٢٧(١) انه قد تعلقت مشيئته بانجاء جميع اهله الذين ينتمون اليه بالوشيجة النسبية والسببية سواءأكانوا مؤمنين ام كافرين غير امرأته التى كانت كامرأة لوط تخونه ليلا ونهاراً وعندئذ يكون المراد من قوله «الا من سبق عليه القول منهم» هوزوجته فقط ولمارأى نوح ان الولد ادركه الغرق تخالج فى قلبه انه كيف يجتمع وعده سبحانه بانجاء جميع الاهل مع هلاك ولده وعندذلك اعتراه الحزن ورفع صوته بالدعاء مناديا: «ان ابنى من اهلى» من دون ان يسأل منه شيئاً بل اظهر ما اختلج فى قلبه من الصراع والتضاد بين الامرين : الايمان بصدق وعده كما يفصح عنه قوله «ان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين» ، وغرق ولده وهلاكه .

وعلى هذا الفرض لم يكذب نوح حتى بكلمة واحدة بل لما فهم من قوله « واهلك » نجاة مطلق المنتمين اليه بالوشيجة الرحمية او السببية ، ابرز ما فهم وقال : « ان ابنى من اهلى » فلا يعد الانسان كاذباً عند نفسه اذا ابرز ما اعتقده و افرغه فى قالب القول، وان كان المضمون خلاف الواقع فى حد نفسه وحينئذ اجابه سبحانه بان الموعود بانجائهم هم الصالحون من اهلك لامطلق المنتمين اليك

(١) قال سبحانه فى سورة هود : «قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين و اهلك الامن سبق عليه القول» و قال سبحانه فى سورة المؤمنون : «فاسلك فيها من كل زوجين اثنين واهلك الامن سبق عليه القول منهم ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون» .

بالوشائج الرحمية او السببية. وبعبارة اخرى : ان ولدك وان كان من اهلك حسب الوشيجة الرحمية لكنه ليس من الاهل الذين وعدت بنجاتهم وخلاصهم. وبعبارة ثالثة : «ان ابنك» داخل فى المستثنى اعنى قوله «الا من سبق عليه القول منهم» كما ان زوجتك داخلة فيه ايضاً .

و هذا الجواب على صحة الفرض تام لاغبار عليه لكن اصل الفرض و هو كون ابن نوح متظاهراً بالكفر وكان الاب واقفا عليه غير تام لما فيه .

اولا : ان من البعيد عن ساحة نوح ان يطلب من الله سبحانه ان لايذر على الارض من الكافرين ديارا كما يعرب عنه قوله سبحانه حاكيا عن نوح «رب لاتذر على الارض من الكافرين دياراً. انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا الافاجراً كفاراً» (نوح ٢٦ ـ ٢٧) ويتبادر الى ذهنه من قوله سبحانه «واهلك» مطلق المنتمين اليه مؤمناً كان أم كافرا. بل يعد دعاؤه هذا قرينة على ان الناجين من اهله هم المؤمنون فقط لاالكافرون و ان المراد من «من سبق عليه القول» مطلق الكافرين سواء كانوا منتمين اليه ام لا .

ثانياً : انه لا دليل على انه فهم من قوله «الا من سبق عليه القول منهم» خصوص زوجته ، بل الظاهر انه فهم ان المراد من المستثنى كل من عاند الله وحاد رسوله من غير فرق فى ذلك بين الزوجة وغيرها .

وثالثاً : انه سبحانه بعدما امر نوحاً بصنع الفلك اوحى اليه بقوله «ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون» (هود ـ ٣٧) والظاهر من قوله «الذين ظلموا» مطلق المشركين حميما كان ام غريبا فاذا قال بعد ذلك «واهلك الا من سبق عليه القول» يكون اطلاق الجملة الاولى قرينة على ان المراد من الاهل هو خصوص المؤمن لاالظالم منهم اذ الظالم منهم داخل فى قوله « ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا » ، و ان شئت قلت : ان صراحة الجملة الاولى قرينة على ان المراد من قوله «الا من سبق عليه القول» مطلق الظالم والكافر زوجة كانت ام غيرها ، رحماً كان ام غيره و هذه الصراحة قرينة على ان المراد من «اهلك» هو

خصوص المؤمن لاالاعم منه وبالجملة فلوصحت النظرية صح الجواب لكنها باطلة لاجل الامور الثلاثة التى المعنا اليها.

و اما الفرض الثانى فالظاهر انه الحق و حاصله ان الابن كان متظاهراً بالايمان مبطنا للكفر ويدل على ذلك قول نوح لابنه عند ما امتنع ان يواكب اباه فى ركوبه السفينة: «يا بنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين» (هود - ٤٩) اى لاتكن معهم حتى تشاركهم فى البلاء ولوكان عارفاً بكفره لكان عليه ان يقول «ولاتكن من الكافرين» وبما انه كان معتقداً بايمان ولده كان مذعناً بدخوله فى قوله «واهلك» ولماادركه الغرق ادركته الحيرة فى انه كيف غرق مع ان وعده سبحانه حق لايشوبه ريب وعندئذ اظهر ما فى قلبه وقال «ان ابنى من اهلى».

واجابه سبحانه بانه ما ادركه الغرق الا لاجل كفره فهو كان داخلا فى قوله اولا «ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون» (هود - ٣٧) وثانياً فى المستثنى اى قوله «الا من سبق عليه القول» لاالمستثنى منه أى «اهلك» وعندئذ يقع السؤال والجواب فى موقعهما ولايكون نوح فى حكمه كاذبا لانه كان يتصور ان ولده مؤمن فنبهه سبحانه على انه كافر فاين الكذب فى هذين الحكمين وفى قوله سبحانه «انه عمل غير صالح» ائذان بان قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وان نسيبك فى دينك ومعتقدك من الاباعد وان كان حبشياً و كنت قرشيا، لصيقك وخصيصك، ومن لم يكن على دينك وان كان امس اقاربك رحماً فهو ابعد بعيد منك

ثم ان الاخبار عن ابن نوح بانه عمل غير صالح مكان كونه عاملا غير صالح لاجل المبالغة فى ذمه مثل قوله «فانما هى اقبال وادبار» (١).

وهاهنا نكتة يجب التنبيه عليها وهو ان العنصر المقوم لصدق عنوان الاهل عند اصحاب اللغة والعرف هو انتساب الانسان الى شخص بوشيجة من الوشائج النسبية اوالسببية وان لم يكن بينهما تشابه ووحدة من حيث المسلك والمنهج.

غير ان التشريع الالهى ادخل فيه عنصراً آخر وراء الوشيجة المادية وهو

(١) الكشاف ج٢ ص١٠١

صلة الشخص بالانسان من جهة الايمان ووحدة المسلك الى حد لو فقد هذا العنصر لما صدق عليه ذلك العنوان بل صار ذلك العنصر الى حد ربما يكتفى به فى صدق الاهل على الافراد سواء أكانت فيه وشيجة نسبية املا ولاجل ذلك نجد انه سبحانه يكتفى بلفظ الاهل فى التعبير عن كل المؤمنين فيقول فى قصة «لوط» « فانجيناه واهله الا امرأته كانت من الغابرين » (الاعراف ـ ٨٣) وقال ايضا « انا منجوك واهلك الا امرأتك كانت من الغابرين » (العنكبوت ـ ٣٣) وقال ايضاً «وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه واهله اجمعين الاعجوزاً فى الغابرين» (الصافات ـ ١٣٣ ـ ١٣٥) ترى انه سبحانه اكتفى بلفظ الاهل من دون ان يعطف عليه لفظ «المؤمنين» او «من آمن به» مع عدم اختصاص النجاة بخصوص اهله وعمومها للمؤمنين ، معربا عن ان الايمان يجعل البعيد اهلا، والكفر يجعل القريب بعيدا .

ولاجل ذلك اكتفى فى قصة نوح بلفظ الاهل فقال «ونوحاً اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه واهله من الكرب العظيم» (الانبياء ـ ٧٦) وقال ايضاً «ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه و اهله من الكرب العظيم» (الصافات ـ ٧٥) و من المعلوم عدم اختصاص النجاة بخصوص الاهل بشهادة قوله : «واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن» . (هود ـ ٤٠)

وبذلك يظهر سر قوله ﷺ «سلمان منا اهل البيت» فعد غير العرب من اهل بيته وما هذا الا لان التشابه الروحى اوثق صلة واحكم عرى كما ان التباين الروحى خير اداة لقطع العرى وهدم الوشيجة المادية .

ولاجل ذلك قال الامام الطاهر على بن موسى الرضا (ع) فى حق ابن نوح «لقد كان ابنه ولما عصى الله عزوجل نفاه عن ابيه و كذا كل من كان منا لم يطع الله عزوجل فليس منا وان انت اذا اطعت الله فانت منا اهل البيت» .

نعم لانقول ان ماذكرناه هو المصطلح الوحيد فى القرآن بل له مصطلح آخر يتطابق مع اصطلاح اهل اللغة والعرف وهو الاكتفاء بالوشيجة المادية ونرى كلا المصطلحين واردين فى سورة هود قال سبحانه «واهلك الا من سبق عليه القول ومن

آمن» (هود-٤٠) فاطلق لفظ الاهل على مطلق المنتمى الى شيخ الانبياء كافراً كان ام مؤمنا ثم اخرج الكافر من الحكم (احمل) لامن الموضوع وهو (الاهل) وقال «الامن سبق عليه القول».

وفى الوقت نفسه يجيب نداء نوح بعد قوله «ان ابنى من اهلى» بقوله «انه ليس من اهلك».

حول السؤال الثانى.

قد عرفت ما حول السؤال الاول من نسبة الكذب الى شيخ الانبياء نوح فى قوله «ان ابنى من اهلى» فهلم معى ندرس السؤال الثانى وهو ان قوله سبحانه: «فلا تسألن ما ليس لك به علم انى اعظك ان تكون من الجاهلين» يعرب عن وجود سؤال غير لائق بساحة الانبياء فلاجل ذلك خوطب ونهى عن التكرار فنقول: ان الله عزوجل قد وعده بانجاء اهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم وهذا الاستثناء كان دليلا على ان فى جملة «اهله» من هو مستوجب للعذاب وانهم كلهم ليسوا بناجين وعند ئذ كان على نوح ان لا تخالجه شبهة حين اشرف ولده على الغرق فى انه من المستثنين وليس داخلا فى المستثنى منهم فعوتب على انه اشتبه عليه ما يجب ان لا يشتبه عليه (١).

وعلى هذا يكون المراد من قوله «فلا تسألن ما ليس لك به علم» النهى عن السؤال الذى لا يليق ان يطرح ويسأل اذا كان الجواب معلوماً بالقرائن والتفكر فى اطراف القضية والا فالسؤال انما يتعلق بما لا يعلم لا بما يعلم.

هذا ما اجاب به صاحب الكشاف وهناك جواب اوضح ولعله اليق بساحة الانبياء وهو انه لما وعد نوحاً بنجاة الاهل بقوله «الامن سبق عليه القول منهم» ولم يكن نوح مطلعاً على باطن ابنه بل كان معتقداً بظاهر الحال انه مؤمن، بقى متمسكاً

(١) الكشاف ج٢ ص١٠١

بصيغة العموم للاهلية ولم يعارضه يقين ولا شك بالنسبة الى ايمان ابنه فلذلك «نادى ربه ...».

واما قوله «انى اعظك ان تكون من الجاهلين» فليس راجعاً الى كلامه وندائه بل كان نداؤه ربه فى هذا الظرف واقعاً موقع القبول وكان السؤال صحيحاً ورصيناً بل هو راجع الى وقوع السؤال فى المستقبل بعد ان اعلمه الله باطن امره وانه ان سأل فى المستقبل كان من الجاهلين والغرض من ذلك تقديم مايبقيه عليه السلام على سمة العصمة، والموعظة لاتستدعى وقوع الذنب وصدوره بل ربما يكون الهدف التحفظ على ان لايصدر الذنب منه فى المستقبل ولذلك امتثل عليه السلام نهى ربه وقال «اعوذبك ان اسألك ماليس لى به علم» (١).

جواب ثالث للسؤال الثانى.

هذا وللعلامة الطباطبائى جواب ثالث امتن من الجوابين السابقين فقال: ان قول نوح «رب ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق» فى مظنة ان يسوقه الى سؤال نجاة ابنه وهو لايعلم انه ليس من اهله فشملته العناية الالهية وحال التسديد الغيبى بينه وبين السؤال فادركه النهى بقوله «فلا تسألن ما ليس لك به علم» بتفريع النهى على ماتقدم، مخبراً نوحاً بان ابنك ليس من اهلك لكونه عملا غير صالح فلاسبيل لك الى العلم به فاياك ان تبادر الى سؤال نجاته لانه سؤال ما ليس لك به علم والنهى عن السؤال بغير علم لايستلزم تحقق السؤال منه لامستقلا ولاضمناً، والنهى عن الشىء لايستلزم الارتكاب قبلا وانما يتوقف على ان يكون الفعل اختيارياً وموردا لابتلاء المكلف فان من العصمة والتسديد ان يراقبهم الله سبحانه فى اعمالهم وكلما اقتربوا مما من شأنه ان يزل فيه الانسان نبههم الله لوجه الصواب ودعاهم الى السداد والتزام طريق العبودية قال تعالى: «ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للامام ناصر الدين الاسكندرى المالكى ج٢ ص ١٠١ على هامش الكشاف

اليهم شيئا قليلا اذاً لاذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا» . (الاسراء - ٧٥)

و مما يدل على ان النهى فى قوله «فلا تسألن» نهى عما لم يقع بعد ، قول نوح بعد استماع خطابه سبحانه «رب انى اعوذ بك ان اسألك ماليس لى به علم» .

ولو كان سأل شيئاً من قبل لكان عليه ان يقول : اعوذبك مما سألت او مايشابه ذلك، ومما يوضح ان نوحاً لم يسأل شيئاً من ربه قوله سبحانه «انى اعظك ان تكون من الجاهلين» تعليلا لنهيه «فلا تسألن» فلو كان نوح سأل شيئا من قبل لكان من الجاهلين لانه سأل ما ليس له به علم .

وايضاً لو كان المراد من النهى عن السؤال ان لايتكرر منه ذلك بعد ما وقع منه مرة لكان الانسب ان يصرح بالنهى عن العود الى مثله دون النهى عن اصله كماورد نظيره فى القرآن الكريم «اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم ... يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابداً» (النور - ١٥ - ١٧) (١)

الى هنا تبين الجواب عن السؤال الثانى واتضح انه لم يسبق منه سؤال غير لائق بساحته ، بقى الكلام فى السؤال الثالث وهو الذى نبحث عنه فى البحث التالى

حول السؤال الثالث :

وحاصله ان طلب الغفران فى قوله «والاتغفر لى وترحمنى اكن من الخاسرين» لايجتمع مع العصمة .

اقول : ان هذا كلام، صورته التوبة وحقيقته الشكر على ما انعم الله عليه من التعليم والتأديب . اما ان صورته صورة التوبة فان فى ذلك رجوعاً الى الله تعالى بالاستعاذة و لازمها طلب مغفرة الله و رحمته اى ستره على الانسان ما فيه زلته و شمول عنايته لحاله ، والمغفرة بمعنى طلب الستر اعم من طلبه على المعصية المعروفة عند المتشرعة ، و كل ستر الهى يسعد الانسان ويجمع شمله .

(١) الميزان ج١٠ ص٢٤٥

واما كون حقيقته الشكر ، فان العناية الالهية التي حالت بينه وبين السؤال الذي كان يوجب دخوله في زمرة الجاهلين ، كانت ستراً الهياً على زلة في طريقه ورحمة ونعمة انعم الله سبحانه بها عليه فقوله : «والا تغفرلي وترحمني اكن من الخاسرين» بمعنى انه ان لم تعذني من الزلات ، لخسرت فهو ثناء وشكر لصنعه الجميل (١) .

و تظهر حقيقة ذلك الكلام مما قدمناه في قصة آدم من ان كثيراً من المباحات تعدذنباً نسبياً بالنسبة الى طبقة خاصة من الاولياء والانبياء فعند صدور مثل ذلك يجب عليهم، تكميلا لعصمتهم ، طلب الغفران والرحمة حتى لايكونوا من الخاسرين وليس الخسران منحصراً في الاتيان بالمعصية بل رب فعل سائغ يعد صدوره من الطبقة العليا خسرانا وخيبة كما اوضحناه في قصة آدم .

نعم لم يصدر من شيخ الانبياء في ذلك المقام فعل غير انه وقع في مظنة صدور ذلك الفعل ، وهو السؤال عما لايعلم ، فلاجل ذلك صح له ان يطلب الستر على تلك الحالة بالعناية الالهية الحائلة بينه وبين صدوره .

الى هنا تبين مفاد الايات و انه ليس فيها اشعار بصدور الذنب بل حتى ما يوجب العتاب واللوم .

ثم ان لبعض المفسرين من العدلية اجوبة اخرى للاسئلة المطروحة فمن اراد الوقوف عليها فليرجع الى مظانها (٢) .

* * *

(١) الميزان ج١٠ ص٢٤٦ - ٢٤٧

(٢) لاحظ تنزيه الانبياء ص١٨-١٩ ومجمع البيان ج٣ص١٦٧ وبحار الانوار ج١١ ص٢١٣-٣١٤ الى غير ذلك

٣

عصمة ابراهيم الخليل والمسائل الثلاث ! (١)

ان الله سبحانه اثنى على ابراهيم بطل التوحيد باجمل الثناء، وحمد محنته في سبيله سبحانه ابلغ الحمد، وكرر ذكره باسمه في نيف وستين موضعاً من كتابه وذكر من مواهبه ونعمه عليه شيئاً كثيرا وقال: «واصطفاه في الدنيا وانه في الاخرة لمن الصالحين» (البقرة ـ ١٣٠) وقد حفظ الله سبحانه حياته الكريمة وشخصيته الدينية لما سمى هذا الدين القويم بالاسلام ونسب التسمية به اليه قال تعالى «ملة ابيكم ابراهيم هوسماكم المسلمين من قبل» (الحج ـ ٧٨) وقال سبحانه: «قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وماكان من المشركين». (الانعام ـ ١٨١)

ومع هذا الثناء المتضافر منه سبحانه على ابراهيم نرى ان بعض المخطّئة للانبياء يريد ان ينسب اليه ما لا يليق بشأنه مستدلا بآيات نأتي بها واحدة بعد واحدة ونبين حالها.

الاية الاولى:

«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين

---

(١) قوله: للنجم هذا ربي. ٢ ـ قوله: بل فعله كبيرهم. ٣ قوله: لقومه: اني سقيم.

فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما افل قال لااحب الافلين .

فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما افل قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا اكبر فلما افلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون» . (الانعام ٧٥ ـ ٧٨)

قالت المخطئة ان قوله « هذا ربى » فى المواضع الثلاثة ظاهر في انه (ع) كان يعتقد فى وقت من الاوقات بربوبية هذه الاجرام السماوية وهذا مما لايجوز على الانبياء عند العدلية ، وان زعمت العدلية انه عليه السلام تكلم بها ظاهرا غير معتقد باطناً ، فهذا أيضاً غير جائز على الانبياء لانه يقول شيئاً غير معتقد به وهو امر قبيح سواء سمي بالكذب ام لا .

والجواب : ان الاستدلال ضعيف لان الحال لاتخلو من احدى صورتين :

الاولى : ان ابراهيم كان فى مقام التحرى والتعرف على الرب المدبر للعالم ولم يكن آنذاك واقفاً على الحقيقة لانه ـ كما قيل ـ كان صبياً لم يبلغ الحلم وصار بصدد التحقيق والتحرى، فعندئذ طرح عدة احتمالات عديدة واحداً بعد واحد ثم شرع فى ابطال كل واحد منها الى أن وصل الى الرب الواقعى والمدبر الحقيقى .

وهذا نظير ما يفعله الباحثون عن اسباب الظواهر وعللها فتراهم يطرحون على طاولة التحقيق سلسلة من الفرضيات والاحتمالات ثم يعمدون الى التحقيق عن حال كل واحد منها الى ان يصلوا الى العلة الواقعية وعلى هذا يكون معنى قوله «هذا ربى» مجرد فرض لااذعاناً قطعيا وليس مثل هذا غير لائق بشأن الانبياء

وفى هذا الصدد يقول السيد المرتضى جواباً عن السؤال : انه لم يقل ذلك مخبراً ،وانما قال فارضاً ومقدراً على سبيل الفكر والتأمل .

الا ترى انه قد يحسن من احدنا اذا كان ناظراً فى شىء وشاكا بين كونه احد وصفيه ، ان يفرضه على احداهما لينظر فيما يؤدى ذلك الفرض اليه من صحة او فساد فلايكون بذلك مخبراً عن الحقيقة ولهذا يصح من

احدنا اذا نظر فى حدوث الاجسام وقدمها ان يفرض كونها قديمة ليتبين ما يؤدى اليه ذلك الفرض من الفساد » (١).

وقد روى هذا المعنى عن الامام الصادق عليه السلام حيث سئل عن قول ابراهيم « هذا ربى » أأشرك فى قوله « هذا ربى » ؟ فقال عليه السلام : لا ، بل من قال هذا ، اليوم فهومشرك ولم يكن من ابراهيم شرك وانما كان فى طلب ربه وهو من غيره شرك .

وفى رواية اخرى عن احدهما (الباقر والصادق عليهما السلام) انما كان طالباً لربه ولم يبلغ كفراً وانه من فكر من الناس فى مثل ذلك فانه بمنزلته (٢).

غيران هذا الفرض ربما لايكون مرضياً عند بعض العدلية لان الانبياء منذ ان فطموا من الرضاع الى ان ادرجوا فى اكفانهم، كانوا عارفين بتوحيده سبحانه ذاتاً وفعلا ، خالقاً ورباً، ولو كان هناك اراءة من الله لخليله كمافى قوله «وكذلك نرى ابراهيم» كانت لزيادة المعرفة وليكون من الموقنين .

الثانية : انه كان معترفاً بربوبيته نافياً ربوبية غيره ولكنه حيث كان بصدد هداية قومه وفكهم من عبادة الاجرام ، جاراهم فى منطقهم لكى لايصدم مشاعرهم ويثير عنادهم ولجاجهم فتدرج فى ابطال ربوبية معبوداتهم الواحد تلو الاخر بما يطرأ عليها من الافول والغيبة والتحول والحركة مما لايليق بالرب المدبر، ومثل هذا جائز للمعلم الذى يريد هداية جماعة معاندة فى عقيدتهم ، منحرفة عن جادة الصواب وهذه احدى طرق الهداية والتربية فاين التكلم بكلمة الشرك عن جد ؟

والى ذلك الجواب اشار السيد المرتضى فى كلامه بان ابراهيم عليه السلام لم يقل ما تضمنته الايات على طريق الشك ولافى زمان مهلة النظر والفكر بل كان فى تلك الحال موقناً عالماً بان ربه تعالى لايجوز ان يكون بصفة شىء من الكواكب وانما قال ذلك على احد وجهين :

---

(١) تنزيه الانبياء ص٢٢

(٢) نورالثقلين ج١ ص٦١٠-٦١١ - الحديث ١٤٩ و١٥٠ و١٥١

الاول : انه ربي عندكم وعلى مذاهبكم كما يقول احدنا على سبيل الانكار للمشتبه هذا ربه جسم يتحرك ويسكن .

الثاني : انه قال ذلك مستفهما واسقط حرف الاستفهام للاستغناء عنها (١) .

والوجه الاول من الشقين في هذا الجواب هو الواضح .

الاية الثانية :

قوله سبحانه : «ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل و كنّا به عالمين . . . وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون . . . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون. فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون. قال افتعبدون من دون الله مالاينفعكم ولايضركم افّ لكم ولما تعبدون من دون الله افلاتعقلون».
(الانبياء ٥١ ـ ٦٧)

فزعمت المخطّئة ان قوله عليه السلام « بل فعله كبيرهم » كذب لاشك فيه ، لانه هو الذى كسر الاصنام وجعلها جذاذاً الا كبيرها فكيف نسب التكسير الى كبيرها .

ولايخفى ان الشبهة واهية جداً مثل الشبهة السابقة ، لان الكذب في الكلام انما يتحقق اذا لم يكن هناك قرينة على انه لم يرد ما ذكره ، بالارادة الجدية وانما ذكره لغاية اخرى ومع تلك القرينة لايعد الكلام كذباً والقرينة في الكلام امران :

الأول: قوله عليه السلام عند مغادرة قومه البلد ومخاطبتهم بقوله : «وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين» (الانبياء ـ ٥٧) ولايصح حمل ذلك على

(١) تنزيه الانبياء ص٢٣

انه قاله فى قلبه وفكرته، لابصورة المشافهة والمصارحة وذلك لان ابراهيم كان مشهوراً بعدائه وكرهه للاصنام حتى انهم بعدمارجعوا الى بلدهم ووجدواالاصنام جذاذاً، اساؤوا الظن به واتهموه بالعدوان على اصنامهم وتخريبها و«قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم». (الانبياء - ٦٠)

الثانى: انمن المسلم بين ابراهيم وعبدةالاصنام ان آلهتهم صغيرهاو كبيرها لاتقدر على الحركة والفعل فمع تلك القرينة والتسليم الواضح بينه وبينهم بل وبين جميع العقلاء، اذا اجاب ابراهيم بهذا الكلام يعلم منه انه لم يتكلم به لغاية الجد بل لغاية اخرى حتى يتنبه القوم علي خطئهم فى العقيدة.

ويزيدتوضيحاً ما ورد فى القصص: ان ابراهيم بعد انحطّم الاصنام الصغيرة جعل الفأس على عنق كبيرها حتى تكون نسبة التحطيم الى الكبير مقروناً بالقرينة وهى: ان آلة الجرم تشهد على كون الكبير هو المجرم دون ابراهيم و من المعلوم ان هذا العمل والشهادة المزعومة، اشبه شيء فى مقام العمل باستهزائه بالقوم وسخريته مما يعتقدون.

فعلى تلك القرائن قدتكلم ابراهيم بهذه الكلمة لاعن غاية الجد بل لغاية اخرى كما يبيّنها القرآن فاذا انتفى الجد بشهادة القرائن القاطعة ينتفى الكذب

واما الغاية من هذا الكلام فهو انه طرح كلامه بصورة الجد وان لم يكن عن جد حقيقى، وطلب منهم ان يسألوا الاصنام بأنفسهم وانه من فعل هذا بهم؟ لغاية اخذ الاعتراف منهم بما اقروا به فى الآية اعنى قولهم «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون» حتى يتسنى للخليل كبتهم وتوبيخهم بانه اذا كان هؤلاء على مايصفون «افتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا و لايضركم اف لكم ولما تعبدون من دون الله افلاتعقلون» (الانبياء ٦٦-٦٧) وفى موضع آخر يقول «اتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون» (الصافات ٩٥-٩٦) فقد تبين من ذلك ان قوله «بل فعله كبيرهم» لم يكن كلاماً عن جد وجزم وعزم حتى يوصف بالكذب بل كان كلاماً القى على صورة الجد ليكون ذريعة لابطال عبادتهم و شركهم و كانت القرائن

تشهد على انه ليس كلاماً جدياً و لوكان هذا الكلام صادراً من عاقل غير النبى ﷺ لاجزنا لانفسنا ان نقول: ان الغاية، الاستهزاء والتهكم بعبدة الاصنام والاوثان حتى يتنبهوا بذلك الوجه الى بطلان عقيدتهم .

ولما كان هذا النمط من الحوار والاحتجاج الذى سلكه ابراهيم فى غاية القوة والمتانة ، لم يجد القوم جواباً له الاالحكم عليه بالتعذيب والاحراق شأن كل مجادل ومعاند اذا افحم كما يقول سبحانه : « قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم . فارادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين » (الصافات ٩٧ ـ ٩٨) وفى آية اخرى « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين » (الانبياء ـ ٦٨) هذا هو الحق الصراح لمن طالع القصة فى القرآن الكريم ومن امعن النظر فيها يجد ، ان الجواب هو ما ذكرنا .

جواب آخر عن السؤال :

وربما يجاب بانه لم يكذب وانما نسب الفعل الى كبيرهم مشروطا لامنجزاً وانما يلزم الكذب لو نسبه على وجه التنجيز حيث قال « بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون » فكانه قال : فعل كبيرهم هذا العمل ان كانت الاصنام المكسورة ناطقة ، وبما ان المشروط ينتفى بانتفاء شرطه وكان الشرط ـ اعنى نطقها ـ منتفيا كان المشروط ـ اى كون الكبير قائماً بهذا الفعل ـ منتفيا ايضاً :

وهذا الجواب لاينطبق على ظاهر الاية لانها تشتمل على فعلين : أحدهما قريب من الشرط والاخر بعيد عنه ومقتضى القاعدة رجوع الشرط الى القريب من الفعلين لاالى البعيد والرجوع الى كلا الفعلين خلاف الظاهر ايضاً واليك توضيحه

١ـ بل فعله كبيرهم : الفعل البعيد من الشرط .

٢ـ فاسئلوهم : الفعل القريب من الشرط .

٣ ـ ان كانوا ينطقون : هذا هو الشرط .

فرجوعه الى الاول وحده او كليهما خلاف الظاهر والمتعين رجوعه الى

الثانى فصار الحكم بانه فعله كبيرهم منجزاً لامشروطا .

الاية الثالثة :

استدلت المخطّئة لعصمة ابراهيم بالاية الثالثة ، اعنى قوله سبحانه : «وان من شيعته لابراهيم اذجاء ربه بقلب سليم. اذقال لابيه وقومه ماذا تعبدون. أ أفكاً آلهة دون الله تريدون. فما ظنكم برب العالمين. فنظر نظرة فى النجوم. فقال انى سقيم. فتولوا عنه مدبرين. فراغ الى آلهتهم فقال الاتأكلون» (الصافات ٨٣-٩١)

استدلت بقوله « انى سقيم » قائلة بانه لم يكن سقيماً وانما ذكر ذلك عذراً لترك مصاحبتهم فى الخروج عن البلد .

اضف الى ذلك ان قوله «فنظر فى النجوم» يشبه ما يفعله المنجمون حيث يستشكفون من الاوضاع الفلكية ، الاحداث الارضية .

والجواب : ان الاشكال مبنى على انه عليه السلام قال : « انى سقيم» ولم يكن سقيما ولم يدل على ذلك دليل اذ من الممكن انه كان سقيماً فى ذلك الوقت واما قوله «فنظر نظرة فى النجوم» فمن المحتمل جداً انه نظر الى السماء متفكراً حتى يلاحظ حاله وانه هل يقدر على المغادرة معهم أم لا، والعرب تقول لمن تفكر : « نظر فى النجوم » بمعنى انه نظر الى السماء متفكراً فى جواب سؤال القوم كما يفعل احدنا عند ما يريد ان يفكر فى شىء . ويؤيد ذلك انه (ع) قاله عند مادعاه قومه الى الخروج معهم لعيد لهم فعند ذلك نظر الى النجوم واخبرهم بانه سقيم ومن المعلوم ان الخروج الى خارج البلد لاجل التنزه لم يكن فى الليل بل كان فى الضحى فلو كانت الدعوة عند مطلع الشمس واول الضحى لم يكن النظر الى النجوم بمعنى ملاحظة الاوضاع الفلكية اذ كانت النجوم عندئذ غاربة فلم يكن الهدف من هذه النظرة الا التفكر والتأمل .

نعم لو كانت الدعوة فى الليل لاجل الخروج فى النهار كان النظر الى النجوم مظنة لما قيل ولكنه غير ثابت نعم هناك معنى آخر لقوله « فنظر نظرة

فى النجوم » وهوانه عليه السلام كان به حمى ذات نوبة تعتريه فى اوقات خاصة متعينة بطلوع كوكب أوغروبه ، فلاجل ذلك نظر فى النجوم ووقف على انها قريبة الموعد والعرب تسمى المشارفة على الشيء باسم الداخل فيه ولهذا يقولون لمن اضعفه المرض وخيف عليه الموت « هوميت » وقال تعالى لنبيه « انك ميت وانهم ميتون » . (الزمر ـ ٣٠)

واما استعمال كلمة «فى» مكان « الى » فى قوله « فى النجوم » فلاجل ان الحروف يقوم بعضها مقام بعض قال الله تعالى « ولاصلبنكم فى جذوع النخل» (طه ـ ٧١) وانما اراد على جذوعها وقال الشاعر :

وافتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

جواب آخر عن الشبهة :

وربما يجاب عن الاشكال : انه من قبيل المعاريض فى الكلام، والمعاريض عبارة عن ان يقول الرجل شيئاً يقصد به غيره ويفهم منه غير ما يقصده، فلعله نظر فى النجوم نظر الموحد فى صنعه تعالى الذى يستدل به على خالقه وصفاته ولكن القوم حسبوا انه ينظر اليها نظر المنجم فيها ليستدل بها على الحوادث فقال « انى سقيم » (١) .

ولايخفى ان الجواب مبنى على انه لم يكن سقيماً آنذاك وهو بعد غير ثابت على ان المعاريض غير جائزة على الانبياء لارتفاع الوثوق بذلك عن قولهم .

وبذلك يعلم قيمة ما أخرجه أصحاب الصحاح والسنن من طرق كثيرة عن ابى هريرة : ان رسول الله ﷺ قال لم يكذب ابراهيم عليه السلام غير ثلاث كذبات: ثنتين فى ذات الله : قوله : « انى سقيم » وقوله : «بل فعله كبيرهم هذا» وقوله فى سارة : « هى اختى » (٢) .

وقدعرفت ان ابراهيم لم يكذب فى الاولين واما الثالثة فهى مروية فى

(١و٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص١٣

التوراة المحرّفة فهل يمكن بعد هذا ، الاعتماد على الرواية ؟

والعجب ان ابن كثير صار بصدد تصحيح الرواية وقال : ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذى يضم فاعله، حاشا و كلا وانما اطلق الكذب على هذا تجوزا وانما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى كما جاء فى الحديث «ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب» (١) .

ونحن لانعلق على الحديث ولاعلى التوجيه الذى ارتكبه ابن كثير شيئاً وانما نحيل القضاء فيه الى وجدان القارىء الكريم و كفى فى سقم الحديث انه من مرويات ابى هريرة كما يكفى فى كذب الحديث انه من الاسرائيليات التى وردت فى التوراة المحرفة .

والعجب ان رواة هذا الحديث يزرون على الشيعة فى قولهم بالتقية، بانها مستلزمة للكذب مع ان التقية من المعاريض التى جوزها القرآن والسنة فى شرائط خاصة لاشخاص معينين .

هذه هى الايات التى استدلت المخطّئة بها على عدم عصمة بطل التوحيد وقد عرفت مفادها وهناك آيات اخر نزلت فى حقه، ربما وقعت ذريعة لهؤلاء المخطئة وبما انها واضحة المضمون لانرى حاجة الى البحث عنها و كفانا فى هذا المضمار ماذكره السيد المرتضى فى «تنزيهه» فمن اراد الوقوف عليها فليرجع اليه .

كما انهم استدلوا بآيات نزلت فى حق يعقوب، لتخطئته وبما ان الشبهات ضعيفة تركنا البحث عنها وعطفنا عنان القلم الى بعض ما استدلت به المخطئة فى هذا المضمار فى حق صديق عصره ونزيه دهره سيدنا يوسف عليه و على نبينا وآله الصلاة والسلام .

*　　*　　*

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ١٣

٤

عصمة يوسف « وقول الله ... وهم بها »

يوسف الصديق هو الاسوة

ان فيما ورد في سورة يوسف من الايات، لاجلى دليل على انه الانسان المثالى الذى لايعدّ له مثال كيف وقد دلت الايات على انه اجتباه سبحانه من أوان حياته وصباه وعلمه من تأويل الاحاديث واتم نعمته عليه وقد قام القران بسرد قصته واسماها باحسن القصص ففيها براهين واضحة على طهارته ونزاهته وعصمته من الذنوب ، وصيانته من المعاصى ، وتها لكه فى مرضات الله كيف وقد ابتلاه الله سبحانه بلاءاً حسنا فوجده صابراً متمالكا لنفسه عند الشهوات والمحرمات وناجيا من الغمرات التى لاينجو منها الامن عصمه الله سبحانه فقد ظهر بهذا البلاء باطنه ، وتجلت به حقيقته ، وبان: انه الانسان الذى حاق به الخوف من الله سبحانه ، فطفق لايغفل عنه طرفة عين ولايبدل رضاه بشيء .

كيف ومن طالع القصة يقف على ان نجاة يوسف من مخالب الشهوة وخدعة امرأة العزيز لم تكن الاامراً خارقاً للعادة ولولا عصمته لما كانت النجاة ممكنة بل كان امرا أشبه بالرؤيا منه باليقظة .

وفى هذا الصدد يقول العلامة الطباطبائى :

« فقد كان يوسف رجلا ، ومن غريزة الرجال الميل الى النساء وكان شاباً ، بالغاً اشده وذاك أوان غليان الشهوة وفوران الشبق وكان ذا جمال بديع

يدهش العقول ويسلب الالباب، والجمال والملاحة يدعوان الى الهوى ؟، هذامن جانب، ومن جانب آخر كان مستغرقاً في النعمة وهنيىء العيش،محبوراً بمثوى كريم وذلك من اقوى اسباب التهوس. وكانت الملكة فتاة فائقة الجمال كما هو الحال في حرم الملوك والعظماء وكانت لامحالة متزينة لما يأخذ بمجامع كل قلب وهي عزيزة مصر- ومع ذلك- عاشقةله والهة تتوق نفسها اليه وكانت لها سوابق الاكرام والاحسان والانعام ليوسف، وذلك كله ممايقطع اللسان ويصمت الانسان وقد تعرضت له ، ودعته الى نفسها . والصبر مع التعرض اصعب وقد راودته هذه الفتّانة وأتت بما في مقدرتها من الغنج والدلال وقد الحت عليه فجذبته الى نفسها حتى قدت قميصه والصبر معه اصعب واشق وكانت عزيزة لايرد امرها ولايثنى رأيها وهي ربته خصه بها العزيز وكان في قصر زاه من قصور الملوك ذى المناظر الرائعة التي تبهر العيون وتدعو الى كل عيش هنيىء .

وكانا في خلوة وقدغلقت الابواب وارخت الستور وكان لايأمن من الشرمع الامتناع وكان في امن من ظهور الامر وانتهاك الستر لانها كانت عزيزة ، بيدها اسباب الستر والتعمية، ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة بل كانت مفتاحاً لعيش هنيىء طويل وكان بمكن ليوسف ان يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسل بها الى كثير من آمال الحياة وامانيها كالملك والعزة والمال .

فهذه اسباب وامور هائلة لوتوجهت الى جبل لهدته ، اواقبلت على صخرة صماء لاذابتها ولم يكن هناك مما يتوهم مانعا الاالخوف من ظهور الامر اومناعة نسب يوسف اوقبح الخيانة للعزيز ولكن الكل غير صالح لمنع يوسف عن ارتكاب العمل .

اما الخوف من ظهور الامر فقد مرّ انه كان في امن منه ولو كان بدا من ذلك شيء لكان في وسع العزيزة ان تأوله تأويلا كما فعلت فيما ظهر من امر مراودتها، فكادت حتى ارضت نفس العزيز ارضاءاً فلم يؤاخذها بشيء وقلبت العقوبة على يوسف حتى سجن .

واما مناعة النسب فلو كانت مانعة لمنعت اخوة يوسف عما هو اعظم من الزنا واشد اثماً ، فانهم كانوا ابناء ابراهيم واسحاق ويعقوب امثال يوسف فلم تمنعهم شرافة النسب من ان يهموا بقتله ويلقوه في غيابت الجب ويبيعوه من السيّارة بيع العبيد، ويشكلوا فيه أباهم يعقوب النبي فبكى حتى ابيضت عيناه .

واما قبح الخيانة وحرمتها فهو من القوانين الاجتماعية، والقوانين الاجتماعية انما تؤثر اثرها بما تستتبعه من التبعة على تقدير المخالفة وذلك انما يتم فيما اذا كان الانسان تحت سلطة القوة المجرية والحكومة العادلة واما لو اغفلت القوة المجرية او فسقت فاهملت او خفي الجرم عن نظرها او خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشيء من هذه القوانين .

فلم يكن عند يوسف ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الاسباب القوية التي كانت لها عليه، الا اصل التوحيد وهو الايمان بالله وان شئت قلت: المحبة الالهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه ، فلم تترك لغيرها محلا ولا موضع اصبع (١) .

هذا هو واقع الأمر غير ان بعض المخطئة لم يرتض ليوسف هذه المكارم والفضائل واستدل على عدم عصمته بما ورد في سورة يوسف في حق العزيزة ومن هو في بيتها قال سبحانه «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربي احسن مثواي انه لا يفلح الظالمون » .

« ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين » (يوسف ٢٣ ـ ٢٤) ومحل الاستدلال قوله « وهمّ بها » اي هم بالمخالطة وان همّه بها كان كهمّها به ولولا ان رأى برهان ربه لفعل وقد صانته عن ارتكاب الجريمة بعد الهمّ بها ، رؤية البرهان .

وبعبارة اخرى : ان المخطئة جعلت كلا من المعطوف والمعطوف عليه «ولقد همت به ـ وهم بها» كلاما مستقلا غير مقيد بشيء وكأنه قال :

ولقد همت به : اي بلا شرط وقيد

(١) الميزان ج ١١ ص ١٣٧-١٣٩

وهم بها : اى جزما وحتما

ثم بعد ذلك - اى بعد الاخبار عن تحقق الهم من الطرفين - استدرك بان العزيزة بقيت على الهم الى ان عجزت واما يوسف فقد انصرف عن الاقتراف لاجل رؤية برهان ربه ولاجل ذلك قال :

«لولا أن رأى برهان ربه» اى ولولا الرؤية لاقترف وفعل وارتكب لكنه رأى فلم يقترف ولم يرتكب ، فجواب لولا محذوف وتقديره «لاقترف» .

ثم ان المخطئة استعانوا فى تفسير الاية بما ذكروه من الاسرائيليات التى لايصح ان تنقل وانما ننقل خبراً واحداً ليكون القارىء على اطلاع عليها : قالوا : جاس يوسف منها مجلس الخائن وادر كه برهان ربه ونجاه من الهلكة ثم انهم نسجوا هناك افكاراً خيالية فى تفسير هذا البرهان المرئى فقالوا ان طائراً وقع على كتفه فقال فى اذنه لاتفعل فان فعلت سقطت من درجة الانبياء وقيل : انه رأى يعقوب عاضاً على اصبعه وقال يا يوسف أما ترانى ؟ الى غير ذلك من الاوهام التى يخجل القلم من نقلها .

غير ان رفع الستر عن مرمى الاية يتوقف على البحث عن امور :

١ - ماهو معنى « الهم » فى قوله « ولقد همت به وهم بها » ؟

٢ - ماهو جواب «لولا ان رأى برهان ربه» ؟ وهذا هو العمدة فى تفسير الاية

٣ - ماهو معنى البرهان ؟

٤ - دلالة الاية على عصمة يوسف واليك تفسيرها واحداً تلو الاخر.

الف - ما معنى الهم

لقد فسره ابن منظور فى لسانه بقوله : همّ بالشىء يهم همّا : نواه واراده وعزم عليه قال سبحانه «وهمّوا بمالم ينالوا» (التوبة - ٧٤) روى اهل السير ان طائفة من المنافقين عزموا على ان يغتالوا رسول الله ﷺ فى العودة من تبوك ولاجل ذلك وقفوا على طريقه فلما قربوا من رسول الله ﷺ امر بتنحيتهم وسماهم رجلا

رجلا (١) هذا هو معنى الهم وتؤيده سائر الايات الوارد فيها لفظ الهم ولو استعمل في مورد في خطور الشيء بالبال وان لم يقع العزم عليه فهو استعمال نادر لا يحمل عليه صريح الكتاب .

اضف الى ذلك ان الهمين في الموردين بمعنى واحد وبما ان هم العزيزة كانت بنحو العزم والارادة ، وجب حمل الهم في جانب يوسف عليه ايضا لاعلى خطور الشيء بالبال ، لانه تفكيك بين اللفظين من حيث المعنى بلا قرينة ولكن تحقق احد الهمين دون، الاخر لان هم يوسف كان مشروطا بعدم رؤية برهان ربه وبما ان العدم انقلب اى الوجود ورأى البرهان لم يتحقق هذا الهم من الاساس كما سيوافيك نعم لا ننكر ان الهم قد يستعمل بالقرينة في مقابل العزم قال كعب بن زهير:

فكم فهموا من سيد متوسع ومن فاعل للخيران همّ اوعزم

ولكن التقابل بين الهم والعزم اوجب حمل الهم على الخطور بالبال ولولاه لحمل على نفس العزم .

كما ربما يستعمل في معنى المقاربة فيقولون : همّ بكذا وكذا اى كاد يفعله وعلى كل تقدير فالمعنى اللائح من الهم في الاية هو العزم والارادة .

ب ـ ما هو جواب لولا ؟

لاشك ان « لولا » في قوله سبحانه « لولا ان رأى برهان ربه » ابتدائية . فلا تدخل الاعلى المبتداء مثل « لوما » قال ابن مالك .

لولا ولوما يلزمان الابتداء اذ امتناعاً بوجود عقدا

ومما لاشك فيه ان «لولا» الابتدائية تحتاج الى جواب ويكون الجواب مذكوراً غالباً مثل قول القائل :

كانوا ثمانين اوزادوا ثمانية لولا رجاؤك قد قتلت اولادى

وقد تواترت الروايات عن الخليفة عمر بن الخطاب انه قال في مواضع خطيرة:

(١) مجمع البيان ج٣ ص٥١ وغيره

«لولا على لهلك عمر».

وربما يحذف جوابها لدلالة القرينة عليه او انفهامه من السياق كقوله سبحانه «ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم» (النور - ١٠) اى ولولا فضل الله ورحمته عليكم لهلكتم وربما يحذف الجواب لدلالة الجملة المتقدمة عليه كقوله: «قد كنت هلكت لولا ان تدار كتك» وقوله: «وقتلت لولا انى قدخلصتك» والمعنى لولا تدار كى لهلكت، ولولا تخليصى لقتلت، ومثل لولا سائر الحروف الشرطية قال الشاعر:

فلايدعنى قومى صريعاً لحرة　　لئن كنت مقتولا ويسلم عامر

وقال الآخر:

فلا يدعنى قومى ليوم كريهة　　لئن لم اعجل طعنة اواعجل

فحذف جواب الشرط فى البيتين لاجل الجملة المتقدمة.

وبالجملة: لااشكال فى ان جواب الحروف الشرطية عامة، وجواب «لولا» خاصة، يكون محذوفاً اما لفهمه من السياق اولدلالة كلام متقدم عليه والمقام من قبيل الثانى فقوله سبحانه: «ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه» يؤول الى جملتين: احداهما مطلقة والاخرى مشروطة، اما المطلقة فهى قوله: «ولقد همت به» وهو يدل على تحقق «الهم» من عزيزة مصر بلاتردد اما المقيدة فهى قوله: «وهم بها لولا ان رأى برهان ربه» وتقديره «لولا ان رأى برهان ربه لهمّ بها» فيدل على عدم تحقق الهم منه لما رأى برهان ربه واما الجملة المتقدمة على «لولا» اعنى قوله «وهم بها» فلاتدل على تحقق الهم لانها ليست جملة منفصلة عما بعدها، حتى تدل على تحقق الهم وانما هى قائمة مكان الجواب، فتكون مشروطة ومعلقة مثله وسيوافيك تفصيله عن قريب.

ج - ما هو البرهان

البرهان هو الحجة ويراد به السبب المفيد لليقين قال سبحانه: «فذانك

برهانان من ربك الى فرعون وملائه » (القصص ـ ٣٢) وقال تعالى: «يا ايها الناس قد جائكم برهان من ربكم» (النساء ـ ١٧٤) وقال سبحانه « أ اله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (النمل ـ ٦٤) فالبرهان هو الحجة اليقينية التى تجلى الحق ولاتدع ريباً لمرتاب وعلى ذلك فيجب ان يعلم ما هذا البرهان الذى رآه يوسف ؟

والذى يمكن ان يكون مصداق البرهان فى المقام هو العلم المكشوف واليقين المشهود الذى يجر النفس الانسانية الى طاعة لاتميل معها الى معصية ، وانقياد لاتصاحبه مخالفه ، وقد اوضحنا عند البحث عن العصمة ان احدى اسس العصمة هو العلم اليقين بنتائج المآثم وعواقب المخالفة علماً لايغلب، وانكشافاً لايقهر، وهذا العلم الذى كان يصاحب يوسف هو الذى صده عما اقترحت عليه امرأة العزيز .

ويمكن ان يكون المراد منه سائر الامور التى تفيض العصمة على العباد التى اوضحنا حالها فى الجزء الماضى (١).

د ـ دلالة الاية على عصمة يوسف

ان الاية على رغم ماذهبت اليه المخطئة تدل على عصمة يوسف قبل ان تدل على خلافها : توضيحه :

انه سبحانه بين هم العزيزة على وجه الاطلاق وقال «وهمت به» وبيّن هم يوسف بنحو الاشتراط وقال «وهم بها لولا ان رأى برهان ربه» فالقضية الشرطية لاتدل على وقوع الطرفين خصوصاً مع كلمة «لولا» الدالة على عدم وقوعهما .

فان قلت ان كلا من الهمين مطلق حتى الهم الوارد فى حق يوسف وانما يلزم التعليق لو قلنا بجواز تقدم جواب لولا الامتناعية عليها وهو غير جائز بالاتفاق وعليه فيكون قوله «وهم بها» مطلقاً اذ ليس جواباً لكلمة «لولا» .

قلت ان جواب «لولا» محذوف وتقديره «لهم بها» وليست الجملة المتقدمة

(١) مفاهيم القرآن ج٤ ص٣٨٥-٣٩٢

جواباً لها حتى يقال : ان تقدم الجواب غير جائز بالاتفاق ومع ذلك فليست تلك الجملة مطلقة بل هي ايضاً مقيدة بما قيد به الجواب لانه اذا كان الجواب مقيدة فالجملة القائمة مكانه تكون مثله وله نظير في الكتاب العزيز مثل قوله «ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا» (الاسراء - ٧٤) والمعنى انه سبحانه ثبّت نبيه فلم يتحقق منه الركون ولا الاقتراب منه .

وقال سبحانه : «ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم وما يضرونك من شيء» (النساء - ١١٣) والمعنى ان تفضله سبحانه على نبيه صار سبباً لعدم هم الطائفة على اضلاله .

والآية مثل الآيتين غير أن الجواب فيها محذوف لدلالة الجملة المتقدمة عليه بخلافهما .

وحاصل الكلام انه في مورد الاية ونظائرها يكون الجزاء منتفيا بانتفاء شرطه غير ان هذه الجمل انما تستعمل في ما اذا كانت هناك ارضية صالحة لتحقق الجزاء وان لم يتحقق لانتفاء الشرط وفي مورد الاية، ارضية الهم كانت موجودة في جانب يوسف لتجهزه بالقوى الشهوية، وغيرها من قوى النفس الامارة وكانت هذه العوامل مقتضية لحدوث الهم بالفحشاء ، ولكن صارت خائبة غير مؤثرة لاجل رؤية برهان ربه ، والشهود اليقيني الذي يمنع النبي عن اقتراف المعصية والهم بها . وان شئت قلت : منعته المحبة الالهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه فلم تترك لغيرها موضع قدم ، فطرد ما كان يضاد تلك المحبة .

وهذا هو مفاد الآية ولا يشك فيه من لاحظ المقدمات الاربع التي قدمناها.

وعلى ذلك فبما ان «اللام» في قوله: «ولقد همت به» للقسم يكون معنى قوله « وهم بها » بحكم عطفه عليه والمعنى : والله لقد همت امرأة العزيز به ووالله لولا ان رأى يوسف برهان ربه لهمّ بها ، ولكنه لاجل رؤية البرهان واعتصامه ، صرف عنه سبحانه السوء والفحشاء فاذا به عليه السلام لم يهم بشيء ولم يفعل شيئا لاجل تلك الرؤية .

اسئلة وأجوبة

ولاجل رفع الغطاء عن وجه الحقيقة على الوجه الاكمل تجب الاجابة عن عدة من الاسئلة التى تثار حول الاية واليك بيانها واجوبتها .

السؤال الاول

ان تفسير الهمّ الوارد فى الآية فى كلا الجانبين بالعزم على المعصية، تكرار لماجاء فى الاية المتقدمة بصورة واضحة وهى قوله « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك» ومع هذا البيان الواضح لاوجه لتكراره ثانياً بقوله «ولقد همّت به وهمّ بها» خصوصاً فى همّها به اذ ورد فى الآية المتقدمة بصورة واضحة اعنى قوله «هيت لك» .

والجواب ان الدافع الى التكرار ليس هو لافادة نفسه مرة ثانية بل الدافع هو بيان كيفية نجاة يوسف من هذه الغائلة، ولاجل ذلك عاد الى نفس الموضوع مجدداً ليذكر مصير القصة ونهايتها وهذا نظير ما اذا حدّث احد عن تنازع شخصين واضرار احدهما بالاخر واستعداده للدفاع عن نفسه فاذا افاد ذلك ثم اراد ان يشير الى نتيجة ذلك العراك يعود ثانياً الى بيان اصل التنازع حتى يبين مصيره ونهايته والآيتان من هذا القبيل .

وبذلك يظهر ان ما افاده صاحب المنار فى هذا المقام غير سديد حيث قال : انه قد علم من القصة ان هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلباً جازماً مصرة عليه ليس عندها ادني تردد فيه ولامانع منه يعارض المقتضى له فاذاً لايصح ان يقال : انها همّت به مطلقا اذا لهمّ مقاربة الفعل المتردد فيه (١) .

اقول قد عرفت دافع التكرار فلا نعيده . بقى الكلام فيما افاده فى تفسير الهم بانه عبارة «عن مقاربة الفعل المتردد فيه» ولايخفى انه لايصح فى قوله سبحانه :

(١) المنار ج١٢ ص٢٨٦

« فهمّوا باخراج الرسول » (التوبة - ١٣) اى اخراج الرسول من مكة فهم كانوا جازمين بذلك وقد تآمروا عليه فى ليلة خاصة معروفة فى السيرة والتاريخ كما لايصح فى قوله سبحانه « وهموا بما لم ينالوا » (التوبة - ٧٤) حيث حاول المنافقون أن ينفروا بعير النبى ﷺ فى العقبة فى منصرفه من غزوة تبوك .

السؤال الثانى:

ان تفسير البرهان بالعصمة لايتناسب مع سائر استعمالاته فى القرآن مثلا البرهان فى قوله سبحانه : « فذلك برهانان من ربك » (القصص - ٣٢) عبارة عن معاجز موسى من العصا واليد البيضاء وعلى ذلك فيجب ان يفسر البرهان بشىء ينطبق على الاعجاز لاالعصمة التى هى من مقولة العلم .

والجواب ان البرهان بمعنى الحجة وهى تنطبق تارة على المعجزة واخرى على العلم المكشوف واليقين المشهود الذى يصون الانسان عن اقتراف المعاصى وقد سبق منا فى الجزء الرابع (١) ان العصمة لاتسلب القدرة فهى حجة للنبى فى آجله وعاجله ودليل فى حياته الى سعادته .

السؤال الثالث :

ان قوله سبحانه « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء» ظاهر فى ان«السوء» غير « الفحشاء» فلو فسر قوله « ولقد همت به وهم بها » بالعزم على المعصية يلزم كونهما بمعنى واحد وهو خلاف الظاهر .

والجواب : ان المراد من السوء هو الهم والعزم ، والمراد من الفحشاء هو نفس العمل فالله سبحانه صرف ببركة العصمة نفس الهم ونفس الاقتراف كليهما

قال العلامة الطباطبائى: الانسب: ان المراد بالسوء هو الهم بها والميل اليها كما ان المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشة وهى الزنا ثم قال : ومن لطيف الاشارة

(١) راجع الجزء الرابع ص٤٠١-٤٠٥

مافى قوله « لنصرف عنه السوء والفحشاء » حيث جعل السوء والفحشاء مصروفين عنه لاهو مصروفاً عنهما لما فى الثانى من الدلالة على انه كان فيه مايقتضى اقترافه لهما المحوج الى صرفه عن ذلك وهو ينافى شهادته تعالى بانه من عباده المخلصين وهم الذين اخلصهم الله لنفسه فلا يشاركهم فيه شيء ولا يطيعون غيره من تسويل شيطان اوتزيين نفس اوای داع من دون الله سبحانه .

ثم قال : وقوله «انه من عبادنا المخلصين» فى مقام التعليل لقوله « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » والمعنى عاملنا يوسف كذلك . لانه من عبادنا المخلصين ويظهر من الاية ان من شأن المخلصين ان يروا برهان ربهم وان الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم فلا يقترفون معصيته ولا يهمون بها بما يريهم الله من برهانه وهذه هى العصمة الالهية (١) .

السؤال الرابع :

لو كان المراد من « برهان ربه » هو العصمة فلما ذا قال سبحانه : « رأى برهان ربه » فان هذه الكلمة تناسب الاشياء المحسوسة كالمعاجز والكرامات لا العصمة التى هى علم قاهر لا يغلب ويصون صاحبه عن اقتراف المعاصى .

اقول: ان الرؤية كما تستعمل فى الرؤية الحسية والرؤية بالابصار، تستعمل ايضاً فى الادراك القلبى والرؤية بعين الفؤاد قال سبحانه « ما كذب الفؤاد مارأى » (النجم ـ ١١) وقوله سبحانه « افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » (فاطر ـ ٨) و قوله سبحانه « فلما سقط فى ايديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين» (الاعراف ـ ١٤٩) وهذه الايات ونظائرها تشهد بوضوح بان الرؤية تستعمل فى الادراك القلبى والاستشعار الباطنى .

و على ذلك فيوسف الصديق لما وقع مقابل ذلك المشهد المغرى ، الذى يسلب اللب والعقل عن البشر، كان المتوقع بحكم كونه بشراً، الميل الى المخالطة

(١) الميزان ج١١ ص١٤٢

معها والعزم على الاتيان بالمعصية ولكنه لماادرك بالعلم القاطع اثر تلك المعصية صانه ذلك عن اى عزم وهمّ بالمخالطة .

هذا هو المعنى المختار فى الآية وبذلك تظهر نزاهة يوسف عن اى هم وعزم على المخالطة .

وهناك تفسير آخر للاية يتفق مع المعنى المختار فى تنزيه يوسف عن كل مالايناسب ساحة النبوة غيرانه من حيث الانطباق على ظاهر الاية يعد فى الدرجة الثانية وهذا المعنى هو الذى اختاره صاحب «المنار» وطلاّه بعض المعاصرين وزوقه وسيوافيك بيان صاحب «المنار» وماجاء به ذلك المعاصر فى البحث التالى :

المعنى الثانى للاية :

ان المراد من الهم فى كلا الموردين هو العزم على الضرب والقتل مثل قوله سبحانه «وهموا بمالم ينالوا» (التوبة - ٧٤) حيث قصد المشركون اغتيال النبى عند منصرفه من تبوك فيكون المعنى ان امرأة العزيز همت بضربه وجرحه وبطبيعة الحال لم يكن امام يوسف الا ان يدافع عن نفسه غير انه رأى ان ذلك ربما ينجر الى جرح امرأة العزيز ويكون ذلك ذريعة بيدها لاتهام يوسف وبهته، فقد ادرك هذا المعنى ولم يهم بها وسبقها الى الباب ليتخلص منها وعلى ذلك فيكون معنى الهم فى كلا الموردين هو الضراب لكنه من جانب العزيزة بدافع ومن جانب يوسف بدافع آخر .

وهذا التوجيه يتناسب مع حالة العاشق الواله عندما يخفق فى نيل مايصبو اليه ويتوق الى تحصيله فانه فى مثل هذا الموقف تحدث له حالة باطنية تدفعه الى الانتقام من معشوقه الذى لم يساير ه فى مطلبه ولم يحقق له غرضه ، وقد حدث مثل هذا لأمرأة العزيز، فانها عند ما اخفقت فى نيل ماتريد من يوسف ، دفعها الشعور بالهزيمة والاخفاق الى الانتقام من يوسف وهذا هو معنى قوله : « ولقد همت به» على الاطلاق وبلاتقييد .

ولم يكن فى هذه الحالة امام يوسف الا ان يدافع عن نفسه ولكنه لما استشعر بان ضرب العزيزة سوف يتخذ ذريعة لبهته واتهامه، اعتصم عن ضربها والهم بها وهذا معنى قوله «وهم بها لولا ان رأى برهان ربه».

وهذا المعنى هو المختار لبعض اهل التفسير واختاره صاحب المنار وسعى فى تقويته بقوله: تالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه امرها وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها وقد اذلت نفسها له بدعوته الصريحة الى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ومن شأن المرأة ان تكون مطلوبة لا طالبة ولكن هذا العبد العبرانى قد عكس القضية وخرق نظام الطبيعة فاخرج المرأة من طبع انوثتها فى دلالها وتمنعها وهبط بالسيدة المالكة من عز سيادتها وسلطانها وعندئذ همت بالبطش به فى ثورة غضبها وهو انتقام معهود من مثلها وممن دونها فى كل زمان ومكان» (١).

ثم ان بعض المعاصرين اختار المعنى المذكور غير انه فسر «برهان ربه» بغير الوجه المذكور فى هذا الرأى بل فسره بانفتاح الباب بارادة الله سبحانه حيث ان امرأة العزيز كانت قد غلقت الابواب واحكمت سدها وعند ما وقع هذا الشجار بينها وبين يوسف، سبق يوسف الى الباب فراراً منها وانفتح الباب له بارادة الله سبحانه وهذا هو برهان الرب الذى رآه ويدل على ذلك ان القرآن يصرح بغلق الابواب ولا يأتى عن انفتاح الباب باى ذكر وهذا يدل على ان المراد من «برهان ربه» هو فتح الباب من عند الله سبحانه فى وجه يوسف كرامة له.

ولا يخفى ضعف هذا التفسير وذلك لانه لو كان المراد من البرهان هو انفتاح الباب لزم ذكره عند قوله او قبله «واستبقا الباب» لا فى الآية المتقدمة عليه ويظهر ذلك بملاحظتهما حيث قال:

«ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه...» (الاية - ٢٤).

«واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب»... (الاية - ٢٥)

(١) المنار ج ١٢ ص ٢٧٨

ترى انه يذكرهمه بها ورؤية البرهان فى آية ثم يذكر استباقهما الى الباب فى آية اخرى مع الفصل بينهما بذكر امور منها «انه كان من المخلصين» ، فلو كان المراد من «رؤية البرهان» هو انفتاح الباب كان المناسب ذكر الاستباق قبلها .

على ان الظاهر من قوله «وغلقت الابواب» هو سدّ الابواب لا اقفالها بمعنى وضع قفل عليها يمتنع معه فتحها بيسر وانما لم تقفلها لانها لم تكن تتوقع من يوسف ان لا يستجيب لها ويعصى امرها .

المعنى الثالث للاية :

ان الهمّ من جانب يوسف هو خطور الشيء بالبال وان لم يقع العزم عليه وربما يستعمل الهم فى ذلك قال كعب بن زهير :

فكم فهموا من سيد متوسع　　ومن فاعل للخير ان همّ او عزم

ولا يخفى ان هذا التفسير عليل لان الظاهر من الهمّ فى كلا الموردين واحد ولم يكن الهمّ من جانب العزيزة الا العزم ، والتفكيك بين الهمين خلاف الظاهر .

وعلى كل تقدير فقصة يوسف الواردة فى القرآن تدل على نزاهته من اول الامر الى آخره وانه لم يتحقق منه عزم ولا همّ بالمخالطة لانه همّ وعزم وانصرف لعلة خاصة .

ثم ان هناك لاكثر المفسرين اقوالا فى تفسير الاية أشبه بقصص القصاصين وقد أضربنا عن ذكرها صفحاً فمن اراد فليرجع الى التفاسير .

وفى مختتم البحث نأتى بشهادة العزيزة بنزاهة يوسف عند ما حصحص الحق وبانت الحقيقة وقد نقلها سبحانه بقوله « قال ما خطبكن اذ راود تن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين » (يوسف - ٥١) وشهدت فى موضع آخر على طهارته واعتصام نفسه وقالت « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين». (يوسف - ٣٢)

٥

عصمة موسى وقتل القبطي ، ومشاجرته اخاه

ان الكليم موسى بن عمران احد الانبياء العظام ، وصفه سبحانه باتم الاوصاف واكملها قال عزمن قائل : «واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً . وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا اخاه هارون نبياً» . (مريم ٥١ـ ٥٣) وقال سبحانه : «ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين» . (الانبياء ـ ٤٨) ووصف كتابه بقوله : «ومن قبل كتاب موسى اماما ورحمة» . (الاحقاف ـ ١٢)

ومع ذلك كله : فقد استدل المخالف بعدم عصمته بامرين :

احدهما : قتله القبطي وتوصيفه بانه من عمل الشيطان .

ثانيهما : مناقشته مع اخيه هارون مع عدم كونه مقصراً ، واليك البحث عن كل واحد منهما .

الف : عصمة موسى وقتل القبطي :

قال عزمن قائل : «ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكما و علماً و كذلك نجزي المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين . قال رب اني

ظلمت نفسى فاغفرلى فغفرله انه هو الغفور الرحيم قال رب بما انعمت على فلن اكون ظهيراً للمجرمين». (القصص - ١٤ - ١٧)

ويذكر القرآن تلك القصة فى سورة الشعراء بصورة موجزة ويقول سبحانه «الم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين. قال فعلتها اذا وانا من الضالين». (الشعراء ١٨ - ٢٠)

وتدل الايات على ان موسى ورد المدينة عند ماكان اهلها غافلين عنه اما لانه ورد نصف النهار والناس قائلون اوورد فى اوائل الليل واما لغير ذلك فوجد فيها رجلين كان احدهما اسرائيليا و الاخر قبطيا يقتتلان فاستنصره الذى من شيعته على الاخر فنصره فضربه بجمع كفه فى صدره فقتله وبعد ما فرغ من امره ندم ووصف عمله بما يلى.

١ - هذا من عمل الشيطان.

٢ - رب انى ظلمت نفسى.

٣ - فاغفرلى فغفرله.

٤ - فعلتها اذا وانا من الضالين.

و هذه الجمل الاربع تعرب عن كون القتل امراً غير مشروع. و لاجل ذلك وصفه تارة بانه من عمل الشيطان، واخرى بانه كان ظلماً لنفسه، واعترف عند فرعون بانه فعل مافعل وكان عند ذاك من الضالين ثالثاً وطلب المغفرة رابعاً.

اقول: قبل توضيح هذه النقاط الاربع نلفت نظر القارىء الكريم الى بعض ما كانت الفراعنة عليه من الاعمال الاجرامية، ويكفى فى ذلك قوله سبحانه: ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحى نساءهم انه كان من المفسدين. (القصص-٤) ولم يكن فرعون قائماً بهذه الاعمال الابعماله القبطيين الذين كانوا اعضاده وانصاره. وفى ظل هذه المناصرة ملكت الفراعنة بنى اسرائيل رجالا ونساءاً فاستعبدوهم كما يعرب عن ذلك قوله سبحانه «وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل» ولما قال فرعون لموسى:

« الم نربك فينا وليداً » واستعلى عليه بانه رباه وليداً منذان ولد الى ان كبر ... اجابه موسى بانه هل تمن على بهذا وقد عبدت بنى اسرائيل ؟

وعلى ذلك فقتل واحد من انصار الطغمة الاثيمة التى ذبحت مئات بل آلاف الاطفال من بنى اسرائيل واستحيوا نساءهم. لايعد فى محكمة العقل والوجدان عملا قبيحا غير صحيح ، اضف الى ذلك ان القبطى المقتول كان بصدد قتل الاسرائيلى لولم يناصره موسى كما يحكى عنه قوله : «يقتتلان» . ولو قتله القبطى لم يكن لفعله أى ّ ردفعل ، لانه كان منتمياً للنظام السائد الذى لم يزل يستأصل بنى اسرائيل ويريق دماءهم طوال سنين ، فكان قتله فى نظره من قبيل قتل الانسان الشريف احد عبيده لاجل تخلفه عن امره .

اذا وقفت على ذلك فلنرجع الى توضيح الجمل التى توهم المستدل بها دلالتها على عدم العصمة فنقول :

١ ـ ان قوله «هذا من عمل الشيطان» يحتمل وجهين :

الاول : ان يكون لفظ «هذا» اشارة الى المناقشة التى دارت بين القبطى والاسرائيلى وانتهت الى قتل الاول . وعلى هذا الوجه ليست فيه أية دلالة على شيىء مما يتوخاه المستدل . . . وقد رواه ابن الجهم عن الامام الرضا عليه السلام عند ما سأله المأمون عن قوله «هذا من عمل الشيطان» فقال : الاقتتال الذى كان وقع بين الرجلين لامافعله موسى من قتله . (١)

الثانى : ان لفظ «هذا» اشارة الى قتله القبطى ، وانما وصفه بانه من عمل الشيطان ، لوجهين .

الف ـ ان العمل كان عملا خطئاً محضا ساقه الى عاقبة وخيمة فاضطر الى ترك الدار والوطن بعد ماانتشر سره ووقف بلاط فرعون على ان موسى قتل احد انصار الفراعنة وأتمروا عليه ليقتلوه ولولا ان مؤمن آل فرعون اوقفه على حقيقة الحال لاخذته الجلاوزة وقضوا على حياته كما قال سبحانه :

«وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك

(١) البرهان ج٣ ص٢٢٤ وعيون اخبار الرضا ج١ ص١٩٨

فاخرج انى لك من الناصحين (القصص - ٢٠) فلم تكن لهذا العمل اية فائدة فردية اواجتماعية سوى الجائه الى ترك الديار والقاء الرحل فى دار الغربة «مدين» والاشتغال برعى الغنم اجيراً لشعيب عليه السلام .

فكما ان المعاصى تنسب الى الشيطان قال سبحانه : «انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون». (المائدة-٩٠) فكذلك الاعمال الخاطئة الناجمة من سوء التدبير وضلال السعى، السائقة للانسان الى العواقب المرة، تنسب اليه ايضا .

فالمعاصى والاعمال الخاطئة كلاهما تصح نسبتهما الى الشيطان بملاك انه عدو مضل للانسان والعدو لايرضى بصلاحه وفلاحه بل يدفعه الى مافيه ضرره فى الآجل والعاجل ولاجل ذلك قال بعد ماقضى عليه .. «هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين» .

ب - ان قتل القبطى كان عملا ناجما عن العجلة فى محاولة تدمير العدو ، ولو انه كان يصبر على مضض الحياة قليلا لنبذ القبطى مع جميع زملائه فى اليم من دون ان توجد عاقبة وخيمة . كما قال سبحانه: «فاخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين» (القصص-٤٠)

٢-وبذلك يعلم مفاد الجملة الثانية التى هى من احدى مستمسكات المستدل اعنى قوله : «رب انى ظلمت نفسى » فان الكلام ليس مساوقاً للمعصية ومخالفة المولى ، بل هو كما صرح به ائمة اللغة وقدمنا نصوصهم عند البحث عن عصمة آدم عبارة عن وضع الشيىء فى غير موضعه ، وقد عرفت ان عمل موسى كان عملا واقعاً فى غير موقعه . وخاطئاً من جهتين : من جهة انه ساقه الى عاقبة مرة ، حيث اضطر الى ترك الاهل والدار والديار . ومن جهة اخرى انه كان عملا ناشئاً من الاستعجال فى اهلاك العدو بلاموجب ولاجل تينك الجهتين كان عملا واقعاً فى غير محله فصح ان يوصف العمل بالظلم، والعامل بالظالم . والذى يعرب عن ذلك انه جعله ظلماً لنفسه لا للمولى ولو كان معصية لكان ظلماً لمولاه وتعديا على حقوقه

كما هو الحال فى الشرك فانه ظلم للمولى وتعد عليه قال سبحانه : «الاتشرك بالله انه لظلم عظيم» . (لقمان ـ ١٠٤)

٣ ـ واما الجملة الثالثة اعنى قوله : «فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم» فليس طلب المغفرة دليلا على صدور المعصية ، لانه بمعنى الستر. والمراد منه الغاء تبعة فعله وانجاءه من الغم وتخليصه من شر فرعون وملاءه وقد عبر عنه سبحانه «وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً. (طه ـ ٣٠) وقد نجاه سبحانه باخبار رجل من آل فرعون عن المؤامرة عليه فخرج من مصر خائفاً يترقب الى ان وصل ارض مدين فنزل دار شعيب وقص عليه القصص وقال له شعيب . . لاتخف نجوت من القوم الظالمين . (القصص ـ ٥)

وبذلك غفر وستر عمله ونجاه سبحانه من اعين الفراعنة . ومكن له الورود الى ماء مدين والنزول فى دار احد انبيائه (ع) .

اضف الى ذلك : ان قتل القبطى وان لم يكن معصية ولكن كان المترقب من موسى تركه وعدم اقترافه . فصدور مثله من موسى يناسب طلب المغفرة . . فان حسنات الابرار سيئات المقربين . اذ رب عمل مباح لا يؤاخذ به الانسان العادى ولكنه يؤاخذ به الانسان العارف . فضلا عن شخصية الهية سوف تبعث لمناضلة طاغية العصر . فكان المناسب لساحتها هو الصبر والاستقامة فى حوادث الحياة: حلوها ومرّها ، والفصل بين المتخاصمين بكلام ليّن وقد امر به عند ما بعث الى فرعون فامره سبحانه ان يقول له قولا ليناً» . (طه ـ ٤٤) وقد اوضحنا مفاد هذه الكلمة عند البحث عن آدم وحواء اذ «قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» . (الاعراف ـ ٢٣)

٤ ـ وأما قوله سبحانه : «فعلتها اذا وأنا من الضالين» . فالمراد من الضلال هو الغفلة عما يترتب على العمل من العاقبة الوخيمة . ونسيانها ، وليس ذلك امراً غريباً . فقد استعمل فى هذين المعنيين فى الذكر الحكيم ، قال سبحانه : «ممن ترضون من الشهداء ان تضل احديهما فتذكر احديهما الاخرى» . (البقرة ـ ٢٨٢)

فالمراد نسيان احد الشاهدين وغفلته عما شهد به . وقال سبحانه : «ءاذا ضللنا فى الارض ءانا لفى خلق جديد» . (السجدة - ١٠) اى اذا غبنا فيها .

قال فى لسان العرب : الضلال : النسيان وفى التنزيل : ممن ترضون من الشهداء ان تضل احديهما فتذكر احديهما الاخرى . اى يغيب عن حفظها ومنه قوله تعالى «فعلتها اذاً وأنا من الضالين». وضللت الشيء : انسيته . واصل الضلال: الغيبوبة يقال : ضل الماء فى اللبن اذا غاب ومنه قوله تعالى «ءاذا ضللنا فى الارض ءانا لفى خلق جديد» . (١)

وعلى الجملة : ان كليم الله يعترف بتلك الجملة عندما اعترض عليه فرعون بقوله «وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين» ويعتذر عنها بقوله : «فعلتها اذا وانا من الضالين» والمناسب لمقام الاعتذار هو تفسير الضلال بالغفلة عما يترتب على العمل من النتائج ونسيانها . وحاصله انه قد استولت على الغفلة حين الاقتراف وغاب عنى ما يترتب عليه من رد فعل ومر العاقبة ففعلت ما فعلت

ومن اللحن الواضح تفسير الضلالة بضد الهداية . كيف وان الله سبحانه يصفه قبل ان يقترف القتل بقوله : «وآتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين» . (القصص - ١٤) كما ان نفس موسى بعد ما طلب المغفرة واستشعر اجابة دعائه قال : «رب بما انعمت على فلن اكون ظهيراً للمجرمين» (القصص-١٧) افيصح بعد هذا تفسير الضلالة بالغواية ضد الهداية ؟ كلا . . .

هذا كله حول المستمسك الاول اعنى قتل القبطى، فهلم معى ندرس المستمسك الثانى للخصم من اتهام كليم الله الاعظم ، عليه وعلى جميع رسل الله آلاف الثناء والتحية ، بعدم العصمة .

ب - مناقشته مع اخيه هارون (ع)

ان الله سبحانه واعد موسى - بعد ان اغرق فرعون - بان يأتى جانب الطور

(١) لسان العرب ج١١ ص٣٩٢-٣٩٣ مادة ضل

الايمن فيوفيه التوراة التى فيها بيان الشرائع والاحكام وما يحتاج اليه . وكانت المواعدة على ان يوافى الميعاد مع جماعة من وجوه قومه فتعجل موسى من بينهم شوقاً الى ربه وسبقهم على ان يلحقوا به ولما خاطبه سبحانه بقوله: «وما اعجلك عن قومك ياموسى» اجابه بانهم «على اثرى» ووراءى يدركوننى عن قريب وعندذلك اخبره سبحانه بانه امتحن قومه بعد فراقه « واضلهم السامرى » فرجع موسى من الميقات الى بنى اسرائيل حزيناً مغضباً فرأى ان السامرى «اخرج لهم عجلا» جسداً له صوت وقال : انه اله بنى اسرائيل عامة وتبعه السفلة والعوام ، واستقبل موسى هارون فالقى الالواح واخذ يعاتب هارون ويناقشه. وهذا مايحكيه سبحانه فى سورتين ويقول: «ولمارجع موسى الى قومه غضبان اسفاً قال بئسما خلفتمونى من بعدى اعجلتم امر ربكم والقى الا لواح واخذ براس اخيه يجره اليه قال ابن ام ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلاتشمت بى الاعداء ولاتجعلنى مع القوم الظالمين» (الاعراف ـ ١٥٠) ويقول سبحانه: «فرجع موسى الى قومه غضبان اسفاً قال ياقوم الم يعدكم ربكم وعداً حسناً افطال عليكم العهد ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدى. . . قال ياهارون مامنعك اذرأيتهم ضلوا الاتتبعن افعصيت امرى قال يبنؤم لاتاخذ بلحيتى ولابرأسى انى خشيت ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى» (طه ـ ٨٦ و ٩٣ ـ ٩٥) فهاهنا يطرح سؤالان .

١ ـ لما ذا القى الالواح ؟

٢ ـ لما ذاناقش اخاه وقد قام بوظيفته ؟

واليك تحليل السئوالين بعد بيان مقدمة وهى :

ان موسى قد خلف هارون عندما ذهب الى الميقات وقد حكاه سبحانه بقوله: «وقال موسى لهارون اخلفنى فى قومى واصلح ولاتتبع سبيل المفسدين» (الاعراف ـ ١٤٢) وقام هارون بوظيفته فى قومه فعند مااضلهم السامرى ناظرهم بقوله : «يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى واطيعوا امرى» (طه ـ ٩٠) واكتفى فى ذلك بالبيان واللوم ولم يقم فى وجههم بالضرب والتأديب وقد بينه لاخيه

بقوله: «انى خشيت ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى» (طه - ١٩٤)

هذا مايخص هارون واما مايرجع الى موسى فقد اخبره سبحانه عن اضلال السامرى قومه بقوله: فانا قدفتنا قومك من بعدك واضلهم السامرى (طه - ٨٥) «ورجع الى قومه غضبان اسفا وخاطبهم بقوله: بئسما خلفتمونى من بعدى اعجلتم امر ربكم (الاعراف - ١٥٠) وقال ايضا: «الم يعدكم ربكم وعداً حسناً افطال عليكم العهد» (طه - ٨٦) وفى هذا الظرف العصيب اظهر كليم الله غضبه بانجاز عملين.

١ - القاء الالواح جانبا.

٢ - مناقشته اخاه بقوله: «ما منعك اذ رأيتهم ضلوا. الاتتبعن أفعصيت امرى» (طه - ٩٢ - ٩٣) فعند ذلك يطرح السؤالان نفسهما.

لما ذا القى الالواح؟ اولا؟ ولماذا ناقش اخاه وناظره وقد قام بوظيفته ثانياً فنقول:

لاشك ان ما اقترفه بنو اسرائيل من عبادة العجل كان من اقبح الاعمال وافظعها كيف وقد اهلك الله عدوهم واورثهم ارضهم فكان المترقب منهم هو الثبات على طريق التوحيد ومكافحة الوان الشرك. - ومع الاسف - فانهم كفروا بعظيم النعمة، وتركوا عبادته سبحانه، وانخرطوا فى سلك الثنوية مع الجهل بقبح عملهم وفظاعة فعلهم.

ان امة الكليم وان كانت غافلة عن مدى قبح عملهم لكن سيدهم ورسولهم كان واقفاً على خطورة الموقف وتعدى الامة، فاستشعر بانه لولم يكافحهم بالعنف والشدة ولم يقم فى وجههم بالاستنكار مع ابراز التأسف والغضب، فربما تمادى القوم فى غيهم وضلالهم و حسبوا انهم لم يقترفوا الاذنبا خفيفا اومخالفة صغيرة ولم يعلموا انهم حتى ولورجعوا الى الطريق المهيع، واتبعوا جادة التوحيد ربما بقيت رواسب الشرك فى اغوار اذهانهم، فلاجل ايقافهم على فظاعة العمل، قام فى مجال الاصلاح مثل المدير الذى يواجه الفساد فجأة فى مديريته ولايعلم من اين تسرب اليها.

فاول مايبادر اليه هومواجهة القائم مقامه الذى خلفه فى مكانه ، وادلى اليه مفاتيح الامور . فاذا ثبتت برائته ونزاهته وانه قام بوظيفته خيرقيام حسب تشخيصه ومدى طاقته، تركه حتى يقف على جذور الامر والاسباب الواقعية التى ادت الى الفساد والانهيار .

وهكذا قام الكليم بمعالجة القضية ، وعالج الواقعة المدهشة التى لوبقيت على حالها . لانتهت الى تسرب الشرك الى عامة بنى اسرائيل وذهب جهده طوال السنين سدى ، فاول رد فعل أبداه ، انه واجه اخاه القائم مقامه فى غيبته ، بالشدة والعنف حتى يقف الباقون على خطورة الموقف فاخذ بلحيته ورأسه مهيمنا عليه متسائلا بانه لما ذا تسرب الشرك الى قومه مع كونه فيهم ؟ ولما تبينت براءته وانه ادى وظيفته كما يحكيه عنه سبحانه بقوله : «ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلاتشمت بى الاعداء ولاتجعلنى مع القوم الظالمين». اندفع اليه بعطف وحنان ودعا له فقال : « رب اغفر لى ولاخى وادخلنا فى رحمتك وانت ارحم الراحمين » . (الاعراف ـ ١٥٠) ان طلب المغفرة لنفسه واخيه لايدل على صدور اى خلاف منهما فان الانبياء والاولياء لاستشعارهم بخطورة الموقف و عظمة المسؤلية . ما زالوا يطلبون غفران الله ورحمته لعلو درجاتهم كما هوواضح لمن تتبع احوالهم وسيوافيك بيانه عند البحث عن عصمة النبى الاكرم صلى الله عليه وآله .

وبعد ماتبين ان السبب الواقعى لتسرب الشرك الى قومه هوالسامرى وتبعه السفلة والعوام . اخذ بتنبيههم بقوارع الخطاب وعواصف الكلام بماهو مذكور فى سورتى الاعراف طه ونكتفى ببعضها حيث خاطب عبدة العجل بقوله : «ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين . (الاعراف ـ ١٥٢)

ولما واجه السامرى خاطبه بقوله : «فما خطبك ياسامرى . قال بصرت بما

لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى. قال فاذهب فان لك فى الحيوة ان تقول لامساس وان لك موعداً لن تخلفه وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً انما الهكم الله الذى لااله الاهو وسع كل شىء علما». (طه ٩٥ - ٩٨)

وبما ذكرنا يعلم انه لما ذا القى الالواح وتركها جانباً فلم يكن ذاك العمل الاكرد فعل على عملهم القبيح وفعلهم الفظيع الى حد استولى الغضب على موسى فالقى الالواح التى ظل اربعين يوماً فى الميقات لتلقيها حتى يحاسب القوم حسابهم ويقفوا على انهم أتوا باعظم الجرائم واكبر المعاصى.

* * *

٦

عصمة داود عليه السلام

وقضائه فى النعجة

قدوصف سبحانه داود النبى عليه السلام باسمى ماتوصف به الشخصية المثالية قال سبحانه : «واذكر عبدنا داود ذا الايد انه اواب» .

وقد ذكر ملكه وسلطنته على الجبال والطيور على وجه يمثل اقوى طاقة نالها البشر طيلة استخلافه على الارض .

قال سبحانه : «انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق . والطير محشورة كل له اواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب» .

(سورة ص ـ ١٧ ـ ٢٠)

فقد اخبر فى الاية الاخيرة بانه اوتى الحكمة وفصل الخطاب ، الذى يعد القضاء الصحيح بين المتخاصمين من فروعه وجزئياته .

ثم انه سبحانه ينقل بعده قضاءه فى «نبأ الخصم» يقول :

«وهل اتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب . اذدخلو على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط. ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب. قال لقد ظلمك بسئوال نعجتك الى نعاجه وان كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الاالذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب. فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن

مآب ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله» . (سورة ص ٢١ - ٢٦)

لقد تمسكت المخطّئة لعصمة الانبياء بقوله تعالى: «فاستغفر ربه وخر راكعا واناب فغفرنا له ذلك» حيث ان الاستغفار وغفرانه سبحانه له ، آية صدور الذنب والاجابة عن هذا الاستدلال تحتاج الى بيان مفردات الاية وايضاح القصة فنقول :

ان تفسير الاية يتم ببيان عدة امور :

١ - توضيح مفرداتها .

٢ - ايضاح القصة .

٣ - هل الخصمان كانا من جنس البشر.

٤ - لماذا استغفر داود وهل كان استغفاره للذنب او لاجل ترك الاولى .

واليك بيان هذه الامور .

الف : توضيح المفردات :

«الخصم» مصدر «الخصومة» اريد به الشخصان ، «التسور» : الارتقاء الى اعلى السور، وهو ماكان حائطا، «كالتسنم» بمعنى الارتقاء الى اسنام البعير، «والتذرى» بمعنى الارتقاء الى ذروة الجبال ، والمراد من المحراب فى الاية الغرفة، «والفزع» : انقباض ونفار يعترى الانسان من الشيء المخيف ، وهو من جنس الجزع «والشطط» : الجور، و«النعجة». الانثى من الضأن ، والمراد من قوله «اكفلنيها» : اجعلها فى كفالتى وتحت سلطتى، ومن قوله «عزنى فى الخطاب» : انه غلبنى فيه.

هذا كله راجع الى توضيح مفردات الاية .

ب - ايضاح القصة :

كان داود عليه السلام جالساً فى غرفته اذدخل عليه شخصان بغير اذنه ،

وكانا اخوين يملك احدهما تسعا وتسعين نعجة ويملك الاخر نعجة واحدة ، وطلب الاول من اخيه ان يعطيه النعجة التى تحت يده ، مدعيا كونه محقا فيما يقترحه على اخيه ، وقد القى صاحب النعجة الواحدة كلامه على وجه هيج رحمة النبى داود وعطفه .

فقضى عليه السلام طبقاً لكلام المدعى من دون الاستماع الى كلام المدعى عليه وقال : «لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه» .

ولما تنبه ان ماصدر منه كان غير لائق بساحته وان رفع الشكوى اليه كان فتنة وامتحاناً منه سبحانه بالنسبة اليه «فاستغفر ربه وخر راكعا واناب» .

ج - هل الخصمان كانا من جنس البشر ؟

ان القرائن الحافة بالاية تشعر بان الخصمين لم يكونا من جنس البشر وهذه القرائن عبارة عن :

١ - تسورهم المحراب ودخولهم عليه دخولا غير عادى مع ان طبع الحال يقتضى ان يكون محرابه محفوفا بالحرس ولااقل بمن يطلعه عن الامر فلو كان الدخول باذنهم كان داود عليه السلام مطلعا عليه ولم يكن هناك اى فزع .

٢ - خطاب الخصمين لداود عليه السلام بقولهم «لاتخف» مع ان هذا الخطاب لايصح ان تخاطب به الرعية ، الراعى وطبيعة الحال تقتضى ان يخاطب به الراعى الرعية .

٣ - ان خطابهما لداود بما جاء فى الاية ، اشبه بخطاب ضيف ابراهيم له عليه السلام يقول سبحانه: «ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذدخلو عليه فقالوا سلاما قال انامنكم وجلون قالوا لاتوجل انانبشرك بغلام عليم» (الحجر ١٥١ - ١٥٣) ويقول سبحانه : «فاوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم» .
(الذاريات - ٣٤)

٤ - تنبهه عليه السلام بانه كان فتنة من الله له وامتحانا منه وهى تشعر بان

الواقعة لم تكن عادية وهذا يناسب كون الدعوى مطروحة من جانبه سبحانه عن طريق الملائكة .

٥ - ان الهدف من طرح تلك الواقعة كان لغاية تسديده في خلافته وحكمه بين الناس حتى يمارس القضاء بالنحو اللائق بساحته ولا يغفل عن التثبت ولاجل ذلك خاطبه سبحانه بعد قضائه في ذلك المورد بقوله : «يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق» كل ذلك يؤيد كون الخصمين من الملائكة تمثلوا له بصورة رجلين من الانس .

نعم كانت القصة وطرح الشكوى عنده امرا حقيقيا كقصة ضيف ابراهيم عليه الصلاه والسلام لا بصورة الرؤيا وما اشبهها .

د - كون الاستغفار لاجل ترك الاولى :

استدلت المخطئة باستغفاره وانابته الى الله ، على صدور ذنب منه ولكنه لا يدل على ذلك :

اما اولا : ان قضائه لم يكن قضاء باتا خاتما للشكوى ، بل كان قضاء على فرض السئوال ، وان من يملك تسعا وتسعين نعجة ولا يقتنع بها ويريد ضم نعجة اخيه اليها ، ظالم لاخيه وكان المجال بعد ذلك بالنسبة الى المعترض مفتوحا وان كان الاولى والاليق بساحته هو انه اذا سمع الدعوى من احد الخصمين ، أن يسأل الاخر عما عنده فيها ولا يتسرع في القضاء ولو بالنحو التقديري .

وانما بادر اليه لانه عليه السلام فوجيء بالقضية ودخل عليه المتخاصمان بصورة غير عادية فلم يظهر منه التثبت اللائق به .

ولما تنبه الى ذلك وعرف ان ماوقع ، كان فتنة وامتحاناً من الله بالنسبة اليه ، «استغفر ربه وخر راكعاً واناب» تدار كاً لما صدر منه مما كان الاولى تركه ، اولا ، وشكراً وتعظيما لنعمة التنبه الذى نال به فوراً بعد الزلة ، ثانيا .

وثانيا: ان من الممكن ان يكون قضاؤه قبل سماع كلام المدعى عليه، لاجل

انكشاف الواقع له بطريق من الطرق وان الحق مع المدعى ، فقضى بلا استماع لكلام المدعى عليه نعم الاولى له حتى فى هذه الصورة ترك التسرع فى اصدار الحكم، والقضاء بعد الاستماع ولما ترك ماهو الاولى بحاله استغفر لذلك وقد تكرر منا ان ترك الاولى من الانبياء ذنب نسبى وان لم يكن ذنبا على وجه الاطلاق :

وثالثا: لما كانت الشكوى مرفوعة اليه من قبل الملائكة وفى ظرف التمثل ولم يكن ذلك الظرف ظرف التكليف ، كانت خطيئة داود فى ظرف لاتكليف هناك، كما ان خطيئة آدم عليه السلام كانت فى الجنة ولم تكن الجنة دار تكليف ومع ذلك كله لما كان التسرع فى القضاء بهذا الوجه امرا مرغوبا عنه ، استغفر داود واناب الى الله استشعاراً بخطر المسئولية بحيث يعد ترك الاولى منه ذنبا يحتاج الى الاستغفار .

نعم قد وردت فى التفاسير احاديث فى تفسير الاية لايشك ذو مسكة من العقل انها اسرائيليات تسربت الى الامة الاسلامية عن طريق احبار اليهود ورهبان المسيحية فالاولى الضرب عنها صفحا ، وسياق الايات يكشف عن ان زلته لم يكن الافى امر القضاء فقط لاما تدعيه جهلة الاحبار من ابتلائه بما يخجل القلم عن ذكره ولاجله يقول الامام على عليه السلام فى حق من وضع هذه الترهات او نسبها الى النبى داود: «لااوتى برجل يزعم ان داود تزوج امرأه «اوريا» الاجلدته حدين : حداً للنبوة وحداً للاسلام» (١) .

* * *

(١) مجمع البيان ج٤ ص٤٧٢

٧

عصمة سليمان عليه السلام

ومسألة عرض الصافنات الجياد وطلب الملك :

ان سليمان النبي (ص) احد الانبياء وقد ملك من القدرة أروعها ومن السيطرة والسطوة اطولها ، وآتاه الله الحكم والحلكم والعلم قال سبحانه : ولقد آتينا داود وسليمان علما . (النمل ـ ١٥) . وقال عز من قائل : وكلا آتينا حكما وعلما ، (الانبياء ـ ٧٩) . وعلّمه منطق الطير قال سبحانه: «يا ايها الناس علمنا منطق الطير» (النمل ـ ١٦) . ووصف الله قدرته بقوله : «وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير» . (النمل ـ ١٧) . الى غير ذلك من الايات الواردة فى توصيف قدرته وسعة علمه وعلوّ درجاته .

روى اصحاب السير : كان سليمان صلى الصلاة الاولى وقعد على كرسيه والخيل تعرض عليه حتى غابت الشمس . فقال : آثرت حب الخيل على ذكر ربى وان هذه الخيل شغلتنى من صلاة العصر » فامر برد الخيل فاخذ يضرب سوقها واعناقها لانه كانت سبب فوت صلاته . (١) وفى بعض التفاسير ان المراد من «ردوها» هو طلب رد الشمس عليه فردت فصلى العصر (٢) .

ويدعى بعض هؤلاء ان ماساقوه من القصة تدل عليه الايات التالية اعنى

---

(١) تفسير الطبرسى ج ٢٣ ص ٩٩ ـ ١٠٠ والدر المنثور ج ٥ ص ٣٠٩

(٢) مجمع البيان ناسبا الى «القيل» ج ٤ ص ٤٧٥

قوله سبحانه : «ووهبنا لداود سليمان نعم العبدانه اواب. اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال انى احببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها علىّ فطفق مسحاً بالسوق والاعناق» . (ص ٣١ ـ ٣٣) .

فهل لما ذكروه مسحة من الحق اولمسة من الصدق . اوان الايات تهدف الى امر آخر خفى على هؤلاء وانهم اخذوا ماذكروه من علماء اهل الكتاب كما سيوافيك بيانه ؟

ونقد هذه القصة المزعومة يتوقف على توضيح مفاد الآيات حتى يقف القارىء على انها من قبيل التفسير بالرأى الممنوع . ومن تلفيقات علماء اهل الكتاب التى حمّلت على القرآن وهوبرىء منها . اقول:

١ ـ «الصافنات» جمع «الصافنة» وهى الخيل الواقفة على ثلاث قوائم الواضعة طرف السنبك الرابع على الارض حتى يكون على طرف الحافر .

٢ ـ «الجياد» جمع «الجواد» وهى السراع من الخيل كانهاتجودبالركض،

٣ ـ «الخير» ضد «الشر» وقد يطلق على المال كمافى قوله سبحانه : «ان ترك خيراً» (البقرة ـ ١٨٠) . والمراد منه هناهى «الخيل» والعرب تسمى الخيل خيراً وسمى النبى زيد الخيل بـ«زيد الخير» وقال ﷺ : الخير معقود بنواصى الخيل الى يوم القيامة» وكيف لايكون خيراً وهولم يزل يعد وسيلة الحياة فى عامة الحضارات .

٤ ـ «الحب» ضد البغض . قال فى اللسان : احببته وحببته بمعنى واحد .

٥ ـ «حب الخير» بدلعن المفعول المحذوف وتقديره انى احببت الخيل حب الخير ويريد ان حبى للخيل نفس الحب للخير . لان الخيل كما عرفت وسيلة نجاح الانسان فى حياته الفردية والاجتماعية ، خصوصا عند الجهاد مع العدو والهجوم عليه . ويحتمل ان يكون «حب الخير»مفعولا لابدلاعن المفعول

٦ ـ «عن ذكر ربى» بيان لمنشأ حبه للخير وسببه ، وان حبه له ناشعن ذكر ربه . وتقدير الجملة: احببت الخير حباناشئاً عن ذكر الله سبحانه وامره حيث

امر عباده المخلصين بالاعداد للجهاد ومكافحة الشرك وقلع الفساد بالسيف والخيل. ولاجل ذلك قمت بعرض الخيل، كل ذلك امتثالا لامره سبحانه لااجابة لدعوة الغرائز التى لايخلو منها انسان كما اشار اليه سبحانه بقوله : «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدنيا والله عنده حسن الماب» (آل عمران - ١٤).

ويجد نظير تلك الدعوة فى الذكر الحكيم قال سبحانه «واعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوالله وعدوكم»(الانفال: ٦٠).

٧ - فاعل الفعل فى قوله «حتى توارت بالحجاب» اى الصافنات الجياد والمقصود: ان الخيل اخذت بالركض حتى غابت عن بصره.

٨ - ان الضمير فى قوله «ردوها» يرجع الى الخيل التى تدل عليها الصافنات الجياد والمقصود انه امر بردها عليه بعد ماغابت عن بصره.

٩ - وعند ذلك يطرح السؤال وهو انه لماذا امر بالرد وما كان الهدف منه. فبينه بقوله : «فطفق مسحاً بالسوق والاعناق» اى شرح بمسح اعراف خيله وعراقيبها بيده تقديراً لركابها ومربيها الذين قاموا بواجبهم باعداد وسائل الجهاد.

الى هنا اتضح مفاد مفردات الاية وجملها. وعلى هذا تكون الايات هادقة الى تصوير عرض عسكرى قام به احد الانبياء ذوى السلطة والقدرة فى ايام ملكه وقدرته وحاصله : ان سليمان النبى (الذى اشار القران الى ملكه وقدرته وسطوته وسيطرته على جنوده من الانس والجن وتعرفه على منطق الطير الى غير ذلك من صنوف قدرته وعظمته التى خصصها به بين الانبياء) قام - فى عشية يوم بعرض عسكرى وقد ركب جنوده من الخيل السراع فاخذت تركض من بين يديه الى ان غابت عن بصره فامر اصحابه بردها عليه حتى اذا ما، وصلت اليه قام تقديرا لجهودهم بمسح اعناق الخيل وعراقيبهم.

ولم يكن قيامه بهذا العمل صادرا عنه لجهة اظهار القدرة والسطوة اوللبطر والشهوة. بل اطاعة لامره سبحانه وذكره حتى يقف الموحدون

على وظائفهم ويستعدوا للكفاح والنضال ماتمكنوا ويهيئوا الادوات اللازمة فى هذاالمجال . (١)

وهذا هوالذى تهدف اليه الايات وينطبق عليها انطباقا واضحاً ، فهلم معى ندرس المعنى الذى فرض على الايات وهى بعيدة عن تحمله وبريئة منه .

نقد التفسير المفروض على القرآن:

ان فى نفس الايات قرائن وشواهد تدل على بطلان القصة التى اتخذت تفسيراً للايات . واليك بيانها .

١ ـ ان الذكر الحكيم يذكر القصة بالثناء على سليمان ويقول : «ووهبنا لداود وسليمان نعم العبد انه اواب» فاسلوب البلاغة يقتضى ان لايذكر بعده ماينا قضه ويضاده . فاين وصفه بحسن العبودية والرجوع الى الله فى امور دينه ودنياه ، من انشغاله بعرض الخيل وغفلته عن الصلاة المفروضة عليه ؟ ولو فرضت صحة الواقعة فلازم البلاغة ذكرها فى محل آخر ، لاذكرها بعد المدح والثناء المذكورين فى الاية .

٢ ـ انما يصح حمل قوله : «احببت حب الخير عن ذكر ربى» على ماجاء فى القصة اذا تضمن الفعل (احببت) معنى الترجيح والاختيار والتقدير اى احببت حب الخير مقدما اياه على ذكر ربى ومختاراً اياه عليه ، وهو يحتاج الى الدليل

٣ ـ ولوقلنا بالتضمين فيجب ان يقال مكان «عن ذكر ربى» على ذكر ربى» اى احببت حب الخير واخترته على ذكر الله كما فى قوله سبحانه «فاستحبوا العمى على الهدى» (فصلت ـ ١٧) وقوله تعالى ان استحبوا الكفر على الايمان» . (التوبه ـ ٢٣) .

٥ ـ ان ضمير الفعل فى قوله تعالى «توارت» يرجع الى الصافنات المذكورة

(١) وقد اختار هذا التفسير السيد المرتضى فى تنزيه الانبياء ص٩٥ـ٩٧ والرازى فى مفاتيح الغيب ج٧ص١٣٦ والمجلسى فى البحار ج١٤ ص١٠٣ـ١٠٤ من الطبعة الحديثة

فى الاية ، وعلى التفسير المفروض ، يرجع الى الشمس وليست مذكورة فى الاية ، ودلالة لفظ «بالعشى» عليها ضعيفة جداً .

٥ ـ الضمير فى قوله «ردوها» على المختار يرجع الى الصافنات وعلى التفسير المفروض يرجع الى الشمس وهى غير مذكورة .

٦ ـ ان الخطاب فى قوله «ردوها» على المختار متوجه الى رؤساء الجنود وهو واقع موقعه . وعلى التفسير المنقول عن بعضهم (١) يكون متوجها الى الملائكة وهو لا يناسب الا كونه منه سبحانه لعلوه واستعلائه ، لا من مثل سليمان بالنسبة اليهم .

٧ ـ لا شك ان للصفوة من عباده سبحانه ولاية تكوينية ومقدرة موهوبة على التصرف فى الكون باذنه سبحانه ، لغايات مقدسة لاثبات نبوتهم و كونهم مبعوثين من الله سبحانه لهداية عباده . وتدل عليها آيات كثيرة قدمنا بعضها فى ماسبق من هذه الموسوعة . (٢) ولم يكن المقام هنا مناسبا للتحدى حتى يتوصل الى الاعجاز والتصرف فى الكون بالامر برد الشمس فان الصلاة الفائتة لو كانت مفروضة فجبرانها بقضائها ولو كانت مسنونة فلا اشكال فى فوتها . فلم يكن هناك لزوم للتصرف فى الكون وامر ملائكة الله بردها حتى يأتى بالصلاة المسنونة .

٨ ـ لو كان المراد من «ردوها» طلب رد الشمس من ملائكته سبحانه فاللازم ان يذكر الغاية من ردها بان يقول حتى اتوضأ واصلى وليس لهذا ذكر فى الاية . بل المذكور قوله : فطفق مسحاً بالسوق والاعناق . وهذا يعرب عن ان الغاية المترتبة على الرد هى مسح السوق والاعناق . لا التوضؤ والصلاة .

٩ ـ ان تفسير المسح بالقطع ، تفسير بلادليل . اذ المتبادر من المسح هو امرار اليد عليها لا قطعها واجتثاثها . ولو كان هذا هو المراد مما ورد فى القصة فالانسب ان يقول : فطفق ضربا بالسوق ، لا مسحاً .

---

(١) نسبه الطبرسى الى «القيل» كما مر

(٢) لاحظ الجزء الاول ص٤٤٤-٤٤٦

١٠ ـ ان التفسير المذكور ينتهى الى كذاب الاحبار وهو كعب الذى لم يزل يدس فى القصص والاخبار بنزعاته اليهودية ومن اراد ان يقف على دوره فى الوضع والكذب وغير ذلك فى هذا المجال فعليه ان يرجع الى ابحاثنا فى الملل والنحل.

١١ ـ ان بعض المفسرين قاموا بتفسير قوله: «فطفق مسحاً بالسوق والاعناق» بمسحها بالماء كناية عن الوضوء، وهو فى ضعفه كماترى، اذلو كان المراد ماذكره ذلك البعض. فلما ذا بدل الغسل بالمسح، والساقين بالسوق والعنق بالاعناق. مع انه لم يكن لسليمان الاساقان وعنق واحد.

١٢ ـ ان قتل الخيل التى عبر عنها نفس سليمان «بالخير» بحجة ان الاشتغال بعرضها صار سبباً لفوت الصلاة اشبه بعمل انسان لايملك من العقل شيئاً وحاشا سليمان الذى آتاه الله الحكم والعلم وسلطه على الارض من الانس والجن والسماء، من هذا العمل الذى لايقترفه السفلة من الناس الاالمجانين منهم لاالعاديون من السوقة. فضلا عن انبياء الله واوليائه المنزهين.

وفى الختام نلفت نظر القارى الى ماذكره «سيد قطب» فى تفسير هذه الايات فى تفسيره قال: اما قصة الخيل: ان سليمان عليه السلام استعرض خيلاله بالعشى ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب فقال ردوها علىّ فردوها عليه فجعل يضرب اعناقها وسيقانها جزاء ماشغلته عن ذكر ربه وفى رواية روى انه جعل يمسح سوقها واعناقها اكراماً لهالانها كانت خيلا فى سبيل الله. ثم قال: وكلتا الروايتين لادليل عليها ويصعب الجزم بشىء منها. (١)

والعجب من السيد انه اعطى الروايتين مكانة واحدة مع ان الاولى تضاد حكم العقل وسيرة الانبياء والعلماء لذلك يسهل الجزم ببطلانها. واما الثانية فهى تنطبق على ظاهر الايات كمال الانطباق. وهوالمروى عن حبر الامة ابن عباس.

(١) فى ظلال القرآن الكريم ج٢٣ ص١٠٠

وقد نقل الرواية الاولى عن اناس كانوا لايتحرزون من الاخذ عن الاحبار المستسلمين فنقلها الطبرى فى تفسيره عن السدى وقتادة حتى ان الطبرى مع نقله اولى الروايتين اختار قول ابن عباس واستوجهه وقال : ان نبى الله لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة ويهلك مالا من ماله بغير سبب سوى انه اشتغل عن صلاته بالنظر اليها ولاذنب لها باشتغاله بالنظر اليها . (١)

ولا يقصر عنه مانقله السيوطى فى الدر المنثور من الاساطير حول هذه الخيول فروى عن ابراهيم التميمى انه قال كانت عشرين الف فرس ذات اجنحة فعقرها وفى الوقت نفسه نقل قول ابن عباس فى تفسير المسح : ظل سليمان يمسح اعراف الخيل وعراقيبها(٢) .

هذا حال التفسير المفروض على الاية . وهناك مستمسك آخر فى مورد سليمان للمخطّئة ناتى به .

الفتنة التى امتحن بها سليمان:

قال سبحانه : «ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسية جسداً ثم أناب ، قال رب اغفر لى وهب لى ملكاً لاينبغى لاحد من بعدى انك انت الوهاب» (ص ٣٤- ٣٥)

وتوضيح مفاد الايات يترتب على البحث عن امور:

١ - ماهى الفتنة التى امتحن بها سليمان ؟

٢ - مامعنى طلب المغفرة مع التمسك بحبل العصمة ؟

٣ - لماذا يطلب لنفسه الملك ؟

٤ - اماذا يطلب ملكاً لاينبغى لاحد من بعده ؟

اماالسؤال الاول : فليس فى الايات الواردة فى المقام مايكشف عن حقيقتها . واماالروايات فقد نقل اهل الحديث حول تبيين الفتنة روايات يلوح

---

(١) تفسير الطبرسى ج٣ ص ١٠٠

(٢) الدر المنثور ج٥ ص ٣٠٩

منها انها اسرائيليات ، بثها احبار اليهود بين المسلمين وقد ابتلى بها المسلمون فى كثير من المجالات التفسيرية والتاريخية والعقائدية و . . . . فالرجاء من الله سبحانه ان يقيض جماعة من المثقفين والمحققين ويوفقهم لتهذيب الكتب الاسلامية منها وتنقيحها عن مروياتهم .

ولكن من بين هذه الروايات مايمكن ان يعتمد عليه هوما قيل : كان لسليمان ولدشاب ذكى كان يحبه حباً شديداً فاماته الله على بساطه فجأة بلامرض، اختياراً من الله تعالى لسليمان وابتلاء لصبره فى اماتة ولده والقى جسمه على كرسيه . (١)

ولاشك ان الابتلاء بموت الولد الشاب من اعظم الابتلاءات والصبر فى هذا المجال وتفويض الامر الى الله سبحانه آية كمال النفس . فلم يكن الهدف من الابتلاء الان يتفتح الكمال المركوز فى ذاته ، حتى يخرج من القوة الى الفعل . وسنوضح فلسفة الابتلاء عند البحث عن ابتلاء ابراهيم بالكلمات فانتظر.

والعجب ان سيد قطب قد اعتمد فى تفسير الفتنة على رواية يبدو انها من الاسرائيليات التي اخذها ابوهريرة عن كعب الاحبار قال : ولم اجد اثراً صحيحاً اركن اليه فى تفسير «الجسد الذى القى على كرسى سليمان» سوى حديث صحيح ، فى ذاته . ولكن علاقته باحد هذين الحادثين ليست اكيدة . وهذا الحديث هوماروا ه ابوهريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله واخرجه البخارى فى صحيحه مرفوعاً ونصه : قال سليمان : لاطوفن الليلة على سبعين امرأة . كل واحد تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله . ولم يقل «ان شاء الله» فطاف سليمان عليهن فلم تحمل الا امرأة جاءت بشق رجل ، والذى نفسى بيده : لوقال ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا اجمعون . ثم قال السيد : وجائز ان تكون هذه هى الفتنة التى تشير اليها الايات وان يكون الجسد هوهذا الوليد الشق ولكن هذا مجرد احتمال . (٢)

---

(١) تنزيه الانبياء ص٩٩ الطبعة القديمة (٢) فى ظلال القران الكريم ج٢٣ ص٩٩

نحن لانعلق على هذا الحديث شيئاً وانما نترك القضاء فيه الى القارىء لكى يقضى فيه و كفى فى ضعفه انه من مرويات ابى هريرة وقد وصفها سيدقطب بانها مجرد احتمال كما عرفت .

وبذلك يعلم الجواب عن السؤال الثانى ، فالظاهر انه كان له عليه السلام فيه رجاء اوامنية ، فاماته والقاه على كرسيه ، حتى يوقفه على ان حق العبودية تفويض الامر الى الله والتسليم اليه ، ولعل هذا المقدار من الرجاء وعقدالامنية على الولد يعد نحو انقطاع من الله الى الولد .

وهو وان لم يكن معصية ولكن الاليق بحال الاولياء غيره ولاجل ذلك لما استشعر بوظيفته التى يوجبها مقامه ، اناب الى الله ورجع اليه وطلب المغفرة كما يقول سبحانه « ثم اناب قال رب اغفرلى . »

وقدتكررمنا ان طلب المغفرة ، ليس دليلا على العصيان وصدورالذنب ، بل كل فعل اوترك ، صدر من الرجال العارفين بحقيقة الربوبية وعمق العبودية وكان الاولى والاليق خلافه ، استوجب طلب الغفران ، وان لم يكن معصية وخلافاً فى منطق الشرع ، ولاجل ذلك ان اولياء الله لم يزالوا مستغفرين كل يوم وليلة لسعة استشعارهم بعظمة الوظيفة فى مقابل عظمة الخالق .

واما السؤال الثالث : اعنى طلب الملك من الله سبحانه . فلم يكن الملك مقصوداً لذاته لان مثل هذا الملك، لاينفك عن الظلم والتعدى وهضم الحقوق الى غير ذلك مما اشير اليه فى قوله تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة و كذلك يفعلون (النمل- ٣٤) وفى قوله عزاسمه : «اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فاردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصباً». (الكهف-٧٩)

هكذاكانت طبيعة الملوكية فى الاعصار الغابرة والحاضرة فهى مع الاستبداد لاواستعباد وغصب الاموال وقتل النفوس المحترمة متلازمة ؟ كما هو واضح لمن لاحظ تاريخ السلطان فى الادوار الماضية والحاضرة .

وانما طلب سليمان ماوراء ذلك فقد طلب من الله سبحانه الملك الذى يقوده انسان اوتى العلم والحكم وتشرف بالنبوة والوحى، وماهذا حاله، لايكون الملك مطلوبا له بالذات وانما يكون فى طريق احقاق الحق وابطال الباطل والخدمة للخلق .

ولاجل ان المبتادر من الملك - فى اذهان العامة هوالسلطة الجائرة نجد الذكر الحكيم عندمايصف الله بـ«الملك» يتابعه : بـ«القدوس» مشيراً الى ان ملكه وسلطته تفارق سائر السلطات فهوفى عين كونه ملكاً للعالم ، قدوس منزه من كل عيب وشين ومن كل تعد وظلم . فهو «الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن» . (الحشر - ٢٣)

نقل اهل السيران النبى ﷺ كان يقول: لست بملك، مع انه كان حاكماً الهياً ورئيس دولة اسلامية اسسها منذ بدء وروده المدينة، ومراده هوابعاد نفسه عمايتبادر الى اذهان العامة من سماع ذلك اللفظ . وانه ليس من هؤلاء الزمرة ، بل حاكم الهى يسعى لصالح الامة حسب القوانين الالهية .

وبالجملة : فرق بين السلطة التى تستخدمها الغرائز العادية ، والسلطة التى تراقبها النبوة، ويكسبح جماحها الخوف من الله ، والعشق لرضوانه، والذى طلبه سليمان فى الاية انما هو الثانى وهو عمل الهى وخدمة للدين وعمل مقرب ، دون الاول .

ولاجل ان لاتذهب اذهان الصحابة الى المعنى المتبادر من لفظ « الملك » قام رسول الله ﷺ بتوضيح ما طلب سليمان لنفسه من الله سبحانه وقال : ارأيتم مااعطى سليمان من داود من ملكه فان ذلك لم يزده الاتخشعاً، ماكان يرفع بصره الى السماء تخشعاً لربه . (١)

وقد اوضحنا حقيقة السلطة الاسلامية التى دعا الى استقرارها ، الكتاب

(١) روح البيان ج٨ ص٣٩

والسنة ، ملامحها واهدافها فلاحظ. (١)

ومن هنا يعلم جواب السؤال الرابع وانه لماذا قال: «لاينبغي لاحد من بعدي» فانه لم يقل ذلك ضناً وبخلا على الغير . وانما قال ذلك لانه طلب الملك الذي لايصلح في منطق العقل والشرع ان يمارسه غيره ، اومن هو نظيره في العلم و الايمان، وذلك لانه سبحانه يبين ملامح هذا الحكم في آيات اخر ويقول: «فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء حيث اصاب . والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرّنين في الاصفاد. هذا عطاؤنا فامنن اوامسك بغير حساب. وان له عندنا لزلفى وحسن مآب» (ص ٣٦ - ٤٠) فالايات بحكم «الفاء» في قوله «فسخرنا له» تدل على انه لم يطلب مطلق الحكم وهو السلطة التي يصح ان يمارسها المتعارف من الناس خصوصاً اذا كانوا من الصلحاء وانما طلب من القدرة ما يصل بها الى تسخير الريح والجو والشياطين . ومثل هذه القدرة لاتصح في منطق العقل ان يقع في متناول المتعارف من الناس لان وجود تلك السلطة في متناول غير المعصوم يؤدي الى الطغيان وهدم الحدود وادعاء الربوبية الى غير ذلك من عظيم الفساد وانما تكون مقرونة بالصلاح والفلاح اذا مارسها نبي عارف بعظمة المسؤولية امام الله اولا، وامام العقل والوجدان ثانياً ، وامام الخلق ثالثاً .

ولاجل ذلك يقول : «لاينبغي لاحد من بعدي». ويريد منه الانسان المتعارف غير المتمسك بحبل العصمة ، وغير المتحلّى بالنبوة ، فان هذا الملك لما عرفت- لاينبغي لاحد ، وانما ينبغي لسليمان ومن يكون بمنزلته من الصيانة والعصمة .

والى ماذكرنا يشير المرتضى ويقول : انما التمس ان يكون ملكه آية لنبوته ، ليتبين بها عن غيره ممن ليس بنبي وقوله : « لاينبغي لاحد من بعدي » ارادبه لاينبغي لاحد غيري ممن انا مبعوث اليه ولم يرد من بعده الى يوم القيامة من النبيين . (٢)

---

(١) لاحظ الجزء الثاني من هذه الموسوعة : الفصل الاول ص ١١-٧٢

(٢) تنزيه الانبياء ص ١٠٠

٨

عصمة ايوب (ع) ومس الشيطان له بعذاب

قد وصف سبحانه نبيه العظيم « ايوب » باوصاف كبار وقال : « انا وجدناه صابراً نعم العبد انه اواب » (ص ـ ٤٤) ومع ذلك كله فقد استدلت المخطئة على عدم عصمته بظواهر بعض الايات وهي لاتدل على ما يرتأون واليك تلكم الايات:

قال سبحانه : « وايوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر وآتيناه اهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكراً للعابدين» (الانبياء ـ ٨٣ ـ ٨٤) .

وقال سبحانه : «واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب. اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. ووهبنا له اهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكراً لأولى الالباب. وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولاتحنث انا وجدناه صابراً نعم العبد انه اواب» (ص ـ ٤١ ـ ٤٤) .

استدلت المخطئه على تجويز صدور الذنب من الانبياء بما ورد فى هذه الايات مما يوهم ذلك اعنى قوله .

١ ـ « مسنى الشيطان » .

٢ ـ «بنصب وعذاب» .

وقد ظنوا ان مس الشيطان يستلزم صدور الذنب منه غافلين عن أن هذه الجملة عبارة اخرى عما ورد فى سورة الانبياء بقوله «مسنى الضر» .

كما ظنوا ان العذاب عبارة عن العقوبة الالهية غافلين عن ان العذاب عبارة عن كل ماشق على الانسان وهو المراد من التعب والنصب والوجع والألم .

وبالجملة لادلالة للاية على صدور الذنب ابداً انما الكلام فى بيان ما هى علة ابتلاء ايوب بهذا الوجع والالم ؟ ويتضح هـذا باستعراض الايات و تفسير مفرداتها فنقول :

قال الراغب : «الضر»: سوء الحال اما فى نفسه لقلة العلم والفضل والعفة ، واما فى بدنه لعدم جارحة ونقص ، واما فى حالة ظاهرة من قلة مال وجاه وقوله «فكشفنا ما به من ضر» محتمل لثلاثتها .

غيرانه يحتمل ان يكون الضرهنا بمعنى يساوق المرض وهو غير المعنى الثانـى الذى اشار اليه الراغب ولاجل ذلك يقول العلامة الطباطبائى : الضر خصوص مايمس النفس من الضرر كالمرض والهزال ونحوهما وذيل الايات يؤيد هذا المعنى .

واما «النصب» فهو التعب وربما يفتح كمـا قال الله سبحانه «لايمسنا فيها نصب» . (فاطر-٣٥) يقال انصبنى كذا اى اتعبنى وازعجنى .

واما «الركض» فهو الضرب بالرجل .

هذه هـى اللغات الواردة فى الآية واذا عرفنا معانيها فنرجع الى تفسير الآية وستعرف انه لايستشم منها صدور اى معصية من النبى ايوب مظهر الصبر والمقاومة .

تفسير قوله «مسنى الضر»

اما ما ورد فى سورة الانبياء فلايدل على ازيد من انه مسّه الضر وشملته البلية فابتهل اليه سبحانه قائلا « انى مسنى الضروانت خير الراحمين » وعند ئذ شملته العناية الالهية فكشف الله عنه ما به من ضر ومن المحتمل جداً ان المراد هو المرض وشافاه الله من ذلك المرض الذى ابتلى به سنين ولم يكتف بذلك بل وآتاه اهله

باحيائهم مضافاً الى مثلهم كل ذلك رحمة من عنده ولم يكن ذلك العمل الا امتحاناً منه سبحانه لايوب وغيره من العابدين حتى يتذكروا ويعلموا ان الله تعالى يبتلي اولياءه ثم يؤتيهم اجرهم ولا يضيع اجر المحسنين وليس الامتحان الا لاجل تفتح الكمالات المكنونة في ذات الممتحن، ولا تظهر تلك الكمالات الا اذا وقع الانسان في بوتقة الامتحان فتظهر حينئذ بواطنه من الكمالات والمواهب وقد اوضحنا ذلك في بعض مسطوراتنا . يقول امير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال « ومعنى ذلك انه يختبرهم بالاموال والاولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه وان كان سبحانه اعلم بهم من انفسهم ولكن لتظهر الافعال التي بها يستحق الثواب والعقاب» (١)

تفسير قوله « مسني الشيطان »

واما الايات الواردة في سورة «ص» فهي التي وقعت ذريعة لبعض المخطئة من انه سبحانه ابتلى ايوب ببعض الامراض، المنفرة مع انه ليست في الاية اشارة ولا تلويح الى ذلك الا في بعض الاحاديث التي تشبه الاسرائيليات . قال سبحانه في سورة «ص»: «واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب» وقد عرفت معنى النصب واما العذاب فلا يتجاوز معناه ما يؤذي الروح من سوء الحال فقوله : «مسني الشيطان» عبارة عما ذكره في سورة الانبياء بقوله «مسني الضر» فنسب نزول النصب والعذاب في هذه الاية الى الشيطان ولكنه سكت عن فاعله في سورة الانبياء وعندئذ يجب امعان النظر في معنى هذه الجملة فنقول : انه يحتمل احد معنيين .

١ ـ ان يكون ما مسه من الضر والمرض مستنداً الى الشيطان بنحو من السببية والتأثير مكان استناده الى الاسباب العادية الطبيعية فكما ان الانسان يصيبه التعب بواسطة العلل المادية، يصيبه التعب بنحو من مس الشيطان كل ذلك باذن منه سبحانه وهذا المعنى هو الذي يستفاد من الروايات وهو وان لم يكن له مؤيد

(١) نهج البلاغة قسم الحكم الرقم ٩٣

في ظاهر الاية غير انه ليس من الامور المستحيلة فانه اذا كان للعلل الطبيعية سلطان على الانبياء في امراضهم فلا مانع من ان تكون للشيطان سلطة في خصوص هذا المجال لا في اضلالهم والتصرف في قلوبهم وعقيدتهم، كل ذلك باذن الله سبحانه خصوصاً اذا كان ذلك لاجل الامتحان.

نعم انكر الزمخشري هذا السلطان قائلا بانه لا يجوز ان يسلط الله الشيطان على انبيائه ليقضي من تعذيبهم واتعابهم وطره، فلو قدر على ذلك لم يدع صالحاً الا وقد نكبّه واهلكه وقد تكرر في القرآن انه لا سلطان له الا الوسوسة فحسب(١)

اقول: انما يصح ما ذكره اذا كانت للشيطان مقدرة مطلقة وعامة على كل الصالحين والمؤمنين وعند ذلك لم يدع صالحاً الا وقد نكبه واهلكه وهو غير القول بتسلطه على مورد خاص وهو ايوب باذن منه سبحانه ولا دليل على امتناع القضية الجزئية كيف وقد حكى الله سبحانه عن فتى موسى وهو يوشع النبي قوله «فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره» (الكهف - ٦٣)

٢ - ان يكون المراد «من مس الشيطان بالنصب والعذاب» هو وسوسة الشيطان الى الناس عند ما اشتد مرض ايوب حيث حثهم على ان يجتنبوه ويهجروه فكان التعيير من الناس والتكلم منهم لكن بوسوسة من الشيطان ونفس هذا التعيير كان نصباً وعذاباً على ايوب فالمراد من النصب والعذاب هو التعيير المستند الى وسوسة الشيطان وعلى كل تقدير فلا دلالة لكلمة العذاب بعد كلمة النصب على انه كان عقاباً منه سبحانه له، يقول الامام جعفر الصادق (ع): ان الله ابتلى ايوب بلا ذنب فصبر حتى عير وان الانبياء لا يصبرون على التعيير (٢).

واما الاحاديث الواردة حول قصة ايوب من انه اصابه الجذام حتى تساقطت اعضاؤه فيقول الامام الباقر عليه السلام في حقها: ان ايوب ابتلى من غير ذنب وان الانبياء لا يذنبون لانهم معصومون، مطهرون، لا يذنبون ولا يزيغون

(١) الكشاف ج٣ ص١٦

(٢) بحار الانوار ج١٢ ص٣٤٧ نقلا عن انوار التنزيل

ولايرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً وقال : ان ايوب مع جميع ما ابتلى به لم تنتن له رائحة ولاقبحت له صورة ولاخرجت منه مدة من دم ولاقيح ولااستقذره احد رآه ولااستوحش منه احد شاهده، ولاتدوّد شيء من جسده، وهكذا يصنع الله عزوجل بجميع من يبتليه من انبيائه واوليائه المكرمين عليه وانما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر امره لجهلهم بما له عند ربه تعالى ذكره، من التأييد والفرج وقدقال النبي ﷺ : « اعظم الناس بلاءاً الانبياء ثم الامثل فالامثل » وانما ابتلاه الله عزوجل بالبلاء العظيم الذى يهون معه على جميع الناس لئلا يدّعوا له الربوبية اذا شاهدوا ماأراد الله ان يوصله اليه من عظائم نعمه متى شاهدوه ليستدلوا بذلك على ان الثواب من الله تعالى ذكره على ضربين : استحقاق واختصاص ولئلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه ولافقيراً لفقره وليعلموا انه يسقم من يشاء ويشفى من يشاء متى شاء كيف شاء، باى سبب شاء، ويجعل ذلك عبرة لمن شاء وشفاء لمن شاء وسعادة لمن شاء وهوعزوجل في جميع ذلك عدل في قضائه وحكيم في افعاله لايفعل بعباده الا الاصلح لهم ولاقوة لهم الا به (١).

وهذه الرواية الصادرة من بيت الوحى والنبوة تعرب عن عقيدة الائمة في حق الانبياء عامة وفي حق النبي ايوب خاصة وان الانبياء لايبتلون بالامراض المنفرة لانها لاتجتمع مع هدف البعثة وان ابتلاء ايوب كان لاهداف تربوية اشير اليها في الرواية .

قال السيد المرتضى: افتصححون ماروى من ان الجذام اصابه حتى تساقطت اعضاؤه ؟ قلنا : اماالعلل المستقذرة التى تنفر من رآها وتوحشه كالبرص والجذام فلايجوز شيء منها على الانبياء لماتقدم ذكره (٢).

وقال العلامة المجلسى بعد نقل الخبر المتقدم عن الامام الباقر (ع) : هذا الخبر اوفق باصول متكلمى الامامية من كونهم منزهين عما يوجب تنفر الطباع

(١) الخصال ج٢ ص٤٠٠ ط الغفارى
(٢) تنزيه الانبياء ص٦٤

عنهم فتكون الاخبار الاخر محمولة على محامل اخر (١).

الى هنا استطعنا ان نخرج بهذه النتائج فى مورد هذه الروايات المرتبطة بقصة ايوب:

١ - ان الالفاظ الواردة فى الاية من قوله «مسنى الشيطان بنصب وعذاب» لادلالة لها على صدور الذنب.

٢ - ان الروايات الواردة فى بعض الكتب من اصابته بامراض منفّرة يخالفها العقل وتردها النصوص المروية عن ائمة اهل البيت عليهم السلام.

* * *

(١) البحار ج١٢ ص٣٤٩

٩

عصمة يونس عليه السلام

وذهابه مغضباً

ان المخطّئة لعصمة الانبياء استدلوا على مقصودهم بما ورد حول قصة يونس من الايات و نحن نذكر عامة ما ورد فـي ذلك المجال ، ثم نستوضح مقاصدها فنقول : قدوردت قصته على نحوالتفصيل والاجماع فى سوراربع : يونس، الانبيا، الصافات ، والقلم . واليك الايات :

١ ـ «فلولاكانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الاقوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا ومتعناهم الى حين» . (يونس ـ ٩٨)

٢ ـ «وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدرعليه فنادى فى الظلمات ان لااله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين» . (الانبياء ـ ٨٧)

٣ ـ «فاستجبنالله ونجيناه من الغم و كذلك ننجى المؤمنين»(الانبياء ـ ٨٨)

٤ ـ «وان يونس لمن المرسلين. اذ ابق الى الفلك المشحون. فساهم فكان من المدحضين. فالتقمه الحوت وهومليم. فلولاانه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون. فنبذناه بالعراء وهوسقيم. وانبتناعليه شجرة من يقطين. وارسلناه الى مائة الف اويزيدون . فآمنوا فمتعناهم الى حين» (الصافات ـ ١٣٩ ـ ١٤٨) .

٥ ـ «فاصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت اذنادى ربه وهومكظوم. لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتبيه ربه فجعله من

الصالحين» .　　(القلم - ٤٨ - ٥٠)

هذه هي الايات الواردة حول قصة يونس وبالاحاطة بها يتمكن المفسر من الاجابة على الاسئلة المطروحة حولها . وان لم تكن لبعضها صلة بالعصمة .

اما ماجاء من الروايات حول القصة فكلها روايات آحاد لايمكن الركون الى الخصوصيات الواردة فيها بل بعض مافيها لايناسب ساحة الانسان العادى فضلا عن النبى . ولاجله تركنا ذكرها .

والذى تضافرت عليه الروايات هوانه لما دعاقومه الى الاسلام وعرف منهم الامتناع دعاعليهم ووقف على استجابة دعائه فاخبرهم بنزول العذاب، فلماظهرت اماراته كان من بينهم عالم اشار اليهم ان افزعوا الى الله لعله يرحمكم ويرد العذاب عنكم فقالوا كيف نصنع ؟ قال اجتمعوا واخرجوا الى المفازة وفرقوا بين النساء والاولاد وبين الابل واولادها . . . ثم ابكوا وادعوا . فذهبوا وفعلوا ذلك وضجوا وبكوا فرحمهم الله وصرف عنهم العذاب (١) .

فنقول : توضيح مفاد الايات يتوقف على البحث عن عدة امور :

١ - لما ذا كشف العذاب عن قوم يونس دون غيرهم .

صريح قوله سبحانه: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين» (يونس-٩٨)

ان امة يونس هى الامة الوحيدة التى نفعها ايمانها قبل نزول العذاب و كشف عنهم . وذلك لان «لولا» التحضيضية اذا دخلت على الفعل الماضى تفيد معنى النفى كما فى قولك: هلا قرأت القرآن، وعلى ذلك يكون معنى قوله سبحانه: «فلولا كانت قرية آمنت» انه لم يكن ذلك ابداً فاستقام الاستثناء بقوله « الا قوم يونس» والمعنى هلا كانت قرية من هذه القرى التى جاءتهم رسلنا فكذبوهم آمنت

(١) بحار الانوار ج١٤ ص ٣٨٠ من الطبعة الجديدة رواه جميل بن دراج الثقة عن الصادق عليه السلام

قبل نزول العذاب فنفعها ايمانها ـ لكن لم يكن شيء من ذلك الاقوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى .

ولاشك انه قد نفع ايمان قوم يونس ولكن لم ينفع ايمان فرعون وعندئذ تطرح هنا السؤال : ماالفرق بين الايمانين ؟ حيث نفع ايمانهم دون ايمان الثانى واتباعه يقول سبحانه : «وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين. الان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون» (يونس ـ ٩٠ ـ ٩٢) .

الجواب : الفرق بين الايمانين، احدث هذا الفرق حيث كان ايمان قوم يونس ايمانا عن اختيار ولاجل ذلك بقوا على ايمانهم بعد رفع العذاب وكان ايمان الفراعنة ايمانا اضطراريا غير ناجم عن ثورة روحية على الكفر والوثنية ، بل كان وليد رؤية العذاب وهجوم الامواج، لااقول ان ايمان قوم يونس كان حقيقياً جدياً وايمان الاخرين كان صورياً غير حقيقى، بل: الكل كان حقيقياً . وانما الاختلاف فى كون احدهما ناشئاً عن اختيار، والاخر نا شئاً عن الاضطرار والخوف وبعبارة اخرى ناشئاً من عامل داخلى وناشئاً من عامل خارجى.

والدليل على ذلك استقرار وثبوت قوم يونس على الايمان بعد كشف العذاب عنهم لقوله سبحانه: «ومتعناهم الى حين» (يونس ـ ٩٨) ويقول سبحانه: «وارسلناه الى مائة الف اويزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين» (الصافات ـ ١٤٨) والظاهر من الاية ان يونس بعد مانجا مما ابتلى به ، ارسل الى نفس قومه فاستقبلوه بوجوه مشرقة وتمتعوا فى ظل الايمان الى الوقت المؤجل فى علم الله .

واما الفراعنة فكانت سيرتهم الايمان عند نزول العذاب والرجوع الى الفساد والى ما كانوا عليه من الفساد فى مجال العقيدة والعمل ، بعد كشفه ، والذكر الحكيم يصرح بذلك فى الايات التالية: «فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل

والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين. ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لناربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز الى اجلهم بالغوه اذاهم ينكثون» . (الاعراف - ١٣٢ - ١٣٤)

وثبات قوم يونس على ايمانهم وعدم انحرافهم عنه بعد كشف العذاب، ونكث الفراعنة بعد كشف الرجز عنهم، خير دليل على أن ايمان القوم كان ايماناً اختيارياً ثابتاً ونابعاً عن اليقين . وايمان الفراعنة كان اضطرارياً ناشئاً عن الخوف .

والاول من الايمانين يخرق حجب الجهل ويشاهد الانسان عبوديته بعين القلب وعظمة الرب ونور الايمان فيصير خاضعاً امام الله ، يعبده ولايعبد غيره .

والثانى منهما يدور مداروجود عامل الاضطرار والالجاء فيؤمن عندوجوده ويكفر بارتفاعه . ولايعد ذلك الايمان كمالاللروح ولاقيمة له فى سوق المعارف قال سبحانه: «ولوشاء ربك لامن من فى الارض كلهم جميعاً . افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» . (يونس - ٩٩)

ولاشك انه تعلقت ارادته التشريعية بايمان الناس كلهم بشهادة بعث الانبياء واعزام الرسل . ولكن لم تتعلق ارادته التكوينية بايمانهم . والا لم تتخلف عن مراده واصبح الناس كلهم مؤمنين . ايماناً لاعن اختيار ولكن بما انه لاقيمة للايمان الخارج عن اطار الاختيار والناشىء عن الالجاء والاضطرار ، لم تتعلق ارادته سبحانه بايمانهم واليه يشير قوله « ولوشاء ربك لامن من فى الارض كلهم جميعاً » .

٢ - هل كان كشف العذاب تكذيباً لايعاد يونس :

قد وعد سبحانه فى كتابه العزيز بانه يؤيد رسله وينصرهم ولا يكذبهم وهوالقائل عزمن قائل: «انالننصر رسلنا والذين آمنوا فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد» . (غافر - ٥٢)

فلو اخبر واحد منهم عن وقوع حادثة او نزول رحمة وعذاب على قوم ، فلابد ان يكون وضع المخبر به فى المستقبل على وجه لايلزم منه تكذيبهم . وذلك اما بوقوع نفس المخبر به كما هوالحال فى اخبار صالح لقومه حيث تنبأ وقال : «تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب» . فلما بلغ الاجل المحدد «واخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها الا ان ثمود كفروا ربهم الابعداً لثمود» (هود ٦٥ ـ ٦٨) واما بظهور علامات وامارات دالة على صدق مقال النبى واخباره وان عدم تحققه لاجل تغيير التقدير بالدعاء والعمل الصالح قال سبحانه : «ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض» . (الاعراف ـ ٩٦)

وقال عزمن قائل : ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله سميع عليم» . (الانفال ـ ٥٣)

هذه سنة الله سبحانه فى انزال النعمة والنقمة ورفعهما .

وما اخبر به يونس كان من هذا القبيل فقد تنبأ بنزول العذاب وشاهد القوم طلائع العذاب وعلائمه . . (١) . فقاموا بالتوبة والانابة الى الله حسب ارشاد عالمهم فكشف عنهم العذاب . وليس فى هذا تكذيب ليونس . لولم يكن فيه تصديق حيث وقفوا على صدق مقالته غير ان لله سبحانه سنناً فى الحياة فاخذ المعتدى باعتدائه سنة ، والعفو عنه لانابته ايضاً سنة . ولكل موضع خاص ، وهذا معنى البداء الذى تقول به الامامية ، الذى لووقف اخواننا اهل السنة على حقيقته لاعترفوا به من صميم القلب ، ولكن الدعايات الباطلة حالت بينهم وبين الوقوف على ماتتبناه الامامية فى هذا المضمار وقداوضحنا حقيقة الحال فى رسالة «البداء من الكتاب والسنة» (٢) ومن اراد الوقوف على واقع الحال فليرجع اليها .

(١) لاحظ تفسير الطبرى ج١١ ص١١٧ـ١١٨ والدر المنثور ج٣ ص٣١٧ـ٣١٨ والبحار ج١٤ ص٣٩٦ من الطبعة الحديثة

(٢) مطبوعة منتشرة

٣ - اسئلة ثلاثة حول عصمته :

الف - ما معنى كونه مغضباً ؟ ومن المغضوب عليه ؟

ب - ماذا يراد من قوله « فظن ان لن نقدرعليه » ؟

ج - كيف تجتمع العصمة مع اعترافه بكونه من الظالمين ؟

هذه هي الاسئلة الحساسة في قصة يونس عليه السلام وقد تمسك بها المخطّئة واليك توضيحها واحداً بعد واحد .

اما الاول : فقد زعم المخطّئة ان معناه انه خرج مغاضباً لربه من حيث أنه لم ينزل بقومه العذاب ، ولكنه تفسير بالرأى ، بل افتراء على الانبياء وسوء الظن بهم ، ولايغاضب ربه الا من كان معادياً له وجاهلا بحكمه في أفعاله ومثل هذا لايليق بالمؤمن فضلا عن الانبياء .

وانما كان غضبه على قومه لمقامهم على تكذيبه واصرارهم على الكفر ويأسه من توبتهم فخرج من بينهم . (١) .

هكذا فسرّه الامام الرضا عليه السلام عند ماسأله المأمون عن مفاد الاية وقال : «ذلك يونس بن متى ذهب مغاضباً لقومه» .(٢) .

واما الثاني : اعني « فظن ان لن نقدرعليه» فالفعل اعني (نقدر) من القدر بمعنى الضيق لامن القدرة . قال سبحانه : « ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » (الطلاق - ٧) وقال سبحانه : « ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (الاسراء - ٣٠) فمعنى الاية انه ظن ان لايضيق عليه الامر لترك الصبر والمصابرة مع قومه ، لابمعنى انه خطر هذا الظن بباله . بل كان ذهابه وترك قومه يمثل حالة من ظن ان لن نقدر عليه في خروجه من قومه من غير انتظار لامر الله ، فكانت مفارقته قومه ممثلة لحال من يظن بمولاه ذلك .

واما تفسيره بانه ظن انه سبحانه لايقدرعليه فهو تفسير بما لاتصح نسبته الى

(١) تنزيه الانبياء ص١٠٢　　(٢) بحارالانوار ج١٤ ص٣٨٧ .

الجهلة من الناس فضلا عن الاولياء والانبياء .

وبما ان مفارقته قومه بلا اذن منه سبحانه ، كان يمثل حال من يظن ان لايضيق مولاه عليه ، ابتلاه الله الحوت فالتقمه .

فوقف على انه ترك ماهو الاولى فعلا ، فندم على عمله « فنادى فى الظلمات ان لا اله الا انت » .

ونقل الزمخشرى فى كشّافه : عن ابن عباس انه دخل على معاوية فقال : لقد ضربتنى امواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم اجد لنفسى خلاصاً الا بك . قال : وما هى يا معاوية ؟ فقرأ هذه الاية وقال : اويظن نبى الله ان لايقدر عليه قال : هذا من القدر لامن القدرة . ثم اضاف صاحب الكشاف : يصح ان يفسر بالقدرة على معنى «ان لن نعمل فيه قدرتنا» وان يكون من باب التمثيل بمعنى فكانت حاله ممثلة بحال من ظن ان لن نقدر عليه فى مراغمته قومه من غير انتظار لامر الله . ويجوز ان يسبق ذلك الى وهمه بوسوسة الشيطان ثم يردعه ويرده بالبرهان كما يفعل المؤمن المحقق بنزعات الشيطان وما يوسوس اليه فى كل وقت . (١).

ولايخفى ان مانقله عن ابن عباس هو المعتمد ، بشهادة استعماله فى القرآن بمعنى الضيق . وهو المناسب لمفاد الاية واما الوجهان الاخران فلا يصح الركون اليهما ، خصوصاً الوجه الاخير ، لان الانبياء اجل شأناً من ان تحوم حول قلوبهم الهواجس الشيطانية حتى يعودوا الى معالجتها بالبرهان . فليس له سلطان على المخلصين من عباده وقد اعترف بذلك الشيطان وقال « الا عبادك منهم المخلصين » (ص ـ ٨٣)

واما السؤال الثالث :

فقد مر ان الظلم فى اللغة بمعنى وضع الشيئ فى غير موضعه ، ولاشك

(١) الكشاف ج٢ ص٣٣٥-٣٣٦

ان مفارقته قومه وتركهم فى الظرف القلق العصيب كان امراً لايترقب صدوره منه وان لم يكن عصياناً لامر مولاه ، فالعطف والحنان المترقب من الانبياء غير ما يترقب من غيرهم ، فلاجل ذلك كان فعله واقعاً غيرموقعه .

ومن المحتمل ان يكون الفعل الصادر منه فى غيرموقعه هوطلبه العذاب لقومه وترك المصابرة. ويؤيده قوله سبحانه «فاصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت اذنادى وهومكظوم» . (القلم - ٤٨) فالظاهر ان متعلق النداء فى الاية طلب نزول العذاب على قومه بقرينة قوله «وهو مكظوم» اى كان مملوءاً غيظاً او غماً والمعنى : «يا ايها النبى لاتكن مثل صاحب الحوت ولايوجد منك مثل ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائه فاصبر لقضاء ربك فانه مايستدرجهم ويملى لهم ولاتستعجل لهم العذاب لكفرهم» .

ويستفاد من بعض الروايات ان سبب لومه وردعه كان امراً ثالثاً وهوانه لما وقف على نجاة امته غضب وترك المنطقة (١).

والوجهان : الاول والثانى هما الصحيحان .

ومما ذكرنا يعلم مفاد قوله سبحانه «اذابق الى الفلك المشحون» فشبه حاله بالعبد الابق وذلك لما مرمن ان خروجه فى هذه الحال كان ممثلا لاباق العبد من خدمة مولاه فاخذه الله بذلك .

وعلى كل تقدير فالايات تدل على صدور عمل منه كان الاليق بحال الانبياء تركه ، وهويدور بين امور ثلاثة: اما ترك قومه من دون اذن . اوطلب العذاب وكان الاولى له الصبر ، اوغضبه على نجاة قومه .

الى هنا تم توضيح الايات المهمة التى وقعت ظواهرها ذريعة لاناس يستهترون بالقيم والفضائل ويستهينون باكبر الواجبات تجاه الشخصيات الالهية، وبقى الكلام فى عصمة النبى الاكرم ونفيض القول فيها فى البحث الاتى .

(١) بحارالانوار ج١٤ ص٣٨٠ من الطبعة الحديثة

١٠

عصمة النبى الاكرم ﷺ

وما تمسكت به المخطئة

عصمة النبى الخاتم من العصيان والخطأ ، من فروع عصمة الانبياء كلهم فما دلت على عصمتهم من الايات ، تدل على عصمته ايضا بلا اشكال . ولانحتاج بعد ذاك الى افراد البحث عنه فى هذا المجال ، فقد افاض الله عليه ذاك الكمال كما افاض على سائر الانبياء من غير استثناء فهو معصوم فى المراحل الثلاثة التالية :

١ ـ مرحلة تلقى الوحى وحفظه وادائه الى الامة .

٢ ـ مرحلة القول والفعل وعلى ذلك فهو من عباده المكرمين الذين لايعصون الله ماامرهم وهم بامره يعملون .

٣ ـ مرحلة تطبيق الشريعة وغيرها من الامور المربوطة بحياته هو ﷺ لايسهو ولايخطأ فى حياته الفردية والاجتماعية .

وما دل على عصمة تلك الطبقة فى هذه المراحل الثلاثة دل على عصمته فيها ايضاً .

نعم هناك آيات بالخصوص دالة على عصمته من العصيان ومصونيته عن الخطأ كما ان هناك آيات وردت فى حقه وقعت ذريعة لمنكرى العصمة . ـ ولاجل ذلك ـ افردنا بحثاً خاصاً فى هذا المقام لنوفيه حقه .

اما مايدل على عصمته من العصيان والخلاف ، فيكفى فى ذلك قوله

سبحانه : «وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلا. ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا. اذاًلاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجدلك علينا نصيراً» (الاسراء - ٧٣ - ٧٥) .

وقد ذكر المفسرون اسباباً لنزولها. بمالايناسب ساحة النبى ﷺ اوضحها ماذكره الطبرسى فى مجمعه : ان المشركين قالوا لـه : كف عن شتم آلهتنا وتسفيه احلامنا واطرد هؤلاء العبيد والسقاط الذين رائحتهم رائحة الصنان (١) حتى نجالسك ونسمع منك . فطمع فى اسلامهم فنزلت الاية.(٢)

ولتوضيح مفاد الايات نبحث عن امور :

١- ان الايات كما سترى تشير الى عصمته ومع ذلك استدلت المخطّئة بها على خلافها وهذا من عجائب الامور اذلاغرو فى ان تتمسك كل فرقة بقسم من الايات على مايتبناه وانما العجب ان تقع آية واحدة مطرحاً لكلتا الفرقتين . فيفسر كل، حسب مايتوخاه مع ان الاية لاتتحمل الامعنى واحداً لامعنيين متخالفين.

٢ - ان الضمير فى كلا الفعلين « كادوا ليفتنونك » يرجع الى المشركين ويدل عليه سياق الايات. والمراد من «الذى اوحينا اليك» هو القرآن بمايشتمل عليه من التوحيد ونفى الشريك ، والسيرة الصالحة ، والمراد من الفتنة فى « ليفتنونك » هو الازلال والصرف كما ان الخليل من الخلة بمعنى الصداقة لامن الخلة بمعنى الحاجة .

٣- ان قوله : «وان كادواليفتنونك عن الذى اوحينا اليك» يخبر عن دنو المشركين من ازلاله وصرفه عما اوحى اليه ، لاعن دنو النبى وقربه من الزلل والانصراف عما اوحى اليه وبين المعنيين فرق واضح .

٤- ان قوله سبحانه : «ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا» مركب من جملتين : احداهما شرطية والاخرى جزائية اما الاولى فقوله : «ولولا ان ثبتناك» واما الاخرى فقوله: «لقد كدت تركن اليهم» وبما ان لولافى

(١) الصنان : فتن الابط (٢) مجمع البيان ج٣ ص٤٣١

الاية امتناعية (١) . تدل على امتناع الجزاء لوجود التثبيت مثل قولنا : « لولا على لهلك عمر» فامتنع هلاكه لوجوده » .

٥ ـ وليس الجزاء هوالركون بمعنى الميل . بل الجزاء هـوالقرب من الميل والانصراف كما يدلعليه قوله: «لقد كدت تركن»فامتنع القرب من الميل فضلا عن نفس الميل لاجل وجود تثبيته :

٦ـ ان تثبيته سبحانه لنبيّه لم يكن امراً مختصاً بالواقعة الخاصة بل كان أمراً عاماً لجميع الوقائع المشابهة لتلك الواقعة ، لان السبب الذى اوجب افاضة التثبيت عليه فيها، يوجب افاضته عليه فى جميع الوقائع المشابهة ولامعنى لخصوصية المعلول والمسبب مع عمومية العلة. وعلى ذلك تكون الاية من دلائل عصمته فى حياته، وسداده فيها على وجه العموم .

وتوهم اختصاصها بالواقعة التى تآمر المشركون فيها لازلاله مـن كلمات رماة القول على عواهنه .

٧ ـ ان التثبيت فى مجال التطبيق فرع التثبيت فى مجال التفكير اذلا يستقيم عمل انسان مالم يتم تفكيره وعلى ذلك يفاض على النبى السداد مبتدئاً من ناحية التفكر منتهياً الى ناحية العمل فهوفى ظل هذا السداد المفاض ، لايفكر بالعصيان والخلاف فضلاعن الوقوع فيه .

٨ ـ ان تسديده سبحانه، لايخرجه عن كونه فاعلامختاراً فى عامة المجالات: الطاعة والمعصية فهوبعد قادرعلى النقض والابرام والانقياد والخلاف ولاجل ذلك يخاطبه فى الايات السابقة بقوله : «اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً» .

وعلى ضوء مـاذكرنا فالاية شاهدة على عصمته ودالة على عنايته سبحانه

---

(١) يقول ابن مالك

لولا ولوما يلزمان الابتدا اذ امتناعاً بوجود عقدا

والشرط فى الاية مؤول الى الاسم اى لولا تثبيتنا ، لقدكدت تركن اليهم .

برسوله الاكرم فيراقبه ويراعيه ولايتركه بحاله . ولايكله الى نفسه كل ذلك مع التحفظ على حريته واختياره فى كل موقف .

فقوله سبحانه : «ولولاان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم» نظيرقوله: «ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك» (النساء - ١١٣) لكن الاول راجع الى صيانته عن العصيان والثانى ناظر الى سداده عن السهو والخطاء فى الحياة . وسيوافيك توضيح الاية الثانية فى البحث الاتى .

وفى الختام نذكرما افاده الرازى فى المقام: قال: احتج الطاعنون فى عصمة الانبياء بهذه الاية بوجوه :

الاول : انهادلت على انه ﷺ قرب من ان يفترى على الله والفرية على الله من اعظم الذنوب .

الثانى : انها تدل على انه لولا ان الله تعالى ثبته وعصمه لقرب ان يركن الى دينهم .

الثالث : انه لولاسبق جرم وجناية لم يحتج الى ذكرهذا الوعيد الشديد .

والجواب عن الاول : ان « كاد» معناها المقاربة . فكان معنى الاية قرب وقوعه فى الفتنة ، وهذا لايدل على الوقوع .

وعن الثانى : ان كلمة لولاتفيد انتفاء الشىء ، لثبوت غيره نقول ! لولاعلى لهلك عمر، ومعناه ان وجود على عليه السلام منع من حصول الهلاك لعمر فكذلك هاهنا فقوله : «ولولا ان ثبتناك » معناه لولا حصل تثبيت الله لك يامحمد . فكان تثبيت الله مانعاً من حصول ذلك الركون .

وعن الثالث: ان التهديد على المعصية لايدل على الاقدام عليها والدليل عليه آيات منها قوله تعالى: «ولوتقول علينا بعض الاقاويل.لاخذنا منه باليمين». الايات وقوله تعالى : «لئن اشركت» . وقوله «ولاتطع الكافرين» (١) .

---

(١) مفاتيح الغيب ج٥ ص٤٢٠

ادلة المخطئة

لقد اطلعت فى صدر البحث عـن عصمة النبى الاعظم على ان هناك آيات وردت فى حق النبى ﷺ قد صارت ذريعة لبعض المخطئة الذين يحاولون انكار العصمة وهى عدة آيات :

الاولى : العصمة والخطابات الحادة :

هناك آيات تخاطب النبى بلحن حادوتنهاه عـن اتباع اهـواء المشركين والشرك بالله والجدال عن الخائنين وغيرذلك ممايوهم وجود ارضية في نفس النبى ﷺ لصدور هذه المعاصى الكبيرة عنه واليك هذه الايات مع تحليلها .

١ ـ «ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولانصير» . (البقرة ـ ١٢٠)

وقد جاءت الاية فى نفس هذه السورة بتفاوت فى الذيل فقال بدل قوله : «مالك من الله من ولى ولانصير» ، «انك اذاً لمن الظالمين» (البقرة ـ ١٤٥) كما جاءت ايضا فى سورة الرعد غيرانه جاء بدل قوله «ولانصير» ، «ولاواق» .

وعلى اى حال فقد تمسكت المخطئة بالقضيه الشرطية على ارضية متوقعة فى نفس النبى لاتباع اهواءهم والافلاوجه للوعيد . ولكن الاستدلال على درجة من الوهن اذ لاتدل القضية الشرطية الا على الملازمـة بين الشرط والجزاء . لا على تحقق الطرفين ولاعلى امكان تحققهما . وهذا من الوضوح بمكان . قال سبحانه ، «لوكان فيهما آلهة الاالله لفسدتا» (الانبياء ـ ٢٢) وليس فيها اى دلالة على تحقق المقدم اوالتالى . وبما ذكرنا يتضح حال الايتين التاليتين :

٢ ـ انه سبحانه يخاطب النبى ﷺ بقضايا شرطية كثيرة قال سبحانه «ولئن شئنا لنذهبن بالذى اوحينا اليك ثم لاتجدلك به علينا وكيلا الارحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيراً» . (الاسراء ـ ٨٦ ـ ٨٧)

ومن المعلوم المقطوع به انه سبحانه لايستلب منه مااوحى اليه .

٣- قال سبحانه: «ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين» (الزمر - ٦٥) وقال ايضا «ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فمامنكم من احدعنه حاجزين» (الحاقة ٤٤ - ٤٦) فهذه الايات ونظائرها التى تحكى عن القضية الشرطية لاتدل على ما يرتأيه الخصم بوجه من الوجوه اى وجود ارضية متوقعة لصدور هذه القضايا. وذلك لوجهين:

الف: ان هذه الايات تخاطب النبى ﷺ بما انه بشر ذو غرائز جامحة بصاحبها ففى هذا المجال يصح ان يخاطب النبى بانه لو فعل كذا لقوبل بكذا. وهذا لا يكون دليلا على امكان وقوع العصيان منه بعد ما تشرف بالنبوة وجهز بالعصمة وتلفح بالرعاية الربانية، فالايات التى تخاطب النبى ﷺ بما هو بشر لاتعم ذلك المجال.

ب: ان هذه الايات تركز على الجانب التربوى والهدف تعريف الناس بوظائفهم وتكاليفهم امام الله سبحانه. فاذا كان النبى ﷺ - نبى العظمة - محكوماً بهذه الاحكام ومخاطباً بها فغيره اولى ان يكون محكوماً بها.

وعلى ذلك فتكون الايات واردة مجرى «اياك اعنى واسمعى ياجارة» فهؤلاء الذين يتخذون تلك الايات وسيلة لانكار العصمة، غير مطلعين «على الف باء» القرآن وبذلك يظهر مفاد كثير من الايات النازلة فى هذا المجال، يقول سبحانه عند ما يأمره بالصلاة الى المسجد الحرام.

٤- «الحق من ربك فلاتكونن من الممترين» (البقرة - ١٤٧) ويريد بذلك تعليم الناس ان لايقيموا وزناً لارجاف المرجفين فى العدول بالصلاة من بيت المقدس الى المسجد الحرام، كما يحكى سبحانه وتعالى عنهم بقوله: «سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها»... (البقرة - ١٤٢).

٥- انه سبحانه يبطل ألوهية المسيح عليه السلام بحجة انه وليد مريم عليها السلام بان تولده بلا اب، يشبه تكوّن آدم من غير اب ولاام، قال سبحانه: «ان مثل

عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» فعند ذلك يخاطب النبى ﷺ بقوله : «الحق من ربك فلاتكن من الممترين». (آل عمران ٥٩-٦٠)

ولاشك ان الخطاب جرى مجرى ماذكرنا : «اياك اعنى واسمعى ياجاره» فان النبى الاعظم بعد ماتصل بعالم الغيب وشاهد ورأى الملائكة وسمع كلامهم هل يمكن ان يتسرب اليه الشك حتى يصح ان يخاطب بقوله: «فلاتكن من الممترين» على الجد والحقيقة ؟

٦ـ انه سبحانه يخاطب النبى الاكرم ﷺ عندما جلس على كرسى القضاء بقوله: «ولاتجادل عن الذين يختانون انفسهم ان الله لايحب من كان خواناً اثيماً»(النساء ـ ١٠٧)

فالاية تكلف النبى ان لايدافع عن الخائن ومن الواضح ان النبى ﷺ لم يكن فى زمن حياته مدافعاً عن الخائن وانما هو خطاب عام اريد منه تربية المجتمع وتوجيهه الى هذه الوظيفة الخطيرة ، وبما ان اكثر الناس لايتحملون الخطاب الحاد ، بل يكون مراً فى اذواق اكثرهم ، اقتضت الحكمة ان يكون المخاطب ، غير من قصده الخطاب .

٧ ـ وعلى ذلك يحمل قوله سبحانه : «انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اريك الله ولاتكن للخائنين خصيماً» . (النساء ـ ١٠٥)

واخيراً نقول : ان سورة الاسراء تحتوى على دساتير رفيعة المستوى، ترجع الى وظائف الامة : الفردية والاجتماعية وهو سبحانه يبتدىء الدساتير بقوله : «لاتجعل مع الله الهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا» (الاسراء ـ ٢٢) وفى الوقت نفسه يختمها بنفس تلك الاية باختلاف يسير فيقول : «ولاتجعل مع الله الهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً» . (الاسراء ٣٩)

فهذه الخطابات واشباهها وان كانت موجهة الى النبى ﷺ لكن قصد بها عامة الناس لنكتة سبق ذكرها ، والافالنبى الاعظم ﷺ اعظم من ان يشرك بالله تعالى بعد تشرفه بالنبوة كيف وهو الذى كافح الوثنية منذ نعومة اظفاره الى ان بعث نبياً من الله سبحانه لهدم الشرك وعبادة غير الله تبارك وتعالى .

وقس على ذلك كلما يمر عليك من الايات التى تخاطب النبى ﷺ بلحن شديد. فتفسير الجميع بالوجهين اللذين قدمنا ذكرهما.

الاية الثانية: العصمة والعفو والاعتراض:

كان النبى الاعظم ﷺ بصدد خلق مجتمع مجاهد يقف فى وجه الروم الشرقية، فاذن بالجهاد الى ثغرها (تبوك). فلبّت دعوته زرافات من الناس بلغت ثلاثين الف مقاتل. الاان المنافقين ابوا الاشتراك فى صفوف المجاهدين، فتعلقوا باعذار واستأذنوا فى الاقامة فى المدينة، واذن لهم النبى الاكرم وفى هذا الشأن نزلت الاية التالية.

«عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين». (التوبة - ٤٣).

والاية تصرح بعفوه سبحانه عنه كما يقول: «عفا الله عنك» كما تتضمن نوع اعتراض على النبى حيث اذن لهم فى عدم الاشتراك. كما يقول: «لم اذنت لهم» وعندئذ يفرض هذا السؤال نفسه:

الف: كيف يجتمع العفو مع العصمة؟

ب: مامعنى الاعتراض على اذن النبى؟

اقول: اما الجملة الاولى: فتوضيحها بوجهين.

الاول: انها انما تدل على صدور الذنب - على فرض التسليم - اذا كانت جملة خبرية حاكية عن شمول عفوه سبحانه للنبى فى الزمان الماضى. واما اذا كانت خبرية ولكن اريد منها الانشاء وطلب العفو كما فى قوله «ايدك الله» «غفر الله لك» فالدلالة ساقطة، اذ طلب العفو والمغفرة للمخاطب نوع دعاء وتقدير وتكريم له.

وثانيا: ليس على اديم الارض انسان يستغنى عن عفوه ومغفرته سبحانه حتى الاولياء والانبياء. لان الناس بين كونهم خاطئين فى الحياة الدنيا، وكونهم

معصومين ووظيفة الكل هى الاستغفار.

اما الطائفة الاولى فواضحة. واما الثانية فلوقوفهم على عظمة الرب وكبر المسؤلية وان هنا اموراً كان الاليق تركها اوالاتيان بها وان لم يأمر بها الرب امر فرض، اولم ينه عنها نهى تحذير. والمترقب منهم غير المترقب من غيرهم.

ولاجل ذلك كان الانبياء يستغفرون كل يوم وليلة قائلين: «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك».

وحاصل الوجهين: ان طلب العفو نوع تكريم واحترام للمخاطب بصورة الدعاء وليس اخباراً عن واقعية محققة حتى يستلزم صدور ذنب من المخاطب، ومن جانب آخر ان كل انسان مهما كان فى الدرجة العالية من التقوى. يرى فى اعماله حسب عرفانه واستشعاره عظمة الرب وكبر المسؤولية، ان ماهو الاليق خلاف ما وقع منه، فتوحى اليه نفسه الزكية، طلب العفو والمغفرة لاذهاب آثار هذا التقصير فى الاجل والعاجل.

واما الجملة الثانية:

فلا شك انها تتضمن نوع اعتراض على النبى ﷺ لكن لاعلى صدور ذنب اوخلاف منه، بل لان اذنه كان مفوتا لمصلحة له وهومعرفة الصادق فى ايمانه، من الكاذب فى ادعائه. كما يعرب عنه قوله: «حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين».

توضيحه: ان المنافقين كانوا مصممين على عدم الخروج مع المؤمنين الى غزو الروم وكان لهم تخطيط فى غياب النبى ﷺ ابطله النبى ﷺ بتخليفه علياً مكانه. قال سبحانه: «ولوارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين» (التوبة ـ ٤٦) والاية تدل على انهم كانوا عازمين على الاقامة فى المدينة وكان الاستئذان نوع تغطية لقبح عملهم حتى يتظاهروا بان عدم ظعنهم مع المؤمنين كان باذن من النبى.

ومن جانب آخر انهم لوخرجوا مع المسلمين ما زادوهم الافتنة وخبالا واضعافاً لعزائم المؤمنين ، وفيهم سماعون لهم يتاثرون بدعاياتهم واغوائهم كما يقول سبحانه : «لوخرجوا فيكم مازادوكم الاخبالاولاوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين» . (التوبة - ٤٧)

وبما انهم كانوا عازمين على القعود اولا ، وعلى الاضرار والفتنة في جبهات الحرب ثانياً - لذلك - لم تكن في الاذن اية تبعة سوى فوت تميّز الخبيث من الطيب، ومعرفة المنافق من المؤمن اذ لو لم يأذن لهم لظهر فسقهم وتمردهم على كلام النبي ﷺ، ومثل هذا لايعد عمل خلاف حتى يكون الاعتراض عليه دليلا على صدور الذنب .

ولو كانت المخطّئة عارفة باساليب البلاغة وفنون الكلام لعرفت ان اسلوب الكلام في الاية ، اسلوب عطف و حنان ، واشبه باعتراض الولى الحميم ، على الصديق الوفي، اذا عامل عدوه الغاشم بمرونة ولينة فيقول بلسان الاعتراض: لما ذا اذنت له ولم تقابله بخشونة حتى تعرف عدوك من صديقك ، ومن وفى لك ممن خانك . على انه وان فات النبي معرفة المنافق عن هذا الطريق لكنه لم يفته معرفته من طريق آخر ، صرح به القرآن في غيرهذا المورد ، فان النبي الاكرم كان يعرف المنافق وغيره عن المؤمن من طريقين آخرين :

١ - كيفية الكلام ويعبر عنه القرآن بلحن القول وذلك ان الخائن مهما اصر على كتمان خيانته ، تظهر بوادرها في ثنايا كلامه ، قال امير المؤمنين (ع) : ماأضمر احد شيئاً الاظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه (١) وفي ذلك يقول سبحانه : «ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم اعمالكم» . (محمد-٣٠)

٢ - التعرف عليهم بتعليم منه سبحانه قال : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم

(١) نهج البلاغة قسم الحكم الرقم ٢٥

على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء» (آل عمران ـ ١٧٩) والدقة فى الاية تفيد بان الله سبحانه يجتبى من رسله من يشاء ويطلعه على الغيب ويعرف من هذا الطريق الخبيث ويميزه عن الطيب.

وعلى ذلك فلم يفت على النبى الاكرم شيء وان فاتته معرفة المنافق من هذا الطريق ولكنه وقف عليها من الطريق الاخر اوالطريقين الاخرين.

الآية الثالثة: العصمة والامر بطلب المغفرة

انه سبحانه يا مر نبيه الاعظم، بطلب الغفران منه ويقول مخاطباً رسوله: «انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اريك الله ولاتكن للخائنين خصيماً. واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً» (النساء ـ ١٠٥ ـ ١٠٦) ويقول سبحانه: «فاعلم انه لااله الاالله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثويكم» (محمد ـ ١٩) وعندئذ يخطر فى ذهن الانسان: كيف تجتمع العصمة مع الامر بطلب الغفران؟

اقول: التعرف على مامرمى الايتين ونظائرهما. رهن الوقوف على الاصل المسلم بين العقلاء، وهوان عظمة الشخصية وخطر المسؤولية متحالفان. ورب عمل يعد صدوره من شخص جرماً وخلافاً، وفى الوقت نفسه لايعد صدوره من انسان آخر كذلك.

توضيح ذلك: ان الاحكام الشرعية تنقسم الى واجب و حرام و مستحب ومكروه ومباح. ولامحيص عن الاتيان بالواجب وترك الحرام. نعم هناك رخصة فى ترك المستحب والاتيان بالمكروه ولكن المترقب من العارف بمصالح الاحكام ومفاسدها، تحلية الواجبات بالمستحبات، وترك المحرمات مع ترك المكروهات ولايقصر عنه المباح فهووان اباحه الله سبحانه ولكن ربما يترجح فعله على تركه اوالعكس لعنوان ثانوى.

فالعارف بعظمة الرب يتحمل من المسؤولية مالا يتحمله غيره، فيكون

المترقب منه غير ما يترقب من الاخر ، ولوصدر منه مالايليق ، وتساهل فى هذا الطريق ، يتاكد منه الاستغفار وطلب المغفرة . لالصدور الذنب منه ، بل من باب قياس عمله الى علو معرفته وعظمة مسؤوليته .

وان شئت فاستوضح ذلك من ملاحظة حال المتحضر والبدوى . فالمرجوّ من الاول القيام بالاداب والرسوم الرائجة فى الحضارات الانسانية ، ولكن المرجوّ من الثانى ابسط الرسوم والاداب . فماذلك الالاختلافهما من ناحية التربية والمعرفة . كما ان الترقب من نفس المتحضرين مختلف جداً . فالمأمول من المثقف اشد واكثر من غيره كما ان الانضباط المرجو من الجندى يغاير المترقب من غيره . والغفلة القصيرة من العاشق يعد جرما وخلافاً فى منطق العشق ، وليست كذلك اذا صدرت من غيره .

وهذه الامثلة ونظائرها الوافرة تثبت الاصل الذى اوعزنا اليه فى صدر البحث من ان عظمة الشخصية وكبر المسؤولية متحالفان وأن الوظائف لاتنحصر فى الاتيان بالواجبات ، والتحرز عن المحظورات بل هناك وظائف اخرى ، وكلما زاد العلم والعرفان توفرت الوظائف وتكثرت المسؤوليات ولاجل ذلك تعد بعض الغفلات واقتراف المكروهات من الاولياء ذنباً وهو فى الواقع ليس بالنسبة الى الانبيا ذنبا مطلقاً بل ذنب اذا قيس الى ما اعطوا من الايمان والمعرفة ولوقاموا بطلب المغفرة والعفو ، فانما هولاجل هذه الجهات .

نرى ان شيخ الانبياء ، نوحاً يقول : «رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا» (نوح - ٢٨) ويقتفيه ابراهيم ويقول : «ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب» (ابراهيم - ٤١) . ويقول النبى الاعظم «سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير» . (البقرة - ٢٨٥)

والمنشأ الوحيد لهذا الطلب مرة بعد اخرى هو وقوفهم على ان ماقاموا به من الاعمال والطاعات وان كانت فى حد نفسها بالغة حدّ الكمال لكن المطلوب والمترقب منهم اكمل وافضل منه .

وعلى ذلك يحمل ما رواه مسلم فى صحيحه عن المزنى عن النبى ﷺ قال: ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة . (١)

وقد ذكر المحدثون حول الحديث نكات عرفانية من اراد التعرف عليها فليرجع الى كتاب شفاء القاضى .

يقول العلامة المحقق على بن عيسى الاربلى: الانبياء والائمة عليهم السلام تكون اوقاتهم مشغولة بالله تعالى، وقلوبهم مملؤة به وخواطرهم متعلقة بالمبدء. وهم ابداً فى المراقبة كما قال (ع) اعبدالله كانك تراه . فان لم تره ، فانه يراك» فهم ابداً متوجهون اليه و مقبلون بكلهم عليه ، فمتى انحطوا عن تلك المرتبة العالية ، والمنزلة الرفيعة الى الاشتغال بالاكل و الشرب والتفرغ الى النكاح وغيره من المباحات، عدوه ذنبا واعتقدوه خطيئة واستغفروا منه.

والى هذا اشار ﷺ «انه ليران على قلبى وانى لاستغفر الله بالنهار سبعين مرة» ولفظة سبعين ترجع الى الاستغفار لاالى الرين. وقوله حسنات الابرار سيئات الاقربين . . . فقد بان بهذا انه كان يعد اشتغاله فى وقت ما، بماهو ضرورة للابدان معصية يستغفر الله منها . وعلى هذا فقس البواقى و كلما يرد عليها من امثالها ... ثم قال : ان هذا معنى شريف يكشف بمدلوله حجاب الشبهة ويهدى به الله من حسر عن بصره و بصيرته رين العمى والعمه (٢) . وما ذكره من الجواب فانما يتمشى مع الايات التى تمسك بها المخالف . واما الادعية التى اعترف فيها الائمة بالذنب من قوله فى الدعاء الذى علمه لكميل بن زياد : «اللهم اغفرلى الذنوب التى تحبس الدعاء ، اللهم اغفرلى الذنوب التى تنزل النقم» فهذا من باب التعليم للناس . واما ماكانوا يناجون ربهم فى ظلمات الليل وفى سجداتهم فيحمل على ماحققه العلامة الاربلى واوضحنا حاله .

---

(١) صحيح مسلم ج٨ ص٧٢ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه . وقوله «ليغان» من الغين بمعنى الستر والحجاب والمزن

(٢) كشف الغمة ج٣ ص٤٣-٤٥

الاية الرابعة : العصمة وغفران الذنب :

اذا كان النبى الاعظم ﷺ معصوماً من العصيان ومصوناً من الذنب فكيف اخبر سبحانه عن غفران ذنبه : ما تقدم منه وما تاخر . قال سبحانه : « انا فتحنا لك فتحا مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً » . (الفتح ١-٣)

الجواب : ان الاية تعد اكبر مستمسك لمخطئة عصمة الانبياء مع ان امعان النظر فى فقرات الايات خصوصاً فى جعل غفران الذنب غاية للفتح المبين . يوضح المقصود من الذنب وان المراد منه الاتهامات والنسب التى كانت الاعداء تصفه بها وان ذلك الفتح المبين دل على افتعالها وعدم صحتها من اساسها وطهر صحيفة حياته عن تلك النسب، واليك توضيح ذلك ببيان امور :

١ - ما هو المراد من الفتح فى الاية ؟

لقد ذكر المفسرون هنا وجوها فترددوا بين كون المقصود فتح مكة ، او فتح خيبر ، او فتح الحديبية .

لكن سياق آيات السورة لايساعد الاحتمالين الاولين لانها ناظرة الى قصة الحديبية والصلح المنعقد فيها فى العام السادس من الهجرة ، والفتح الذى يخبر عن تحققه ووقوعه ، يجب ان يكون متحققاً فى ذاك الوقت ، و اين هو من فتح مكة الذى لم يتحقق الا بعد عامين من ذاك الصلح حيث ان النبى ﷺ فتحها فى العام الثامن من هجرته .

ولاجل ذلك حاول من قال ان المراد منه فتح مكة، ان يفسره: بان اخباره عن الفتح، بمعنى قضاؤه وتقديره ذاك الفتح ، والمعنى قضى ربك وقدّر ذاك الفتح المبين ، فالقضاء كان متحققا فى ظرف النزول وان لم يكن نفس الفتح متحققا . ولكنه تكلف غير محتاج اليه . وقصة الحديبية وان كانت صلحا فى الظاهر

على ترك الحرب والهدنة الى مدة معينة لكن ذاك الصلح فتح ابواب الظفر للنبى ﷺ فى الجزيرة العربية وفسح للنبى ان يتوجه الى شمالها ويفتح قلاع خيبر، ويسيطر على مكامن الشر والمؤامرة، ويبعث الدعاة والسفراء الى ارجاء العالم ويسمع دعوته اذن الدنيا. كل ذلك الذى شرحناه فى ابحاثنا التاريخية كان ببركة تلك الهدنة. وان كان بعض اصحابه يحقرها ويندد بها فى اوائل الامر.

لكن مرور الزمان، كشف النقاب عن عظمتها و ثمارها الحلوة. فصح ان يصفها القرآن بـ «الفتح المبين».

وعلى كل حال: فسياق الايات يدل بوضوح على ان المراد من الفتح هو وقعة الحديبية قال سبحانه: «ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه و من اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجراً عظيماً» (الفتح - ١٠). وايضاً يقول: «لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريباً» (الفتح-١٠٨) وقال ايضا: «وهو الذى كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً». (الفتح - ٢٤)

ولاشك ان المراد من البيعة هو بيعة الرضوان التى بايع المؤمنون فيها النبى الاكرم تحت الشجرة واعرب سبحانه عن رضاه عنهم.

روى الواحدى عن انس: ان ثمانين رجلا من اهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبى ﷺ واصحابه فاخذهم أسراء فاستحياهم. فانزل الله «وهو الذى كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم». (١)

اضف الى ذلك انه سبحانه يخبر فى نفس السورة عن فتح قريب، وهذا يعرب عن ان الفتح المبين غير الفتح القريب. قال سبحانه: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون

(١) اسباب النزول ص٢١٨

فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » (الفتح - ٢٧) . وهذا الفتح القريب امافتح خيبر اوفتح مكة ، والظاهرهوالثاني . واما رؤيا النبي فقدتحققت في العام القابل ، عام عمرة القضاء ، فدخل النبي ﷺ والمؤمنون مكة المكرمة آمنين محلقين رؤسهم و مقصرين و أقاموا بها ثلاثة ايام ثم خرجوا متوجهين الى المدينة ، وذلك في العام السابع من الهجرة ، وفي العام الثامن توفق النبي لفتح مكة وتحقق قوله سبحانه : «فجعل من دون ذلك فتحا قريباً» .

هذا كله حسب سياق الايات واما الروايات فهي مختلفة بين تفسيرها بالحديبية ، وتفسيرها بفتح مكة ، والقضاء فيها موكول الى وقت آخر . ولايؤثر هذا الاختلاف فيما نحن بصدده في المقام .

٢ - ماهوالمراد من الذنب ؟

قال ابن فارس في المقاييس ذنب: له اصول ثلاثة : احدها الجرم، والاخر: مؤخر الشيء . والثالث : كالحظ والنصيب (١) .

وقال ابن منظور: الذنب: الاثم والجرم والمعصية والجمع ذنوب ، وذنوبات جمع الجمع . وقد اذنب الرجل . وقوله عزوجل في مناجاة موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام «ولهم علي ذنب» (الشعراء - ١٤) عنى بالذنب قتل الرجل الذي وكزه موسى فقضى عليه وكان الرجل من آل فرعون (٢) .

وقد وردت تلك اللفظة في الذكر الحكيم سبع مرات واريد بها في الجميع الجرم قال سبحانه : «غافر الذنب وقابل التوب» (غافر-٣) وقال عزوجل «واذالمؤودة سئلت باي ذنب قتلت» . (التكوير - ٨و٩)

وعلى ذلك فكون الذنب بمعنى الجرم مما لاريب فيه . غيران الذي يجب التنبيه عليه ، هوان اللفظ لايدل على ازيد من كون صاحبه عاصياً وطاغياً وناقضاً

(١) معجم مقاييس اللغة ج٢ ص٣٦١

(٢) لسان العرب ج٣ ص٣٨٩

للقانون. واما الذى عصى وطغى عليه ونقض قانونه فهو يختلف حسب اختلاف البيئات والظروف ، وليست خصوصية العصيان لله سبحانه ماخوذة فى صميم اللفظ بحيث لو اطلق ذلك اللفظ يتبادر منه كونه سبحانه هو المعصى امره ، وانما تستفاد الخصوصية من القرائن الخارجية ، وهذا هو الاساس لتحليل الاية وفهم المقصود منها .

٣ ـ الغفران فى اللغة .

الغفران فى اللغة ، هو : الستر ، قال ابن فارس فى المقاييس : عظم بابه الستر . ثم يشذ عنه مايذكر . فالغفر الستر . والغفران والغفر بمعنى . يقال : غفر الله ذنبه غفراً ومغفرة وغفراناً (١) وقال فى اللسان بمثله (٢) .

٤ ـ الفتح لغاية مغفرة الذنب .

الاية تدل على ان الغاية المتوخاة من الفتح هى مغفرة ذنب النبى ﷺ ماتقدم منه وماتأخر ، غير ان فى ترتب تلك الغاية على ذيها غموضا فى بادىء النظر والانسان يستفسر فى نفسه كيف صار تمكينه سبحانه نبيه من فتح القلاع والبلدان اوالمهادنة والمصالحة فى ارض الحديبية مع قريش ، سببا لمغفرة ذنوبه ، مع انه يجب ان تكون بين الجملة الشرطية والجزائية رابطة عقلية اوعادية بحيث تعد احداهما علة لتحقق الاخرى اوملازمة لها . وهذه الرابطة خفية فى المقام جداً ، فان تمكين النبى من الاعداء والسيطرة عليهم يكون سببا لانتشار كلمة الحق ورفض الباطل واستطاعته التبليغ فى المنطقة المفتوحة ، فلو قال : انا فتحنا لك فتحا مبيناً ، لتتمكن من الاصحار بالحق ونشر التوحيد ، ودحض الباطل ، كان الترتب امراً طبيعياً ، وكانت الرابطة محفوظة بين الجملتين .

---

(١) معجم مقاييس اللغة ج٤ ص٣٨٥

(٢) لسان العرب ج٥ ص٢٥

واما جعل مغفرة ذنوبه جزاء لفتحه صقعاً من الاصقاع، فالرابطة غير واضحة

وهذه هي النقطة الحساسة في فهم مفاد الاية وبالتالي دحض زعم المخطئة في جعلها ذريعة لعقيدتهم. ولو تبينت صلة الجملتين لاتضحت عدم دلالتها على ماتتبناه تلك الطائفة.

فنقول: كانت الوثنية هي الدين السائد في الجزيرة العربية، وكانت العرب تقدس اوثانهم وتعبد اصنامهم، وتطلب منهم الحوائج، وتتقرب بعبادتها الى الله سبحانه هذا من جانب.

ومن جانب آخر: جاء النبي الاكرم ﷺ داعياً الى التوحيد في مجالي الخلق والامر، والى حصر التقديس والعبادة في الله، وانه لامعبود سواه ولاشفيع الا باذنه، فاخذ بتحطيم الوثنية ورفض عبادة الاصنام وانها اجسام بلا ارواح لايملكون شيئاً من الشفاعة والمغفرة، ولايقدرون على الدفاع عن انفسهم فضلا عن عبدتهم فصارت دعوته ثقيلة على قريش واذنابهم، حتى ثارت ثائرتهم على النبي الاكرم. فقابلوا برهنة النبي بالبذاءة والشغب والسب والنسب المفتعلة فوصفوه بانه كاهن وساحر ومفتر وكذاب. وقد اعربوا عن نواياهم السيئة عند مارفعوا الشكوى الى سيد الاباطح وقالوا: ان ابن اخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فاما ان تكفه عنا واما ان تخلى بيننا وبينه(١).

ولما وقف النبي ﷺ على كلام قومه عن طريق عمه اظهر صموده وثباته في طريق رسالته بقوله: «ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله اواهلك فيه، ماتركته قال: ثم استعبر فبكى ثم قام. فلما ولى ناداه ابوطالب فقال: اقبل يابن اخي. قال: فاقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال: اذهب يابن اخي فقل ماأحببت فوالله ماأسلمك لشيء ابداً». (٢)

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٦٥

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢٨٥ من الطبعة الحديثة

فلما وقفت قريش على صمود ابن اخى ابى طالب شرعوا بالمؤامرة والتخطيط عليه حتى قصدوا اغتياله فى عقر داره فنجاه الله من ايديهم .

ولما استقر النبى ﷺ فى يثرب واعتز بنصرة الانصار ومن حولها من القبائل جرت بينه وبين قومه حروب طاحنة ادت الى قتل صناديد قريش واراقة دمائهم على وجه الارض فى بدر و«احد» ووقعة الاحزاب.

فهذه الحوادث الدامية عند قريش، المرة فى اذواقهم بما انها جرّت الى ذهاب كيانهم ، وحدوث التفرقة فى صفوفهم ، والفتك بصناديد هم على يد النبى الاكرم ، صوّرته فى مخيلتهم وخزانة اذهانهم صورة انسان مجرم مذنب قام فى وجد سادات قومه ، فسب آلهتهم وعاب طريقتهم بالكهانة و السحر و الكذب والافتراء ، ولم يكتف بذلك حتى شن عليهم الغارة والعدوان فصارت ارض يثرب وماحولها ، مجازر لقريش ومذابح لاسيادهم ، فاىّ جرم اعظم من هذا واى ذنب اكبر منه عند هؤلاء الجهلة الغفلة، الذين لايعرفون الخيّر من الشرير، والصديق من العدو ، والمنجى من المهلك ؟

فاذن ماهو الامر الذى يمكن ان يبرئه من هذه الذنوب ويرسم له صورة ملكوتية فيها ملامح الصدق والصفاء ، وعلائم العطف والحنان حتى تقف قريش على خطئها وجهلها .

ان الامر الذى يمكن ان ينزه ساحته من هذه الاوهام والاباطيل ، ليست الا الواقعة التى تجلت فيها عواطفه الكريمة ، ونواياه الصالحة ، حيث تصالح مع قومه الذين قصدوا الفتك به وقتله فى داره، واخرجوه من موطنه ومهاده ، بعطف ومرونة خاصة ، حتى اثارت تعجب الحضار من اصحابه ومخالفيه ، حيث تصالح معهم على انه «من اتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريش ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وانه من احب ان يدخل فى عقد محمد و عهده دخل فيه ، ومن احب ان يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه (١) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٣١٧-٣١٨

وهذا العطف الذى ابداه النبى ﷺ فى هذه الواقعة مع كونه من القدرة بمكان، وقريش فى حالة الانحلال والضعف، صوّر من النبى ﷺ عند قومه واتباعه صورة انسان مصلح يحب قومه ويطلب صلاحهم ولاتروقه الحرب والدمار والجدال فوقفوا على حقيقة الحال، وعضوا الانامل على ماافتعلوا عليه من النسب وندموا على مافعلوا، فصاروا يميلون الى الاسلام زرافات و وحداناً. فاسلم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، والتحقا بالنبى قبل ان يسيطر النبى ﷺ على مكة وحواليها.

ان هذه الواقعة التى لمس الكفار منها خلقه العظيم، رفع الستار الحديدى الذى وضعه بغض اعدائه الالدّاء بينه وبين قومه فعرفوا. أن مايرمى به نبىّ العظمة ويوصف به بين اعدائه، كانت دعايات كاذبة وكان هو منزهاً عنها، بل عن الاقل منها

ولاتقصر عن هذه الواقعة، فتح مكة، فقد واجه قومه مرة اخرى وهم فى هزيمة نكراء. ملتفون حوله فى المسجد الحرام فخاطبهم بقوله: ماذا تقولون وماذا تظنون ؟! فاجابوا: نقول خيراً ونظن خيراً اخ كريم وابن اخ كريم وقدرت. فقال رسول الله ﷺ: لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين (١).

وهذا الفتح العظيم وقبله وقعة الحديبية اثبتا بوضوح ان النبى الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم اكرم واجل واعظم من ان يكون كاهنا اوساحراً، اذ الكاهن والساحر ادون من ان يقوم بهذه الامور الجليلة كما ان لطفه العميم وخلقه العظيم آية واضحة على انه رجل مثالى صدوق، لا يفترى ولا يكذب، وان ماجرى بينه وبين قومه من الحروب الدامية. كانت نتيجة شقاقهم وجدالهم ومؤامراتهم عليه، مرة بعد اخرى فى موطنه ومهجره، فجعلوه فى قفص الاتهام اولا، وواجهوا انصاره واعوانه بالوان التعذيب ثانياً، فقتل من قتل واوذى من اوذى،

(١) المغازى للواقدى ج٢ ص٨٣٥ وبحار الانوار ج ٢١ ص ١٠٧ - ١٣٢ من الطبعة الحديثة.

وضربوا عليه والمؤمنين به ، حصاراً اقتصاديا فمنعوهم من ضروريات الحياة ثالثاً . وعمدوا الى قتله فى عقر داره رابعاً . ولولا جرائمهم الفظيعة لما اخضرت الارض بدمائهم ولالقى منهم بشيىء يكرهه فاصبحت هذه الذنوب التى كانت تدعيها قريش على النبى بعد وقعة الحديبية، اوفتح مكة، اسطورة خيالية قضت عليها سيرته فى كل من الواقعتين من غير فرق بين ما الصقوا به قبل الهجرة اوبعدها . وعند ذلك يتضح مفاد الايات كما يتضح ارتباط الجملتين: الجزائية والشرطية ، ولولا هذا الفتح كان النبى محبوساً فى قفص الاتهام ، وقد كسرته هذه الواقعة وعرفته نزيها عن كل هذه التهم .

وعلى ذلك فالمقصود من الذنب هو ماكانت قريش تصفه به ، كما ان المراد من المغفرة ، اذهاب آثار تلك النسب فى المجتمع .

والى ماذكرنا يشير مولانا الامام الرضا عليه السلام عندما سأله المأمون عن مفاد الاية فقال : « لم يكن احد عند مشركى اهل مكة اعظم ذنبا من رسول الله ﷺ لانهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً ، فلما جاءهم بالدعوة الى كلمة الاخلاص كبر ذلك عليهم وعظم «وقالوا : اجعل الالهة الها واحداً ان هذا لشيىء عجاب . وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الاخرة ان هذا الا اختلاق» (سوره ص ـ ٥ ـ ٧) فلما فتح الله عزوجل على نبيه محمد ﷺ مكة . قال له يامحمد : «انا فتحنا لك (مكة) فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر» عند مشركى اهل مكة بدعائك الى توحيد الله عزوجل فيما تقدم وما تأخر ، لان مشركى مكة، اسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة ، ومن بقى منهم لم يقدر على انكار التوحيد عليه اذا دعا الناس اليه . فصار ذنبه عندهم فى ذلك مغفوراً بظهوره عليهم .

فقال المأمون : لله درك يا اباالحسن (١) .

وقداشرنا فى صدر البحث الى اختلاف الروايات فى المراد من الفتح الوارد

(١) بحار الانوار ج ١٧ ص ٩٠ من الطبعة الحديثة .

فى الاية وقلنا بان هذا الاختلاف لايؤثر فيما نرتئيه . فلا حظ .

الاية الخامسة : العصمة والتولى عن الاعمى .

استدل المخالف لعصمة النبى الاعظم بالعتاب الوارد فى الايات التالية «عبس وتولى. ان جاءه الاعمى. وما يدريك لعله يزكى. اويذكر فتنفعه الذكرى. اما من استغنى. فانت له تصدى. وما عليك الا يزكى. واما من جائك يسعى. وهو يخشى فانت عنه تلهى» . (عبس - ١ - ١٠)

روى المفسرون ان عبدالله بن ام مكتوم الاعمى اتى رسول الله وهو يناجى عتبة بن ربيعة وابا جهل بن هشام والعباس بن عبدالمطلب وابيا وامية ابنى خلف يدعوهم الى الله ويرجو اسلامهم ، فقال عبدالله اقرئنى وعلمنى مما علمك الله . فجعل ينادى ويكرر النداء ولايدرى انه مشتغل مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة فى وجه رسول الله لقطعه كلامه ، وقال فى نفسه : يقول هؤلاء الصناديد انما اتباعه العميان والسفلة والعبيد ، فعبس ﷺ واعرض عنه واقبل على القوم الذين يكلمهم . فنزلت الايات وكان رسول الله بعد ذلك يكرمه واذا رآه يقول: مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى (١) ويقول : هل لك من حاجة ، واستخلفه على المدينة مرتين فى غزوتين . (٢)

وهناك وجه آخر لسبب النزول روى عن ائمة اهل البيت ، وحاصله ان الاية نزلت فى رجل من بنى امية كان عند النبى ﷺ فجاء ابن ام مكتوم فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس واعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وانكره عليه (٣) .

والاعتماد على الرواية الاولى مشكل ، لان ظاهر الايات عتاب لمن يقدم

---

(١) اسباب النزول للواحدى ص٢٥٢ .

(٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٣٧ وغيره من التفاسير .

(٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٣٧ وتفسير القمى ج ٢ ص٤٠٥

الاغنياء والمترفين، على الضعفاء والمساكين من المؤمنين ، ويرجح اهل الدنيا ويضع اهل الاخرة ، وهذا لاينطبق على النبى الاعظم من جهات :

الاولى: انه سبحانه حسب هذه الرواية وصفه بانه يتصدى للاغنياء ويتلهى عن الفقراء ، وليس هذا ينطبق على اخلاق النبى الواسعة وتحننه على قومه وتعطفه عليهم ، كيف وقد قال سبحانه «لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم» (التوبة ـ ١٢٨)

الثانية : انه سبحانه وصف نبيه فى سورة القلم ، وهى ثانية السور التى نزلت فى مكة (واولاها سورة العلق) بقوله : «وانك لعلى خلق عظيم» (القلم ـ ٤) ومع ذلك كيف يصفه بعد زمن قليل بخلافه ، فاين هذا الخلق العظيم مماورد فى هذه السورة من العبوسة والتولى؟ وهذه السورة حسب ترتيب النزول وان كانت متأخرة عن سورة القلم ، لكنها متقاربة معها حسب النزول ولم تكن هناك فاصلة زمنية طويلة الامد (١)

الثالثة : انه سبحانه يأمر نبيه بقوله : «وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» (الشعراء ـ ٢١٤ ـ ٢١٥) كما يأمره ايضا بقوله «اخفض جناحك للمؤمنين» (الحجر ـ ٨٨) فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين» (الحجر ـ ٩٤)

ان سورتى الشعراء والحجر . وان نزلتا بعد سورة «عبس» لكن تضافرت الروايات على ان الايات المذكورة فى السورتين نزلت فى بدء الدعوة، اى العام الثالث من البعثة عندما امره سبحانه بالجهر بالدعوة والاصحار بالحقيقة وعلى ذلك فهى متقدمة حسب النزول على سورة «عبس» اويصح بعد هذه الخطابات ، ان يخالف النبى هذه الخطابات بالتولى عن المؤمن ؟ كلا ثم كلا .

الرابعة : ان الرواية تشتمل على ماخطر فى نفس النبى عند ورود ابن ام

(١) تاريخ القرآن للعلامة الزنجانى ص ٣٦ ـ ٣٧ وقد نقل ترتيب نزول القرآن فى مكة والمدينة معتمداً على رواية محمد بن نعمان بن بشير التى نقلها ابن النديم فى فهرسه ص ٧ طبع مصر .

مكتوم من انه ﷺ قال في نفسه : « يقول هؤلاء الصناديد : انما اتباعه العميان والسفلة والعبيد فاعرض عنه واقبل على القوم» وعندئذ يسأل عن كيفية وقوف الراوي على ماخطر في نفس النبي ﷺ ، فهل اخبر به النبي ؟ اوانه وقف عليه من طريق آخر ؟!

والاول بعيد جداً . والثاني مجهول .

الخامسة : ان الرواية تدل على ان النبي كان يناجي جماعة من المشركين وعند ذلك اتى عبدالله ابن ام مكتوم وقال : يارسول الله اقرئني فهل كان اسكات ابن ام مكتوم متوقفاً على العبوسة والتولي عنه او كان امره بالسكوت والاستمهال منه حتى يتم كلامه مع القوم، امراً غير شاق على النبي ، فلماذا ترك هذا الطريق السهل ؟ .

وهذه الوجوه الخمسة وان امكن الاعتذار عن بعضها بان العبوسة والتولي مرة واحدة لاينا في ماوصف به النبي في القرآن من الخلق العظيم وغيره لكن محصل هذه الوجوه يورث الشك في صحة الرواية ويسلب الاعتماد عليها .

هذا كله حول الرواية الاولى .

واما الرواية الثانية :

فهي لاتنطبق على ظاهر الايات ، لان محصلها ان رجلا من بني امية كان عند النبي فجاء ابن ام مكتوم فلما رآه ذلك الرجل تقذّر منه وجمع نفسه ، وعبس واعرض بوجهه عنه . فحكى الله سبحانه ذلك وانكره عليه .

ولكن هذا المقدار المنقول في سبب النزول لايكفي في توضيح الايات، ولايرفع ابهامها ، لان الظاهر ان العابس والمتولي ، هو المخاطب بقوله سبحانه: «ومايدريك لعله يزكى الى قوله فانت عنه تلهى» فلو كان المتعبس والمتولي هو الفرد الاموي فيجب ان يكون هو المخاطب بالخطابات الست لاغيره مع ان الرواية لاتدل على ذلك بل غاية ماتدل عليه ان فرداً من الامويين عبس وتولى عندما جاءه الاعمى فقط .

ولاتلقى ضوء بالنسبة الى الخطابات الاتية بعد الايتين الاوليين وانها الى من تهدف فهل نقصد ذاك الرجل الاموى وهو بعيد او النبى الاكرم.

هذا هو القضاء بين السببين المرويين للنزول وقد عرفت الاسئلة الموجهة اليهما.

وعلى فرض صحة الرواية الاولى لابد ان يقال:

ان الرواية ان دلت على شيء فانما تدل على ان النبى ﷺ كان موضع عنايته سبحانه ورعايته فلم يكن مسؤولا عن افعاله وحركاته وسكناته فقط، بل كان مسؤولا حتى عن نظراته وانقباض ملامح وجهه، وانبساطها فكانت المسؤولية الملقاة على عاتقه من اشد المسؤوليات واثقلها صدق الله العلى العظيم حيث يقول: «انا سنلقى عليك قولا ثقيلا» (المزمل ـ ٥)

كان النبى صلى الله عليه وآله يناجى صناديد قومه ورؤساءهم لينجيهم من الوثنية ويهديهم الى عبادة التوحيد وكان لاسلامهم يوم ذاك، تاثير عميق فى ايمان غيرهم.

اذ الناس على دين رؤسائهم واوليائهم. وكان النبى ﷺ فى هذه الظروف يناجى رؤساء قومه اذ جاءه ابن ام مكتوم غافلا عما عليه النبى صلى الله عليه وآله من الامر المهم فلم يلتفت اليه النبى، وجرى على ما كان عليه من المذاكرة مع اكابر قومه.

وما سلكه النبى ﷺ لم يكن امراً مذموماً عند العقلاء، ولا خروجاً على طاعة الله، ولكن الاسلام دعاه وارشده الي خلق مثالى اعلى مما سلكه وهو ان التصدى لهداية قوم يتصورون انفسهم اغنياء عن الهداية، يجب ان لا يكون سبباً للتولى عمن يسعى ويخشى، فهداية الرجل الساعى فى طريق الحق، الخائف من عذاب الله، اولى من التصدى لقوم يتظاهرون بالاستغناء عن الهداية وعما انزل اليك من الوحى، وما عليك بشيء اذا لم يذكّوا انفسهم، لان القرآن تذكرة فمن شاء ذكره

«فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمصيطر» (الغاشية - ٢١ - ٢٢)

فعظم المسؤولية اقتضى ان يعاتب الله سبحانه نبيه لترك ماهوالاولى بحاله حتى يرشده الى مايعد من افاضل ومحاسن الاخلاق وينبهه على عظم حال المؤمن المسترشد وان تأليف المؤمن ليقيم على ايمانه ، اولى من تاليف المشرك طمعاً في ايمانه ومن هذا حاله لايعد عاصيا لامر الله ومخالفا لطاعته .

واما الرواية الثانية : فالظاهر ان الرواية نقلت غير كاملة و كان لها ذيل يصحح انطباق الخطابات الواردة في الايات حقيقة على الشخص الذى عبس وتولى وعلى فرض كونها تامة فالضمير الغائب في «عبس» و«تولى» و «جاءه» يرجع الى ذلك الفرد ، وأما الخطابات فهى متوجهة الى النبى ﷺ لكن من وجه اليه الخطاب غير من قصد منه . فهو من مقولة «اياك اعنى واسمعى ياجارة» ومثل هذا يعد من اساليب البلاغة ، وفنون الكلام .

* * *

دين النبى الاكرم قبل البعثة :

دلت الادلة العقلية والنقلية على عصمة الانبياء عامة والنبى الاكرم خاصة الا ان الحكم بعصمته قبل التشرف بالنبوة ، يتوقف على احراز تدينه بدين قبل ان يبعث وهذا مانتلوه عليك فى هذا البحث تكميلا لعصمته ﷺ .

من الموضوعات المهمة التى شغلت بال المحققين من اهل السير والتاريخ موضوع دين النبى الاعظم ﷺ وقد اتفق جمهور المسلمين على انه ﷺ كان على خط التوحيد منذ نعومة اظفاره الى ان بعث لهداية امته ، فلم يسجد لصنم ولاوثن ، وكان بعيداً عن الاخلاق والعادات الجاهلية التى تستقى جذورها من الوثنية وان اختلفوا فى انه هل كان متعبداً بشريعة احد من الانبياء اوبشريعة نفسه اوبما يلهم من الوظائف والتكاليف وعلى ذلك فنركّز البحث على نقطتين :

١ ـ ايمانه وتوحيده قبل البعثة :

٢ ـ الشريعة التى كان يعمل بها فى حياته الفردية والاجتماعية .

اما بالنسبة الى النقطة الاولى : فقد كان النبى الاعظم ﷺ على الدين الحنيف لم يعدل عنه الى غيره طرفة عين ، وتظهر هذه الحقيقة بالتعرف على ملامح البيت الذى ولد فيه، وتربى فى احضان رجاله فنقول :

كان النبي كريم المولد، شريف المحتد ،ولد من ابوين كريمين مؤمنين بالله سبحانه وموحدين وتربى فى حضن جده عبد المطلب، وبعده فى حجر عمه ابى طالب عليه السلام وقد كان الدين السائد فى ذلك البيت الرفيع ، دين التوحيد، ورفض عبادة غير الله

تعالى والعمل بالمناسك والرسوم الواصلة اليه عن ابراهيم عليه السلام .

لااقول ان جميع من كان ينتمى الى البيت الهاشمى كان على خط التوحيد وعلى الشريعة الابراهيمية ، اذلاشك ان بعضهم كان يعبد الاصنام ، ويدافع عنها كابى لهب وابى سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب .

بل اقول: الديانة السائدة فى ذلك البيت هى عبادة الرحمان ورفض الاصنام والاوثان .

ويتضح وضع هذا البيت ببيان ديانة اشياخه واسياده واخص بالذكر منهم سيده الكبير «عبدالمطلب» وشيخ الاباطح اباطالب واليك الكلام فى ديانتهما .

١ - عبدالمطلب وايمانه .

عبدالمطلب هو الرجل الاول فى هذا البيت و كفى فى صفائه وايمانه ماذكره المؤرخون فى حقه واليك بعضه .

١ - يقول اليعقوبى فى الحديث عنه ... ورفض عبدالمطلب عبادة الاوثان والاصنام ، ووحدالله عزوجل » ووفى بالنذر ، وسن سنناً نزل القرآن باكثرها، وجاءت السنة الشريفة من رسول الله ﷺ بها، وهى الوفاء بالنذر ، ومائة من الابل فى الدية ، وان لاتنكح ذات محرم ، ولاتؤتى البيوت من ظهورها ، وقطع يد السارق والنهى عن قتل الموؤدة ، وتحريم الخمر ، وتحريم الزنا ، والحد عليه والقرعة، وان لايطوف احد بالبيت عريانا ، واضافة الضيف ، وان لاينفقوا اذا حجوا الامن طيب اموالهم ، وتعظيم الاشهر الحرم ، ونفى ذوات الرايات (١) .

٢- اذا اطلعنا على موقف عبدالمطلب من جيش ابرهة ، وتوكله على الله تعالى واخذه بحلقة باب الكعبة ، نعلم بانه كان الرجل الموحد لايلتجىء فى

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص٩ طبعة النجف . اقول : فى عد بعض ماذكر ذلك المورخ من سنن عبدالمطلب نظر : فان لبعضها كالوفاء بالنذر والنهى عن قتل الموؤدة والقرعة سابقة تاريخية ترجع الى فترات قبله .

المصائب والمكاره الى غير كهف الله ، ولايعرف الاباب الله ، على عكس ما كانت الوثنية عليه فانهم كانوا يستغيثون بالاصنام المنصوبة حول الكعبة واليك اجمال القضية :

قدم عبدالمطلب الى معسكر ابرهة فلما رآه ابرهة اجلّه واكرمه وبعد ماوقف الملك على انه جاء ليردّ عليه ابله التى استولى عليها عسكره ، قال له ابرهة اتكلمنى فى ابلك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه . قال له عبدالمطلب: انا رب الابل وللبيت رب يمنعه . قال ابرهة : ما كان يمنعه منى وامر برد ابله . فلما اخذها قلدها وجعلها هدياً وبثها فى الحرم كى يصاب منها شىء فيغضب الله عزوجل، وانصرف عبدالمطلب الى قريش واخبرهم الخبر، ثم قام فاخذ بحلقة باب الكعبة و قام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على ابرهة وجنده ، فقال عبدالمطلب:

يا رب لاارجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا امنعهم ان يخربوا فناكا

وقال ايضا :

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك (١)

وليست هذه الواقعة وحيدة من نوعها بل لسيد قريش مواقف اخرى. تشبه هذه الواقعة

٣ ـ توسل لكشف غمته فيها بالله سبحانه وتعالى واليك مثالين :

الف ـ تتعابعت على قريش سنون جدب ، ذهبت بالاموال واشرفت على الانفس ، واجتمعت قريش لعبدالمطلب وعلوا جبل أبى قبيس ومعهم النبى ﷺ محمد ﷺ وهو غلام فتقدم عبدالمطلب وقال :

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٥٠ والكامل لابن الاثير ج١ ص١٢ وغيرهما

«لاهم» (١) هؤلاء عبيدك واماؤك وبنوامائك وقد نزل بنا ماترى، وتتابعت علينا هذه السنون، فذهبت بالظلف والخف والحافر، فاشرفت على الانفس فاذهب عنا الجدب وائتنا بالحياء والخصب، فما برحوا حتى سالت الاودية، وفى هذه الحالة تقول رقيقة :

بشيبة الحمد اسقى الله بلدتنا　　وقد عدمنا الحيا واجلّوذا المطر

الى ان تقول :

مبارك الامم يستسقى الغمام به　　ما فى الانام له عدل ولاخطر

والى هذه الواقعة يشيرابوطالب فى قصيدة اولها :

ابونا شفيع الناس حين سقوا به　　من الغيث رجاس العشير بكور

ونحن - سنين المحل - قام شفيعاً　　بمكة يدعوا والمياه تغور (١)

وقد نقل هذه الواقعة الشهرستانى فى الملل والنحل قال : ومما يدل على معرفته (عبدالمطلب) بحال الرسالة وشرف النبوة ان اهل مكة لما اصابهم ذلك الجدب العظيم وامسك السحاب عنهم سنتين، امرأباطالب ابنه ان يحضر المصطفى محمداً ﷺ فاحضره وهو رضيع فى قماط، فوضعه على يديه واستقبل الكعبة ورماه الى السماء وقال يارب بحق هذا الغلام ورماه ثانياً وثالثاً . . وكان يقول : بحق هذا الغلام اسقنا غيثا مغيثاً دائما هطلا . فلم يلبث ساعة ان طبق السحاب وجه السماء وامطر. حتى خافوا على المسجد . وقال ايضا : وببركة ذلك النور كان عبدالمطلب يأمر اولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الاخلاق وينهاهم عن دنّيات الامور . وكان يقول فى وصاياه : انه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة . الى ان هلك رجل ظلوم حتف انفه لم تصبه عقوبة . فقيل لعبد المطلب فى ذلك، ففكر وقال : والله ان وراء هذه

---

(١) مخفف «اللهم»

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص١٣١-١٣٣

الدار دار يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسيىء باساءته» (١) .

ان توسله بالله سبحانه وتوليه عن الاصنام والاوثان والتجاءه الى رب الارباب آية توحيده الخالص ، وايمانه بالله وعرفانه بالرسالة الخاتمة . وقداسة صاحبها فلو لم يكن له الا هذه الوقائع لكفت فى البرهنة على ايمانه بالله وتوحيده له .

ب ـ روى اصحاب السير انه وقع النقاش بين عبدالمطلب وقريش فى حفر بئرزمزم بعد ما حفره عبدالمطلب فاتفقوا على الرجوع الى كاهنة . فقصدوا طريق الشام فعطشوا فى الطريق واشرفوا على الموت فاقترح ان يحفر كل حفرة لنفسه بما بكم الان من القوة فكلما مات رجل دفنه اصحابه فى حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلا واحداً فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً ، قالوا نعم ماامرت به فقام كل واحد، منهم فحفر حفرته ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً ، ثم ان عبدالمطلب قال لاصحابه : والله ان القاءنا بايدينا هكذا للموت ، لانضرب فى الارض ولا نبتغى لانفسنا ، لعجز ، فعسى الله ان يرزقنا ماء ببعض البلاد ، ارتحلوا ، فارتحلوا حتى اذا فرغوا ، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون اليهم ماهم فاعلون، تقدم عبدالمطلب الى راحلته فركبها فلما انبعثت به ، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فكبّر عبدالمطلب وكبر اصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب اصحابه واستقوا حتى ملؤوا اسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلّم الى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا ، فجاؤوا فشربوا واستقوا . ثم قالوا والله قضى لك علينا ياعبدالمطلب ، والله لانخاصمك فى زمزم ابداً ، ان الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة ، لهو الذى سقاك زمزم فارجع الى سقايتك راشداً ، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا الى الكاهنة ، وخلّوا بينه وبينها (٢) .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى القسم الثانى ص٢٤٨ و٢٤٩ من الطبعة الثانية تخريج محمد بن فتح الله بدران القاهرة .

(٢) سيرة ابن هشام ج١ ص١٤٤ـ ١٤٥ من طبعة مصر .

٤- عن ام ايمن (رضى الله عنها) قالت كنت احضن النبى ﷺ اى اقوم بتربيته وحفظه فغفلت عنه يوماً فلم ادر الا بعبدالمطلب قائماً على رأسى يقول : يا «بركة» قلت : لبيك قال اتدرين اين وجدت ابنى ؟قلت : لاادرى .قال : وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ،لاتغفلى عن ابنى ،فان اهل الكتاب يزعمون انه نبى هذه الامة وانا لا آمن عليه منهم ،وكان عبدالمطلب لايأكل طعاماً الا يقول على "بابنى اى احضروه ويجلسه بجنبه وربما اقعده على فخذه ويوثره باطيب طعامه . (١)

هذا هو عبدالمطلب وتعوذه ببيت الله الحرام ومواقفه بين قومه وكلماته فى المبدأ والمعاد وعطفه على رسالة خاتم النبيين ، أبعد هذا يبقى لاحد شك فى توحيده وايمانه، بل واعترافه برسالة الرسول الاكرم

قضى النبى ﷺ لفيفاً من عمره فى رعايته فلما بلغ اجله اوصى الى ابنه الزبير بالحكومة وامر الكعبة . والى ابى طالب برسول الله وسقاية زمزم وقال له؟ قد خلفت فى ايديكم الشرف العظيم الذى تطؤون به رقاب الناس وقال لابى طالب.

اوصيك ياعبدمناف بعدى　　بمفرد بعد ابيه فرد
فارقه وهو ضجيع المهد　　فكنت كالام له فى الوجد
تدنيه من احشائها والكبد　　فانت من ارجى بنى عندى
لدفع ضيم اولشد عقد . (٢)

٢- شيخ الاباطح ابوطالب وايمانه :

قد تعرفت على ايمان «عبدالمطلب» الكفيل الاول لصاحب الرسالة ، فهلم معى ندرس حياة كفيله الاخر بعده وهو ابوطالب شيخ البطحاء ، فقد اتفقت كلمة اهل السير والتاريخ على كفالته لصاحب الرسالة بعد جده ودرئه عنه كل سوء وعادية ، طيلة حياته ، وان اختلفت آراؤهم فى ايمانه بالرسول الاكرم بعد

(١) سيرة زينى دحلان بهامش السيرة الحلبية ج١ ص٦٤
(٢) تاريخ اليعقوبى ج٢ ص١٠ من طبعة النجف .

البعثة ولاجل تحقيق الحال نركّز على البحث عن نقطتين : ايمانه قبل البعثة ، وايمانه بعد البعثة :

ايمانه بالله قبل البعثة :

تكفى فى ايمانه بالله وخلوص توحيده عدة امور نشير اليها :

١ـ ما اخرجه ابن عساكر فى تاريخه عن جلهمة ابن عرفطة : قال قدمت مكة وهم فى قحط فقالت قريش يا ابا طالب اقحط الوادى واجدب العيال فهلم واستسق ، فخرج ابوطالب ومعه غلام كانه شمس دجى تجلت عنه سحابة قتماء وحوله اغيلمة فاخذه ابوطالب فالصق ظهره بالكعبة، ولاذ باصبعه الغلام وما فى السماء ، قزعة . (١)

فاقبل السحاب من ها هنا وهاهنا واغدق واغدودق وانفجر له الوادى واخصب البادى والنادى ففى ذلك يقول ابوطالب ويمدح به النبى اكثر من ثمانين بيتاً .

وابيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفواضل

وميزان عدل لايخيس شعيرة ووزان صدق وزنه غير هائل(٢)

وما نسبه اليه من الاشعار جزء من قصيدته المعروفة التى نظمها ايام الحصار فى الشعب ويشير بها الى الواقعة التى استسقى فيها بالنبى وقد كان غلاماً فى كفالته ولو كان آنذاك عابداً للوثن لتوسل باللات والعزى وسائر الالهة المنصوبة حول الكعبة .

٢ـ روى الحافظ الكنجى الشافعى ان احد الزهاد والعباد قال لابى طالب

(١) القزعة : قطعة من السحاب .

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص١١٦، لاحظ فتح البارى ج٢ ص٤٩٤، والقصيدة مذكورة فى السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢٧٢-٢٨٠ .

يا هذا ان العلى الاعلى الهمنى الهاماً ، قال ابوطالب : وماهو؟. قال ولد يولد من ظهرك وهوولى الله عزوجل فلما كانت الليلة التى ولد فيها علىّ (ع) اشرقت الارض فخرج ابوطالب وهويقول: ايهاالناس ولد فى الكعبة ولى الله فلما اصبح دخل الكعبة وهويقول :

يارب هذاالغسق الدجى　　والقمر المنبلج المضى
بيّن لنا من امرك الخفى　　ماذاترى فى اسم ذاالصبى

قال: فسمع صوت هاتف يقول :

ياهل بيت المصطفى النبى　　خصصتم بالولد الزكى
ان اسمه من شامخ العلى　　علىّ اشتق من العلى (١)

٣- ان اباطالب كان ممن يعرف على مكانة النبى الاعظم عن طريق الراهب «بحيرا» وذلك حينما خرج فى ركب الى الشام تاجراً فلما تهيأ للرحيل واجمع السير هبّ له رسول الله ﷺ فاخذ بزمام ناقته وقال ياعم الى من تكلنى لاب لى ولا ام لى؟ فرقّ له ابوطالب وقال : والله لاخرجن به معى ولايفارقنى ولاافارقه ابداً قال: فخرج به معه فلما نزل الركب «بصرى» من ارض الشام نزلوا قريباً من صومعة راهب يقال له «بحيرا» فلما رأى النبى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر اشياء من جسده فجعل يسأله عن نومه وهيئته و رسول الله يخبره ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ثم قال لابى طالب : ارجع بابن اخيك الى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت، ليبغنّه شراً فانه كائن لابن اخيك هذا شأن عظيم فاسرع به الى بلاده. فخرج به عمه ابوطالب سريعاً حتى اقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام وفى ذلك يقول ابوطالب :

ان ابن آمنة النبى محمداً　　عندى يفوق منازل الاولاد
لما تعلق بالزمام رحمته　　والعيس قد قلّصن بالازواد
فارفضّ من عينى دمع ذارف　　مثل الجمان مفرق الافراد

(١) الغدير ج ٧ ص ٣٤٧ نقلا عن كفاية الطالب للحافظ الكنجى الشافعى ص ٢٦٠

الى ان قال :

حتى اذا ماالقوم بصرى عاينوا ... لاقوا على شرك من المرصاد

حبراً فاخبرهم حديثا صادقاً ... عنه و ردّ معاشر الحسّاد

فما رجعوا حتى رأوا من محمد ... احاديث تجلوغمّ كل فؤاد

وحتى رأوا احبار كل مدينة ... سجوداً له من عصبة وفراد(١)

ومارأى ابوطالب من ابن اخيه فى هذا السفر من الكرامات وخوارق العادات التى ضبطها التاريخ وماسمعه من بحيرا من مستقبل امره وان اليهود بالمرصادله ، كاف لارشاد كل انسان صافى الذهن مستقيم الطريقة ، فكيف بابى طالب الذى كان بالاضافة الى هذين الصفتين ، يحبه حباً جماً . اشدّ من حبه لاولاده واخوته فكانت هذه الكرامات كافية فى هدايته لخط التوحيد ورسالة ابن اخيه وان كان لايصرح بها لفظاً قبل البعثة . لكنه جهر بها بعده كما سيوافيك ان شاء الله .

مضافاً الى انه كان موضع الثقة من عبدالمطلب وقد أوصاه برعاية ابن اخيه بعده فلا يصح لعبد المطلب المؤمن الموحد ان يدلى بوصيته و كفالة محمد ﷺ الى من لم يكن على غير خط التوحيد . ولم تكن بينهما وحدة فكرية والى ذلك يشيرابوطالب فى هذه القصيدة الدالية :

راعيت فيه قرابة موصولة ... وحفظت فيه وصية الاجداد

ايمانه بعد البعثة :

اما دلائل ايمانه بالله اولا وبرسالة ابن اخيه ثانياً بعد بعثة النبى الاكرم فحدث عنه ولاحرج وان كان بعضهم قد هضم حق ابى طالب قرة عين الرسول

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٨٢ والطبقات الكبرى ج١ص١٢٠ تاريخ ابن عساكر ج١ص٢٦٩-٢٧٢ وديوان ابى طالب ص٣٣-٣٥ الى غير ذلك من المصادر التى اهتمت بنقل هذه الواقعة .

ﷺ وقالوا بمالاينسجم مع الحقائق التاريخية ولونقل معشار ما ورد عن ايمانه من فعل أو قول ، فى حق غيره لاتفق الكل على ايمانه وتوحيده . ولكن - ويالللاسف - ان بعض الجائرين على الحق لايريدون ان يعتبروا تلك الدلائل وافية لاثبات ايمانه .

لم يزل سيدنا ابوطالب يكلأ ابن اخيه ويذب عنه ويدعو الى دينه الحنيف منذ بزوغ شمس الرسالة الى ان لقى ربه وكفانا عن افاضة القول فى ذلك، الكتب المؤلفة حول تضحيته لاجل الحق ودفاعه عنه شعراً ونثراً ونكتفى بالنزر اليسير من الجم الغفير.

١- كتب ابوطالب الى النجاشى عندما نزل المهاجرون من المسلمين بقيادة جعفر الطيار ارض الحبشة وهو يحضه على حسن الجوار :

ليعلم خيار الناس ان محمداً　　نبى كموسى والمسيح بن مريم
وانكم تتلونه فى كتابكم　　بصدق حديث لاحديث المبرجم(١)

٢ - نحن نفترض الكلام فى غير ابى طالب فاذا اردنا الوقوف على نفسية فرد من الافراد والعلم بما يكنّه من الايمان اوالكفر، فماهو الطريق الى كشفها؟ فهل الطريق اليه الا كلامه وقوله ، اومايقوم به من عمل ، اومايروى عنه مصاحبوه ومعاشروه ، فلو كانت هذه هى المقاييس الصحيحة للتعرف على النفسية ، فكلها تشهد بايمانه القويم وتوحيده الخالص ، فان فيما أثر عنه من نظم ونثر ، او نقل من عمل بار، وسعى مشكور فى نصرة النبى ﷺ وحفظه ، والدعوة لرسالته وماروى عنه مصاحبوه ومعاشروه- فان فى هذه - لدلالة واضحة على ايمانه بالله ورسالة ابن اخيه وتفانيه فى سبيل استقرارها .

كيف وهو يقول فى امر الصحيفة التى كتبها صناديد قريش فى سبيل ضرب الحصار الاقتصادى على النبى ﷺ وبنى هاشم وبنى المطلب :

الم تعلموا انا وجدنا محمداً　　رسولا كموسى خط فى اول الكتب

(١) مستدرك الحاكم ج٢ ص٦٢٣- ٦٢٤ .

وان الذى رقشتم فى كتابكم يكون لكم يوماً كراغية السقب(١)

ففى هذه الابيات التى تزهر بنور التوحيد، وتتلألأ بالايمان بالدين الحنيف دلالة واضحة على ايمانه بالرسالات الالهية عامة، ورسالة ابن اخيه ﷺ خاصة وكم وكم له من قصائد رائعة يطفح من ثناياها الايمان الخالص، والاسلام الصحيح نحن نكتفى فى اثبات ايمان كفيل رسول الله ﷺ بهذا المقدار ونحيل التفصيل الى الكتب المعدة لذلك.

فان نقل ما اثر عنه من شعر ونثر، اوروى من عمل مشكور، يحتاج الى تأليف كتاب مفرد وقد قام لفيف من محققى الشيعة بتأليف كتب حول ايمانه، بين مسهب فى الافاضة وموجز فى المقالة وفيما حققه وجمعه شيخنا العلامة الامينى فى غديره كفاية لطالب الحق (٢).

هذا ايمان عبدالمطلب وذلك توحيد ابنه البار ابى طالب وقد تربى النبى صلى الله عليه وآله وترعرع وشب واكتهل فى احضانهما، وفى قانون الوراثة ان يرث الابناء ما فى الحجور والاحضان من الخصال والاخلاق وقد قضى النبى الاكرم قسماً وافراً من عمره الشريف فى تلك الربوع واستظل بفيئها.

ايمان والدى النبى الاكرم.

لقد تعرفت على ايمان كفيل النبى ﷺ فهلم معى ندرس حياة والديه وايمانهما. فقد ذهبت الامامية والزيدية وجملة من محققى اهل السنة الى ايمانهما وكونهما على خط التوحيد. وشذ من قال: «ان النبى ﷺ من كثرة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣٥٢ وذكر من القصيدة ١٥ بيتاً.

(٢) راجع تفصيل ذلك فى الغدير ج٧ ص٣٣٠-٤٠٩ وج٨ ص١-٢٩- اضف اليه ماطبع اخيراً (فى السنوات الاخيرة) وهو كتاب بعنوان (سيد البطحاء) بقلم محمود البغدادى وهو يعالج قصة ايمان ابى طالب بتحليل رائع يناسب روح العصر ونفسية الجيل الحاضر.

ماانعم الله عليه ووفور احسانه اليه لم يرزقه اسلام والديه» فان هذه الكلمة صدرت من غير تحقيق فان التاريخ لم يضبط من حياتهما الا شيئاً يسيراً وفيما ضبط ايعاز لولم نقل دلالة على ايمانهما و كونهما على الصراط المستقيم.

اما الوالد: فقدنقلت عنه كلمات وابيات تدل على ايمانه، فاليك ما نقله عنه اهل السير: عند ماعرضت فاطمة الخثعمية نفسها عليه فقال رداً عليها:

اما الحرام فالممات دونه　　والحل لاحل فاستبينه
يحمى الكريم عرضه ودينه　　فكيف بالامر الذى تبغينه(١)

وقد روى عن النبى الاكرم انه قال: لم ازل انقل من اصلاب الطاهرين الى ارحام الطاهرات. ولعل فيه ايعازاً الى طهارة آبائه وامهاته من كل دنس وشرك(٢)

واما الوالدة: فكفى فى ذلك مارواه الحفاظ عنها عند وفاتها فانها (رضى الله عنها) خرجت مع النبى ﷺ وهوابن خمس اوست سنين ونزلت بالمدينة تزور اخوال جده ﷺ وهم بنوعدى بن النجار ومعها ام ايمن «بركة» الحبشية، فاقامت عندهم، و كان الرسول بعدالهجرة يذكر اموراً حدثت فى مقامه ويقول: ان امى نزلت فى تلك الدار و كان قوم من اليهود يختلفون وينظرون الى فنظر الى رجل من اليهود فقال: يا غلام ما اسمك؟ فقلت: احمد. فنظر الى ظهرى وسمعته يقول: هذا نبى هذه الامة. ثم راح الى اخوانه فاخبرهم فخافت امى على فخرجنا من المدينة فلما كانت بالابواء توفيت ودفنت فيها.

روى ابونعيم فى دلائل النبوة عن اسماء بنت «رهم» قالت: شهدت آمنة ام النبى ﷺ فى علتها التى ماتت بها ومحمد عليه الصلاة والسلام غلام «يفع»(٣) له خمس سنين عند راسها فنظرت الى وجهه وخاطبته بقولها:

ان صح ما ابصرت فى المنام　　فانت مبعوث الى الانام

(١) السيرة الحلبية ج١ ص٤٦ وغيرها
(٢) سيرة زينى دحلان بهامش السيرة الحلبية ج١ ص٥٨
(٣) يفع الغلام: ترعرع

فالله انهاك عـن الاصنام ان لاتواليها مـع الاقوام

ثم قالت : كل حى ميت ، و كل جديد بال ، و كل كبير يفنى ، وانا ميتة وذكرى باق وولدت طهراً . وقال الزرقانى فى شرح المواهب نقلا عن جلال الدين السيوطى تعليقاً على قولها : وهذا القول منها صريح فـى انها كانت موحدة اذ ذكرت دين ابراهيم عليه السلام وبشرت ابنها بالاسلام من عندالله . وهل التوحيد شيىء غير هذا . فان التوحيد هو الاعتراف بالله وانه لا شريك له والبراءة من عبادة الاصنام . (١)

هذا بعض ما ذكره المؤرخون فى احوال والدى النبى الاكرم ﷺ . والكل يدل على اخلاصهما ونزاهتهما عما كان هو السائد فى البيئة التى كانا يعيشان فيها.

واخيراً نوجه نظر القارى الى الرأى العام بين المسلمين حول ايمانهما قال الشيخ المفيد فى «اوائل المقالات» .

واتفقت الامامية على ان آباء رسول الله ﷺ من لدن آدم الى عبدالله بن عبدالمطلب مؤمنون بالله عزوجل موحدون له. واحتجوا فى ذلك بالقرآن والاخبار قال الله عزوجل «الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين (٢) .

و قال رسول الله ﷺ : لم يزل ينقلنى من اصلاب الطاهرين الى ارحام المطهرات حتى اخرجنى فى عالمكم هذا . واجمعوا على ان عمه اباطالب (رحمه الله) مات مؤمناً . و ان آمنة بنت وهب كانت على التوحيد و انها تحشر فى جملة المؤمنين . (٣)

اقول : الاستدلال بالاية يتوقف على كون المراد منها نقل روحه من

---

(١) الاتحاف للشبراوى ص ١٤٤ ـ سيرة زينى دحلان بهامش السيرة الحلبية ج ١ ص ٥٧

(٢) سورة الشعراء ص ٢١٨ ـ ٢١٩

(٣) اوائل المقالات للمفيد ص ١٢ ـ ١٣

ساجد الى ساجد وهو المروى عن ابن عباس : قال من نبى الى نبى حتى اخرجت نبياً . (١)

وقد ذكره المفسرون بصورة احد الاحتمالات . ولكنه غير متعين ، لاحتمال ان يكون المراد: انه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة، وتقلبه فى الساجدين عبارة عن تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده اذا كان اماماً لهم .

واما الاستدلال بالحديث فهو مبنى على أن من كان كافراً فليس بطاهر، وقد قال سبحانه : «انما المشركون نجس» (٢) .

لكن الحجة هى الاتفاق والاجماع . مضافاً الى ماتضافر من الروايات حول طهارة والدى النبى ﷺ التى جمعها الحافظ ابو الفداء ابن كثير فى تاريخه قال : وخطب النبى ﷺ وقال : انا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب . . . . وما افترق الناس فرقتين الا جعلنى الله فى خيرها فاخرجت من بين ابوى فلم يصبنى شيىء من عهر الجاهلية وخرجت من نكاح ولم اخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت الى ابى وامى فانا خيركم نفسا ، وخيركم ابا (٣) .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : قال لى جبريل: قلبت الارض من مشارقها ومغاربها فلم اجد رجلا افضل من محمد ، وقلبت الارض مشارقها ومغاربها فلم اجد بنى اب افضل من بنى هاشم . قال الحافظ البيهقى : وهذه الاحاديث وان كان فى رواتها من لايحتج به فبعضها يؤكد بعضاً و معنى جميعها يرجع الى حديث واثلة بن الاسقع . والله اعلم .

قلت وفى هذا المعنى يقول ابو طالب ويمتدح النبى ﷺ.

اذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرّها وصميمها

فان حصلت اشراف عبدمنافها ... ففى هاشم اشرافها و قديمها

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٢ ص٢٥٦

(٢) مفاتيح الغيب ج٦ ص٤٣١

(٣) البداية والنهاية ج٢ ص٢٥٥

و ان فخرت يوماً فان محمداً هو المصطفى من سرها و كريمها
تداعت قريش غثها و سمينها علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
و كنا قديماً لانقر ظلامة اذا ماثنوا صعر الخدود نقيمها
وتهمى حماها كل يوم كريهة ونضرب عن احجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذواء وانما باكنافنا تندى وتنمى ارومها(١)

ويعجبنى ان انقل ما ذكره الشبراوى فى المقام : قال : ومبدأ الكلام فى ذلك ان الله سبحانه قداخرج هذا النوع الانسانى لاجله صلى الله عليه (وآله) وسلم وان آدم عليه الصلاة والسلام كان اول فرد من افراد هذا النوع ، و كان سائر افراده مندرجة فى صلبه بصور الذرات ، فلما نفخ الروح فى آدم كان نور نسمة محمد ﷺ يلمع فى جبهته كالشمس المشرقة ، ثم انتقل ذلك النور من صلب آدم الى رحم حواء ، و منها الى صلب شيث ثم استمر هذا ينتقل من اصلاب الطاهرين الى ارحام الطاهرات وهو معنى قوله «وتقلبك فى الساجدين» واشار اليه العلامة البوصيرى بقوله :

لم تزل فى ضمائر الكون تختا رك الامهات و الاباء

وكان كل جد من اجداده من لدن آدم ياخذ العهد والميثاق ان لا يوضع ذلك النور المحمدى الا فى الطاهرات . فاول من اخذ العهد آدم، اخذه من شيث وشيث من انوش وهو من « قينن » و هكذا الى ان وصلت النوبة الى عبدالله بن عبدالمطلب فلما اودع ذلك الجزء ، فى صلبه لمع ذلك النور من جبهته فظهر له جمال وبهجة فكانت نساء قريش يرغبن فى نكاحه ، وقداسعدالله بتلك السعادة وشرف بذلك الشرف «آمنة» بنت وهب فتزوجها عبدالله .

و قد روى الترمذى عن العباس قال : قال رسول الله ﷺ : ان الله خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم ، ثم تخير القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، ثم تخير البيوت ، فجعلنى فى خير بيوتهم ، فانا خيرهم نفسا وخيرهم بيتاً ، اى ذاتاً واصلا

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٢ ص٢٥٧-٢٥٨

وقد دلت الايات والاحاديث على انه ﷺ كما طابت ذاته الشريفة ، بما اوتى من الكمال الاعلى ، كذلك طاب نسبه الشريف ، فلم يكن فى آبائه وولاامهاته من لدن آدم و حواء الى عبدالله و آمنة ، الا من هو مصطفى مختار قد طابت اعراقه ، وحسنت اخلاقه واخرج ابن جرير عن مجاهد قال استجاب الله تعالى دعوة ابراهيم فى ولده ولم يعبد احد منهم صنماً بعد دعوته واستجاب له وجعل هذا البلد آمناً ورزق اهله من الثمرات وجعله اماماً وجعل من ذريته من يقيم الصلاة

قال السيوطى : وهذه الاوصاف كانت لاجداده ﷺ خاصة دون سائر ذرية ابراهيم و كل ماذكر عن ذرية ابراهيم من المحاسن فان اولى الناس به سلسلة الاجداد الشريفة، الذين خصوا بالاصطفاء وانتقل اليهم نور النبوة واحداً بعد واحد ولم يدخل ولداسحاق وبقية ذريته لانه دعالاهل هذا البلد الاتراه قال: «اجعل هذا البلد آمنا» وعقبه بقوله : «واجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام» فلم تزل ناس من ذرية ابراهيم عليه السلام على الفطرة يعبدون الله تبارك وتعالى ويدل عليه قوله «وجعلها كلمة باقية فى عقبه» ، فان الكلمة الباقية هى كلمة التوحيد وعقب ابراهيم (ع) هم محمد ﷺ وآله الكرام. قال بعض الافاضل: اللهم حل بيننا وبين اهل الخسران والخذلان الذين يؤذون رسول الله ﷺ بنسبة مالايليق بابويه الكريمين الشريفين الطاهرين . الى ان قال : فهما ناجيان منعمان فى اعلى درجات الجنان ، وماعدا ذلك تهافت وهذيان ، لاينبغى ان تصغى له الاذنان ولاان يعتنى بابطاله اولوا الشأن. (١)

اذا وقفت على ماذكرنا تعرف قيمة كلمة ابن حزم الاندلسى فى احكامه(٢) حيث نسب الى والدى النبى الاكرم مالايليق بساحتهما . ويكفى فى سقوط هذه الكلمة ان راويها و كاتبها ابن حزم الذى اجمع فقهاء عصره على تضليله والتشنيع

(١) الاتحاف بحب الاشراف ص١١٣-١١٨

(٢) الاحكام ج٥ ص١٧١

عليه ونهى العوام عن الاقتراب منه وحكموا باحراق كتبه (١).

وقال ابن خلكان فى وفياته : وكان كثير الوقوع فى العلماء المتقدمين ، لايكاد يسلم احد من لسانه ، فنفرت عنه القلوب واستهدف لفقهاء وقته فتمالأوا على بغضه وردوا قوله واجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنواليه والاخذ عنه ، فاقصته الملوك وشردته عن بلاده حتى انتهى الى بادية « لبلة » فتوفى بها آخر نهار الاحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين واربعمائة وقيل انه توفى فى منت ليشم ، وهى قرية ابن حزم المذكور. وفيه قال ابوالعباس ابن العريف :كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف شقيقين ، وانما قال ذلك لكثرة وقوعه فى الائمة . (٢)

ايمان النبى الاكرم قبل البعثة :

كان البحث عن ايمان عبدالمطلب وسيد البطحاء ووالدى النبى، كمقدمة للبحث عن ايمان النبى الاكرم قبل البعثة ، فان ايمانه برسالته ؟ وان كان امراً مسلماً وواضحاً كوضوح الشمس غيرمحتاج الى الاسهاب غير ان اكمال البحث يجرنا الى ان نأتى ببعض ما ذكره التاريخ من ملامح حياته منذ صباه الى ان بعث نبياً . حتى يقترن ذلك الاتفاق باصح الدلائل التاريخية . واليك المقول :

١ ـ روى صاحب المنتقى فى حديث طويل: ان النبى ﷺ لماتم له ثلاث سنين قال يوماً لوالدته (لمرضعته) «حليمة السعدية» : مالى لارى اخوى بالنهار قالت له : يابنى انهما يرعيان غنيمات . قال : فمالى لااخرج معهما . قالت له : اتحب ذلك ؟ قال : نعم . فلما اصبح محمد دهنته وكحلته وعلقت فى عنقه خيطاً

(١) لسان الميزان ج ٤ ص ٢٠٠ وقد عرفه الالوسى فى تفسيره ج ٢١ ص٧٦ بالضال المضل .

(٢) وفيات الاعيان ج٣ ص٣٢٧-٣٢٨

فيه جزع يمانى . فنزعه ثم قال لامه : مهلا يااماه فان معى من يحفظنى . (١)

وهذه العبارة من الطفل الذى لم يتجاوزسنه ثلاث سنين آية على انه كان يعيش فى رعاية الله و كان له معلم غيبى «يسلك به طريق المكارم» ويلهمه ما يعجز عن ادراكه كبار الرجال آنذاك . حيث كانت امه تزعم بان فى الجزع اليمانى مقدرة الحفظ لمن علقه على جيده . فعلى الرغم من ذلك فقد خالفها الطفل و نزعه وطرحه ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على انه كان بعيداً عن تلك الرسوم والافكار . . . السائدة فى الجزيرة العربية .

٢ ـ روى ابن سعد فى طبقاته : ان بحيرا الراهب قال للنبى ﷺ : ياغلام اسألك بحق اللات والعزى الا اخبرتنى عما اسألك . فقال رسول الله ﷺ لاتسألنى باللات والعزى فوالله مـا ابغضت شيئاً بغضهما قال : بالله الا اخبرتنى عما اسألك عنه . قال : سلنى عما بدالك . . . (٢)

٣ ـ روى ابن سعد فى طبقاته : عند ذكر خروج النبى الى الشام للتجارة باموال خديجة مع غلامها « ميسرة » : ان محمداً باع سلعته فوقع بينه ورجل تلاح، فقال له الرجل: احلف باللات والعزى فقال رسول الله ﷺ ماحلفت بهما قط واني لامر فاعرض عنهما. فقال الرجل: القول قولك ثم قال لميسرة : ياميسرة هذا والله نبى . (٣)

ومما يشهد على توحيده انه لم يرقط مائلا عن الحق، ساجداً لوثن اومتوسلا به، بل كان يتحنث فى كل سنة فى غار حراء فى بعض الشهور. فوافاه جبرئيل (عليه الصلاة والسلام) فى بعض تلك المواقف وبشره بالرسالة وخلع عليه كساء النبوة .

وهذه الوقائع التاريخية اصدق دليل على ايمانه، ولاجل اتفاق المسلمين

---

(١) المنتقى الباب الثانى من القسم الثانى للكازرونى وقد نقله العلامة المجلسى فى البحار ج١٥ ص٣٩٢ من الطبعة الحديثة

(٢) الطبقات الكبرى ج١ ص١٥٤ والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٨٢

(٣) الطبقات الكبرى ج١ ص١٥٦

على ذلك نطوى بساط البحث ونركّزه على بيان الشريعة التى كان عليها قبل بعثته، وهذا هوالذى بحث عنه المتكلمون والاصوليون باسهاب .

الشريعة التى كان يعمل بها النبى :

اختلف الباحثون فى ان النبى الاعظم ﷺ هل كان متعبداً بشرع قبل بعثته اولا ؟ على اقوال نلفت نظر القارىء اليها :

١ ـ لم يكن متعبداً بشرع اصلا نسب ذلك الى ابى الحسن البصرى

٢ ـ التوقف وعدم الجنوح الى واحد من الاقوال ذهب اليه القاضى عبدالجبار والغزالى وهوخيرة السيدالمرتضى فى ذريعته .

٣ ـ انه كان يتعبد بشريعة من قبله مرددة بين كونها شريعة نوح او ابراهيم اوموسى اوالمسيح بن مريم عليهم السلام .

٤ ـ كان يتعبد بما ثبت انه شرع .

٥ ـ كان يعمل فى عباداته وطاعته بما يوحى اليه سواء اكان مطابقاً لشرع من قبله امْلا .

٦ ـ انه كان يعمل بشرع نفسه .

والاخير هوالظاهر من الشيخ الطوسى فى عدته قال : عندنا ان النبى ﷺ لم يكن متعبداً بشريعة من تقدمه من الانبياء لاقبل النبوة ولابعدها ، وان جميع ماتعبد به كان شرعاً له ، ويقول اصحابنا: انه كان قبل البعثة يوحى اليه باشياء تخصه وكان يعمل بالوحى لااتباعاً بشريعة . (١)

---

(١) راجع للوقوف على الاقوال : الذريعة ج ٢ ص٥٩٥ وذكر اقوالا ثلاثة . وعدة الشيخ الطوسى ج٢ ص٦٠ وذكر الاقوال مسهبة ، والبحار ج ١٨ ص ٢٧١ ونقل الاقوال عن شرح العلامة لمختصر الحاجبى ، والمعارج للمحقق الحلى ص ٦٠ والمبادى للعلامة الحلى ص٣٠ والقوانين للمحقق القمى ج١ ص ٤٩٤

وما ذكره اخيراً ينطبق على القول السادس ، والاقوال الثلاثة ، الاخيرة متقاربة واليك دراستها واحداً بعد آخر ببيان مقدمة .

نظرة اجمالية على حياته:

ان من اطل النظر على حياته ﷺ يقف على انه كان يعبدالله سبحانه ويعتكف بـ«حراء» بكل سنة شهراً ولم يكن اعتكافه مجرد تفكير في جلاله وجماله وآياته وآثاره ، بل كان مع ذلك متعبداً لله قانتاله ، وقد نزل الوحي عليه وخلع عليه ثوب الرسالة وهو متحنث(١) بـ«حراء» وذلك مما اتفق عليه اهل السير والتاريخ.

قال ابن هشام : كان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك ، كان اول مايبدأ به اذا انصرف من جواره ، الكعبة قبل ان يدخل بيته فيطوف به سبعاً اوماشاءالله من ذلك . ثم يرجع الى بيته حتى اذا كان الشهر الذى اراد الله تعالى به فيه ما اراد من كرامته من السنة التى بعثه الله تعالى فيها وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله ﷺ الى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه اهله ، حتى اذا كانت الليلة التى اكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل عليه السلام بامر الله تعالى . (٢)

ولم تكن عبادته منحصرة بالاعتكاف اوالطواف حول البيت بعد الفراغ منه بل دلت الروايات المتضافرة عن ائمة اهل البيت على انه ﷺ حج عشرين حجة مستسراً . (٣)

---

(١) التحنث : هو التحنف بدلت الفاء (ثاء) كما يقال «جدف» مكان جدث. بمعنى القبر ور بما يقال بانه بمعنى الخروج عن الحنث بمعنى الاثم كما ان التأثم هو الخروج عن الاثم . والاول هو الاولى .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢٣٦

(٣) الوسائل ج ٨ باب ٤٥ - استحباب تكرار الحج والعمرة ص ٨٧ والبحار ج١١ ص٢٨٠ .

روى غياث بن ابراهيم عن الامام الصادق عليه السلام : لم يحج النبى بعد قدوم المدينة الاواحدة وقد حج بمكة مع قومه حجات . (١)

ولم تكن اعماله الفردية او الاجتماعية منحصرة فى المستقلات العقلية كالاجتناب عن البغى والظلم وكالتحنن على اليتيم والعطف على المسكين، بل كان فى فترة من حياته راعياً للغنم وفى فترات اخرى ضاربا فى الارض للتجارة ولم يكن فى القيام بهذه الاعمال فى غنى عن شرع يطبق اعماله عليه . اذ لم يكن البيع و الربا والخل والخمر ولاالمذكى وغيره عنده سواسية و ليست هذه الامور و نظائرها مما يستقل العقل باحكامها .

فطبيعة الحال تقتضى ان يكون ﷺ عارفاً باحكام عباداته وطاعاته ، واقفاً على حرام افعاله وحلالها ، فى زواجه و نكاحه . وبالجملة : فى حله وترحاله و لولاه اشرف على اقتراف ما حرمه الله سبحانه فى عامة شرائعه ، و الاقتراف اوالدنو منه يناقض اهداف البعثة فانها لاتتحقق الا بعمله قبل بعثته بما سوف يدعو اليه بعد بعثته .

وعلى ضوء هذه المقدمة يبطل القول الاول من انه لم يكن متعبداً بشرع اصلا، لما عرفت من ان العبادة والطاعة لاتصح الا بعد معرفة حدودها وخصوصياتها عن طريق الشرع، كما ان الاجتناب عن محارم الله فى العقود والايقاعات و سائر ما يرجع الى اعماله و افعاله الفردية والاجتماعية، يتوقف على معرفة الحلال والحرام ، حتى يتخذه مقياساً فى مقام العمل ، وعند ذاك كيف يصح القول بانه لم يكن متعبداً بشرع اصلا ؟ والا يلزم ان ننكر عباداته وطاعاته قبل البعثة اونرميه باقتراف الكبائر فى تلك الفترة ، وهو يضاد عصمته قبل البعثة كما يضاد اهدافها .

قال العلامة المجلسى : قد ورد فى اخبار كثيرة انه ﷺ كان يطوف ، وانه كان يعبدالله فى حراء ، وانه كان يراعى الاداب المنقولة من التسمية والتحميد

(١) الوسائل ج٨ باب ٤٥ ـ استحباب تكرار الحج والعمرة ص٨٨ الحديث٤

عند الاكل وغيره ، و كيف يجوّز ذومسكة من العقل، على الله تعالى ان يهمل افضل انبيائه اربعين سنة بغير عبادة ؟ و المكابرة فى ذلك سفطة ، فلا يخلو امّا ان يكون عاملا بشريعة مختصة به اوحى الله اليه بها ، وهو المطلوب او عاملا بشريعة غيره (١) .

نعم روى احمد فى مسنده عن سعيد بن زيد قال : كان رسول الله ﷺ بمكة هو وزيد بن حارثة فمر بهما زيد بن عمرو بن نفيل فدعوه الى سفرة لهما فقال يابن اخى انى لاآكل مما ذبح على النصب قال : فما رؤى النبى ﷺ بعدذلك اكل شيئاً مما ذبح على النصب قال : قلت لرسول الله ﷺ ان ابى كان كما قد رأيت وبلغك ولوادركك لامن بك واتبعك فاستغفر له قال نعم فاستغفر له فانه يبعث يوم القيامة امة واحدة . (١) .

نحن لانعلق على هذا الحديث شيئاً سوى انه يستلزم ان يكون زيداعرف باحكام الله تعالى من النبى الاكرم . الذى كان بمقربة من البعث الى هداية الامة. اضف اليه ان الحديث مروى عن طريق سعيد بن زيد الذى يدعى فيه شرفاً لابيه وفى الوقت نفسه نقصاً للنبى ﷺ «كبرت كلمة تخرج من افواههم».

هذا كله حول القول الاول .

نظرية التوقف فى تعبده :

اما الثانى : اعنى التوقف ، فقد ذهب اليه المرتضى و استدل على مختاره بقوله : والذى يدل عليه ان العبادة بالشرائع تابعة لمايعلمه الله تعالى من المصلحة بها فى التكليف العقلى ، ولا يمتنع ان يعلم الله تعالى انه لامصلحة للنبى ﷺ قبل نبوته فى العبادة بشيىء من الشرائع ، كما انه غيرممتنع ان يعلم ان له ﷺ فى ذلك مصلحة ، واذا كان كل واحد من الامرين جائزاً ولادلالة توجب القطع

(١) البحار للعلامة المجلسى ج١٨ ص٢٨٠ من الطبعة الحديثة.

(٢) مسند احمد ج١ ص١٨٩-١٩٠ .

على احدهما وجب التوقف . (١)

وما ذكره محتمل فى حد نفسه ولكنه مدفوع بما فى الاخبار والاثارمن عبادته واعتكافه ، وقد عرفت انه كان يتعبدالله وكانت لهاعمال فردية واجتماعية تحتاج الى ان تكون وفق شريعة ما .

نظرية عمله بالشرائع السابقة :

وهذا هو القول الثالث بشقوقه الاربعة : فيتصور على وجهين :

الاول : ان يعمل على طبق احد الشرائع الاربعة تابعاً لصاحبها و مقتدياً به بوجه يعد انه من امته وهذا الشق مردود من جهات :

أ : ان هذا يتوقف على ثبوت عموم رسالات اصحاب هذه الشرائع وهوغير ثابت ، وقد اوضحنا حالها فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة . (٢)

ب ـ ان العمل بهذه الشرائع فرع الاطلاع عليها وهواما ان يكون حاصلا من طريق الوحى فعند ئذ يكون عاملا لشريعة من تقدم ولايكون تابعاً لصاحبها ومقتدياً به ، وان كان عاملا بالشريعة التى نزلت قبله ، وهذا نظير انبياء بنى ـ اسرائيل فقد كانوا مأمورين بالحكم على طبق التوراة مع انهم لم يكونوا من امة موسى قال سبحانه : «انا انزلنا التورية فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا» (المائدة ـ ٤٤) . و الى هذا الشق يشير المرتضى بقوله : انه غير ممتنع ان يوجب الله تعالى عليه بعض ما قامت الحجة من بعض الشرائع المتقدمة لاعلى وجه الاقتداء بغيره فيها ولاالاتباع .

واما ان يكون حاصلا من طريق مخالطة اهل الكتاب وعلمائهم وهذا مما لاتصدّقه حياته اذلم يكن مخالطاً لهم ولم يتعلم منهم شيئاً ولم يسألهم .

يقول العلامة المجلسى لوكان متعبداً بشرع لكان طريقه الى ذلك اما

(١) الذريعة للسيد المرتضى ج٢ ص٥٩٦ .

(٢) لاحظ الجزء الثالث ص٧٧-١١٦ .

الوحى او النقل ، ويلزم من الاول ان يكون شرعاً له لاشرعاً لغيره ، ومن الثانى التعويل على اليهود وهو باطل . (١)

ج - ان العمل بشريعة من قبله ماسوى المسيح بن مريم يستلزم ان يكون عاملا بالشرائع المنسوخة فهو اشد فساداً فكيف يجوز العمل بشريعة نسخت ؟

قال الشيخ الطوسى : فان قالوا ، كان متعبداً بشريعة موسى فان ذلك فاسد حيث أن شريعته كانت منسوخة بشريعة عيسى ، وان قالوا : كان متعبداً بشريعة عيسى فهو ايضا فاسد لان شريعته قد انقطعت واندرس نقلها ولم تتصل كاتصال نقل المعجزة ، واذا لم تتصل لم يصح ان يعلم . (٢)

اضف الى ذلك انه لم يثبت ان عيسى جاء باحكام كثيرة ، بل الظاهر انه جاء لتحليل بعض ماحرم فى شريعة موسى عليه السلام قال سبحانه: «ومصدقاً لما بين يدىّ من التورية ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون» (آل عمران - ٥٠) . فلو كان النبى عامل بشريعة عيسى ففى الحقيقة يكون عاملا بشريعة موسى المعدلة بما جاء به عيسى .

د - اتفقت الاثار على كونه افضل الخلق و اقتداء الفاضل بالمفضول غير صحيح عقلا . قال الشيخ الطوسى : انه صلى الله عليه وآله افضل من جميع الانبياء ولا يجوز ان يؤمر الفاضل باتباع المفضول ولم يخص احد تفضيله على سائر الانبياء ، بوقت دون وقت فيجب ان يكون افضل فى جميع الاوقات .

وهذه الوجوه وان كان بعضها غير خال من الاشكال لكن الجميع يزيّف القول بانه كان يعمل بشريعة من قبله .

واما دليل من قال بهذا القول فضعيف جداً حيث قال : كيف يصح ان يقال: انه لم يكن متعبداً بشريعة من تقدم مع انه كان يطوف بالبيت ويحج ويعتمر

---

(١) البحار ج١٨ ص٢٧٦ من الطبعة الحديثة

(٢) عدة الاصول ج٢ ص٦١ .

ويذكى ويأكل المذكى ويركب البهائم . (١)

وفيه اولا : ان بعض ماذكره يعد من المستقلات العقلية فتكفى فيه هداية العقل ودلالته .

وثانياً : ان الدليل اعم من المدعى لان عمله كما يمكن ان يكون مستنداً الى شريعة من قبله ، يمكن ان يكون مستنداً الى الوحى اليه ، لااتباعاً لشريعة وسوف يوافيك انه كان يوحى اليه قبل ان يتشرف بمقام الرسالة وان نبوته كانت متقدمة على رسالته و ان جبريل نزل اليه بالرسالة عند ما بلغ الى الاربعين والاستدلال مبنى على ان نبوته ورسالته كانتا فى زمان واحد ، وهو غير صحيح كما سيأتى .

وعلى هذا الوجه الصحيح لانحتاج الى الاجابة عن الاستدلال بما تكلف به المرتضى فى ذريعته والطوسى فى عدته . قال الاول: لم يثبت عنه ﷺ انه قبل النبوة حج اواعتمر، وبالتظنى لايثبت مثل ذلك، ولم يثبت ايضا انه ﷺ تولى التذكية بيده وقد قيل ايضاً : انه لوثبت انه ذكى بيده ، لجاز ان يكون من شرع غيره فى ذلك الوقت ، «أن يستعان بالغير فى الذكاة» (٢) فذكى على سبيل المعونة لغيره ، واكل اللحم المذكى لاشبهة فى انه غير موقوف على الشرع لانه بعد الذكاة قد صار مثل كل مباح من المأكل ، وركوب البهائم والحمل عليها يحسن عقلا اذا وقع التكفل بما يحتاج اليه من علف وغيره ولم يثبت انه عليه السلام فعل من ذلك مالايستباح بالعقل فعله . (٣)

وقريب منه ما فى عدة الشيخ الطوسى . (٤)

---

(١) الذريعة للسيد المرتضى ج٢ ص٥٩٦ والعدة ج٢ ص٦٠-٦١ .

(١) يريد ان من احكام الشريعة السابقة ان يستعين الرجل فى تذكية الحيوان بالغير ، - وعلى ذلك - فالنبى ذكى نيابة عن الغير ولاجله ولم يذك لنفسه .

(٣) الذريعة للسيد المرتضى ج٢ ص٥٩٧-٥٩٨

(٤) عدة الاصول للشيخ الطوسى ج٢ ص٦٣

ولايخفى ان بعض ماذكره وان كان صحيحاً لكن انكار حجه واعتماره وعبادته فى حراء واتجاره الذى يتوقف الصحيح منه على معرفة الحلال والحرام، مما لايمكن انكاره فلامحيص عن معرفته بالمقاييس الصحيحة فى هذه الموارد، امامن عند نفسه اومن ناحية الاتباع لشريعة غيره.

الوجوه الاخيرة الثلاثة المتقاربة:

اذا تبين عدم صحة هذه الاقوال الثلاثة تثبت الوجوه الاخيرة التى يقرب بعضها من بعض، ويجمع الكل انه كان يعمل حسب مايلهم ويوحى اليه، سواء أكان مطابقاً لشرع من قبله ام مخالفاً. وان هاديه وقائده منذ صباه الى ان بعث هونفس هاديه بعد البعثة ويدل على ذلك وجوه.

١- ماأثر عن الامام امير المؤمنين عليه السلام من انه من لدن كان فطيماً كان مؤيداً باعظم ملك يعلمه مكارم الاخلاق ومحاسن الاداب وهذه مرتبة من مراتب النبوة وان لم تكن معها رسالة قال عليه السلام «ولقد قرن الله من لدن ان كان فطيماً اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن اخلاق العالم ليل نهار». (١)

انا مهما جهلنا بشيء فلايصح لنا ان نجهل بان النبوة منصب الهى لايتحملها الا الامثل فالامثل من الناس ولايقوم باعبائها الامن عمّر قلبه بالايمان، وزود بالخلوص والصفاء، وغمره الطهر والقداسة واعطى مقدرة روحية عظيمة، لايتهيب حين مايتمثل له رسول ربه وامين وحيه، ولاتأخذه الضراعة والخوف عند سماع كلامه ووحيه وتلك المقدرة لاتفاض من الله على عبد الا ان يكون فى رعاية ملك كريم من ملائكته سبحانه، يرشده الى معالم الهداية ومدارج الكمال، ويصونه من صباه الى شبابه، والى كهولته عن كل سوء وزلة. وهذا هو السرّ فى وقوعه تحت كفالة

(١) نهج البلاغة محمد عبده ج٢ ص١٨٢ من خطبة تسمى القاصعة ١٨٧

اكبر ملك من ملائكته حتى تستعد نفسه لقبول الوحي وتتحمل القول الثقيل الذي سيلقى عليه .

٢ـ مارواه عروة بن الزبير عن عائشة ام المؤمنين انها قالت : اول مابدىء به رسول الله من الوحي ، الرؤيا الصالحة في النوم فكان لايرى رؤياً الاجاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه، ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ، قبل ان ينزع الى اهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . (١)

٣ ـ روى الكليني بسند صحيح عن الاحول قال : سألت اباجعفر عليه السلام عن الرسول والنبي والمحدث قال : الرسول الذي يأتيه جبرئيل قبلا . . . و اما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا ابراهيم عليه السلام ونحو ما كان رأى رسول الله من اسباب النبوة قبل الوحي حتى اتاه جبرئيل من عند الله بالرسالة (٢)

وهذه المأثورات تثبت بوضوح انه ﷺ قبل ان يبعث ، كان تحت كفالة اكبر ملك من ملائكة الله. يرى في المنام ويسمع الصوت ، قبل ان يبلغ الاربعين سنة فلما بلغها بشّر بالرسالة ، وكلمه الملك معاينة ونزل عليه القرآن وكان يعبد الله قبل ذلك بصنوف العبادات ، اما موافقا لما سيأمر به بعد تبليغه او مطابقاً لشريعة ابراهيم او غيره ، ممن تقدمه من الانبياء . لاعلى وجه كونه تابعاً لهم وعاملا بشريعتهم ، بل بموافقة ماأوحي اليه مع شريعة من تقدم عليه .

ثم ان العلامة المجلسي استدل على هذا القول بوجه آخر . وهو ان يحيى وعيسى كانا نبيين وهما صغيران وقد ورد في اخبار كثيرة ان الله لم يعط نبياً فضلية ولا كرامة ولامعجزة الاوقد اعطاها نبينا ﷺ فكيف جاز ان يكون عيسى

(١) صحيح البخاري ج١ ص٣ باب بدء الوحي الى رسول الله (ص) والسيرة النبوية ج١ ص٢٣٤-٢٣٦

(٢) الكافي ج١ ص١٧٦ .

عليه السلام في المهد نبياً ولم يكن نبينا ﷺ الى اربعين سنة نبياً . (١)

قال سبحانه : حاكياً عن المسيح : « قال اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً اين ما كنت واوصاني بالصلوة والزكوة ما دمت حياً » . (مريم - ٢٠ و٢١) وقال سبحانه مخاطباً ليحيى : «يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً» . (مريم-١٢)

ولازم ذلك أن النبي قبل بعثته في صباه اوبعد ما اكمل الله عقله كان نبياً مؤيداً بروح القدس يكلمه الملك ، ويسمع الصوت ويرى في المنام .

وانما بعث الى الناس بعد مابلغ اربعين سنة وعند ذاك كلمه الملك معاينة ونزل عليه القرآن وامر بالتبليغ .

ويؤيد ذلك مارواه الجمهور عنه ﷺ من انه كان نبياً وآدم بين الروح والجسد . (٢)

وهذا كله راجع الى حاله قبل بعثته واما بعدها فنأتي بمجمل القول فيه

حاله بعد البعثة .

قدعرفت حال النبي الاكرم قبل بعثته فهلم معي ندرس حاله بعدها . وقد اختلقوا فيه ايضاً على قولين : فمن قائل انه كان يتعبد بشرع من قبله . ومن قائل اخر ينفيه بتاتاً . وقدبسط الكلام في هذا المقام السيدالمرتضى في ذريعته وتلميذه الجليل في عدته ، فاختارا القول الثاني واوضحا برهانه . (٣)

غيراني ارى البحث في ذلك عديم الفائدة لان المسلمين اتفقوا على انه ، بعد البعثة ، ما كان يقول الا ما يوحى اليه ، ولا يصدر عنه شيء الا عن هذا

---

(١) البحار ج١٨ ص٢٧٩ من الطبعة الحديثة .

(٢) نقل العلامة الاميني مصادره عن عدة من الكتب وذكر ان للحديث عدة الفاظ من طرق شتى لاحظ الجزء ٩ ص٢٨٧ .

(٣) الذريعة ج٢ ص٥٩٨ والعدة ج٢ ص٦١ .

الطريق . فاذا كان الواجب علينا اقتفاء امره ونهيه ، والعمل بالوحى الذى نزل عليه ، فاى فائدة فى البحث عن انه هل كان ما يأمر به وينهى عنه ، صدر عن التعبد بشريعة من قبله ، او صدر عن شريعته ؟ . اذالواجب علينا الاخذ بما اتى به . باى لون وشكل كان . وفى ذلك يقول المحقق الحلى : ان هذا الخلاف عديم الفائدة لانا لانشك ان جميع ماأتى به لم يكن نقلا عن الانبياء بل عن الله تعالى باحدى الطرق الثلاث التى اشيرت اليها فى قوله سبحانه : «وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً اومن وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء انه على حكيم» . (الشورى ـ ٥١)

فاذا كان ﷺ لا يصدر عنه شيء الا عن طريق الوحى فلا تترتب على البحث اية فائدة . فسواء أكان متعبداً بشرع من قبله ام لم يكن . فهو ﷺ لايامر ولاينهى الا باذنه سبحانه . (١)

قال سبحانه : «وما ينطق عن الهوى ان هوالاوحى يوحى» . (النجم ٣ـ٤) وقال عزمن قائل: « كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم» (الشورى ـ ٣) . وقال تعالى « ان اتبع الا ما يوحى الى وما انا الا نذير مبين » (الاحقاف ـ ٩) . الى غير ذلك من الايات التى تدل بوضوح على ان كل مايأمر وينهى، مستند الى الوحى منه سبحانه اليه، سواء أمره بالاخذ من الشرع السابق ام امره بما يماثله او يخالفه .

اضف الى ذلك انه اذا لم يجز له التعبد بالشرع السابق قبل البعثة بالدلائل السابقة لم يجز له ايضا بعدها .

نعم هناك بحث آخر وهو حجية شرع من قبلنا للمستنبط اذا لم يجد فى الشريعة المحمدية دليلا على حكم موضوع خاص فهل يجوز ان يعمل بالحكم الثابت فى الشرايع السماوية السالفة ما لم يثبت خلافه فى شرعنا ام لا ؟ .

فهذه مسألة اصولية طرحها الاصوليون فى كتبهم قديماً وجديداً . فاستدل

(١) لاحظ المعارج ص٦٥ بتوضيح منا .

القائلون بالجواز بالايات التالية :

١ - «فبهداهم اقتده» . (الانعام - ٩٠)

٢ - «ثم اوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً». (النحل - ١٢٣)

٣ - «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً» . (الشورى - ١٣)

٤ - «انا انزلنا التورية فيها هدى ونور يحكم بها النبيون». (المائدة - ٤٤)

ولكن الكلام في دلالة هذه الايات على ما يتبناه هؤلاء وهي غير واضحة وقد بسط المحقق الكلام في دلالة الايات في اصوله . (١) ونقله العلامة المجلسي في بحاره . (٢) ونحن نحيل القارىء الكريم الى مظانه .

الايات التي وقعت ذريعة لبعض المخطئة :

هذا حال النبي الاكرم ﷺ قبل البعثة وحال اجداده وآبائه وبعض اعمامه وقد خرجنا من هذا البحث الضافي بهذه النتائج .

١ - ان النبي ﷺ قد ولد في بيت كان يسوده التوحيد وقد ترعرع وشب واكتهل في احضان رجال لم يتخلفوا عن الدين الحنيف قيد شعرة .

٢ - ان النبي ﷺ منذ نعومة اظفاره كان تحت رعاية اكبر ملك من ملائكته سبحانه فيلهم ويوحى اليه قبل ان يبلغ الاربعين ، ويخلع عليه ثوب الرسالة .

٣ - ان النبي ﷺ كان مؤمنا بالله ، وموحداً له يعبده ، ولا يعبد غيره ، ويتقرب اليه بالطاعات والقربات ، ويتجنب المعاصي والمآثم .

هذه هي الحقيقة الملموسة من حياته يقف عليها من سبر تاريخ حياته بامعان وقد مر ، ان هناك آيات وقعت ذريعة لبعض المخطئة لعصمته فدخلت لاجلها في اذهانهم شبهات في ايمانه وهدايته قبل البعثة .

وهؤلاء بدل ان يفسروا الايات على غرار التاريخ المسلم من حياته ، او

---

(١) المعارج للمحقق الحلي ص١٥٧ .

(٢) البحار للعلامة المجلسي ج١٨ ص ٢٧٦-٢٧٧ .

يسلطوا الضوء عليها بما تضافرت الاخبار والروايات عليه ، عكسوا الامر فرفضوا التاريخ المسلم الصحيح والروايات المتضافرة اغتراراً ببعض الظواهر مع انها تهدف الى مقاصد اخر تتضح من البحث الاتى واليك هذه الايات :

١ ـ «الم يجدك يتيماً فاوى ووجدك ضالا فهدى» . (الضحى ٦ ـ ٧)

٢ ـ «وثيابك فطهر والرجز فاهجر» . (المدثر ٤ ـ ٥)

٣ ـ «وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ما كنت تدرى ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً تهدى به من نشاءمن عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم» . (الشورى ـ ٥٢)

٤ ـ «قل لوشاء الله ماتلوته عليكم ولاادريكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله افلا تعقلون» . (يونس ـ ١٦)

٥ ـ «وما كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك» (القصص ـ ٨٦)

وقد استدلت المخطئة بهذه الايات على مدعاها بل على زعم سلب الايمان عنه قبل ان يبعث ، لكنها لاتدل على مايريدون ولاجل تسليط الضوء على مقاصدها نبحث عنها واحدة بعد واحد .

الاية الاولى : الهداية بعد الضلالة :

ان قوله سبحانه : «ووجدك ضالًا فهدى» يتضمن هدايته بعد الضلالة ؟ .

وقد ذكر المفسرون للاية عدة احتمالات وانهاها الرازى فى تفسيره الى ثمانية . لكن اكثرها من مخترعات الذهن ، لاجل الاجابة عن استدلال الخصم على كونه ﷺ كان ضالا قبل البعثة ، غير مؤمن ولاموحد ، فهداه الله سبحانه. ولكن الحق فى الجواب ان يقال :

ان الضال يستعمل فى عرف اللغة فى موارد :

١ ـ الضال : من الضلالة : ضدالهداية والرشاد .

٢ ـ الضال : من ضل البعير : اذا لم يعرف مكانه .

٣ - الضال : من ضل الشيء : اذا ضؤل وخفى ذكره .

وتفسير الضال باى واحد من هذه المعانى لايثبت ماتدعيه المخطئة سواء أجعلناها معانى مختلفة جوهراً وشكلا ، ام جعلناها معنى واحداً جوهراً ومختلفا شكلا وصورة ، فان ذلك لايؤثر فيما نرتئيه واليك توضيحه :

اما المعنى الاول : فهو المقصود من تلك اللفظة فى كثير من الايات قال سبحانه : «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» (الحمد - ٧) لكن الضلالة بمعنى ضد الهداية والرشاد يتصور على قسمين :

قسم : تكون الضلالة فيه وصفا وجودياً ، وحالة واقعية كامنة فى النفس ، توجب منقصتها وظلمتها ، كالكافر والمشرك والفاسق . والضلالة فى هاتيك الافراد صفة وجودية تكمن فى نفوسهم ، وتتزايد حسب استمرار الانسان فى الكفر والشرك والعصيان والتجرى على المولى سبحانه ، قال الله سبحانه : «ولايحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثماً ولهم عذاب مهين» . (آل عمران - ١٧٨)

فان لازدياد الاثم بالجوارح تاثيراً فى زيادة الكفر . وقد وصف سبحانه بعض الاعمال بانها زيادة فى الكفر قال سبحانه : «انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا» . (التوبة - ٣٧)

وقسم منه تكون الضلالة فيه امراً عدمياً بمعنى كون النفس فاقدة للرشاد غير مالكة له ، وعند ئذ يكون الانسان ضالا بمعنى انه غير واجد للهداية من عند نفسه . وفى الوقت نفسه لاتكمن فيه صفة وجودية مثل ماتكمن فى نفس المشرك والعاصى ، وهذا كالطفل الذى اشرف على التميز وكاد ان يعرف الخير من الشر ، والصلاح من الفساد ، والسعادة عن الشقاء ، فهو آنذاك ضال . لكن بالمعنى الثانى اى غير واجد للنور الذى يهتدى به فى سبيل الحياة لاضال بالمعنى الاول بمعنى كينونة ظلمة الكفر والفسق فى روحه .

اذا عرفت ذلك . فاعلم : أنه لو كان المراد من الضال فى الاية ، مايخالف

الهداية والرشاد فهو تهدف الى القسم الثانى منه لاالاول : بشهادة ان الاية بصدد توصيف النعم التى افاضها الله سبحانه على نبيه يوم افتقد اباه ثم امه فصار يتيماً لاملجأ له ولامأوى ، فآواه واكرمه ، بجده عبدالمطلب ثم بعمه ابى طالب و كان ضالا فى هذه الفقرة من عمره . فهداه الى اسباب السعادة وعرفه وسائل الشقاء .

والالتزام بالضلالة بهذا المعنى لازم القول بالتوحيد الافعالى . فان كل ممكن كما لايملك وجوده وحياته ، لايملك فعله و لاهدايته و لارشده الا عن طريق ربه سبحانه .و انما يفاض عليه كل شيىء منه قال تعالى : «يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد» . (فاطر ـ ١٥) فكما ان وجوده مفاض من الله سبحانه فهكذا كل ما يوصف به من جمال و كمال فهومن فيوض رحمته الواسعة. والاعتقادبالهداية الذاتية، وغناء الممكن بعدوجوده عن هدايته سبحانه يناقض التوحيد الافعالى الذى شرحناه فى هذه الموسوعة. (١)

وقد تضافرت الايات على هذا الاصل وان هداية كل ممكن مكتسبة من الله سبحانه من غير فرق بين الانسان وغيره ، و فى الاول بين النبى و غيره . قال سبحانه: «قال ربنا الذى اعطى كل شيئى خلقه ثم هدي». (طه ـ ٥٠). وقال سبحانه «الذى خلق فسوي والذى قدر فهدى». (الاعلى ـ ٢،٣) و قال سبحانه : «و قالوا الحمدلله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله». (الاعراف ـ ٤٣). وقال سبحانه: «الذى خلقنى فهو يهدين» . (الشعراء ـ ٧٨) وقال تعالي : «الاالذى فطرنى فانه سيهدين» (الزخرف ـ ٢٧) وقال تبارك وتعالى : «وان اهتديت فبما يوحى الىّ ربى» (سبأ ـ ٥٠). الى غير ذلك من الايات .

وعلى هذاالاساس فالاية تهدف الى بيان النعم التى انعمها سبحانه على حبيبه منذ ان استعد لها فآواه بعدماصار يتيما لامأوى له ولاملجأ ، وافاض عليه الهداية بعدما كان فاقداً لها حسب ذاتها. واما تحديد زمن هذه الافاضة فيعود الى اوليات حياته وايام صباه بقرينة ذكره بعد الايواء الذى تحقق بعدا ليتم ، وتم بجده

(١) لاحظ الجزء الاول ص٢٩٧-٣٧٦

عبدالمطلب فوقع فى كفالته الى ثمانية سنين ويؤيد ذلك قول الامام امير المؤمنين «ولقد قرن الله به ﷺ من لدن ان كان فطيماً اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره». (١)

والحاصل: ان الهداية فى الاية نفس الهداية الواردة فى قوله: «اعطى كل شيء خلقه ثم هدى» وفى قوله: «الذى خلقنى فهو يهدين». الى غير ذلك من الايات التى اوعزنا اليها والاعتقاد بكونه ضالا اى فاقداً لها فى مقام الذات ثم افيضت عليه الهداية، هو مقتضى التوحيد الافعالى ولازم كون النبى الاكرم ﷺ ممكناً بالذات، فاقداً فى ذاته كل كمال وجمال، مفاضاً عليه كل جميل من جانبه سبحانه. واين هو من الضلالة المساوقة للكفر والشرك والفسق والعصيان

وان شئت قلت: ان الضلالة فى الاية يرادف الخسران الوارد فى قوله سبحانه «ان الانسان لفى خسر» والهداية فيها يترادف الايمان والعمل الصالح الواردين بعده «الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات». (العصر-٢و٣). فالانسان بما انه يصرف رأس ماله اعنى عمره الغالى كل يوم، خاسر بالذات الا اذا اكتسب به مايبقى ولاينفد اثره وهو الايمان المقرون بالعمل الصالح، والنبى وغيره فى هذه الاحكام سواسية بل فى كل التوصيفات الواردة فى مجال الانسان التى يثبتها القرآن له ولاوجه لارجاعها الى صنف دون صنف، بعد كونها من خواص الطبيعة الانسانية مالم تقع تحت رعاية الله وهدايته.

وبذلك يتبين ان الضلالة فى الاية لوفسرت-بضد الهدى والرشاد - لاتدل على ماتدعيه المخطئة بل هى بصدد بيان قانون كلى سائد على عالم الامكان من غير فرق بين الانسان وغيره وفى الاول بين النبى وغيره.

* * *

(١) نهج البلاغة من الخطبة ١٧٨ - والتى تسمى بالقاصعة ص١٨٢

حول الاحتمالين الاخرين .

ولكن هذا المعنى غير متعين فى الاية اذ من المحتمل ان تكون الضلالة فيها مأخوذة من «ضل الشيىء : اذا لم يعرف مكانه» و«ضلت الدراهم : اذا ضاعت وافتقدت» و«ضل البعير: اذا ضاع فى الصحارى والمفاوز» وفى الحديث : «الحكمة ضالة المؤمن اخذها اين وجدها» اى مفقودته ولا يزال يتطلبها وقد اشتهر قول الفقهاء فى باب «الجعالة» «من رد ضالتى فله كذا» .

فالضال بهذا المعنى ينطبق على ما نقله اهل السير والتاريخ عن اوليات حياته من انه ضل فى شعاب مكة وهو صغير فمن الله عليه اذ رده الى جده. وقصته معروفة فى كتب السير . (١) .

ولولا رحمته سبحانه لادركه الهلاك ومات عطشاً اوجوعاً فشملته العناية الالهية فرده الى مأواه وملجأه

وهناك احتمال ثالث لا يقصر عما تقدمه من احتمالين . وهو ان تكون الضلالة فى الاية مأخوذة من «ضل الشيىء اذا خفى وغاب عن الاعين» قال سبحانه : «أءذا ضللنا فى الارض أءنا لفى خلق جديد» . (السجدة ـ ١٠) . فالانسان الضال هو الانسان المخفى ذكره ، المنسى اسمه . لا يعرفه الا القيل من الناس ، ولا يهتدى كثير منهم اليه ، ولو كان هذا هو المقصود ، يكون معناه انه سبحانه رفع ذكره وعرفه بين الناس عند ما كان خاملا ذكره منسياً اسمه ، ويؤيد ذلك الاحتمال قوله سبحانه فى سورة الانشراح التى نزلت لتحليل ما ورد فى سورة الضحى قائلا: «الم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذى انقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك» (الانشراح ـ ١ ـ ٤) . فرفع ذكره فى العالم ، عبارة عن هداية الناس اليه ورفع

(١) لاحظ السيرة الحلبية ج ١ ص ١٣١ ويقول : عن حميدة بن معاوية العامرى : سمعت شيخا يطوف بالبيت وهو يقول :

يارب رد راكبى محمداً اردده ربى واصطنع عندى يداً

الحواجز بينه وبين الناس ، وعلى هذا فالمقصود من « الهداية » هوهداية الناس اليه لاهدايته فكأنه قال : فوجدك ضالا،خاملاذكرك ، باهتا اسمك، فهدى الناس اليك وسّير ذكرك فى البلاد .

والى ذلك يشير الامام الرضا عليه السلام على ما فى خبر ابن الجهم بقوله : قال الله عزوجل لنبيه محمد ﷺ « الم يجدك يتيما فآوى » يقول : « الم يجدك» وحيداً فآوى اليك الناس « ووجدك ضالا » يعنى عند قومك « فهدى » اى هداهم الى معرفتك (١) .

وهذه هى المحتملات المعقولة فى الاية ولا يدل واحد منها على ما تتبناه المخطئة وان كان الاظهر هوالاول .

ويعجبنى فى المقام ما ذكره الشيخ محمد عبده فى « رسالة التوحيد » فقال :

وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته ايضاً فاحتضنه جده عبدالمطلب. وبعد سنتين من كفالته ، توفى جده فكفله من بعده عمه ابوطالب و كان شهماً كريماً غير انه كان من الفقر بحيث لايملك كفاف اهله .

و كان (صلى الله عليه وسلم) من بنى عمه وصبية قومه ، كاحدهم على مابه من يتم ، فقد فيه الابوين معاً . وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول . ولم يقم على تربيته مهذب .

ولم يعن بتثقيفه مؤدب بين اتراب من نبت الجاهلية . وعشراء من خلفاء الوثنية واولياء من عبدة الاوهام وأقرباء من حفدة الاصنام غيرانه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا، وفضيلة وادباً . حتى عرف بين اهل مكة وهوفى ريعان شبابه بالامين ، ادب الهى لم تجر العادة بان تزين به نفوس الايتام من الفقراء خصوصاً مع فقر القوّام فاكتهل (صلى الله عليه وسلم) كاملا ، والقوم ناقصون ، رفيعاً، والقوم منحطون، موحداً، وهم وثنيون، سلماً، وهم شاغبون، صحيح الاعتقاد

(١) البحار ج١٦ ص١٤٢ من الطبعة الحديثة

وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

من السنن المعروفة ان يتيماً فقيراً امياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من اول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، ولاسيما ان كان من ذوى قرابته ، واهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا استاذ ينبهه ، ولا عضد اذا عزم يؤيده ، فلو جرى الامر فيه على مجارى السنن لنشأ على عقائدهم ، واخذ بمذاهبهم ، الى ان يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده . ولكن الامر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدء عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء فى الكتاب من قوله: «ووجدك ضالا فهدى». لا يفهم منه انه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد ، او على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم حاش لله ان ذلك لهو الافك المبين وانما هى الحيرة تلم بقلوب اهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص . وطلب السبيل الى ماهدوا اليه من انقاذ الهالكين وارشاد الضالين (١) .

الاية الثانية الامر بهجر الرجز .

يقول سبحانه : «يا ايها المدثر . قم فانذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر» . (المدثر ـ ١ ـ ٧)

استدلت المخطئة بان الرجز بمعنى الصنم والوثن ففى الامر بهجر ما يعاز لوجود ارضية صالحة لعبادتهما فى شخصية النبى الاكرم ﷺ .

اقول : ان الرجز فى القرآن الكريم استعمل فى المعانى الثلاثة التالية .

١ ـ «العذاب ـ ٢ ـ القذارة ـ ٣ ـ الصنم» ولك ان تقول : ان المفاهيم الثلاثة أشكال لمعنى واحد جوهراً ، وليست بمعان متعددة . ولكن تعيين احد الامرين لا يؤثر فيما نرتئيه . توضيح ذلك» :

(١) رسالة التوحيد للشيخ عبده ص ١٣٥ ـ ١٣٦

ان «الرجز» بكسر الراء قد استعمل فى القرآن تسع مرات. وقد اريدمنه فى جميعها العذاب الافى مورد واحد واليك مظانها» : (البقرة-٥٩) الاعراف - ١٣٤) . « وجاءت اللفظة فيها مرتين » . (والاية - ١٤٥ و١٦٢) (الانفال - ١١) (وسبأ -٥) (الجاثية - ١١) (العنكبوت - ٢٩) .

واما «الرجز»: بضم الراء فقد جاء فى القرآن الكريم مرة واحدة . وهى الآية التى نحن بصدد تفسيرها. فسواء أريد منها العذاب ام غيره من المعنيين . فلايدل على ماذهبت اليه المخطئة واليك بيان ذلك .

أ - «الرجز» : العذاب فلوكان المقصود منه العذاب فيدل على الامر بهجر مايستلزم العذاب وبما ان الآيات القرآنية نزلت بعنوان التعليم فلا تدل على ان النبى ﷺ كان مشرفاً على مايجر العذاب لأن هذه الخطابات من باب «اياك اعنى واسمعى ياجارة» . وهذا النوع من الخطاب بمكان من البلاغة . لانه سبحانه : اذا خاطب اعز الناس اليه بهذا الخطاب فغيره اولى به . ومن هنا يقدر القارى الكريم على حل كثير من الآيات التى تخاطب النبى الاكرم ﷺ بلحن حاد وشديد . فيقول : «لئن اشركت ليحبطن عملك» (الزمر- ٦٥) . وليست الآية دليلا على وجود ارضية الشرك فى شخصية النبى ﷺ فنهاه عنه سبحانه بل الآيات آيات عامة نزلت للتعليم والخطاب موجه اليه . والمقصود منه عامة الناس. نرى انه سبحانه يخاطب نبيه الاكرم فى سورة القصص بالخطابات الناهية الاربع المتوالية ، الخطاب للنبى ﷺ والمقصود منه هوالامة ويقول : «وما كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب الارحمة من ربك فلاتكونن ظهيراً للكافرين ولايصدنك عن آيات الله بعد اذ انزلت اليك وادع الى ربك ولاتكونن من المشركين ولاتدع مع الله الهاً آخر لااله الاهو كل شىء هالك الاوجهه له الحكم واليه ترجعون». (القصص - ٨٦، ٨٨).

وهذا هوالمقياس فى اكثر الخطابات الناهية الواردة فى القرآن الكريم.

ب - الرجز بمعنى القذارة : ثم ان القذارة على قسمين : القذارة المادية،

والقذارة المعنوية فيحتمل ان يكون المراد هو الاول وقد ورد فى الروايات ان اباجهل جاء بشيىء قذر ونادى اصحابه وقال : هل فيكم رجل يأخذه منى ويلقيه على محمد . فاخذه بعض اصحابه فالقاه عليه فحينئذ تكون الاية ناظرة الى تطهير الثوب عن الدنس وان اريد القذارة المعنوية فالمراد هو الاجتناب عن الافعال والصفات الذميمة فان الاية نزلت للتعليم فلاتدل على اتصاف النبى الاكرم بها .

ج ـ الرجز بمعنى الصنم : نفترض ان المقصود منه فى الاية هو الصنم لكن لابمعنى انه وضع لذاك المعنى، وانما وضع اللفظ لمعنى جامع يعم الصنم والخمر والازلام ، لاشتراك الجميع فى كونها رجزاً ولاجل ذلك وصف الجميع فى مورد آخر بالرجس فقال : «انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه» (المائدة ـ ٩٠)

ولكن الجواب عن هذه الصورة هو الجواب عن الصورتين الاوليين والشاهد على ذلك ان النبى ﷺ يوم نزلت الاية لم يكن عابداً للوثن بل كان مشمراً لتحطيم الاصنام ومكافحة عبدتها . فلا يصح ان يخاطب من هذا شأنه ، بهجر الاصنام الا على الوجه الذى اوعزنا اليه .

الاية الثالثة : عدم علمه بالكتاب والايمان :

قوله سبحانه : «وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم» . (الشورى ـ ٥٢)

استدلت المخطئة لعصمة النبى الاكرم بهذه الاية وزعمت ـ والعياذ بالله ـ دلالة الاية على انه كان فاقداً للايمان قبل الايحاء اليه وقد انقلب وصار مؤمناً موحداً بالوحى وبعد نزوله اليه .

لكن حياته المشرقة ـ بالايمان والتوحيد ـ تفند تلك المزعمة ، بشهادة التاريخ على انه من بداية عمره الى ان لاقى ربه ، كان مؤمناً مؤحداً ، وليس

ذلك امراً قابلا للشك والترديد وقد اصفق على ذلك اهل السير والتاريخ وحتى كان الاحبار والرهبان معترفين بانه نبى هذه الامة وخاتم الرسالات الالهية وكان ﷺ يسمع تلك الشهادات منهم فى فترات خاصة فى «مكة» و «يثرب» و « بصرى » ، و«الشام» ، وغيرها وعلى ذلك فكيف يمكن ان يكون غافلا عن الكتاب الذى ينزل اليه ، او يكون مجانبا عن الايمان بوجوده سبحانه وتوحيده ، والتاريخ المسلّم الصحيح يؤكد على عدم صدق ذلك الاستظهار . وعلى ضوء هذا ، لابد من امعان النظر فى مفاد الاية كما لابد فى تفسيرها من الاستعانة بالايات الواردة فى ذلك المساق فنقول :

بعث النبى الاكرم ﷺ لهداية قومه اولا ، وهداية جميع الناس ثانياً ، بالايات والبينات واخص بالذكر منها : كتابه وقرآنه (معجزته الكبرى الخالدة) الذى بفصاحته اخرس فرسان الفصاحة ، وقادة الخطابة ، وببلاغته قهر ارباب البلاغة وملوك البيان ، وخلب عقولهم وقد دعاهم الى التحدى والمقابلة ، فلم يكن الجواب منهم الا اثارة التهم حوله فتارة قالوا : بانه يعلمه بشر ، واخرى بانه افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون ، وثالثة : بانه اساطير الاولين التى اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا قال سبحانه : رداً على هذه التهم التى اوعزنا اليها : «قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين. ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلّمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين» (النحل - ١٠٢، ١٠٣) وقال سبحانه: «وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتريه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلماً وزوراً وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفوراً رحيماً» . (الفرقان - ٤ ، ٦)

والاية التى تمسكت بها المخطئة بصدد بيان هذا الامر وانه وحى سماوى لا افك افتراه ولاجل ذلك بدء كلامه بلفظة «وكذلك اوحينا اليك» اى كما انه سبحانه اوحى الى سائر الانبياء باحدى الطرق الثلاثة التى بينها فى الاية المتقدمة ، اوحى

اليك ايضاً روحاً من امرنا . وليس هذا كلامك وصنيعك . بل كلام ربك وصنيعه.

هذا مجمل الكلام فى الاية ولاجل رفع النقاب عن مرماها نقدم اموراً تسلط ضوءاً عليه .

الاول : المراد من الروح فى الاية هو القرآن وسمى روحاً لانه قوام الحياة الاخروية كما ان الروح فى الانسان قوام الحياة الدنيوية ويؤيد ذلك امور:

أ ـ ان محور البحث الاصلى فى سورة الشورى : هو الوحى والايات الواردة فيها البالغ عددها ٥٣ آية ، تبحث عن ذلك المعنى بالمباشرة او بغيرها .

ب ـ الاية التى تقدمت على تلك، تبحث عن الطرق التى يكلم بها سبحانه انبيائه ويقول : «وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء انه على حكيم» . (الشورى ـ ٥١)

ج ـ انه سبحانه بدأ كلامه فى هذه الاية بلفظة : و كذلك» اى كما اوحينا الى من تقدم من الانبياء كذلك اوحينا اليك باحدى هذه الطرق «روحا من امرنا» ووجه الاشتراك بينه وبين النبيين ، هو الوحى المتجلى فى نبينا بالقرآن وفى غيره بوجه آخر .

كل ذلك يؤيد ان المراد منه هو القرآن الملقى اليه . نعم وردت فى بعض الروايات ان المراد منه هو «روح القدس». ولكنه لاينطبق على ظاهر الاية لان «الروح» بحكم كونه مفعولا «لاوحينا» يجب ان يكون شيئا قابلا للوحى حتى يكون «موحا» وروح القدس ليس موحا بل هو الموحى . (بالكسر فكيف يمكن ان يكون مفعولا « لاوحينا » ولاجله يجب تأويل الروايات ان صحت اسنادها .

الثانى : ان هيئة «ما كنت» او «ما كان» تستعمل فى نفى الامكان والشأن قال سبحانه : «وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله» (آل عمران ـ ١٤٥) وقال عز اسمه : «وما كان المؤمنون لينفروا كافة» . (التوبة ـ ١٢٢)

وقال تعالى : «ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون» . (النمل ـ ٣٢)

وعلى ضوء هذا الاصل يكون مفاد قوله «ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان» انه لولا الوحى ما كان من شأنك ان تدرى الكتاب ولا الايمان. فان وقفت عليهما فانما هو بفضل الوحى وكرامته.

الثالث: ان ظاهر الآية ان النبى الاكرم ﷺ كان فاقداً للعلم بالكتاب والدراية للايمان. وانما حصل الدراية بهما فى ظل الوحى وفضله فيجب امعان النظر فى الدراية التى كان النبى فاقداً لها قبل الوحى وصار واجداً لها بعده، فما تلك الدراية وذاك العلم.

فهل المراد هو العلم بنزول الكتاب اليه اجمالا والايمان بوجوده وتوحيده سبحانه او المراد العلم بتفاصيل مافى الكتاب واذعان بها كذلك.

لاسبيل الى الاول، لان علمه اجمالا بانه ينزل اليه الكتاب، او ايمانه بوجوده، سبحانه كانا حاصلين قبل نزول الوحى اليه ولم يكن العلم بهما مما يتوقف على الوحى، فان الاحبار والرهبان كانوا واقفين على نبوته ورسالته ونزول الكتاب اليه فى المستقبل اجمالا، وقد سمع منهم النبى ﷺ - فى فترات مختلفة -: انه النبى الموعود فى الكتب السماوية، وانه خاتم الرسالات والشرائع، فهل يصح ان يقال: ان علمه ﷺ بنزول كتاب عليه اجمالا كان بعد بعثته وبعد نزول الوحى، او انه كان متقدماً عليه وعلى بعثته ومثله الايمان بالله سبحانه وتوحيده اذلم يكن الايمان بالله امراً مشكلا متوقفاً على الوحى، وقد كان الاحناف فى الجزيرة العربية ومن جملتهم رجال البيت الهاشمى، موحدين مؤمنين مع عدم نزول الوحى اليهم.

وبالجملة: العلم الاجمالى بنزول كتاب اليه والايمان بوجوده وتوحيده، لم يكن امراً متوقفاً على نزول الوحى حتى يحمل عليه قوله «وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان» وعندئذ يتعين الاحتمال الثانى وهو ان العلم التفصيلى بمضامين الكتاب ومافيه من الاصول والتعاليم والقصص - ثم الايمان والاذعان بتلك التفاصيل - كانا متوقفين على نزول الوحى، ولولاه

لما كان هناك علم بها ولا ايمان.

وان شئت قلت: العلم والايمان بامور السمعية التى لا سبيل للعقل عليها - كالمعارف والاحكام والقصص ومحاجة الانبياء مع المشركين والكفار ومانزل بساحة اعداءهم من اهلاك وتدمير - لايحصلان الامن طريق الوحى، حتى قصص الامم السالفة وحكاياتهم لتسرب الوضع والدس الى كتب القصاصين، والصحف السماوية النازلة قبل القران.

تفسير الاية باية اخرى

ان الرجوع الى ماورد فى هذاالمضمار من الايات، يوضح المراد من عدم درايته بالكتاب اولا، والايمان ثانيا.

اماالاول: فيقول سبحانه: «تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولاقومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين». (هود-٤٩) فالاية صريحة فى ان النبى ﷺ لم يكن عالماً بتفاصيل الانباء، وقد وقف عليها من جانب الوحى فعبر عن عدم وقوفه عليها فى هذه الاية بقوله: «ما كنت تعلمها انت ولا قومك» وفى تلك الاية: بقوله: «ما كنت تدرى ماالكتاب» والفرق هو ان «الكتاب» اعم من «انباء الغيب» والاول يشتمل على الانباء وغيرها «واماالانباء» فانها مختصة بالقصص والكل مشتركان فى عدم العلم بهما قبل الوحى والعلم بهما بعده.

واماالثانى فقوله سبحانه: «آمن الرسول بماانزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير». (البقرة - ٢٨٥) فقوله: «آمن الرسول بما انزل اليه» صريح فى ان متعلق الايمان الحاصل بعد الوحى، هو الايمان «بماانزل اليه» اعنى تفاصيل الكتاب فى المجالات المختلفة، لاالايمان بالله وتوحيده و عند ئذ يرتفع الابهام فى الاية التى تمسكت بها المخطئة ويتبين ان متعلق الايمان المنفى فى قوله «ولا الايمان» هو «ماانزل اليه» لاالايمان بالمبدء وتوحيده.

والحاصل : ان هنا شيئاً واحداً اعنى « الايمان بما انزل من المعارف والاحكام والانباء » فقد نفى عنه فى الاية المبحوث عنها لكونها ناظرة الى ما قبل البعثة ، واثبت له فى الاية الاخرى لكونها ناظرة الى بعد البعثة .

ومن هنا تتضح اهمية عرض الايات بعضها على بعض وتفسير الاية باختها فهاتان الايتان كما عرفت كافلتان لرفع ابهام الاية واجمالها .

وقد تفطن المفسرون لما ذكرناه على وجه الاجمال فقال الزمخشرى فى الكشاف: الايمان اسم يتناول اشياء: بعضها ، الطريق اليه العقل وبعضها الطريق اليه السمع ، فعنى به ما ، الطريق اليه السمع دون العقل وذاك ماكان له فيه علم حتى كسبه بالوحى (١)

وقال الطبرسى : «ما كنت تدرى ما الكتاب» ماالقرآن ولاالشرائع ومعالم الايمان . (٢)

وقال الرازى : المراد من الايمان هو الاقرار بجميع ما كلف الله تعالى به ، وانه قبل النبوة ماكان عارفا بجميع تكاليف الله تعالى بل انه كان عارفا بالله... ثم قال: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما تمكن معرفته بمحض دلائل العقل ومنها ما لا تمكن معرفته الا بالدلائل السمعية فهذا القسم الثانى لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة(٣)

وقال العلامة الطباطبائى فى الميزان : ان الاية مسوقة لبيان ان ما عنده ﷺ الذى يدعو اليه انما هو من عندالله سبحانه لامن قبل نفسه وانما اوتى ما اوتى من ذلك ، بالوحى بعد النبوة فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية ، فان ذلك هو الذى اوتى العلم به بعد النبوة والوحى . والمراد من عدم درايته الايمان ، عدم تلبسه

(١) الكشاف ج٣ ص٨٨-٨٩

(٢) مجمع البيان ج٥ ص٣٧

(٣) مفاتيح الغيب ج٧ ص٤١٠ ولاحظ روح البيان ج٨ ص٣٤٧ وروح المعانى ج١٥ ص٢٥

بالالتزام التفصيلى بالعقائد الحقة والاعمال الصالحة، وقدسمى العمل ايماناً فى قوله تعالى : «وماكان الله ليضيع ايمانكم» (البقرة- ١٤٣) (والمراد الصلوات التى اتى بها المؤمنون الى بيت المقدس قبل النسخ) والمعنى ماكان عندك قبل وحى الروح، علم الكتاب بمافيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبسا به بما انت متلبس به بعد الوحى من الالتزام التفصيلى والاعتقادى وهذا لاينافى كونه مؤمنا بالله موحداً قبل البعثة صالحاً فى عمله ، فان الذى تنفيه الاية هو العلم بتفاصيل مافى الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملا ، لانفى العلم والالتزام الاجماليين بالايمان بالله والخضوع للحق . (١)

الاية الرابعة : عدم رجائه القاء الكتاب اليه :

قال تعالى : «وما كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب الارحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين» (القصص - ٨٦) استدل الخصم بان ظاهر الاية نفى علمه بالقاء الكتاب اليه ، فلم يكن النبى راجياً لذلك واقفاً عليه .

اقول : توضيح مفاد الاية يتوقف على امعان النظر فى الجملة الاستثنائية اعنى قوله « الا رحمة من ربك » حتى يتضح المقصود . وقد ذكر المفسرون فى توضيحها وجوها ثلاثة نأتى بها .

١- ان « الا » استدراكية وليست استثنائية فهى بمعنى « لكن » لاستدراك مابقى من المقصود وحاصل معنى الاية: «ما كنت يامحمد ترجو فيما مضى ان يوحى الله اليك ويشرفك بانزال القرآن عليك، الاان ربك رحمك وانعم به عليك واراد بك الخير» نظير قوله سبحانه : «وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك» (القصص-٤٦) اى ولكن رحمة من ربك خصصك به وهذا هو المنقول عن الفراء (٢) . وعلى هذا لم يكن للنبى صلى الله عليه وآله اى رجاء لالقاء الكتاب اليه وانما

(١) الميزان ج١٨ ص٨٠

(٢) مجمع البيان ج٤ ص٢٦٩ ومفاتيح الغيب ج٦ ص٨ ٤

فاجأه الالقاء لاجل رحمة ربه . ولكن لايصار الى هذا الوجه الا اذا امتنع كون الاستثناء متصلا لكون الانقطاع على خلاف الظاهر .

٢- ان يكون «الا» للاستثناء لاللاستدراك ، وهو متصل لامنقطع ، ولكن المستثنى منه جملة محذوفة معلومة من سياق الكلام. وهو كما فى الكشاف: «وما القى اليك الكتاب الارحمة من ربك» (١) اى لم يكن لالقائه عليك وجه الارحمة ربك وعلى هذا الوجه ايضاً لايعلم انه كان للنبى ﷺ رجاء لالقاء الكتاب عليه وان كان الاستثناء متصلا، وهذا الوجه بعيد ايضا لكون المستثنى منه محذوفا مفهوما من الجملة على خلاف الظاهر وانما يصار اليه اذا لم يصح ارجاعه الى نفس الجملة الواردة فى نفس الاية كما سيبين فى الوجه الثالث .

٣- ان يكون «الا» استثناء من الجملة السابقة عليه اعنى قوله : «وما كنت ترجوا» ويكون معناه : «ما كنت ترجوا القاء الكتاب عليك الا ان يرحمك الله برحمة فينعم عليك بذلك» فتكون النتيجة : ما كنت ترجوا الا على هذا (٢) . فيكون هنا رجاءاً منفيا ورجاء مثبتاً اما الاول : فهو رجاؤه بحادثة نزول الكتاب على نسج رجائه بالحوادث العادية ، فلم يكن ذاك الرجاء موجوداً واما رجاؤه به عن طريق الرحمة الالهية فكان موجوداً فنفى احد الرجائين لايستلزم نفى الاخر بل المنفى هو الاول والثابت هو الثانى وهذا الوجه هو الظاهر المتبادر من الاية وقد سبق منا ان جملة «ما كنت» وما اشبهه تستعمل فى نفى الامكان والشان وعلى ذلك يكون معنى الجملة : لم تكن راجياً لان يلقى اليك الكتاب وتكون طرفاً للوحى والخطاب الا من جهة خاصة ، وهى ان تقع فى مظلة رحمته وموضع عنايته فيختارك طرفاً لوحيه ، ومخاطباً لكلامه وخطابه ، فالنبى بما هو انسان عادى لم يكن راجياً لان ينزل اليه الوحى ويلقى اليه الكتاب وبما انه صار مشمولا لرحمته وعنايته وصار انسانا مثاليا قابلا لتحمل المسئولية وتربية الامة، كان راجياً

(١) الكشاف ج٢ ص٤٨٧-٤٨٨

(٢) مفاتيح الغيب ج٦ ص٤٩٨

به وعلى ذلك فالنفى والاثبات غير واردين على موضع واحد .

فقد خرجنا بفضل هذا البحث الضافى انه ﷺ كان انسانا مؤمنا موحداً عابداً لله ساجداًله قائماً بالفرائض العقلية والشرعية مجتنباً عن المحرمات عالما بالكتاب ومؤمنا به اجمالا ، وراجيا لنزوله اليه الى ان بعث لانقاذ البشرية عن الجهل ، وسوقها الى الكمال . فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً . وبقيت هنا آية اخرى نأتى بتفسيرها اكمالا للبحث وان لم تكن لهاصلة تامة لما تتبناه المخطئة .

الاية الخامسة : لولم يشأ ماتلوته :

قال سبحانه : «قل لوشاء الله ماتلوته عليكم ولاادريكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله افلا تعقلون» (يونس-١٦) والاية توكد ان النبى ﷺ كان لابثاً فى قومه، ولم يكن تالياً بسورة من سور القرآن اوآياً من آياته. وليس هذا شىء ينكره القائلون بالعصمة. فقد اتفقت كلمتهم على ان النبى ﷺ وقف على ما وقف من آى الذكر الحكيم من جانب الوحى ولم يكن قبله عالماًبه ، واين هو من قول المخطئة من نفى الايمان منه قبلها .

وان اردت الاسهاب فى تفسيرها فلاحظ الاية المتقدمة عليها فترى فيها اقتراحين للمشركين وقداجاب القرآن عن احدهما فى الاية المتقدمة وعن الاخر فى نفس هذه الاية واليك نصها: قال «الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غيرهذا اوبدله قل مايكون لى ان ابدله من تلقاء نفسى ان اتبع الاما يوحى الىّ انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم » (يونس - ١٥) اقترح المشركون على النبى احد الامرين .

١ - الاتيان بقرآن غيرهذا مع التحفظ على فصاحته وبلاغته .

٢- تبديل بعض آياته مما فيه سبّ لالهتهم وتنديد بعبادتهم الاوثان والاصنام فاجاب عن الثانى فى نفس الاية بان التبديل عصيان لله وانه يخاف من مخالفة

ربه ولامحيص له الاتباع الوحى من دون ان يزيد فيه اوينقص عنه .

واجاب عن الاول فى الاية المبحوث عنها بانه امرغيرممكن لان القرآن ليس من صنعى و كلامى حتى اذهب به و آتى باخر . بل هو كلامه سبحانه وقد تعلقت مشيئته على تلاوتى ولو لم يشأ لما تلوته عليكم ولا ادريكم به . والدليل على ذلك انى كنت لابثاً فيكم عمراً من قبل فما تكلمت بسورة اوبآية من آياته ولو كان القرآن كلامى لبادرت الى التكلم به طيلة معاشرتى معكم فى المدة الطويلة .

قال العلامة الطباطبائى فى تفسيرالاية : ان الامرفيه الى مشيئة الله لا الى مشيئتى فانما انارسول ولوشاء الله ان ينزل قرآنا غيرهذا لانزل، اولم يشأ تلاوة هذا القرآن ماتلوته عليكم ولاادراكم به فانى مكثت فيكم عمراً من قبل نزوله ولو كان ذلك الىّ وبيدى لبادرت اليه قبل ذلك وبدت من ذلك آثار ولاحت لوائحه . (١)

هذا آخر الكلام فى عصمته عن العصيان ، وصيانته عن الخلاف بقى الكلام فى عصمته عن الخطأ والنسيان فنطرحها على بساط البحث اجمالا .

عصمة النبى الاعظم عن الخطأ (٢)

ان صيانة النبى عن الخطأ والاشتباه سواء أكان فى محل تطبيق الشريعة، أم فى مجال الامور العادية الفردية المرتبطة بحياته ، مما طرح فى علم الكلام وطال البحث فيه بين متكلمى الاسلام .

غير ان تحقق الغاية من البعثة رهن صيانته عن الخطأ فى كلا المجالين ، والافلاتتحقق الغاية المتوخاة من بعثته . وهذا هوالدليل العقلى الذى اعتمدت

---

(١) الميزان ج١٠ ص٢٦ ولاحظ المنار ج١١ ص٣٢٠

(٢) البحث كما يعرب عنه عنوان البحث، مركزعلى صيانة خصوص نبينا الاعظم عن الخطأ استدلالا واشكالا وجوابا واما البحث عن عصمة غيره من الانبياء فموكول الى مجال آخر

عليه العدلية بعدما اتفق الكل على لزوم صيانته عن الخطأ والاشتباه فى مجال تلقى الوحى وحفظه، وادائه الى الناس ، ولم يختلف فى ذلك اثنان ، واليك توضيح هذا الدليل العقلى ان الخطأ فى غير امر الدين وتلقى الوحى يتصور على وجهين :

أ ـ الخطأ فى تطبيق الشريعة كالسهو فى الصلاة اوفى اجراء الحدود .

ب ـ الاشتباه فى الامور العادية المعدة للحياة كما اذا استقرض الف دينار، وظن انه استقرض مائة دينار وهو مصون من الاشتباه والسهو فى كلا الموردين وذلك لان الغاية المتوخاة من بعث الانبياء هى هدايتهم الى طريق السعادة ولا تحصل تلك الغاية الابكسب اعتماد الناس على صحة ما يقوله النبى وما يحكيه عن جانب الوحى، وهذا هو الاساس لحصول الغاية . ومن المعلوم انه لوسها النبى واشتبه عليه الامر فى المجالين الاولين ربما تسرب الشك الى اذهان الناس. وانه هل يسهو فى مايحكيه من الامر والنهى الالهى ام لا ؟ .

فباى دليل انه لايخطأ فى ذلك الجانب مع انه يسهو فى المجالين الاخرين وهذا الشعور اذا تغلغل فى اذهان الناس سوف يسلب اعتماد الناس على النبى . وبالتالى تنتفى النتيجة المطلوبة من بعثه .

نعم ، التفكيك بين صيانته فى مجال الوحى وصيانته فى سائر الامور وان كان امراً ممكناً عقلا ولكنه ممكن بالنسبة الى عقول الناضجين فى الابحاث الكلامية ونحوها ، واما العامة ورعاع الناس الذين يشكلون اغلبية المجتمع ، فهم غير قادرين على التفكيك بين تينك المرحلتين، بل يجعلون السهو فى احداهما دليلا على امكان تسرب السهو الى المرحلة الاخرى .

ولاجل سدّ هذا الباب المنافى للغاية المطلوبة من ارسال الرسل ، ينبغى ان يكون النبى مصونا فى عامة المراحل ، سواء أكانت فى حقل الوحى أوفى تطبيق الشريعة أو فى الامور العامة . ولهذا يقول الامام الصادق جعل مع النبى روح القدس وهى «لاتنام ولاتغفل ولاتلهو ولاتسهو . (١)

(١) بصائر الدرجات ص٤٥٤

وعلى ذلك فبما انه ينبغي ان يكون النبى اسوة فى الحياة فى عامة المجالات يجب ان يكون نزيهاً عن العصيان والخلاف والسهو والخطأ.

القرآن وعصمة النبى عن الخطأ والسهو :

قد عرفت منطق العقل فى لزوم عصمة النبى من الخطأ فى مجال تطبيق الشريعة ، ومجال الامور العادية المعدة للحياة وهذا الحكم لايختص بمنطقه ، بل الذكر الحكيم يدعمه باحسن وجه واليك مايدل على ذلك .

١ - قال سبحانه : « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اريك الله ولاتكن للخائنين خصيماً » (النساء - ١٠٥) وقال ايضاً « ولولافضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم ان يضلوك ومايضلون الاانفسهم ومايضرونك من شيىء وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مـالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً» . (النساء - ١١٣)

وقد نقل المفسرون حول نزول الايات ومابينهما من الايات روايات رووها بطرق مختلفة نذكر ماذكره ابن جرير الطبرى عن ابن زيد قال: كان رجل سرق درعاً من حديد فى زمان النبى ﷺ و طرحه على يهودى ، فقال اليهودى والله ماسرقتها ياابا القاسم ولكن طرحت على وكان للرجل الذى سرق جيران يبرؤونه ويطرحونه على اليهودى، ويقولون : يارسول الله ان هذا اليهودى الخبيث يكفر بالله وبما جئت به قال: حتى مال عليه النبى ﷺ ببعض القول فعاتبه الله عزوجل فى ذلك فقال: «انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً . (١)

اقول : سواء أصحت هذه الرواية ام لا ، فمجموع ماورد حول الايات من اسباب النزول متفق على ان الايات نزلت حول شكوى رفعت الى النبى وكان كل من المتخاصمين يسعى ليبرىء نفسه ويتهم الاخر وكان فى جانب واحد منهما رجل

(١) تفسير الطبرى ج٤ ص ١٧٢

طليق اللسان يريد ان يخدع النبى ﷺ ببعض تسويلاته ويثير عواطفه على المتهم البرىء حتى يقضى على خلاف الحق وعند ذلك نزلت الاية ورفعت النقاب عن وجه الحقيقة فعرف المحق من المبطل ،

والدقة فى فقرات الاية الثانية يوقفنا على سعة عصمة النبى من الخطأ وصيانته من السهو، لانها مؤلفة من فقرات اربع ، كل يشير الى امر خاص :

١ ـ «ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك ومايضلون الا انفسهم ومايضرونك من شيىء» .

٢ ـ «وانزل الله عليك الكتاب والحكمة» .

٣ ـ «وعلمك مالم تكن تعلم» .

٤ ـ «وكان فضل الله عليك عظيماً» .

فالاولى منها : تدل على ان نفس النبى بمجردها لاتصونه من الضلال (اى من القضاء على خلاف الحق) وانما يصونه سبحانه عنه ، ولولا فضل الله ورحمته لهمت طائفة ان يرضوه بالدفاع عن الخائن والجدال عنه ، غير ان فضله العظيم على النبى هو الذى صده عن مثل هذا الضلال وأبطل امرهم المؤدى الى اضلاله وبما ان رعاية الله سبحانه وفضله الجسيم على النبى ليست مقصورة على حال دون حال او بوقت دون وقت آخر بل هو واقع تحت رعايته وصيانته منذان بعث الى ان يلاقى ربه، فلايتعدى اضلال هؤلاء انفسهم ولايتجاوز الى النبى ﷺ فهم الضالون بما هموا به كما قال : «ومايضلون الا انفسهم وما يضرونك من شيىء» .

والفقرة الثانية : تشير الى مصادر حكمه ومنابع قضائه ، وانه لايصدر فى ذلك المجال الاعن الوحى والتعليم الالهى كما قال سبحانه: «وانزل عليك الكتاب والحكمة» والمراد المعارف الكلية العامة من الكتاب والسنة .

ولماكان هذا النوع من العلم الكلى احد ركنى القضاء وهو بوحده لايفى بتشخيص الموضوعات وتمييز الصغريات ، فلابد من الركن الاخر وهو تشخيص المحق من المبطل والخائن من الامين ، والزانى من العفيف أتى بالفقرة الثالثة

وقال : «وعلمك مالم تكن تعلم» ومقتضى العطف، مغائرة المعطوف ، مع المعطوف عليه فلو كان المعطوف عليه ناظراً الى تعرفه على الركن الاول وهو العلم بالاصول والقواعد الكلية الواردة في الكتاب والسنة ، يكون المعطوف ناظراً الى تعرّفه على الموضوعات والجزئيات التى يعد ركناً ثانياً للقضاء الصحيح . فالعلم بالحكم الكلى الشرعى وتشخيص الصغريات وتمييز الموضوعات جناحان للقاضى يحلّق بهما فى سماء القضاء بالحق من دون أن يجنح الى جانب الباطل ، او يسقط فى هوّة الضلال .

قال العلامة الطباطائى : ان المراد من قوله سبحانه «وعلمك ما لم تكن تعلم» ليس علمه بالكتاب والحكمة ، فان مورد الاية ، قضاء النبى فى الحوادث الواقعة والدعاوى المرفوعة اليه ، برأيه الخاص، وليس ذلك من الكتاب والحكمة بشيىء وان كان متوقفا عليهما، بل المراد رأيه ونظره الخاص(١) ولما كان هنا موضع توهم وهو ان رعاية الله لنبيه تختص بمورد دون مورد ، دفع ذلك التوهم بالفقرة الرابعة فقال سبحانه «وكان فضل الله عليك عظيما» : حتى لا يتوهم اختصاص فضله عليه بواقعة دون اخرى : بل مقتضى عظمة الفضل ، سعة شموله لكل الوقائع والحوادث ، سواء أكانت من باب المرافعات والمخاصمات ، ام الامور العادية ، فتدل الفقرة الاخيرة على تعرّفه على الموضوعات ومصونيته عن السهو والخطاء فى مورد تطبيق الشريعة او غيره ولا كلام اعلى واغزر من قوله سبحانه فى حق حبيبه «وكان فضل الله عليك عظيماً» .

٢- قال سبحانه: «وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً». (البقرة: -١٤٣). ان الشهادة المذكورة فى الاية حقيقة من الحقائق القرآنية تكرر ذكرها فى كلامه سبحانه، قال تعالى: «فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً». (النساء -٤٠) . وقال

(١) الميزان ج٥ ص٨١

تعالى : «ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لايؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون» (النحل- ٨٤). وقال تعالى: «ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء» . (الزمر -٦٩) . والشهادة فيها مطلقة وظاهر الجميع هو الشهادة على اعمال الامم وعلى تبليغ الرسل كما يومى اليه قوله تعالى: «ولنسئلن الذين ارسل اليهم ولنسئلن المرسلين». (الاعراف-٥). وهذه الشهادة وان كانت فى الاخرة ويوم القيامة لكن يتحملها الشهود فى الدنيا على مايدل عليه قوله سبحانه حكاية عن عيسى «وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد».(المائدة-١٣٠) وقال سبحانه : «ويوم القيامة تكون عليهم شهيداً» . (النساء - ١٥٨). ومن الواضح ان الشهادة فرع العلم، وعدم الخطأ فى تشخيص المشهود به ، فلو كان النبى من الشهداء يجب الايكون خاطئاً فى شهادته ، فالاية تدل على صيانته وعصمته من الخطأ فى مجال الشهادة كما تدل على سعة علمه ، لان الحواس لاترشدنا الاالى صور الاعمال والافعال ، والشهادة عليها غير كافية عند القضاء، وانما تكون مفيدة اذا شهد على حقائقها من الكفر والايمان، والرياء و الاخلاص ، وبالجملة على كل خفى عن الحس ومستبطن عند الانسان ، أعنى ماتكسبه القلوب وعليه يدور حساب رب العالمين ، قال تعالى: «ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم» . (البقرة-٢٢٥) ولاشك ان الشهادة على حقائق اعمال الامة خارج عن وسع الانسان العادى الا اذا تمسك بحبل العصمة وولى أمر الله بأذنه، ولنا فى الاجزاء الاتية من هذه الموسوعة بحث حول الشهداء فى القرآن، فنكتفى بهذا القدر فى المقام.

ثم ان العلامة الحجة السيد عبدالله شبر أقام دلائل عقلية ونقلية على صيانة النبى عن الخطأ ولكن اكثرها كما صرح به نفسه قدس الله سره مدخولة غير واضحة ومن اراد الوقوف عليها فليرجع الى كتابه (١) .

(١) مصابيح الانوار فى حل مشكلات الاخبار ، ج٢ ص ١٢٨-١٤٠

ادلة المخطئة:

ان بعض المخطئة استدلت على تطرق الخطأ والنسيان الى النبى ببعض الايات غافلة عن اهدافها، واليك تحليلها .

١- قال سبحانه : «واذارأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين» . (الانعام - ٦٨)

زعمت المخطئة ان الخطاب للنبى وهو المقصود منه ، غيرانها غفلت عن ان وزان الاية وزان سائر الآيات التى تقدمت فى الابحاث السابقة وقلنا بان الخطاب للنبى ولكن المقصود منه هو الامة ويدل على ذلك، الاية التالية لها قال : «وما على الذين يتقون من حسابهم من شيىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون». (الانعام-٦٩)

فان المراد انه ليس على المؤمنين الذين اتقوا معاصى الله سبحانه من حساب الكفرة شيىء بحضورهم مجلس الخوض ، وهذا يدل على ان النهى عن الخوض تكليف عام يشترك فيه النبى وغيره ، وان الخطاب للنبى لاينافى كون المقصود هو الأمة .

والاوضح منها دلالة على ان المقصود هو الامة قوله سبحانه: «وقد نزل عليكم فى الكتاب ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم اذاً مثلهم ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً» . (النساء - ١٤٠)

والاية الاخيرة مدنية ، والاية المتقدمة مكية ، وهى تدل على ان الحكم النازل سابقاً متوجه الى المؤمنين وان الخطاب وان كان للنبى لكن المقصود منه غيره

٢ - «ولاتقولن لشيىء انى فاعل ذلك غداً الاان يشاءالله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى ان يهدينى ربى لاقرب من هذا رشداً» (الكهف ٢٣ - ٢٤)) والمراد من النسيان نسيان الاستثناء» (الا ان يشاءالله) ، ووزان هذه الاية ، وزان الاية

السابقة فى ان الخطاب للنبى والمقصود هو الأمة .

٣- «سنقرئك فلاتنسى الاماشاءالله انه يعلم الجهر ومايخفى». (الاعلى٦-٧) ومعنى الاية سنجعلك قارئاً بالهام القراءة فلاتنسى ماتقرأه ، لكن المخطئة استدلت بالاستثناء الوارد بعده ، على امكان النسيان لكنها غفلت عن نكتة الاستثناء ، فان الاستثناء فى الاية نظير الاستثناء فى قوله سبحانه : «واما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الاماشاء ربك عطاء غير مجذوذ» . (هود-١٠٨) ومن المعلوم ان الوارد الى الجنة لايخرج منها، ولكن الاستثناء لاجل بيان ان قدرة الله سبحانه بعد باقية، فهو قادر على الاخراج مع كونهم مؤبدين فى الجنة، وأما الاية فالاستثناء فيها يفيد بقاء القدرة الالهية على اطلاقها، وان عطية الله أعنى «الاقراء بحيث لاتنسى» لاينقطع عنه سبحانه بالاعطاء ، بحيث لايقدر بعد على انساءك بل هو باق على اطلاق قدرته فلو شاء أنسأك متى شاء، وان كان لايشاء ذلك

وبما ان البحث مركّز على عصمة النبى الاعظم من الخطأ والنسيان دون سائر الانبياء ذكرنا الايات التى استدلت بها المخطئة على ماتتبناه فى حق النبى الاكرم واما بيان الايات التى يمكن ان يستدل بها على امكان صدور السهو . والنسيان عن سائر الانبياء وتفسيرها فمتروك الى مجال آخر ونقول على وجه الاجمال انه تستظهر من بعض الايات صحة نسبة النسيان الى غير النبى الاعظم اعنى قوله سبحانه : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجدله عزماً » (طه - ١١٥) وقوله سبحانه فى حق موسى: «فلما بلغا مجمع بينهما نسى حوتهما» (الكهف - ٦١) وقوله سبحانه ايضاً عنه : «فانى نسيت ومااانسانيه الا الشيطان ان اذكره» (الكهف - ٦٣) وقوله سبحانه فى حقه ايضاً : « لاتؤاخذنى بما نسيت » (الكهف-٧٣) لكن البحث عن مفاد هذه الايات موكول الى مجال آخر.

بقى هنا امر ان ، الاول : ما هى النظرية السائدة بين الامامية فى مسألة سهو النبى ؟ الثانى : كيفية معالجة المأثورات الظاهرة فى صدور السهو عن النبى الاعظم ، واليك بيان الامرين على نحو الاجمال .

١ - الرأى السائد بين الامامية حول سهو النبى (ص) :

يظهر من الشيخ الصدوق ان انكار سهو النبى كان شعار الغلاة والمفوضة قال فى كتابه «من لايحضره الفقيه» ان الغلاة والمفوضة ينكرون سهو النبى (ص) يقولون لوجاز ان يسهو فى الصلاة جازان يسهو فى التبليغ لان الصلاة عليه فريضة كما ان التبليغ عليه فريضة، ثم اجاب عنه بان جميع الاحوال المشتركة تقع على النبى ﷺ فيها ماتقع على غيره . . . . فالحالة التى اختص بها هى النبوة ، والتبليغ من شرائطها ، ولايجوز ان يقع عليه فى التبليغ مايقع عليه فى الصلاة لانها عبادة مخصوصة ، والصلاة عبادة مشتركة ، وبها تثبت له العبودية وباثبات النوم له عن خدمة ربه عزوجل من غيرارادة له وقصد منه اليه ، نفى الربوبية عنه لان الذى لاتأخذه سنة ولانوم هو الله الحى القيوم ، وليس سهو النبى ﷺ كسهونا لأن سهوه من الله عزوجل وانما اسهاه ليعلم أنه بشر مخلوق فلايتخذ رباً معبوداً دونه وليعلم الناس بسهوه حكم السهو متى سهوا ، وسهونا عن الشيطان وليس للشيطان على النبى ﷺ والائمة صلوات الله عليهم سلطان «انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون وعلى من تبعه من الغاوين» ثم نقل عن شيخه محمد بن الحسن بن احمد بن الوليد (المتوفى عام - ٣٤٣ هـ) انه كان يقول : اول درجة فى الغلو نفى السهو عن البنى ﷺ (١).

و حاصل كلامه ان السهو الصادر عن النبى اسهاء من الله اليه لمصلحة كنفى وهم الربوبية عنه ، واثبات انه بشر مخلوق واعلام الناس حكم سهوهم فى العبادات وامثالها ، واما السهو الذى يعترينا من الشيطان فانه ﷺ منه برىء وهو منزه عنه ، وليس للشيطان عليه سلطان ولاسبيل .

ومع ذلك كله فهذه النظرية مختصة به وبشيخه ابن الوليد ومن تبعهما كالطبرسى فى مجمعه على ما سيأتى والمحققون من الامامية متفقون على نفى السهو عنه فى امور الدين حتى مثل الصلاة .

---

(١) من لايحضره الفقيه ، ج١ ص٢٣٢

قال المفيد: ان الائمة القائمين مقام الانبياء فى تنفيذ الاحكام واقامة الحدود وحفظ الشرائع وتأديب الانام معصومون كعصمة الانبياء وانهم لايجوز منهم سهو فى شىء فى الدين ولاينسون شيئاً من الاحكام ، وعلى هذا مذهب سائر الامامية الامن شذمنهم وتعلق بظاهر روايات لها تأويلات على خلاف ظنه الفاسد من هذا الباب ، والمعتزلة باسرها تخالف فى ذلك ويجوزون من الخلفاء وقوع الكبائر والردة عن الاسلام . (١)

وقال فى شرحه على عقايد الصدوق : فاما نص ابى جعفر رحمه الله بالغلو على من نسب مشايخ القميين وعلمائهم (الذين جوزوا السهو على النبى) الى التقصير فليس نسبة هؤلاء القوم على التقصير علامة على غلو الناس اذفى جملة المشار اليهم بالشيخوخة والعلم من كان مقصراً ، وانما يجب الحكم بالغلو على من نسب المحققين الى التقصير سواءأ كانوا من اهل قم ام من غيرها من البلاد ومن سائر الناس ، وقد سمعنا حكاية ظاهرة عن ابى جعفر محمد بن الحسن بن الوليد رحمه الله لم نجدلها دافعاً وهى ما حكى عنه انه قال: اول درجة فى الغلو نفى السهو عن النبى صلى الله عليه وآله والامام(ع) .

ثم ان الشيخ المفيد لم يكتف بهذا القدر من الرد بل ألف رسالة مفردة فى رده ، وقد ادرجها العلامة المجلسى فى بحاره(٢).

وعلى هذا الرأى استقر رأى الامامية ، فقال المحقق الطوسى : وتجب فى النبى العصمة ليحصل الوثوق... وعدم السهو وقال العلامة الحلى فى شرحه:و ان لايصح عليه السهو لئلا يسهو عن بعض ماأمر بتبليغه (٣)

وقال المحقق الحلى فى النافع : والحق رفع منصب الامامة عن السهو فى العبادة (٤) .

وقال العلامة فى المنتهى فى مسألة التكبير فى سجدتى السهو.احتج المخالف

(١) اوائل المقالات ص٣٥ (٢) راجع البحار ج١٧ ص١٢٢-١٢٩
(٣) كشف المراد ص١٩٥ (٤) النافع ص٤٥

بما رواه ابوهريرة عن النبى: قال : ثم كبر وسجد والجواب: هذا الحديث عندنا باطل لاستحالة السهو على النبى وقال فى مسألة اخرى :قال الشيخ :وقول مالك باطل لاستحالة السهو على النبى(١).

وقال الشهيد فى الذكرى : وخبر ذى اليدين متروك بين الامامية لقيام الدليل العقلى على عصمة النبى عن السهو لم يصر الا ذلك غير ابن بابويه (٢).

هذا هو الرأى السائد بين الامامية ولم يشذ عنهم احد من المتأخرين سوى امين الاسلام الطبرسى فى تفسيره حيث قال: واما النسيان والسهو فلم يجوزوهما عليهم فيما يؤدونه عن الله تعالى واما ماسواه فقد جوزوا عليهم ان ينسوه او يسهو عنه ما لم يؤدى ذلك الى اخلال بالعقل (٣).

واما غيره فلم نجد من يوافقه ومن اراد التفصيل فليرجع الى المصادر التالية (٤).

وقد قام العلامة المجلسى بايفاء حق المقام فى بحاره لاحظ البحار ج١٧ ص٩٧- ١٢٩.

٣- كيفية معالجة المأثورات حول سهو النبى :

روى الفريقان احاديث حول سهو النبى. روى البخارى فى كتاب الصلاة باب من يكبر فى سجدتى السهو عن ابى هريرة قال : صلى النبى احدى صلاتى العشية... ركعتين فقالوا : أقصرت الصلاة؟ ورجل يدعوه النبى ذواليدين فقال

---

(١) منتهى المطلب ص٤١٨-٤١٩　　(٢) الذكرى ص٢١٥

(٣) مجمع البيان ج ٢ ص ٣١٧

(٤) حق اليقين فى معرفة اصول الدين للسيد عبدالله شبر ج ١ ص ١٢٤ مصابيح الانوار فى حل مشكلات الاخبار ، له ايضاً ج٢ ص١٣٤-١٤٢ تنزيه الانبياء للسيد المرتضى منهج الصادقين ج٣ ص٣٩٣ ، ج٥ ص٣٤٦

أنسيت الصلاة ام قصرت ؟ فقال : لم أنس ولم تقصر قال : بلى قد نسيت فصلى ركعتين ثم سلم ثم كبّر فسجد مثل سجوده او اطول ثم رفع رأسه فكبر ثم وضع رأسه فكبر فسجد مثل سجوده اواطول ثم رفع رأسه و كبر (١) هذا ماروواه اهل السنة كما رووا غيره ايضاً .

اما الشيعة فقد رووا احاديث حول الموضوع نقلها العلامة المجلسى فى بحاره (٢) . ولايتجاوز مجموع ماورد فى هذا الموضوع عن اثنى عشر حديثاً كما ان اخبار نوم النبى عن صلاة الصبح لاتتجاوز عن ستة احاديث (٣).

لكن الجواب عن هذه الروايات بأحد امرين . الاول : ما ذكره المفيد فى الرسالة المومأ اليها من انها اخبار آحاد لاتثمر علماً ولاتوجب عملا ومن عمل على شىء منها فعلى الظن يعتمد فى عمله بها دون اليقين(٤).

الثانى ماذكره الصدوق من التفريق بين سهو النبى وسهو الاخرين بما عرفت . والله العالم بالحقائق :

ثم الظاهر من السيد المرتضى ، تجويز النسيان على الانبياء حيث قال فى تفسير قوله سبحانه « لاتؤاخذنى بما نسيت » (الكهف ـ ٧٣) : ان النبى انما لايجوز عليه النسيان فيما يؤديه عن الله تعالى اوفى شرعه اوفى امر يقتضى التنفير عنه فاما فيما هو خارج عما ذكرناه ، فلامانع من النسيان (٥) .

وممن وافق الصدوق من المتأخرين ، شيخنا المجيز : الشيخ محمد تقى التسترى ، فقد الف رسالة فى الموضوع نصر فيها الشيخ الصدوق واستاذه ابن الوليد

---

(١) صحيح البخارى ج٢ ص٦٨

(٢) البحار ج ١٧ ص٢٠٠ ـ ١٠٧ . وقد جمع شيخنا المحقق التسترى احاديث السهو فى رسالة خاصة ، طبعها فى آخر الجزء الحادى عشر من قاموس الرجال .

(٣) المصدر نفسه ص٢٠

(٤) البحار ج١٧ ص١٢٣

(٥) تنزيه الانبياء ص٨٧

وطبعها فى ملحقات الجزء الحادى عشر من رجاله «قاموس الرجال» والرسالة تقع فى ٢٤ صحيفة .

واما العلامة المجلسى فالظاهر منه التوقف فى المسألة قال : اعلم أن هذه المسألة فى غاية الاشكال لدلالة كثير من الايات (الايات التى تستظهر منها نسبة النسيان الى بعض الانبياء غير النبى الاكرم وقد قدمناها) والاخبار على صدور السهو عنهم واطباق الاصحاب الاما شذ على عدم جواز السهو عليهم مع دلالة بعض الايات والاخبار عليه فى الجملة وشهادة بعض الدلائل الكلامية والاصول المبرهنة عليه ، مع ماعرفت فى اخبار السهو من الخلل والاضطراب وقبول الايات للتأويل، والله يهدى الى سواء السبيل . (١)

ثم ان الشيخ المفيد وصف القائل بصدور السهو عنهم ﷺ من الشيعة بالمقلدة واراد منها: الصدوق وشيخه ابن الوليد ولكن التعبير عنهما بالمقلدة غير مرضى عندنا كيف ويصف الاول الرجالى النقاد ابن النجاشى بقوله: «ابو جعفر شيخنا وفقيهنا ووجه الطائفة بخراسان وكان ورد بغداد سنة ٣٥٥ وسمع منه شيوخ الطائفة وهو حدث السن(٢) ويقول فى حق شيخه: ابو جعفر شيخ القميين، وفقيههم ومتقدمهم ووجههم ويقال انه نزيل قم وماكان اصله منها ، ثقة ، ثقة ، عين مسكون اليه (٣) .

والمحل الصحيح لهذه التعابير ماأشار اليه شاعر الاهرام بقوله :

يشتد فى سبب الخصومة لهجة　　لكن يرق خليقة وطباعا
وكذلك العلماء فى اخلاقهم　　يتباعدون ويلتقون سراعاً
فى الحق يختلفون الا انهم　　لايبتغون الى الحقوق ضياعاً

اللهم اغفر الماضين من علمائنا واحفظ الباقين منهم .

*　　*　　*

(١) البحار ج١٧ ص١١٨-١١٩
(٢و٣) رجال النجاشى ص٣٨٩ و٣٨٣

٢

مفهوم الامام فى القرآن الكريم

فى هذا الفصل :

١ ـ نظرية الامامة بين الفريقين .

٢ ـ هل الأمامة تفويض اجتماعى او منصب الهى ؟

٣ ـ الاستدلال على كونها منصبا الهيا .

٤ ـ ما هو الهدف من ابتلاء الخليل بالكلمات ؟

٥ ـ ما هو المراد من الكلمات التى ابتلى بها ابراهيم ؟

٦ ـ ما هو المقصود من اتمام تلك الكلمات ؟

٧ ـ ماذا يراد من الامام فى قوله «انى جاعلك للناس اماماً» ؟

٨ ـ توضيح النظريات الخمس فى تفسير الامام فى الاية السابقة ؟

٩ ـ كيف تكون الامامة عهداً الهيا .

١٠ ـ ما هوالمراد من الظالمين فى قوله «لاينال» عهدى الظالمين .

١١ ـ بيان كيفية دلالة الآية على نزاهة الامام من الذنب ،

١٢ ـ آية التطهير وعصمة اهل البيت فى القرآن الكريم .

١٣ ـ ماهو المراد من الرجس فى قوله سبحانه «ليذهب عنكم الرجس» .

١٤ ـ هل الأرادة الواردة فى الاية تكوينية او تشريعية .

١٥ ـ ما هو المقصود من اهل البيت فى القرآن الحكيم .

١٦ ـ من هم اهل البيت فى حديث النبى الاكرم ﷺ ؟!.

١٧ ـ مشكلة السياق فى الآية .

١٨ ـ اهل البيت فى الادب العربى .

مفهوم الامام فى القرآن الكريم

للتعرف على مفهوم كلمة الامام فى القرآن اهمية خاصة كما ان التعرف على مفهومى النبى والرسول فيه كذلك ، وقد فرغنا من تبيين مفهوم الاخيرين فى الجزء السابق وبقى البحث عن مفهوم الامام فى الكتاب العزيز .

ان الامام فى مصطلح المتكلمين هو القائد العام للمسلمين الذى يخلف النبى ﷺ فى كل اوبعض ما يمت له بصلة وقد اتفقت الامة على انسداد باب الوحى وختم التشريع بموت النبى ﷺ ولحوقه بالرفيق الاعلى : وانما الكلام فى مقدار المسئولية التى يتحملها الامام فى خلافته عنه . وهذا الاختلاف أوجد نظريتين فى باب الامامة بين المتكلمين ، بل احدث مدرستين وصار سبباً للاختلاف فى لزوم بعض الشروط فى الامام وعدمها ولايمكن الوصول الى الحق الابعددراسة النظريتين على ضوء الكتاب والسنة والعقل ، ولايصح ابداء النظر فى لزوم الشروط التى ذكرها المتكلمون الا بعد تلك الدراسة ، واليك بيان النظريتين.

١ ـ الامامة تفويض اجتماعى :

الامامة منصب اجتماعى بمعنى ان الامة هى صاحبة السلطة العليا تخولها للامام وهي التى تحاسب الامام وتراقب قراراته وعليها ان تنتخب من يقودها ، وبعبارة اخرى: ان من حق الامة ان تختار حكامها، تعينهم وتعزلهم وتراقبهم فى كل تصرفاتهم الشخصية والعامة، وعلى ذلك فالامامة منصب عرفى كسائر المناصب المطروحة فى المجتمع غير انها تتفاوت بسعة المسؤولية وضيقها . فالامام اكثر

مسؤولية من الوزراء وهم اكبر مسؤولية من المدراء العامين ولايخلف الامام النبى الراحل الا فى بعض مسؤوليته وهى الاخذ بزمام السلطة فى الشؤون التى تتوقف عليها حياة الامة و لاجل ذلك يعتبر فيه من المؤهلات و الصلاحيات : الدراية والكفاية اولا ، والعلم بالاحكام والقوانين على مستوى خاص ثانياً .

واما سائر الشروط كالعصمة الالهية،والعلم بجميع الاحكام الشرعية،والاجابة عن كل الاسئلة المطروحة،والدفاع العلمى عن اصول الشريعة ومعارفها العليا وتفسير ماورد من الايات فى الذكر الحكيم و . . . فلا يعتبر قطعاً لان الهدف المتوخى من الامام على هذا الصعيد هو اعمال السلطة وقيادة السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية وتكفيه المقدرة العادية والعلم بمقدار محدود .

هذا هواساس تلك النظرية وعلى ذلك نجد ان معتنقى تلك النظرية يصفون الامام وشروطه بالعبارات التالية :

يقول القاضى الباقلانى : يجب ان يكون الامام على اوصاف : منها : ان يكون قرشيا من الصميم وان يكون من العلم بمنزلة من يصلح ان يكون قاضياً من قضاة المسلمين وان يكون ذا بصيرة بامر الحرب وتدبير الجيوش والسرايا و سد الثغور وحماية البيضة وحفظ الامة والانتقام من ظالمها ونصرة مظلومها و ما يتعلق به من مصالحها وان لايكون ممن تلحقه رقة ولا هوادة فى اقامة الحدود ولاجزع من ضرب الرقاب والابشار (١) .

وقد جاء على منوال القاضى اكثر من تأخر عنه الى عصرنا هذا ولا حاجة لنقل ماذكره المتأخرون عنه . ونكتفى بنقل ماذكره احد الشخصيات البارزة فى زماننا ، قال : اتفق الفقهاء على ان خليفة المسلمين هومجرد وكيل عن الامة يخضع لسلطان موكله فى جميع اموره وهومثل وكيل من الامة فى البيع والشراء يخضع لما يخضع له الوكيل الشخصى كما اتفقوا على ان موظفى الدولة الذين يعينهم الخليفة اويعزلهم، لايعملون بولايته ولاينعزلون بعزله باعتباره الشخصى

(١) التمهيد للباقلانى ص١٨١

وانما بولاية الامة وعزلها التى وكلته فى التولية والعزل. ولهذا اذا عزل الخليفة لاينعزل ولاته وقضاته لانهم يعملون باسم الامة وفى حق الامة لاباسم الخليفة ولا فى خالص حق الخليفة . (١)

وتتلخص تلك النظرية فى ان الامة نقلت الى الامام ولايتها وجعلت فيه ثقتها ولوقام اهل الحل والعقد بتنصيبه فلاجل انهم وكلاء الامة .

هذه حقيقة تلك النظرية عند اصحابها، وسواءأطابقت واقع خلافة الخلفاء وجلوسهم على منصّة الحكم املا،فهؤلاء يتبنون تلك النظرية ويحاولون ان يسوقوا على صحتها الشواهد والدلائل .

الخليفة والعدالة .

ان اصحاب هذه النظرية اختلفوا فى اشتراط العدالة فى الخليفة فهم بين نافين لها مستدلين ببعض الخلفاء الذين افتقدوا السيرة المحمودة والعدالة . وبين مثبتين لها . واليك نصوص كلا الطرفين :

يقول القاضى الباقلانى : قال الجمهورمن اهل الاثبات واصحاب الحديث: لاينخلع الامام بفسقه وظلمه بغصب الاموال وضرب الابشاروتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود ولاينخلع بهذه الامور ولايجب الخروج عليه بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته فى شىء مما يدعواليه من معاصى الله واحتجوا لذلك باخبار كثيرة متضافرة عن النبى والصحابة فى وجوب طاعة الائمة وان جاروا واستاثروا بالاموال . (٢)

وقال التفتازانى : واذا مات الامام وتصدى للامامة من يستجمع شرائطها من غيراستخلاف ، وقهرالناس بشوكته، انعقدت الخلافة له. وكذا اذا كان فاسقاً اوجائراً على الاظهر الا انه يعصى بما فعل وتجب طاعة الامام مالم يخالف حكم

(١) من توجيهات الاسلام للشيخ محمود شلتوت ص٥٦٣

(٢) التمهيد الباقلانى ص١٨٦

الشرع سواء كان عادلا او جائراً . ولاينعزل الامام بالفسق . (١)

وعلى هذا الاساس اشتهر بين اهل السنة: انهم لايرون الخروج على الائمة وقتالهم بالسيف وان كان منهم ظلم ويتمسكون فى ذلك باحاديث منسوبة الى النبى ﷺ وربما يعللون ذلك بان الفساد فى القتال والفتنة اعظم من الفساد الحاصل من ظلمهم بدون قتال فيدفع اعظم الفسادين بالتزام الادنى. ولاتكاد تعرف طائفة خرجت على السلطان، الا كان فى خروجها من الفساد ماهو اعظم من الفساد الذى ازالته . (٢)

وعلى هذا الاساس تسلط اصحاب السلطة من الامويين والعباسيين على اعناق الناس واراقوا الدماء واستباحوا الاعراض وانتهبوا الاموال وصاراصحاب الحديث يبررون سلوكهم فى عدم جهاد الطواغيت بهذه العلة التافهة التى لواخذنا بها لاندرس من الدين حتى الاسم . وهؤلاء المساكين لايدرون انه انما قام للاسلام عمود واخضر له عود، بمجابهة المخلصين من المسلمين عن طريق ثوراتهم واعمالهم على السلطات الجائرة حتى استشهد كثير منهم. وسقوا شجرة الاسلام بدمائهم الطاهرة فبقيت مخضرة تؤتى اكلها كل حين .

وفى مقابل هذه الطائفة من اهل السنة هناك من لمس الواقع ودرس حقيقة الامامة على وجه صحيح ولو من بعض جوانبها منهم : القاضى عضد الدين عبدالرحمان بن احمد الايجى وشارح كتابه المحقق السيد الشريف اذ يقولان : نعم ، يجب ان يكون عدلا فى الظاهر لئلا يجور لان الفاسق ربما يصرف الاموال فى اغراض نفسه ويضيع الحقوق . (٣)

ويقول امام الحرمين ابوالمعالى عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجوينى: ان الامام اذا جار وظهر ظلمه وغيه ولم يرعو لزاجر من سوء صنيعه فلاهل الحل

(١) شرح المقاصد للتفتازانى ط اسلامبول ج٢ ص٢٧٢

(٢) منهاج السنة لابن تيمية ص٧٨

(٣) شرح المواقف ج٨ ص٣٥٠ ط مصر

والعقد ، التواطؤ على ردعه ولو بحمل السلاح ونصب الحروب. (١)

يقول : العلامة الشيخ محمود شلتوت فالحاكم يجب ان يكون حميد السيرة فان ساءت سيرته فللامة عزله . (٢)

الامامة والاجتهاد .

يظهر من كثير من متكلمى السنة شرط الاجتهاد فى الامامة ، قال القاضى الايجى : الجمهور على وجوب كون اهل الامامة مجتهداً فى الاصول والفروع ليقوم بامور الدين .

وقرره على ذلك الشرط شارح المواقف السيد الشريف الجرجانى مفسراً العبارة المزبورة بقوله: حتى يكون متمكنا من اقامة الحجج وحل الشبه فى العقائد الدينية مستقلا بالفتاوى فى النوازل والاحكام والوقائع نصاً واستنباطاً لان اهم مقاصد الامامة حفظ العقائد وفصل الحكومات ورفع المخاصمات ولن يتم ذلك بدون هذا . (٣)

وقال شمس الدين بن محمود الاصفهانى المتوفى عام ٧٤٩ . المعروف بابن السناء : صفات الائمة هى تسع ـ الاولى ان يكون الامام مجتهداً فى اصول الدين وفروعه . (٤)

وقال امام الحرمين : ان من شروط الامام الاجتهاد بحيث لا يحتاج الى استفتاء غيره فى الحوادث ، قال : وهذا متفق عليه . (٥)

وقد اكد على ذلك الامام فى بعض اسفاره كـ«غياث الامم» (٦).

وقد تبلورت هذه النظرية عند المتأخرين من اهل السنة فترى ان الشيخ محمد ابوزهرة يقول فى حق الحاكم. ان يكون مجتهداً مشاوراً للمجتهدين(٧).

(١) شرح المقاصد ج٢ ص٢٧٢ (٢) من توجيهات لاسلام ص٥٦٣
(٣) شرح المواقف ج٨ ص٣٤٩ (٤) مطالع الانظار ص٤٧٠
(٥) القرشى فى كتاب الحكم والادارة نقلا عن الارشاد ص٤٢٦
(٦) راجع غياث الامم ص٢٧٤ (٧) المجتمع الاسلامى ص١٢٨

وهناك عدة اخرى من المتقدمين من العلماء والمتأخرين ركزوا على هذا الشرط .

وانت اذا لاحظت ما نقلناه عن اصحاب هذه المدرسة في ماهية الامامة وشروطها نخرج بهذه النتيجة : ان الامامة عند اصحابها ليست الارئاسة عامة لتدبير امر الجيوش وسد الثغور وردع الظالم والاخذ للمظلوم بحقه واقامة الحدود وقسمة الفيئ بين المسلمين ولايشترط فيها نبوغ في العلم يزيد على علم الرعية بل هو والامة في علم الشريعة سيان ويكفيه من العلم مايكون عند القضاة . هذه هي ماهية النظرية واما الشروط فقد وقفت على متفقها ومختلفها .

وعلى هذه النتيجة التي خرجنا بها يكون البحث عن العصمة الالهية والعلم بكل الاحكام الشرعية والذب عن حريم العقائد والمعارف وتبيين ما اجمل من الكتاب امراً غير لازم بل غير متحقق ولامتمكن منه اذ من المستحيل ان يكون منتخب الامة حائزاً لهذا الكمال اذا لم يكن المنتخب واقعاً في اطار التربية الغيبية كالنبي ﷺ والامام في النظرية الثانية .

ولاجل ذلك نجد ان اصحاب هذه النظرية يستوحشون من سماع شرط العصمة في الامام او من سماع بعض الشروط مثل ان يكون اعلم الامة وعارفاً بكل ما يرجع الى الشريعة والسياسة. واذا فرغنا من دراسة حقيقة هذه النظرية فهلم معي ندرس حقيقة النظرية الاخري .

الامامة منصب الهي :

ان اصحاب هذه النظرية يعترفون بختم النبوة والرسالة بارتحال النبي ﷺ الى الرفيق الاعلى وانقطاع الوحي بموته - ﷺ - ومع ذلك يقولون بان منصب الامامة استمرار لشؤون ووظايف الرسالة وان الامام يقوم بكل ماكان يقوم به النبي ﷺ سوى كونه متلقياً للوحي فالرسول خص بالتشريع والوحي الالهي وشأن الخليفة والامام، التبليغ والبيان وتفصيل المجمل وتفسير المعضل واظهار

مالم يتسن للنبى ﷺ الاشارة اليه اما لتأخر ظرفه اولعدم تهيؤ النفوس له اولغير ذلك من العلل واذا مات الرسول فهناك احكام لم تبلغ وان كانت مشرعة واخرى لم تات ظروفها فالامام مبلغها ومبينها .

ولاتتم وظيفة الامام فى هذا المجال فحسب بل هناك وظائف اخرى كوظائف النبى ﷺ حذو القذة بالقذة، فالامام ببيانه يكمل الشريعة ويزيح شبه الملحدين ويدرأ عن الدين عادية اعدائه بقوته وسلطانه ويقيم الأمت والعوج بيده ولسانه وعلى الجملة كل ماكان من الوظائف والمسؤوليات على عاتق النبى ﷺ فهو على عاتق الامام الاالتشريع وتحمل الوحى الالهى .

هذه هى حقيقة هذه النظرية وتترتب عليها الشروط النبى تسالم اصحابها عليها من كون الامام : اعلم الامة واقضاها واعرفها باصول الدين وفروعه واقواها على الذب عن حريم الدين والعقائد والمعارف الى غير ذلك من المؤهلات التى يجب ان يكون النبى متصفاً بها وقد استدل اصحاب هذه النظرية على مايتبنونه بوجوه عقلية ونقلية مذكورة فى كتبهم وعلى القارىء الكريم مراجعتها .

ولاجل ايضاح الحق نأتى بالبيان التالى :

ان رحلة النبى الاكرم احدثت فراغاً هائلا فى مختلف المجالات المادية والمعنوية ومقتضى لطفه سبحانه وعنايته بالعباد، ان يملأ هذا الفراغ بانسان يخلف النبى ولايقدر على ذلك الاالانسان المثالى الذى يكون له من الوعى والتربية والعلم والشجاعة مثل ماكان للنبى سوى كونه نبياً ذا شريعة ومتلقياً للوحى .

كان النبى ﷺ يقوم بمسؤوليات كثيرة تجمعها الامور التالية :

١ ـ ادارة امور الامة فى مختلف مجالاتها الحيوية: السياسية والاقتصادية والعسكرية والقضائية وغيرها مما تجمعها ادارة الحكومة .

٢ ـ تفسير الكتاب العزيز وتوضيح مقاصده وبيان اهدافه وكشف اسراره.

٣ ـ الاجابة على الاسئلة الشرعية التى لها مساس بعمل المسلم فى حياته من حيث الحلال والحرام .

٤ - الرد على الشبهات والتشكيكات التى يلقيها اعداء الاسلام ويوجهونها ضده من يهود ومسيحيين وغيرهم فكان يرد عليها تارة بلسان الوحى المقدس واخرى بلسان الحديث .

٥ - صيانة الدين الاسلامى عن اى فكرة تحريفية ، وعن اى دس فى التعاليم فلم يكن لاى دساس مقدرة على تحريف الدين اصولا وفروعاً .

٦ - يدفع بامته فى طريق الكمال والتقدم الروحى .

ولاشك ان النبى ﷺ كان يقوم بهذه المسؤوليات وكان فقدانه وغيابه عن الساحة، يلازم حدوث فراغ هائل فى حياة الامة لايسدّ الا بانسان يتمتع بتلك الكفاءات عدا النبوة وتلقى الوحى .

والفراغ الاول وان كان يملأ باختيار الامام من جانب الامة لكن الفراغ الباقى لايسدّ الا بانسان مثالى تربى فى وضع خاص من العناية الالهية ولما كانت هذه الامور النفسية والمؤهلات المعنوية التى يتمكن بها الانسان المثالى من ملأ الفراغ، لايمكن الوقوف عليها ومعرفتها الا بتعريف من الله تعالى وتعيين منه فلاجل ذلك صار الاصل عند اصحاب هذه النظرية فى مسألة الامامة هو التنصيب والتعيين من جانبه سبحانه .

ولما كان القيام بهذه المسؤوليات متوقفاً على كون الانسان المثالى مصوناً من الزلل ومعصوماً عن الخطل، كان الاصل فى الامام هو العصمة من الذنب .

ان الاجابة على الاسئلة الشرعية على وجه الحق وتفسير القرآن على النهج الصحيح وتفنيد الشبهات على وجه يطابق الواقع وصيانة الدين عن اى تحريف لايحصل الا بمن يعتصم بحبل العصمة ويكون قوله وفعله مميزين للحق والباطل.

نعم ان الانسان الجليل ربما يملأ هذا الفراغ ولكن لا بصورة تامة جداً و لاجل ذلك نرى ان الامة افترقت فى الاصول والفروع الى فرق كثيرة يصعب تحديدها وتعدادها .

فلاجل هذه الامور لامحيص عن وجود انسان كامل عارف بالشريعة: اصولها

وفروعها عالم بالقرآن واقف على الشبهات و كيفية الاجابة عنها قائم على الصراط السوى ليرجع اليه من تقدم على الصراط ومن تأخر عنه.

وهذا يقتضى كون الامام منصوباً من جانبه سبحانه معصوماً بعصمته وهذه خلاصة هذه النظرية وادلتها التى تتمسك بها.

ثم ان اصحاب هذه النظرية استدلوا بآيات على لزوم كون الامام معصوماً من الذنب. ونحن نقتصر الان على آيتين:

اولا هما: آية الابتلاء. والثانية: آية التطهير. والاية الاولى ترتكز على عصمة الامام عن الذنب على وجه الاطلاق والاية الثانية تختص بجماعة خاصة.

الاية الاولى: قوله سبحانه: «واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال انى جاعلك للناس اماماً قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين» (البقرة-١٢٤).

و كيفية الاستدلال بهذه الاية على عصمة الامام يتوقف على البحث عن عدة نقاط ترتبط بها:

١ ـ ما هو الهدف من الابتلاء؟

٢ ـ ما المراد من الكلمات؟

٣ ـ ما المراد من الاتمام؟

٤ ـ ما المراد من الامام؟

٥ ـ كيف تكون الامامة عهداً الهياً؟

٦ ـ ما المراد من الظالمين؟

٧ ـ ماهى دلالة الاية على نزاهة الامام من الذنب؟

واليك بيان كل واحدة من هذه النقاط على وجه الاختصار.

* * *

١ ـ ماهو الهدف من الابتلاء

هاهنا سؤال يفرض نفسه وهو ان الهدف من الامتحان هو الاطلاع على احوال الممتحن، والله سبحانه مطلع على احوال العباد ، عارف بشؤونهم الخاصة والعامة ، فما هوالهدف من وضعهم فى ظروف شاقة من البلاء والامتحان ؟

والاجابة عن هذا السؤال تحصل بكل من الامور التالية :

١ـ ان الهدف من الامتحان من غيره سبحانه، الاطلاع على سرائر الاخرين، واما بالنسبة اليه سبحانه وتعالى فالهدف هواتمام الحجة على العبد قال سبحانه : «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة» (الانفال ـ ٤٢) ولنعم ما قال الشاعر البغدادى :

وليحيا الجيل عن بينة وليهلكن عليها من هلك

وعند الامتحان بالتكاليف والوظائف ينقسم العباد الى قسمين :

طائفة تقوم بما القى على عاتقها من التكاليف . و اخرى تخفق فى مجال التكليف . فالحياة للطائفة الاولى عن حجة . والهلاك للطائفة الثانية عن حجة ايضاً قال سبحانه : «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» (النساء ـ ١٦٥) وقال سبحانه ايضاً: «قل فلله الحجة البالغة» (الانعام ـ ١٤٩)

فالله سبحانه يعلم القائم بالوظائف من القاعد عنها ولكنه لوجازاهم بهذا العلم ، ربما يعترض عليه القاعد بانه لو كلفه فى الدنيا لقام بالوظائف فلماذا اثابه دونه . فلاجل محو هذا الاعتراض من الاساس ، جعلهم فى بوتقة الامتحان حتى تكون له الحجة البالغة على القاعد .

٢ ـ ان الهدف من الاختبارهو تمحيص المؤمن من الكافر، وتمييز الخبيث من الطيب فى المجتمع الاسلامى ، فان لهذا التمحيص شأنا من الشؤون واثراً من الاثار قال سبحانه : «وما كان الله ليذر المؤمنين على ماهم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب» (آل عمران ـ ١٧) وقال سبحانه «ليميز الله الخبيث من الطيب» ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم اولئك هم الخاسرون» (الانفال ـ ٣٧) وبما ان المنافق يتظاهر بالايمان ، والعدو بالصداقة فلابد من اجراء الامتحان والابتلاء حتى يتميزا فاذا امر الله سبحانه ببذل النفس والنفيس فى سبيل الله فيتقدم المؤمن حسب ايمانه ويتثاقل المنافق وعند ئذ يتمايز الصنفان .

٣ ـ ان الهدف من الامتحان، ابراز الطاقات الكامنة فى الانسان واخراجها من مكامنها فكل انسان خلق وله قابليات خاصة كامنة فى ذاته ، غيران ظهورها وخروجها من القوة الى الفعل ، يحتاج الى وقوع الانسان فى خضم الامتحان و الاختيار حتى تنبثق تلك القابليات من مكامنها ، وترى نور الوجود فكما ان البذرة لاتتفتح ولاتصير نباتا ولا شجرة الابعد ابتلاء وتاثير من الهواء والشمس والارض حتى تكون شجراً فهكذا الانسان لاتتفتح طاقاته الكامنة الا اذا وضع فى ظروف خاصة توجب تفتح القوة وظهورها الى مرحلة الكمال.

فالتكاليف الشاقة الملازمة للشدة والضغط، توجب ظهور الثمار وابراز الطاقة

ولندرس حياة الخليل عليه السلام حتى نقف على حقيقة هذا الجواب :

كان الخليل عليه السلام قبل الابتلاء انساناً ذاطاقة و كمال دفين فى شخصيته غيران تلك الطاقة التى نعبر عنها «بانه كان قابلالان يكون انساناً مثالياً ملكوتياً يترك كل شيء من اجل خالقه تعالى» كانت مستورة فى وجوده، دفينة فى اغوار شخصيته فاراد سبحانه اظهارها فجعلها فى مجال الامتحان وبوتقة الاختبار فتفتحت وصارت كمالا بالفعل .

وقد اشار الامام على عليه السلام الى هذا الجواب بقوله: «ولايقولن احدكم اللهم انى اعوذبك من الفتنة لانه ليس احد الاوهو مشتمل على فتنة ، ولكن من

استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن فان الله سبحانه يقول : «واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة» .

وهذا التعبير من الامام يشير الى ان الامتحان سنة ثابتة من الله سبحانه وتعالى في عباده ليس عنها محيص . و يشير بعد ذلك الى فلسفة تلك السنة بقوله (ع) «ومعنى ذلك انه يختبرهم بالاموال والاولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه وان كان سبحانه اعلم بهم من انفسهم ولكن لتظهر الافعال التي بها يستحق الثواب والعقاب لان بعضهم يحب الذكور ويكره الاناث وبعضهم يحب المال ويكره انثلام الحال . (١)

انه سبحانه جعل الخليل على محك الاختبار فامره بمكافحة عبدة الاصنام و كسر آلهتهم المزعومة الى حد يستعدبه للبلاء في طريق طاعته، وان كان بالقتل والحرق ، كما امره سبحانه باسكان اهله بارض غير ذي زرع كما امره ببناء بيته وتطهيره وذبح ولده بيده و. . . فهذه الوظائف الشاقة المرة في ظاهرها ، الحلوة في باطنها ، جعلت الخليل بفضل بطولاته العجيبة في مجال الامتحان انساناً الهياً لايعرف في مسيرة حياته غير الله ولايهمه غير امره ، وهذا منتهى الكمال الممكن للانسان المثالي ، فكم فرق بين انسان نسي ميوله الحيوانية وغرائزه عند ما تعارضت مع مراد مولاه وغاية مناه وهو الله ، وبين انسان غارق في الشهوات و خائض في لجج الغرائز ، اسّره الهوى فصار عبداً للشيطان «ارأيت من اتخذ الهه هواه». (الفرقان - ٤٣)

فالاختبار يجلي تلك الطاقات الكامنة في الصنفين المتقابلين في الناس ، ويعمل في النفوس المستعدة عمل الحرارة من تمييز الذهب عن خليطه .

هذا مجمل القول حول فلسفة الامتحان والتفصيل موكول الى البحث عن الايات الواردة حوله .

---

(١) نهج البلاغة قسم الحكم رقم ٩٣

٢ ـ ماهو المراد من الكلمات .

الكلمات جمع «كلمة» والمراد منها هوالمفرد من الالفاظ وربما يطلق على الجملة فيقال: «لااله الاالله» كلمة الاخلاص ، غيران القرآن يتوسع بعناية خاصة فى استعمال الكلمة فيطلقها على الاشياء والافعال الخارجية قال سبحانه : «بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم» (آل عمران ـ ٤٥) وقال سبحانه : «قل لوكان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى» (الكهف ـ ١٠٩) وكما انه يستعملها فى الاعيان الخارجية ، يستعملها ايضا فى الافعال التى يقوم بها الانسان الممتحن وقداختلف المفسرون فى تعيين تلك الافعال التى اختبر الخليل بها فنأتى بارائهم اجمالا :

١ ـ المراد من الكلمات هى الامامة وتطهير البيت ورفع القواعدو الدعاء لبعث محمد ، فان هذه الامور شاقة اما الامامة فلان المراد منها هوالنبوة وهذا التكليف يتضمن مشاقا عظيمة واما بناء البيت وتطهيره ورفع قواعده فمن وقف على ما روى فيه من كيفية بنائه عرف شدة البلوى ثم انه يتضمن اقامة المناسك، وقد امتحن الله فيه الشيطان فى الموقف لرمى الجمار وغيره واما امتثاله بالدعاء فى ان يبعث الله محمداً ﷺ فى آخر الزمان فهذا مما يحتاج فيه الى اخلاص العمل لله وازالة الحسد عن القلب بالكلية (١) .

ولايخفى ان الرازى ومن قال بهذا القول قد خلطوا الحق بالباطل اما الحق فلان عد تطهير البيت ورفع قواعده من الامور التى اختبر الله الخليل بها حق لامرية فيه وسيوافيك بيانه واما الباطل فهو امران :

الاول: عد الامامة من جملة ما اختبر بها ابراهيم عليه السلام فلان الظاهر من الاية انه سبحانه شرف ابراهيم بمقام الامامة بعد امرين :

---

(١) مفاتيح الغيب للرازى ج١ ص ٤٩٠ ط مصر

١ - الابتلاء بالكلمات .

٢ - اتمامه اياها .

فعند ذلك نصبه سبحانه فى مقام الامامة ونتيجة ذلك مغايرة الكلمات مع الامامة الموهوبة له، ولو كانت الامامة من جملة ما ابتلى به ابراهيم لوجب تقديمها على قوله : «فاتمهن» وناسب ان يقول : «واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات قال انى جاعلك للناس اماماً فاتمهن» .

والعجب ان الرازى جعل تطهير البيت ورفع قواعده من جملة الكلمات التى ابتلى بها ابراهيم، ولم يجعل قيامه بذبح الولد واستعداده لذلك من جملة تلك الكلمات مع انه سبحانه يعرّف ذاك العمل بانه بلاء مبين ويقول : «ان هذا لهو البلاء المبين» . (الصافات - ١٠٦)

وانما فعل الرازى ذلك لانه قصر نظره فى الايات الواردة بعد هذه الاية فقد ورد فيها الامر بالتطهير ورفع القواعد وطلب بعث النبى ﷺ فزعم الكل تفسيراً « للكلمات » مع انه ليست فى بيان تلك الامور أية قرينة على كون هذه الامور تفسيراً لها وانما وقفنا على كون بعض ما جاء فيها من الكلمات، من القرائن الخارجية .

والظاهر المتبادر، ان تنصيبه فى مقام الامامة كان جزاء منه سبحانه لاتمامه الكلمات ونجاحه فى الامتحان . فلو كانت الامامة من جمله تلك الامور لاصبح الكلام غير تام وصار السامع فى نظائر المقام ينتظر حين يسمع ، المثوبة التى نالها ابراهيم لاجل النجاح فى معترك الامتحان ولايتم ذلك الا باخراج الامامة عن جملة تلك الامور ، وجعلها جزاءاً لاتمامه الكلمات لامن الامور التى اختبر بها .

واما ما ايد به الرازى نظره وقال : ثم ان الذى يدل على ان المراد ذلك انه عقبه بذكره من غير فصل بحرف من حروف العطف فلم يقل : «فقال انى جاعلك

للناس اماماً» بل قال : «قال انى جاعلك للناس اماماً» فدل على ان الابتلاء الوارد فى الاية كان عبارة عن هذه الامور المذكورة .

ففيه أن «اذ» فى قوله سبحانه «واذ ابتلى» ظرفية زمانية وليس مظروفه سوى قوله «قال انى جاعلك» ومفاد الاية هكذا: فى الظرف الذى ابتلى ابراهيم بكلمات واتمها ، قيل له انه منصوب للامامة . وعلى هذا لاحاجة للاتيان بحرف العاطف «فاء» كانت اوغيرها .

وبعبارة اخرى : يريد سبحانه ان يقول : فى هذا الظرف الكذائى الذى ابتلاه الله بكلمات وهو اتمها ، قال له سبحانه: «انى جاعلك للناس اماماً» وفى مثل المورد يكون العاطف مخلا ولعل الرازى توهم ان اذ الظرفية متضمنة لمعنى الشرط و هو غير صحيح وليس هذا اول قارورة كسرت بالرازى فله فى تفسيره شطحات كثيرة يقف عليها السابر فيه خصوصا فيما يرجع الى العلوم العربية وتفسير كلمات القرآن و مفرداتها ولاجل ذلك قال ابو الوليد ابن الشحنة الحنفى الحلبى فى روض المناظرة فى حوادث سنة ٦٠٦ : ان الرازى له اليد الطولى فى العلوم خلا العربية (١) .

الثانى : انه زعم ان اشتغال الخليل بالدعاء فى حق النبى ﷺ دليل على اخلاصه وزوال الحسد من قلبه ، وفيه : انه لاشك فى اخلاصه وطهارته من كل رذيلة خلقية ، لكن جعل هذا دليلا عليه اشبه شيىء بجعل الصباح دليلا على وجود ضوء الشمس. فان العامة من الناس يقومون بذلك فضلاعن الاكارم .فكيف بالانبياء ؟ ولايستدل احد بهذا العمل على اخلاص الداعى وطهارته من الحسد خصوصاً اذا كان المدعوله يجىء بعده بقرون وبالاخص اذا كان من اولاده واحفاده .

ولعمر القارى انه لووقف عربى صميم ، خال ذهنه عن المناقشات الكلامية على هذه الاية، لقضى بانه كان هناك ابتلاء من الله بالنسبة الى نبيه ابرهيم بعدة

(١) الغدير ج١ ص٣٥٧ ط بيروت

أمور وان ابراهيم اتمهن فجزاه الله سبحانه بتشريفه بمقام الامامة . وامّا ما هو المراد من الكلمات فهومن الامورالتي يجب ان تطلب من التفحص حول ماورد في حقه (عليه السلام) من الايات ولايخطر بباله ان الامامة من جملة ما ابتلى به ابراهيم .

٢ـ المراد من الكلمات: الخصال العشر التي تسمى خصال الفطرة وهي قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الراس ، وتقليم الاظفار ، و حلق العانة ، والختان ، ونتف الابط ، والاستنجاء بالماء .

وهذا الراى لايقصرعن سابقه فان القيام بهذه الامورليس امراً شاقاً حتى يبتلى الله بها انبياءه ورسله بل يقوم بها كل انسان بسهولة .

٣ـالمراد من الكلمات هو الخصال الثلاثون التي لم يبتل احدبها قبله فاقامها الخليل عليه السلام كلها فاتمهن فكتب له البراءة فقال تعالى : (وابراهيم الذى وفى) وهي :

عشرة في سورة براءة : «التائبون العابدون الحامدون . . .» (التوبه ـ١١٢) وعشرة فـي الاحزاب : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . . . » (الاحزاب ـ ٣٥) وعشرة في سورة المؤمنون : «الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون » (المؤمنون ٢ـ٩) وعشرة في سورة المعارج : « الذين هم على صلاتهم دائمون . . . » الى قوله تعالى « والذين هم على صلاتهم يحافظون » . (المعارج ٢٣ـ٣٤)

ولايخفى ان هذا اشبه شيىء بالتفسيربالرأى وانما هومجرد استحسان ولم يدل دليل على كون المراد من الكلمات هذه الخصال الواردة في الايات المباركة على ان الخصال ازيد من ثلاثين فلاحظ .

٤ ـ المراد هو التكاليف الشاقة الملقاة على عاتق الخليل منذ شبابه الى اخريات أيامه، يظهر ذلك بالرجوع الى الايات التالية الحاكية عن حياته ، من شبابه الى شيخوخته: «وان من شيعته لابراهيم. اذجاء ربه بقلب سليم.اذقال لابيه

وقومه ماذا تعبدون . أئفكاً آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم . فقال انى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ الى آلهتهم فقال الاتا كلون . مالكم لاتنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين . فاقبلوا اليه يزفون . قال اتعبدون ماتنحتون . والله خلقكم وماتعملون . قالوا ابنوا له بنياناً فالقوه فى الجحيم . فارادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين . وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى اذبحك فانظر ماذاترى قال ياابت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاءالله من الصابرين. فلما اسلما وتلّه للجبين. وناديناه ان ياابراهيم قدصدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين . انهذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه فى الاخرين. سلام على ابراهيم. كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين. وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » . (الصافات ٨٣ ـ ١١٣)

وهذه الايات تصرح بان ابراهيم بطل التوحيد قد ابتلى منذ شبابه الى شيخوخته بامور .

١ ـ امره سبحانه بتحطيم الاصنام، فقام بهذا العمل الخطير بحماس ورباطة جأش، واستقبل رد فعل قومه وهوالالقاء فى النار، بصلابة وقوة عزيمة.

٢ ـ امره تعالى بترك الوطن والقاء الرحل فى دار الغربة لنشر الدعوة فجاءه الوحى بان يذهب باهله وولده الى واد غيرذى زرع . فاستقبل الامر ببشاشة وجه ونادى ربه بقوله : «رب انى اسكنت من ذريتى بواد غيرذى زرع عند بيتك المحرم» . . . (ابراهيم ـ ٣٧)

٣ ـ امره سبحانه بعمارة البيت ورفع قواعده وتطهيره . وجاء به النص فى قوله سبحانه : « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . . . واذيرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » (البقره ـ ١٢٥ ـ ١٢٧)

٤ - امره بذبح ولده فقام بامتثال الامر على صعوبته البالغة برحابة صدر وتسليم لامر الله بحيث حكى ذلك تعالى بقوله : «فلما اسلما وتله للجبين . . .» .

فالله سبحانه يصف القيام بالامر الاخير بقوله : «ان هذا لهو البلاء المبين» (الصافات - ١٠٦)

وهذا التوصيف (البلاء المبين) وان كان ناظراً الى قيام ابراهيم بمحاولة ذبح الولد ولكنه يشعر بان بقية الكلمات التى ابتلى بها ابراهيم كانت اعمالا تشابه ذلك من حيث المشقة وليست تلك الاعمال فى حياة ابراهيم الا ما تكفلت تلك الايات ببيانها .

فعند ذلك قامت الحجة على ان ابراهيم خالص من كل مزيج ، صفو من كل كدر، فاستحق الارتقاء الى منصب عال لم يرتق اليه احد من قبله وهو منصب الامامة .

٣ - المراد من الاتمام :

التمام فى مقابل النقص ومعنى الاتمام ابلاغ الشيىء ، الى حد الكمال يقول سبحانه : «واتممت عليكم نعمتى» والمراد من اتمام الكلمات هو القيام بها ناجحاً فى معترك الابتلاء وقد نقل سبحانه كيفية نجاح ابراهيم فى تلك المعركة تظهر بالرجوع الى الايات الواردة حول ابتلائه فى السور المختلفة . (١)

قال الزمخشرى فى الكشاف فى تفسير «فاتمهن» فقام بهن حق القيام واداهن احسن التأدية من غير تفريط وتوان . ويؤيد كون الفاعل هو ابراهيم قوله سبحانه : «أم لم ينبأ بما فى صحف موسى. وابراهيم الذى وفّى» (النجم ٣٦-٣٧) اى تمم واكمل ما ابتلى وامتحن به اوالاعم منه وما امر به (٢) .

---

(١) البقرة ١٢٧-١٢٨ . الانعام ٧٠- ٨٣ . الانبياء ٥٣- ٧١ . الحج ٢٦-٢٧ . وسورة ابراهيم ٣٧-٤٠ .

(٢) لاحظ الكشاف ج١ ص ٢٣٦ ومجمع البيان ج٥ ص١٨٠

وربما يحتمل كون الفاعل ، هوالضمير العائد الى الله سبحانه ، وعليه يكون مفاده توفيقه لماارادمنه حتى تصح نسبة اتمام الكلمات اليه سبحانه فالفاعل المباشر هو الخليل والله سبحانه هو الموفق وتصح نسبة الفعل الواحد الى المباشر والسبب جميعاً .

واماتفسير الاتمام ـ بناء على كون الضمير عائداً الى الله ـ «بانه اعطاه ماطلبه ولم ينقص منه شيئاً» (١) فكلام عارعن التحقيق، فان الضمير المتصل بالفعل يرجع الى الكلمات اعنى «هن» فى «اتمهن» وليست الكلمات شيئاً طلبها ابراهيم من الله بل الله سبحانه . طلبها منه كما سيوافيك ، وعلى ذلك لايصح تفسير اتمام الله» باعطاءه ماطلبه ابراهيم منه وانمايصح بتوفيقه اياه للقيام لماامر والنجاح فى ماابتلى

٣ ـ المراد من الامام :

هذا هو البحث المهم فى المقام الذى تضاربت فيه الاراء ونحن نرفع الستار عن وجه الحقيقة بالبحث عن امور : ثلاثة :

١ ـ ماهو معنى الامام لغة ؟

٢ ـ مفهوم الامام فى القرآن الكريم ؟

٣ ـ ماهو ملاك امامة الخليل فى هذه الاية وهذا هو المهم فى فهم الاية وقد اهمل فى كلمات المفسرين وسيوافيك ان البحث فى الامر الثانى لايغنى عن الثالث .

ألف ـ الامام فى اللغة .

قال ابن فارس : الامام كل من اقتدى به وقدم فى الامور، والنبى امام الائمة والخليفة امام الرعية والقرآن امام المسلمين.

وقال ابن منظور : الامام من أوتم به من رئيس وغيره وفى التنزيل «فقاتلوا

(١) لاحظ الكشاف ج١ ص ٢٣٦ ومجمع البيان ج٥ ص ١٨٠

ائمة الكفر» اى قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم . . . امام كل شيىء قيّمه والمصلح له والقرآن امام المسلمين .

وليست تلك النصوص من هذين العلمين مبيّنة للمعنى الاصلى للكلمة وانما تشير الى مصاديق المعنى الاصلى ، والنص اللغوى الصحيح الذى جاء يحدد معنى الكلمة مجردة عن انطباقه على مصاديقها هو ماذكره صاحب القاموس : الامام هو مايتعلمه الغلام كل يوم من رؤوس اقلام ، وما امتثل عليه من مثال ودليل ، وخشبة يسوى عليها البناء .

وهذه العبارة من صاحب القاموس توصلنا الى اصل المعنى اللغوى وهو ان الامام عبارة عن كل شيى يتخذه الانسان مثالا لعمله ودليلا لفعله ويطبق فعله وعمله على ذلك المثال وذلك الدليل فهذا هو المعنى الاصلى لتلك الكلمة فالنبى ﷺ امام، والقرآن امام، وخشبة النباء امام للبناء ، لاجل ان الانسان يطبق عمله على عمل وقول النبى ﷺ او القرآن، فكل شيىء اتخذ مثالا فى الحياة واسوة فى مقام التطبيق يكون اماما من غير فرق بين الاشياء المادية هذا كله فى توضيح مفهوم «الامام» من حيث اللغة واليك توضيحه فى القرآن .

ب - مفهوم الامام فى القرآن .

جاءت لفظة الامام فى الذكر الحكيم اثنتاعشرة مرة بين مفرد وجمع، مفردها سبع مرات، وجمعها خمس مرات.

وقد استعملت فى الجميع بمعنى واحد وهو الذى تعرفت عليه من صاحب القاموس وان كانت تطبيقاتها مختلفة ولاجل ذلك لايمكن عدها من معانى كلمة الامام .

واليك تلك الموارد .

١ - ترى انه سبحانه يصف التوراة بانها امام يقول سبحانه وتعالى : «ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة» . (هود - ١٧)

٢ ـ كما يصف الطريق الذى تمشى عليه القوافل اماما ويقول . «فانتقمنا منهم وانهما لبأ مام مبين» (الحجر ـ ٧٩) اى انتقمنا من قوم لوط واصحاب الايكة وان مساكنهم على الطريق الواضح .

٣ـ كماانه يصف قادةالكفروالانحراف بهويقول : «وجعلنا هم ائمة يدعون الى النار ويوم القيامة لاينصرون» (القصص ـ ٤٢) بل يصف كل قائد بالامامة بقوله : «يوم ندعو كل اناس بامامهم» . (الاسراء ـ ٧١)

فالمعنى فى الجميع واحد وهوالدليل الذى يهتدى به، والمثال الذى يمتثل به وان كانت التطبيقات مختلفة، فالتوراة امام لانها يقتدى بها، وطريق القوافل امام لان القوافل تتخذه دليلا وتمشى عليه ، وقادة الكفر بل جميع القادة ائمة لان المقتدين يتخذونهم مثالا فى الحياة ويمشون على آثارهم حتى ان الانبياء جميعهم ائمة بهذا المعنى فان عمل وقول النبى ﷺ وتقريره تتخذ مثالا و دليلا يسار على ضوئه .

وهذا ماقلناه من ان معنى الامام فى الذكر الحكيم لايختلف عن المعنى الذى نصت عليه الكتب اللغوية حتى الامام فى الاية المباركة فقد استعمل الامام فيه فى المعنى اللغوى لا غير وهو الدليل والمثال والاسوة والمقتدى غير ان مايجب التدبر فيه هوالوقوف على الملاك الذى جعل به الخليل عليه السلام اماما فهل هو لاحل كونه نبياً اورسولا اوخليلا او كونه مفترض الطاعة او غير ذلك من الملاكات المختلفة التى تصح كون الانسان اماماً .

ج ـ ما هو ملاك امامة الخليل فى الاية :

نرى ان المفسرين يفترضون للامام معانى مختلفة ثم يبحثون عن معناه فى هذه الاية ويذهبون يميناً وشمالا غير ان البحث بهذه الكيفية غير تام اصلا لانه ليس لذلك اللفظ الامعنى واحد كما بينا والذي يجب التركيز عليه هوالتعرض لملاك الامامة ومعيارها وانه بماذا جعل الخليل اماما فى زمانه دون لوط عليه السلام

مع ان الثانى كالاول كان نبياً بل كل نبى امام يتخذ قدوة - ومع ذلك - خص بكونه اماماً من بين انبياء عصره فلابد ان يكون هناك ملاك يختص به الخليل وعلى الجملة نحن لانشك ان للكلمة فى جميع مواردا استعمالها معنى واحداً سواء أوقع وصفاً للكتاب او الطريق او الانسان ولكن الذى كان من واجب المفسرين هو تعيين ملاك الامامة فى كل مورد من موارد استعمالها حتى الاية التى نبحث عنها غير انهم اهملوا تلك الناحية الحساسة فى البحث .

ولاجل ذلك نطرح ماذكره المفسرون على بساط البحث معبرين عنه بملاكات الامامة ومعاييرها .

١ - الملاك هو النبوة :

ذهب عدة من المفسرين - منهم الرازى فى مفاتيح الغيب - الى ان المراد من الامامة هنا هو النبوة وبعبارة صحيحة : ان ملاك امامة الخليل نبوته لانها تتضمن مشاقاً عظيمة (١) .

وقال الشيخ محمد عبده على ما فى تفسير المنار . الامامة هنا عبارة عن الرسالة وهى لاتنال بكسب الكاسب وليس فى الكلام دليل على ان الابتلاء كان قبل النبوة . (٢)

ولايخفى وهن هذا الرأى لان ابراهيم كان نبياً قبل الابتلاء بالكلمات وقبل تنصيبه اماماً فكيف يصح ان تفسر الامامة بالنبوة على مافى لفظ الرازى والرسالة على ما فى لفظ المنار ويتضح ذلك بالامور التالية .

١ - ان نزول الوحى على ابراهيم - كما تدل عليه الاية : «انى جاعلك للناس اماماً» - اوضح دليل على انه كان نبياً متلقياً للوحى قبل نزول هذه الاية وليس فى وسع احد ان يقول : «ان الخطاب اليه بقوله «انى جاعلك للناس اماماً» يدل على كونه

---

(١) مفاتيح الغيب ج١ ص٤٩٠

(٢) المنار ج١ ص٤٥٥

نبياً حينه ولايدل على كونه نبياً من قبل، وذلك لان اسلوب الوحى البدائى يختلف لوناً عن الوحى الاستمرارى فالمحاورة الموجودة فى هذه الاية تعرب عن انه كان مأنوساً بالوحى قبل نزولها، ولاجل ذلك لماتشرف بمقام الامامة اطال الكلام وطلبها لذريته وليس هذا اللون من الكلام يشبه الوحى الابتدائى ابداً فان الانسان فى بدء لقائه و كلامه مع شخص، لايتجاوز عن امور كلية ولايتجاوز الى اخص الخصوصيات وهى طلب المنزلة لنسله بل هذا يناسب كلام من كان مأنوساً بمخاطبه ومكلمه .

و يمكن لك ان تكشف الحقيقة بالخطاب النازل على موسى فى بداية الايحاء اليه بالنبوة قال سبحانه: «فلما اتاها نودى من شاطىء الوادى الايمن فى البقعة المبارکة من الشجرة ان ياموسى انى انا الله رب العالمين» (القصص ـ ٣٠)

ونظير ذلك ماخوطب به النبى محمد ﷺ فى بدء نزول الوحى قال سبحانه: «اقرأ باسم ربك الذى خلق (العلق ـ ١).

ومن هذا ينتج ان الخليل كان نبياً قبل القاء الخطاب بالرسالة عليه فيكون ملاك الامامة غير النبوة .

٢ ـ دلت الايات على ان ابراهيم كان نبياً ولم يرزق اىّ ولد لااسماعيل ولااسحاق .

اما الاول فانما بشر به بعد ماكان نبياً وقام بتحطيم الاصنام فى «بابل» وحكم عليه بالاحراق ولما نجّاه سبحانه ترك الموطن ذاهباً الى فلسطين فعند ذلك جاءت البشارة بانه يرزق غلاماً حليماً قال سبحانه «فراغ عليهم ضرباً باليمين. فاقبلوا اليه يزفون. قال اتعبدون ماتنحتون. والله خلقكم وماتعملون. قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم. فارادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين. وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين. رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى. قال يابنى انى ارى فى المنام انى اذبحك» . (الصافات ـ ٩١ ـ ١٠٢)

واما الثانى فقد بشر به ايضاً عند مانزلت عليه الملائكه ضيفا قال سبحانه

«ونبئهم عن ضيف ابراهيم. اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً. قال انا منكم وجلون. قالوا لاتوجل انا نبشرك بغلام عليم. قال ابشرتمونى على ان مسنى الكبر فبم تبشرون. قالوا بشرناك بالحق فلاتكن من القانطين» . (الحجر-٥١-٥٥) ونزول الملائكة الذين كانوا مرسلين الى قوم لوط ، عليه آية نبوته عند البشارة باسحاق .

هذا من جانب .

ومن جانب آخر ان ابراهيم يطلب من الله سبحانه ان يرزق ذريته الامامة كما رزقها اياه فطلبه لها دليل على انه كان عند افاضة الامامة عليه ووقت الدعاء لذريته ، صاحب ذرية واولاد .

اذا عرفت هذين الامرين فنقول : يجب ان تكون الامامة الموهوبة (عند ماكان الخليل صاحب ذرية) غير النبوة والافيلزم ان تكون هبة المنصب الذى كان واجداً له قبل ذلك بكثير، اشبه بتحصيل الحاصل. والحاصل: ان الاية تدل على ان الامامة افيضت عليه عند ماكان ذا ولد بدليل طلبها لهم ، ودلت الايات الماضية على انه كان نبياً قبل ان يرزق اى ولد ، فينتج ان الامامة الموهوبة فى الازمنة المتأخرة عن بعثته بكثير، غير النبوة. غير ان بعض المفسرين لما وقف على ذلك الوجه وانه لايصح طلب شيىء للذرية الا لمن كان له بعضها صار بصدد دفعه بان ابراهيم يوم خوطب بقوله سبحانه «انى جاعلك للناس اماما . .» لم يكن ذا ذرية وانما طلبها لها لاجل التعرف من جواب الله سبحانه على انه هل يكون فى المستقبل ذا ذرية ام لا ؟ فوقف من جوابه سبحانه على انه لايموت عقيماً بل يكون ذاذرية

ولايخفى ان ماذكره غير صحيح لان الحكم على الذرية على وجه الايجاب يقتضى ان يكون الرجل رزق بعضها واما اذا لم يكن له اى ولد فلايستحسن فى العرف، الدعاء لهم بالامامة ولاجل ذلك ترى ان ابراهيم يستعمل لفظ الذرية فى اولاده المحققين ويقول : «ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم» (ابراهيم - ٣٧) ويقول ايضا : «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة» وقد طلب ذلك عند ماكان يرفع القواعد من البيت مع ولده اسماعيل .

نعم ان الانسان يصح ان يطلب من الله ذرية صالحة تكون قرة عين له كما امر به سبحانه بقوله : «والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماماً». (الفرقان ـ ٧٤) ولكن لايصح اذا اعطى شيئاً من جانب الله سبحانه، ان يطلبه فى الوقت نفسه لذريته مع انه لم يكن فى وقت الطلب ذا ذرية فان ذلك كلام خارج عن المتعارف واما كون الطلب لاجل الوقوف على انه هل يرزق فى المستقبل بعض الذرية ام لافهو كماترى .

قال العلامة الطباطبائى : «وكيف يسع من له ادنى تدريب بادب الكلام وخاصة مثل ابراهيم الخليل فى خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بمالاعلم له به . ولوكان ذلك لكان من الواجب أن يقول : ومن ذريتى ان رزقتنى ذرية او مايؤدى هذا المعنى (١) .

٢ ـ الملاك كونه اسوة فى المجالات الثلاث :

النبوة عبارة عن نزول الوحى على الانسان والرسالة ابلاغه وتحقيق النبوة فى مجالها ولكن ليس كل نبى اماماً بل الانبياء على قسمين : منهم ائمة ومنهم غير ائمة قال سبحانه : «وجعلنا منهم ائمة يهدون بامرنا لماصبروا وكانوا بايانتا يوقنون» (السجدة ـ ٢٤) والاية بحكم « من » التبعيضية تدل على انه سبحانه : لم يجعل كل الانبياء ائمة بل جعل البعض منهم ائمة . وعلى ذلك فيجب التفحص فى الايات الواردة حول الانبياء للتعرف على الائمة من بينهم ويستظهر ان المراد من يمكن ان يكون اسوة على الاطلاق فى جميع المجالات الثلاث : قولا وفعلا وتقريراً لافى مجال خاص كالاتيان بالواجبات وترك المحرمات دون مجال كترك الاولى .

توضيحه : ان الانبياء على قسمين قسم منهم يصح ان نجعل اقوالهم وافعالهم وتقريراتهم على وجه الاطلاق اسوة ودليلا فى مجالات الحياة وقسم منهم ليسوا

(١) الميزان ج١ ص ٢٧

كذلك لانهم اقترفوا ماكان الاولى والاليق بشأنهم تركه ولاجل ذلك لايصح ان يتخذوا ائمة على الاطلاق ونرى انه سبحانه ينقل عن عدة منهم اقتراف امور لاتصح ان تجعل دليلا فى الحياة واسوة للمؤمنين يقول سبحانه فى حق ابينا آدم : «ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجدله عزماً (طه - ١١٥) كما ذكر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام عندما وكز عدوه وقضى عليه : «هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين» (القصص - ١٥) وينقل عن نبيه يونس قوله : «وذاالنون اذذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لااله الاانت سبحانك انى كنت من الظالمين» . (الانبيا - ٨٧)

وهذه الاعمال الصادرة من هؤلاء الانبياء وان لم تكن معصية ونقضاً للحكم المبرم وكانت عبارة عن مايسمى بـ «ترك الاولى» فى المصطلح . وقد دللنا على ذلك عند البحث عن عصمة الانبياء غير ان هذه الافعال حالت بينهم وبين ان يكونوا ائمة على الاطلاق ويؤخذ بافعالهم على وجه الابرام . ولاجل ذلك لم يكونوا ائمة واسوة فى كل شيء وانما كانت الامامة ثابتة لطائفة اخرى من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين وهم الذين يصفهم سبحانه بقوله : « وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات ». (الانبياء - ٧٣)

فالهداية المطلقة والدعوة الواسعة والاسوة التامة خاصة لقسم من الانبياء وان كان كل نبى داعياً وهادياً الى الحلال والحرام. ويرشد الى ذلك ان الخليل انما وصل الى ذلك المقام، بعدما صار خليلا والخلة هى فراغ القلب عن غير الله سبحانه بحيث لايفعل صاحبها الا بما فيه رضى الله سبحانه وتعالى، واليك متن الحديث: ان الله تبارك وتعالى اتخذ ابراهيم عبداً قبل ان يتخذه نبياً، وان الله اتخذه نبياً قبل ان يتخذه رسولا، وان الله اتخذه رسولا قبل ان يتخذه خليلا، وان الله اتخذه خليلا قبل ان يتخذه اماماً فلما جمع له الاشياء قال : «انى جاعلك للناس اماماً» . (١)

فالامامة نتيجة الخلة وصيرورة النبى فارغاً من كل شيء سوى الله سبحانه

(١) الكافى ج١ باب طبقة الانبياء ص١٧٥

وعند ذلك يكون اماماً مطلقاً يستدل به واسوة يقتدى به فى المجالات الثلاثة : قولا وفعلا وتقريراً .

تحليل النظرية :

وفيه : اما اولافلان هذه النظرية مبنية على مااستظهره من قوله سبحانه: « وجعلنا منهم ائمة يهدون بامرنا » فاستظهر ان الانبياء على قسمين : امام وغيره بشهادة كلمة « من » لكن الاستظهار غفلة عن مرجع الضمير. فالضمير يرجع الى بنى اسرائيل لا الى الانبياء قال سبحانه « ولقدآتينا موسى الكتاب فلاتكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى اسرائيل وجعلنا منهم ائمة يهدون بامرنالما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» . (السجدة ـ ٢٣ ـ ٢٤)

ولاجل ذلك نرى انه سبحانه يصف ابراهيم ولوطاً واسحاق ويعقوب ائمة يهدون بامره قال سبحانه «ونجيناه ولوطاً الى الارض التى بار كنا فيها للعالمين ووهبناله اسحاق ويعقوب نافلة وكلاجعلنا صالحين وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا» (الانبياء ـ ٧١ ـ ٧٣)

وعلى هذا فجعل الانبياء على قسمين معتمداً على مااستظهرمن الاية غير تام وان كان اصل التقسيم صحيحا على ماسيبيّن .

وثانيا : فلما ذا لاتكون الامامة ذات مراتب ودرجات ومقولابا لتشكيك ويكون الكل باعتبار ان لهم نور الوحى والنبوة ، والعصمة والمصونية ، ائمة يقتدى بهم. وتخصيص الامامة بجماعة خاصة منهم بلغوا القمّة فى الطهارة والفضيلة يحتاج الى دليل خاص فان الانسان المثالى اذا بلغ مقام العصمة يصبح اسوة للناس ودليلا فى الحياة، واماماً فى القول والعمل فالتشدد والتزمت فى شرطية ترك الاولى فى الامامة ، غيرواضح .

نعم لوكان مااقترفوه من الاعمال، عصيانا صح القول بعدم كونهم ائمة واسوة على وجه الاطلاق واما اذا كان امراً مباحاً وجائزاً شرعاً وان كان الاولى تركه

فلاوجه لاخراج المقترفين منهم عن كونهم ائمة .

٣ ـ الملاك كونه معلم الهداية عبر العصور :

ان هذه النظرية تتلخص فى كلمة : وهى ان الامامة التى جاءت فى هذه الاية ، من خصائص الخليل عليه السلام ولاتعدوه الى اشخاص أخر لاختصاص ملاكها به من الانبياء وهو كونه بين الانبياء واقعاً فى قمة الهداية ومعلماً للاخرين وان الذين جاؤوا بعده ساروا على الطريق الذى اختطه . ويظهر ذلك من الآيات الواردة فى حقه قال سبحانه : «ما كان ابراهيم يهودياً ولانصرانياً بل كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين» (آل عمران ـ ٦٧). «ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين» .
(آل عمران ـ ٦٨)

فالاية الاولى تجل ابراهيم عن ان يكون يهودياً او نصرانياً وتصفه بانه كان حنيفاً مسلماً وما كان مشركاً وذلك لان اليهودية والنصرانية عدلتا عن جادة التوحيد وامتزجتا بالشرك مضافاً الى ان ابراهيم بعث قبل نزول الشريعتين.

والاية الثانية تخص الاصناف الثلاثة بانهم اولى بابراهيم فان الاول هم الذين اتبعوه فى عصره وما بعد عصره حتى ظهور النبى محمد ﷺ والصنف الثانى هو النبى محمد ﷺ والثالث الذين آمنوا بالنبى محمد ﷺ . فاولوية الصنف الاول به لاجل كونهم من امته والثانى والثالث لوجود الوحدة بين الخطين والتشابه بين المنهجين .

نرى فى بعض الايات ان الامر اعظم من ذلك حيث يامر سبحانه النبى الاكرم ﷺ باتباع طريقة ابراهيم و هى الطريقة الحنيفية واخص منها البراءة من الشرك والنزاهة من الوثنية حتى يعرف الخليل عليه السلام بانه ابو الاسلام والمسلمين وانه هو اول من وصف مشاة خط التوحيد بالمسلمين قال سبحانه : «ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين» (النحل ـ ١٢٣)

ويقول ايضا «وجاهدوا فى الله حق جهاده هواجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هوسماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على الناس» . (الحج ـ ٧٨)

وهذه الآيات وغيرها تعرب عـن امامة ابراهيم عبر العصور والادوار وانه بطريقته المثلى وشريعته الحنيفية ونزاهته من الوان الشرك فى العقيدة والعمل صار مثالا شاخصاً لجميع الانبياء والمرسلين، والشرائع السماوية من بدايتها الى نهايتها التى تمت بشريعة النبى الاعظم ﷺ وكأن الانبياء فى كل عصر يتبعون منهجه ويخطون خطواته ويمشون على الخط الذى مشى عليه ولاجل ذلك صار الخليل اماماً للناس و مثـالا للامم يتمثل به ويتخذ مناراً يقتدى به فى القول والعمل .

تحليل هذه النظرية :

لاشك ان ابراهيم يعد من القمم بين الانبياء وان له من الصفات الجليلة التى يذكرها القرآن ماليس لغيره الا ان تفسير ملاك الامامة على النحو الذى مر يوجب اختصاص الامامة به من بين جميع الانبيـاء والاولياء ولا تتعدى الى غيره لان الخصيصة التى نالها ابراهيم عليه السلام مـن جانب شريعته وطريقته حتى صار علماً ومناراً فى حقول الشرائع والنبوات امر يختص به ، فلو كان ملاك الامامة هو هذا ، يجب ان يكون هو الامام وحده دون غيره مع انه ـ ع ـ طلبها لذريته فاجيب بان عهده سبحانه «لاينال الظالمين» مشعراً بان غيرهم ينالونه. فلو كان ملاك الامامة كون الانسان مناراً بين الانبياء، وشريعته علماً بين الشرائع لاختصت الامامة به ، ولايناسب فى المقام سؤلها للاولاد بماذكر.

وحصيلة الجواب ان ماذكر من الفضيلة لبطل التوحيد امر لاينكر على ضوء الايات التى ذكرناها لكنها لاتكون ملاكاً للامامة بل يجب هناك شيىء آخر وراءها يكون ملاكاً حتى يصح طلبها لذريته وتصح الاجابة بنيل العدول منهم لها.

٤ - الملاك كونه مفترض الطاعة :

هذه النظرية تتلخص في ان الامام في الاية هو الحاكم السائد على المجتمع، والآخذ بيد الامة الى الكمال في الحياة الفردية والاجتماعية فيجب على الامة امتثال اوامره وتوجيهاته في الحقول السياسية والاجتماعية والقضائية والعسكرية وغير ذلك، ولانقف على مدى صحة هذه النظرية الابعد الوقوف على معنى النبي والرسول في القرآن الكريم حتى نعرف ان الامام يشتمل على معنى لايشتمل عليه اللفظان وعلى الاصح يشتمل منصب الامامة على شيء لايوجد في منصبي النبوة والرسالة فنقول :

النبي - سواء أجعل بمعنى المطلع على الغيب او بمعنى المنبيء عن الغيب - انسان مؤد عن الله بلاواسطة بشرية(١) وهذا الانسان باعتبار اتصاله بالملأ الاعلى و كونه متلقياً للوحي ومطلعاً عليه ومنبئاً عنه ، يسمى نبياً، واذا كلف بابلاغ ما أمر به وتجسيد ما أخبر به على صعيد الحياة فهو رسول . ففي اطار النبوة ليس الا، قضية الاطلاع على الغيب او قدرة الاخبار عنه الى الناس ولايتعدى عنها كما انه في اطار الرسالة ، مامور بالابلاغ والبيان ولايتعدى عن هذه الوظيفة و هذا هو الموضوع الهام الذي فرغنا عنه في الجزء الرابع من كتابنا : مفاهيم القرآن ولاحاجة للاعادة (٢) .

ولكن القول الذي نركّز عليه هو ان الرسول المأمور بالابلاغ ليس له في هذا المجال امر ولانهي ولا اكراه ولاسيطرة بل تتلخص وظيفته في التذكير و التبليغ قال سبحانه «فذكر انما انت مذكر. لست عليهم بمسيطر»(الغاشية-٢١-٢٢) ويقول سبحانه:«فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين»(المائدة-٩٢) ففي هذا المجال تتجلى وظيفة الرسالة في بيان الحلال والحرام والمشروع و

(١) الرسائل العشر ص١١ ، للشيخ الطوسي

(٢) لاحظ الجزء الرابع من هذا الموسوعة ص٣١٧-٣٦٩

الممنوع واراءة طرق الصلاح والفلاح، فلوصح فی تبیین الحقیقة التمثیل بشیء أدون من الممثّل فنقول : ان مثل الرسول فی توجیهاته الرسالیة اشبه بمستنبط الاحکام من الکتاب والسنة وابلاغها للناس فاذا امتثل الناس بمایقول فقدامتثلوا المشرع الاعظم واطاعوه، وان لم یقوموا باداء مایقول فقد خالفوا الشارع وعصوه وعلی هذا الضوء فالناس فی صلاتهم وصومهم وحجهم وزکاتهم مطیعون لله سبحانه فقط ولیس للرسول ای طاعة الابضرب من العنایة . کما ان للمفتی والمجتهد طاعة مثله فحین قال سبحانه: «وماارسلنا من رسول الالیطاع باذن الله»(النساء ـ ٦٤) فهو یرشد الی هذا النوع من الاطاعة. فالمطاع هوالله سبحانه حقیقة والنبی مطاع بضرب من العنایة اذا المفروض انه لیس للرسول ای تشریع وای تقنین ولاامر ونهی فلایکون له طاعة .

امامة الرسول:

هذا اذا قصرنا النظر علی مجالی النبوة والرسالة ولکنه سبحانه لما کساه ثوب الامامة بعدان ابتلاه ونصبه لمقام الامامة وصارعند ذلك حاکماً سائداً علی المجتمع، رائداً للامة، قائماً بارشادهم فی الحقول المختلفة سیاسیاً وعسکریاً...الخ.

فعند ذلك کان الرسول فی مقام التنفیذ ذا امر ونهی واخذ ورد وتعیین وعزل الی غیرذلك من الامورالتی یمارسها الرسول باعتبار کونه حاکماً وسائساً ومؤدیاً للامة وقائداً للمجتمع واماماً للمؤمنین .

ولاریب انه لیست لاحد ولایة علی احد وان الناس کاسنان المشط لیس لاحدهم حق حکم علی الاخر، بل الولایة المطلقة لله سبحانه وتعالی، فهوباعتبار کونه خالقاً للکون ومدبراً لمافیه، له حق الحکم والطاعة یقول سبحانه : «ان الحکم الالله امرأن لاتعبدوا الاایاه ذلك الدین القیم ولکن اکثر الناس لایعلمون» (یوسف ـ ٤٠)

وهذا ما یعبر عنه بالتوحید فی الحاکمیة والطاعة لایشارکه فیها غیره .

لكن مع الاعتراف بذلك لانعنى من عنوان انحصار الحاكمية (بالله) حصر الامرة بالله بان يتولى سبحانه الامرة على العباد . فالولاية و حق الحاكمية بالاصالة حق لله سبحانه ولكن الامرة لخيرة عباده يتصدون لها باذنه وان شئت قلت: ان المقصود من قوله سبحانه: «ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين» (الانعام - ٥٧) وقوله : « الا له الحكم وهو اسرع الحاسبين» (الانعام - ٦٢) و قوله سبحانه : « له الحمد فى الاولى والاخرة وله الحكم واليه ترجعون » . (القصص - ٧٠) . هو حصر الولاية وحق الحاكمية لا الامرة والتصدى لنظام البلاد ، اذ تستحيل مما رسة الحكم من الله تعالى بصورة مباشرة ولاجل ذلك نجد جمعا من الانبياء تولوا منصة الولاية باذن الله واخذوا بتدبير شؤون الحياة الاجتماعية للانسان ففى هذا الصدد يقوله سبحانه : « ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق» . (سورة ص - ٢٦)

فالرسول الذى يحظى بمقام تنفيذ الولاية الالهية فى المجالات المختلفة بين الناس، هو الامام المفترضة طاعته ولايحظى به الا ثلة من المصطفين الاخيار واليك الشواهد القرآنية التى تدل بوضوح على ان ملاك الامامة فى هذه الاية لامطلقا هو كونه مثالا فى القول والعمل وعلى الامة طاعته فى كل مايأمر وينهى ويبرم وينقض فهو اسوة فى الحياة وقدوة للجميع .

الشواهد القرآنية : على تفسير الامامة باقتراض الطاعة:

ان تفسير ملاك الامامة بافتراض الطاعة والقيادة الالهية الحكيمة شيىء تؤيده الايات التالية بل تثبته .

روى بعض المفسرين ان كعب بن الاشرف خرج فى سبعين راكباً من اليهود الى مكة بعد وقعة احد . ليحالفوا قريشاً ضد الرسول ﷺ فنزل كعب على ابى سفيان فاحسن مثواه ونزلت اليهود فى دور قريش فقالت قريش : انكم اهل كتاب ، ومحمد صاحب كتاب فلانأمن من ان يكون هذا مكراً منكم فان اردت

ان نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين و آمن بهما ففعل ذلك. ثم قال ابوسفيان لكعب انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن اميون لانعلم فاينا اهدى طريقاً و اقرب للحق نحن ام محمد؟. قال كعب: اعرضوا علىّ دينكم فلما عرض ابوسفيان عليه دينه. فقال كعب : انتم والله اهدى سبيلا مماعليه محمد. فانزل الله سبحانه الايات التالية .

« الم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت و الطاغوت و يقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا. ام لهم نصيب من الملك فاذاً لايؤتون الناس نقيراً . ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة و آتيناهم ملكاً عظيماً» :

(النساء ٥١ و٥٣ و ٥٤) (١)

توضيح الاستدلال : انه سبحانه رد على قولهم : هؤلاء (المشركون) اهدى من الذين آمنوا سبيلا . بوجوه ثلاثة .

الاول والثانى : يستفاد ان من قوله سبحانه : « ام لهم نصيب من الملك فاذا لايؤتون الناس نقيراً » فان « ام » بحكم كونها متصلة تدّل على وجود معطوف عليه محذوف . مثل :

١- « الهم علم فى كل ماحكموا به من حكم » ثم قال :

٢- ام لهم نصيب من الملك :

وعلى ذلك فعطف على ذلك المقدرقوله : ام لهم نصيب من الملك

ثم اجاب بجواب ثالث :

٣- ام يحسدون على ما آتاهم الله من فضله :

فيؤول معنى الاية وجوابه سبحانه عنهم الى شقوق ثلاثة .

---

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ٥٩ وغيره

الف- ألهم حق الحكم في كل شيء حتى بان المشركين اهدى من الذين آمنوا

ب - ام لهم نصيب من الملك الّذى انعم الله به على نبيّه ، ولو كان لهم نصيب من الملك لم يؤتوا الناس حتّى اقلّ القليل الذى لايعتد به لبخلهم وسوء سريرتهم وهذا يظهر من قوله سبحانه : « قل لو كنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذاً لامسكتم خشية الانفاق » . (الاسراء - ١٠٠)

ثم عاد سبحانه يبيّن اساس قضائهم وحكمهم يكون المشركين اهدي من الذين آمنوا وقال :

ج - « ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» .

فبين ان اساس حكمهم بكون المشرك اهدى من الموحد هو الحسد للموحد وهو النبى وبذلك تبين ان المراد من الناس المحسودين هو النبى ﷺ واطلاق لفظ « النّاس » عليه ، اما لاجل كونه في وحدته امة ، كما كان ابراهيم كذلك قال تعالى: «ان ابراهيم كان امة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين» (النحل-١٢٠) اولاجل الذين التفوا حوله .

ولاجل اياسهم وقطع رجائهم في زوال هذه النعمة و انقطاع هذا الفضل ، بين بان الله قد اعطى آل ابراهيم من فضله ما اعطى وآتاهم من رحمته ما آتى ليموتوا بغيظهم فلن ينفعهم الحسد له و قال : « فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب و الحكمة و آتيناهم ملكاً عظيماً » فأخبر عن حقيقة ثابتة غير زائلة تعلقت بها الارادة الحكيمة وهى: اتاهم الكتاب اولا، والحكمة ثانياً ، والملك العظيم ثالثاً، وهذا النبى من آل ابراهيم ايضاً قد اوتى مثل ما اوتى سائرهم من غير فرق بين اولاد اسماعيل و اسحاق فشملتهم العناية الالهية فاتاهم الامور الثلاثة فلن ينفعهم الحسد في زوال هذه النعمة .

والكتاب والحكمة و اضحان فالكتاب رمز الوحى والنبوة والحكمة هى السنة والكلم والجامع. وانما الكلام في «الملك العظيم» الذى اعطاه الله سبحانه المصطفين من آل ابراهيم من غير فرق بين ولد اسماعيل واخيه اسحاق .

فباقتران هذه الاية التى اخبر فيها سبحانه انه اعطى آل ابراهيم الملك العظيم بآية الابتلا ، التى استجاب فيها سبحانه ان يرزق المصطفين من ذرية ابراهيم الامامة ، يتبين ان الامامة الموهوبة لهم (التى دللنا انها غير النبوة والرسالة) هى نفس « الملك العظيم » الذى يدّل ظاهر الاية على انه غير النبوّة والرسالة لعطفه على الكتاب والحكمة اللذين يعدان رمز الوحى ونزوله والاتصاف بالنبوة

ولايصح حمل الملك العظيم على النبوة اوالرسالة للاستغناء عنهما بماتقدم من ايتاء الكتاب والحكمة كيف ونزول الكتاب والحكمة دليل على كون المنزول نبيا ينزل عليه الوحى بلاواسطة فلاحاجة لتكراره مجدداً قال سبحانه: «واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة» (البقرة ـ ٢٣١) فالايه تهيب ببنى اسرائيل ان يذكروا نعمة الله عليهم حيث بعث فيهم الانبياء والرسل. وقال سبحانه «وانزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم» . (النساء ـ ١١٣) الى غير ذلك من الايات التى وردت فيهما الكلمتان .

وان شئت قلت: ان الاية المباركة تدل على انه سبحانه اعطى منصب الامامة لال ابراهيم وبعض ذريته .

والآية الثانية تدل على انه سبحانه اعطى آل ابراهيم بعد الكتاب والحكمة، الملك العظيم فباقتران الايتين نخرج بهذه النتيجة : ان الامامة المعطاة لال ابراهيم هى الملك العظيم فيتحدان حقيقة ومصداقاً فاذا كان ملاك الامامة فى الذرية هو كونهم ذوى ملك عظيم فيصبح ملاكها فى نفس الخليل ايضا ذلك .

الملك العظيم فى القرآن :

ان القرآن الكريم يصنف ذرية ابراهيم الى قسمين: قسم اعطى النبوة والرسالة كايوب وزكريا ويحيى وعيسى . وقسم اعطى بعدهما الملك والحكومة . وتشير الى ذلك الايات التالية :

الف ـ يقول يوسف بعدما اعطى القوة والقدرة فى حكومته وصار اميناً مكيناً فيها «رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث» (يوسف ـ ١٠١) فجملة «تأويل الاحاديث» رمز لجزء من النبوة، والملك اشارة الى السلطة والقدرة التى نالها

ب - يقول سبحانه فى حق داود : «وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء» (البقرة - ٢٥١) ويقول ايضا«وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب» (سورة ص - ٢٠) ويحكى سبحانه عن سليمان انه قال : «وهب لى ملكا لاينبغى لاحد من بعدى انك انت الوهاب» (سورة ص-٣٥) فاستجاب الله دعاءه كما تحكى الاية التالية: «فسخرنا له الريح تجرى بامره رخاء حيث اصاب. والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين فى الاصفاد. هذا عطاؤنا فامنن اوامسك بغير حساب» . (سورة ص -٣٦-٣٩)

ففى هذه الشخصيات الالهية اجتمعت المناصب الثلاثة : النبوة والرسالة والامامة ولكن ربما تقتضى المصلحة فصل الحكم عن النبوة والرسالة فيكون المبعوث بالنبوة والرسالة، غير المبعوث للحكم ولاجل ذلك نرى انه سبحانه يعرّف طالوت ملكاً على لسان نبى زمانه قال سبحانه : «وقال نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم» . (البقرة - ٢٤٧)

ففى هذه الاية والايات التى تليها عدة نكات نشير اليها :

اولا - ان المصالح ربما تقتضى التفكيك بين المنصبين ولاجل امكانه مااعترض بنواسراتيل باستهجانه بل اعترضوا بانهم احق بالملك منه .

ثانياً - ان طالوت صار ملكا وحاكما ورئيساً للجيش بامر من الله سبحانه قال سبحانه : «ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً» .

ثالثا - ان وظيفة طالوت لم تتلخص فى قيادة الجيش بل قيادة الجيش كانت جزءاً منها ولاجل ذلك يقول سبحانه: «ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً» ويقول فى ذيلها «والله يؤتى ملكه من يشاء» .

رابعاً - ان الاية تشير الى ان اعظم المؤهلات فى القيادة الالهية هو استكمال القائد من حيث العلم والجسم فالانسان الجاهل بالشؤون الحكومية غير قادر عليها

كما ان الانسان الضعيف في القوى الجسمانية لايقدران يقوم بمشاق الامور ومصاعبها

خامساً ـ انه سبحانه عند مايعد نعمه على بني اسرائيل يذكر منها انه جعل فيهم انبياء وملوكاً قال : سبحانه «واذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكاً» (المائدة ـ ٢٠) فالآية تصرح بانهم كانوا ملوكاً غير أن نسبة الملوكية الى الجميع لاجل ان طائفة منهم صاروا ملوكاً بامر من الله سبحانه.

فحصيلة البحث ان الايات المقدمة باجمعها تعطى النتيجة التالية .

فمن جانب طلب ابراهيم لذريته العطية الالهية اعنى الامامة وقداستجاب دعوته في بعضهم .

ومن جانب آخر ان مجموعة من ذريته كيوسف وداود وسليمان حظوا مع النبوة والرسالة ، بمنصب الحكومة والقيادة .

ومن جانب ثالث: نرى انه سبحانه اعطى آل ابراهيم مع الكتاب والحكمة الملك العظيم .

فمن ضم هذه الامور بعضها الى بعض خرجنا بهذه النتيجة : ان ملاك الامامة في ذرية ابراهيم هو قيادتهم وحكمهم في المجتمع لاغير واما ملاكها في نفس ابراهيم فالايات وان كانت غير ناظرة اليها لكنها تفضى بوحدة الملاك في الوالد والاولاد وان ملاك امامة الخليل ايضاً هى حكمه وافتراض طاعته والالزم الفصل في ملاك الامامة بينه وبين ذريته وهو كماترى .

هذا ما وصلنا اليه من التدبر في الايات والله العالم بالحقائق .

الملك العظيم في الاحاديث الاسلامية :

هذا وقد تضافرت الروايات على ان المراد من قوله (ملكا عظيماً) هو كونهم مفترضى الطاعة. روى حمران بن اعين قال: قلت لابى عبدالله عليه السلام قول الله عزوجل: فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب قال : النبوة، قلت: الحكمة : قال : الفهم والقضاء . قلت : وآتيناهم ملكاً عظيماً فقال : الطاعة .

وروى بريد العجلى عن ابى جعفر عليه السلام فى تفسير الاية المباركة انه قال: الملك العظيم: ان جعل فيهم ائمة من اطاعهم اطاع الله ومن عصاهم عصى الله فهو الملك العظيم (١).

روى السيوطى وقال: اخرج الزبير بن بكار فى الموفقيات عن ابن عباس ان معاوية قال: يابنى هاشم انكم تريدون ان تستحقوا الخلافة كما استحققتم النبوة ولايجتمعان لاحد وتزعمون ان لكم ملكاً فقال له ابن عباس: اما قولك انا تستحق الخلافة بالنبوة فان لم نستحقها بالنبوة فبمن نستحقها؟ واما قولك ان النبوة والخلافة لايجتمعان لاحد فاين قول الله: «فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً» فالكتاب، النبوة، والحكمة، السنة، والملك، الخلافة نحن آل ابراهيم امر الله فينا وفيهم واحد والسنة لناولهم جارية. (٢)

وهذا البيان الضافى اوقفنا على معنى «ملكاً عظيماً» فى الاية المباركة.

وبضم هذه الاحاديث الى ما وصلنا اليه من التدبر فى الايات يتضح الحق باذنه سبحانه.

اسئلة واجوبتها:

١ - هل زعامة هؤلاء كانت بتشريع من الله؟

الجواب: الايات التى تلوناها عليك دلت بوضوح على ان نيل هؤلاء لمقام الملك والامامة كان بجعل منه سبحانه ويكفى فى ذلك قوله سبحانه: «انى جاعلك للناس اماماً» وقوله سبحانه: «ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً» وهناك آيات اخر فى هذا الصدد قد مرت عليك.

* * *

(١) الكافى ج١ باب ان الائمة (ع) ولاة الامر وهم الناس المحسودون ص٢٠٦

(٢) الدر المنثور ج٢ ص١٧٣-١٧٤

٢ ـ ماهى النسبة بين النبوة والامامة الواردة فى الاية ؟

ماهى النسبة بين النبى و الامام فهل هما متساويان فى الصدق . بمعنى ان كل نبى امام ، و كل امام نبى أم لا . ؟

الجواب : الايات التى تلوناها عليك تنفى الملازمة بينهما، فهذا هوالخليل عليه السلام قد قضى شطراً كبيراً من عمره و كان نبياً ولم يكن اماماً. وانما افيضت الامامة عليه بعد مابلغ من العمر عتياً وابتلاه سبحانه بامور كما بيناه .

وهذا هوطالوت بعثه الله سبحانه ملكاً على بنى اسرائيل وقد اخبر به بلسان نبيهم فصار اماماً مطاعاً وقائداً لهم ولم يكن نبياً .

وبذلك اتضح انه لاملازمة بين النبوة والامامة وانه لايلزم ان يكون كل نبى اماماً كما هوالحال فى الخليل ـ قبل ان يبلغ منصب الامامة ـ وسائر الانبياء الذين لم ينالوا منصب الامامة ، كما انه لايلزم ان يكون كل امام نبياً كما هو الحال فى طالوت . وقد تجتمعان فى بعض الفترات مثل اجتماعهما فى الخليل و يوسف وداود وسليمان والنبى الاعظم صلى الله عليه وآله (١).

وربما يستدل على تفكيك النبوة عن الامامة بقوله سبحانه : «وجعلنامنهم ائمة يهدون بامرنا لما صبروا و كانوا باياتنا يوقنون» . (السجدة ـ ٢٤)

«فان الاية ـ بحكم لفظة «من» التبعيضية ـ تصنف الانبياء الى صنفين بين كونهم ائمة وغيرائمة». لكن الاستدلال مبنى على ارجاع الضمير الى الانبياء ولكنه غير صحيح بل الضمير يعود الى «بنى اسرائيل» الوارد ذكرهم فى ذيل الاية السابقة عليها . قال سبحانه : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى اسرائيل . وجعلنا منهم ائمة» . . وقد مر ذلك فلاحظ (٢)

نعم عند ما يصف مجموعة من الانبياء بالامامة يقول : « وجعلنا هم ائمة

---

(١) وسيوافيك بيان امامة النبى الاعظم فتربص حتى حين

(٢) مر تفصيله عند البحث عن الملاك الثانى لامامة الخليل

يهدون بامرنا و اوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلوة وايتاء الزكوة و كانوا لنا عابدين » . (الانبياء - ٧٣)

وقد وافاك ان ملاك امامة هؤلاء ، كان نبوتهم لاغير.

نعم كان ملاك امامة غيرهم كالخليل وامثاله امراًوراء نبوتهم كما اسلفنا بيانه .

٣ - هل الامام لايحقق اهدافه الافى ضوء الشريعة :

ان محور السؤال فى مـا سبق هو التعرف على مدى الملازمة بين النبوة والامامة وانه هل كل نبى امام ، و كل امام نبى ام لا ؟ وقد عرفت عدمها. ولكن الهدف من هذا السؤال هوالتعرف على الاطارالذى يحقق الامام اهدافه فيه وهو الشريعة الالهية ، فهل هـو لايامر ولاينهى ولايبعث ولايزجر الا استلهاماً من الدساتير الكلية السماوية سواء أكان هو نفس صاحب الشريعة ام غيره ، او انه يتوسع فى حكمه وتدبيره ويعمل على صعيداوسع منها ؟

الحق الذى لايعتريه الشك هـو الاول لان الامامة و تدبير الامة ليست مقصودة بالذات وانما اتخذت اداة لاسعادالامة وارشادها الى قمّة الكمال ، ولا يحصل ذلك الابتطبيق الشريعة الالهية وتجسيدها فى المجتمع، لقصور كل المناهج البشرية عن القيام بذلك الهدف الاسمى .

و هذا ان دل على شىء ، فانما يدل على ان الامام لايحقق اهدافه الا فى ضوء الشريعة السماوية سواء انزلت عليه ام انزلت على غيره وسواء كان ذلك الغير حياً حاضراً ام ميتاً راحلا ، وعلى كل تقدير فسياسة الامة وتدبيرهـا وقيادتها ودفعها الى الكمال والتى تعد من الوظائف الاساسية للامام، لاتحصل الاان يكون امره ونهيه وفعله وتقريره انعكاساً عن الكليات والدساتير العامة النازلة منه سبحانه على نبى زمانه وصاحب شريعته .

وقد عرفت ان وظيفة النبى تلقى الوحى كما ان وظيفة الرسول هى ابلاغه

الى الناس ، ولكن تجسيد هذه الكليات وتحقيقها فى المجتمع من وظيفة الامام ولاجل ذلك يجب امـا ان يكون نبياً صاحب شريعة اويكون تابعاً لشريعة نبى اخر معاصرله اولنبى قبله والاول كالخليل والنبى الاعظم. والثانى : كطالوت بنى اسرائيل الذى بعثه الله سبحانه سائساً لهم وقائداً مطاعاً .

وبذلك يعلم ان القادة المعصومين كعلى واولاده الذين نصبوا ائمة للامة الاسلامية لايحققون اهدافهم ، ولايقومون بشؤون الامة وسياستها الا فـى ضوء الشريعة المحمدية النازلة على النبى الاكرم، فهم من تلك الجهة كداود وسليمان اللذين حققا اهداف الامامة فى ضوء الشريعة الموسوية سلام الله عليهم اجمعين .

٣ ـ الامامة رهن الابتلاء :

المتبادر من الاية الكريمة ان افاضة الامامة على الخليل كانت رهن ابتلائه واتمامه الكلمات على النحو المطلوب ، ونجاحه الباهر فى هذا المعترك. وبعبارة اخرى كانت هناك صلة ـ ولو بنحو المقتضى والمعد ـ بين النجاح فى الامتحان ، وجعله اماماً وان اتمامه الكلمات على النحو المطلوب صار ارضية مناسبة لمنح منصب الامامة له .

ولايشك فى هذا من اعطى حق النظر فى الاية بشرط تجرده عن اى فكر مسبق واما ما اختار صاحب المنار: من عدم وجود الصلة بين الابتلاء وافاضة الامامة فهو على خلاف المتبادر مـن الاية واليك كلامه قال : قال شيخنا : ولم يقل : « فقال انى جاعلك » للاشعار بان هذه الامامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لابسبب اتمـام الكلمات فان الامامة هنا عبارة عن الرسالة وهى لاتنال بكسب الكاسب وليس فى الكلام دليل على ان الابتلاء كان قبل النبوة ، واما فائدة الابتلاء فهى تعريف ابراهيم بنفسه وانه جدير بما اختصه الله به وتقوية له على القيام بما يوجه اليه . وقد تحققت امامته للناس بدعوته اياهم الى التوحيد الخاص ، وكانت الوثنية قدعمتهم واحاطت بهم ، فقام على عهده بالحنيفية وهى الايمان بتوحيد الله

والبراءة من الشرك واثبات الرسالة وتسلسل ذلك في ذريته فلم ينقطع منها دين التوحيد ولذلك وصف الله الاسلام بانه ملة ابراهيم . (١)

ولا يخفى ما فيه :

اما اولا : فلان الاية لما اخبرت عن اتمام الخليل. (٢) الكلمات التي ابتلى بها . صار المقام ان يسأل عن ماذا قال ربه حين اتم الكلمات او فعل به عنده ، فاجيب بقوله «قال اني جاعلك للناس اماماً» فعدم الاتيان بالفاء لاجل كونه جواباً عن سؤال مقدر يرد على الذهن عند الوقوف على قوله «واذا بتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن » وعلى ذلك فتكون الجملة استئنافية . واما جعله بياناً لقوله « واذا بتلى» وتفسيراً له فيراد بالكلمات ماذكره من الامامة وتطهير البيت» فقد عرفت بطلانه لان ملاك الامامة على هذا الفرض هي من الرسالة وقد كان الخليل رسولا قبل نزول الاية بكثير

وثانياً : ان ماذكره من ان الامامة في الاية عبارة عن الرسالة وهي لاتنال بكسب الكاسب وان كان صحيحاً (٣) الا ان الافاضات على حسب اللياقات ، والعطايا الالهية على حد الصلاحيات ، والمناصب المعنوية قيد مؤهلات وشروط ، بين ماهي خارجة عن حدود الاختيار غير قابلة للاكتساب ، وما هي داخلة فيها وقابلة له، فالرسالة لاتفاض على الانسان ارتجالا بلا سبق مؤهلات وقابليات ذاتية او مكتسبة. وليست المناصب الالهية غرضاً لكل هادف اورمية لكل نابل ، وانما يصل اليها الامثل فالامثل نعم : الله سبحانه «اعلم حيث يجعل رسالته» لكنه لايجعل رسالته

---

(١) المنار ج١ ص ٤٥٥

(٢) من غير فرق بين كون الضمير في انمهن راجعاً الى الخليل اوالى الله سبحانه : لما عرفت عند البحث عن «اتمام الكلمات» من ان الاتمام من جانب ابراهيم عبارة عن قيامه بها ، ومن جانبه سبحانه توفيقه لما امر به وطلب منه فهنا فعل واحد ينسب الى المباشر والسبب معاً فلو رجع الى ابراهيم لصح، لكونه الفاعل المباشر ولو رجع الى الله لكونه السبب الموفق .

(٣) لكنه صحيح لان تفسير الامامة بالرسالة غير صحيح كما شرحناه

الا فی النفوس والارواح الکاملة ، ذات الارضیات الصالحة الذین یضرب بهم المثل فی مجال الفضل و الفضیلة ، و یشار الیهم بالبنان بین الموصوفین بالمثل العلیا و والفضائل الکبری .

ثم ان کثیراً من هذه الصلاحیات وان کانت خارجة عن اطار الاکتساب لکن بعضاً منها قابل له فی ضوء المواهب الالهیة و کون الرسالة امراً غیر اکتسابی . لایلازم ان تکون جمیع الارضیات المصححة لافاضتها، امراً خارجا عن حدالاکتساب وبهذا تبین انه اذا کانت الرسالة رهن قیدوشروط فالامامة احری واحوج الیها من الرسالة ، لان وظیفة النبی والرسول تتلخص فی تلقی الوحی وابلاغ الرسالة ولکن وظیفة الامام هی تجسید البرامج الالهیة وتحقیقها فی المجتمع، وسوقه الی سعادة النشأتین وهی اصعب من وظیفة التبلیغ .

ان القیام بمسؤولیة القیادة اشد وطئاً من القیام بمسؤلیة التبلیغ والبیان ، وهی من اشکل الامور واصعبها ، فلا یقوم بها الاالانسان الصبور امام المصاعب والمشاکل، الواصل الی مقام الخلة الذی لایری فی نفسه وذاته سوی حبه سبحانه ورضاه .

نعم الابتلاء بالمشاکل ، و الامتحان بامور الصعبة احد العوامل البناءة للشخصیات الالهیة ، وهناك عوامل اخری لبناءها وصنعها ،قد بینت فی موضعها و لاجله لایجب ان یکون کل امام مبتلی بما ابتلی به ابراهیم ، و انما الواجب الاتصاف بالمواهب الذاتیة والفضائل الاکتسابیة وغیر ذلك من الامور المصححة لافاضة منصب سیاسة الامة وتدبیرامورها واسعادها فی الدارین .

وباختصار: ان الابتلاء لیس العامل الوحید لایجاد المؤهلات والصلاحیات بل هناك عامل اوعوامل تقوم مقام الابتلاء وتؤثر اثره ، ولاجل ذلك قدبلغ بعض الائمة المعصومین لدی الشیعة الی القمة من الکمال والصلاح من دون ان یتعرضوا للابتلاء وصاروا ذات شخصیة صلبة غیرمتزعزعة امام الاحداث والنوائب ، وان لم یقعوا فی معرض الامتحان وذلك لماعرفت من ان الابتلاء لیس عاملا وحیداً فی

تكوين الشخصيات العالية بل هناك عوامل اخرى مكشوفة وغير مكشوفة مؤثرة في ذلك المضمار.

اما المكشوفة: فمنها الوراثة و التربية والبيئة والائمة المعصومون تربوا في بيت رفيع عريق طاهر معروف بالصدق، والوفاء، والشجاعة والسماحة، والغيرة والامانة الى غير ذلك من حميد الاخلاق. وكان اجدادهم شرفاء، كرماء، ومن هذا المنطلق ورث النبي صلى الله عليه وآله ما في هذا البيت من الشرف والكمال فاذا كانت التربية عاملا مؤثراً بنّاءً في مجال تكوين الشخصيات، وموجبة لتفتح الكمالات المكنونة وازدهاركوا من النفوس، فقد تربوا في البيت النبوي تحت رعاية آبائهم المكرمين، فورثوا المكارم من اجدادهم واظهروا الكمالات برعاية آباءهم.

واذاكانت الوراثة والتربية والبيئة الصالحة من العوامل المكشوفة فهناك عوامل غير مكشوفة لبناء الشخصيات، تساهم تلك العوامل في عملية تكوين الشخصيات الاصيلة ولاجل ذلك نرى بروز نوابغ في بعض البيوتات من دون ان يكون هناك اثر من العوامل البناءة المعروفة وماذلك الا لان الانسان مااوتي من العلم الاقليلا ولايعلم من اسرار الحياة الاظاهرها وقليلها. (١) فهناك اسباب لتكون الشخصيات لم يعرفها الانسان ولم يقف عليها وهذه العوامل مكشوفها وغير مكشوفها تخلف الارضية الصالحة لافاضة منصب الامامة بل العصمة مضافاً الى عنايته سبحانه وحكمته البالغة فان الامة تحتاج الى معلم بارع وهادمصون من الزلل والخطأ، ومقتضى لطفه وعنايته تقدير الاسباب المنتهية الى تكوين شخصيات عالية صالحة لان يكونوا ائمة واسوة في الحياة وقدوة في القول والفعل.

٥ - هل حقق الخليل اهداف الامامة؟

وفي الختام يطرح هذا السؤال نفسه: اذا كان الهدف من تنصيب ابراهيم

---

(١) ايماء الى قوله سبحانه: «وما أوتيتم من العلم الاقليلا» (الاسراء - ٨٥) وقوله سبحانه: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا». (الروم-٧)

هوقيادة الامة وتنظيم امورهم فى الحياة فلسائل ان يسأل عن تحقق تلك الغاية فى حياة الخليل وعدمه. وانه هل ساعدته الظروف لقيامه بتلك الوظيفة الخطيرة ام لا؟.

الجواب: ان حياة الخليل كحياة سائر الانبياء محفوفة بالابهام، وماورد فى قصص الانبياء لايصح الركون اليه، لان اكثرها اسرائيليات او مسيحيات واما العهدان فقد لعب بهما الهوى وسرى اليهما التحريف فلايصح الاعتماد على محتوياتهما ولاجل ذلك لايمكن اظهار النظر حول السؤال على وجه بات.

والذى يمكن ان يقال: ان القيادة وافتراض الطاعة وتنظيم امور الامة بالامر والنهى ذات مراتب وهى تختلف حسب اختلاف الظروف والامكانيات، وحسب اختلاف الازمنة والحضارات، فالقيادة البارزة التى اتيحت للنبى اولمن قبله من الائمة كداود وسليمان لم تكن متاحة ولاممكنة فى زمن الخليل لماعرفت من اختلاف القيادة باختلاف امكانيات الظروف، وازدهار الحضارات.

ولكن القيادة باحدى مراتبها كانت متاحة ومتحققة له والا يلزم لغوية جعل المنصب ولولم يتسن له مثل ماتسنى لسائر الائمة فليس لقصور فى القائد وبرامجه بل لقصور فى الظروف والازمنة اولتقصير فى الامة والتابعين اوغير ذلك.

دلائل امامة النبى الاعظم (ص).

دلت الاية الكريمة على انه سبحانه جعل ابراهيم اماماً للناس وقد سأل الخليل ان يجعل من ذريته ائمة للناس، فاستجاب سبحانه دعوته وصرح بانها تنال غير الظالمين منهم، والنبى الاعظم افضل ذريته وامثلهم فطبع الحال يقتضى ان يكون مشمولا لدعاء جده ويكون اماماً كالخليل هذا من جانب.

ومن جانب آخر وقد استفاضت الايات والروايات على ان النبى الخاتم ﷺ كان له منصب الامامة وراء النبوة والرسالة، فهو بماانه كان يتلقى الوحى ويبلغه كان نبياً ورسولا، ولم تكن له فى هذا المجال اية طاعة وعصيان الابالعناية وبما انه كان قائداً وزعيماً للامة فى مختلف المجالات كان اماما مفترض

الطاعة. وهوفى هذاالمقام صاحب أمر وبعث ونهى، وزجر ونصب وعزل وقضاء وفصل وغزوة وسرية الى غيرذلك من الامورالراجعة الى ادارة المجتمع وسياستهواليك بيان مايثبت امامته بوضوح ومايدل على ذلك من الآيات.

١ - «النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم وازواجه امهاتهم واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين» (الاحزاب-٦) ومعنى «كون النبى اولى بهم من انفسهم» انه اولى بهم منهم ومعنى الاولوية رجحان جانب النبى اذا دار الامر بينه وبين غيره ويتحصل من ذلك ان مايرآه المؤمن لنفسه من الحفظ والكلاءة وانفاذ الارادة، فالنبى اولى بذلك من نفسه فلو دار الامر بين النبى وبين نفس المؤمن ومايرجع اليه، كان جانب النبى ارجح من جانب المؤمن نفسه ومايتعلق به فعلى ذلك يجب ان يكون النبى احب اليه من نفسه واكرم عنده منها ولودعته نفسه الى شيىء والنبى الى خلافه كان المتعين اجابة النبى ﷺ وطاعته وتقديم امر النبى على نفسه. وعلى ذلك فمقتضى الاطلاق - اطلاق الاولوية - ان النبى اولى بهم فيما يتعلق بالامور الدنيوية اوالدينية وهذا يمثل قمة الاطاعة له وذروة الامامة والقيادة فى جميع المجالات على احسن وجه.

نعم اذاامر النبى باخراج المؤمن عن نفسه ونفيسه فيجب عليه الخروج لان النبى لايأمر لغايات شخصية وانمايأمر لمصالح الاسلام والمسلمين ولايتصور ان الاية، تهدف الى جعله مستبداً بالحكم وتسلم زمام المجتمع بيد الفرد حتى يتصرف فيه بماشاء هواه وامرت به نفسه، حاشا النبى الاعظم المسدّد ان تكون سيادته على اساس التسلط الفردى والنفع الشخصى وانمايتبع الوحى فى حكمه وقضائه ويكون مصونا بتسديد من الله عن الخطاء والزلل قال سبحانه: «وماينطق عن الهوى ان هوالاوحى يوحى» (النجم - ٣ - ٤) وقال سبحانه: «ياايها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم. واعلموا ان فيكم رسول الله لويطيعكم فى كثير من الامر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم» (الحجرات-١-٧)

وقدكان بعض الصحابة يصر على اتباع الرسول لآرائهم، فرد الله عليهم بان

مقتضى الايمان ان لايتقدم المؤمن على الله سبحانه ورسوله ، ولوان الرسول اتبع آراءهم لكانت عاقبة ذلك العنت والهلاك

٢ ـ «وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذاقضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم» (الاحزاب ـ ٣٦) فقضاؤه ـ ص ـ قضاء منه بولايته وفى الوقت نفسه قضاء من الله سبحانه لانه الجاعل لولايته والمنفذ امره، وبما انه جعل الامر الواحد «قضى» متعلقاً لقضاء الله ورسوله معاً فهو يدل على ان المراد من القضاء التصرف فى شؤون الناس فى الامور الدنيوية والاخروية ، لاالقضاء بمعنى التشريع وجعل الاحكام لانه مختص بالله سبحانه (١) .

وبالجملة ليس لاحد من المؤمنين والمؤمنات اذاقضى الله ورسوله بالتصرف فى امر من امورهم ، اختيار غيرما اراد الله ورسوله بل عليهم ان يتبعوا قضاء الله ورسوله ، فالاية تمثل اعلى مرتبة من الحكم للنبى صلى الله عليه وآله ومن المعلوم ان جعل قضاء الرسول كقضاء الله تابع لملاكات صحيحة تتبع المصالح العامة فقط لاالمصالح الشخصية .

٣ ـ «وما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دولة بين الاغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب» (الحشر ـ ٧)

الآية تمثل مقام ولاية النبى فى تقسيم الفيء وانه يجب على المؤمنين اتباعه فى كيفيته ، ولايعترضوا عليه بشيىء هذا من غير فرق بين تفسير الايتاء فى «آتاكم» بمعنى الامر والبعث بقرينة قوله « ومانهاكم عنه فانتهوا » والمعنى ما امركم الرسول فخذوه بالاتباع والطاعة، اوتفسيره بمعنى الاعطاء اى ماأعطاكم الرسول من الفيء فخذوه وما نهاكم عنه ومنعكم فانتهوا ولا تطلبوه و ذلك لان موقف الاية اعطاء الضابطة فى كل ما آتاه الرسول فيجب اتباعه سواء أكان فى مجال

(١) راجع الجزء الاول من هذه الموسوعة بحث التوحيد فى التشريع والتقنين .

الفيء ام غيره بشهادة قوله في ذيل الاية «واتقوا الله ان الله شديد العقاب» و كون المورد هو الفيء لايوجب تخصيص الاية بها. والرجوع الى الايات السابقة لهذه الاية يفيد بان النبى ﷺ كان يمثل مقام الامامة والحكم، واليك الايات السابقة:

أ - «ماقطعتم من لينة اوتر كتموها قائمة على اصولها فباذن الله».

ب - «وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولاركاب».

ج - «ماافاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى».

د - «وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا».

فمجموع الايات من بدئها الى آخرها واردة فى مجال الحكم والقضاء وان الله فوض ادارة امور المسلمين الى نبيه وامرهم بالاخذ بما آتى والانتهاء عما نهى وبهذا المعنى صرحت الاحاديث المروية عن اهل البيت عليهم السلام فقال الامام جعفر الصادق عليه السلام فى تفسير الاية: ثم فوض اليه امر الدين يسوس عباده فقال «ما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا» ان الرسول كان مسدداً موفقاً مؤيداً بروح القدس ولايزل ولايخطأ فى شيىء مما يسوس به الخلق. (١)

و قال عليه السلام ايضا: ان الله عزوجل فوض الى نبيه امر خلقه لينظر كيف طاعتهم. ثم تلاهذه الاية. (٢)

والمراد من تفويض امر خلقه، امضاؤه تعالى مايأمر به وينهى عنه وافتراض طاعته وامضاء ولايته فى امر الناس.

نعم التفويض بمعنى سلبه تعالى ماائبته للنبى عن نفسه فمستحيل كما قرر فى محله.

٤ - ان هناك آيات كثيرة تتجاوز عشرين آية تفرض طاعة الرسول على الامة فيجب امعان النظر فيما هو المراد من هذه الفريضة فنقول:

الرسول بما هو رسول وبما هو واسطة لابلاغ كلامه سبحانه الى الناس ليس

(١) الكافى ج١ ص٢٦٦ باب التفويض الى رسول الله (ص) من كتاب الحجة.

(٢) نفس المصدر ج١ ص٢٦٦.

له امر ونهى حتى تفترض له الطاعة بل هو فى ذلك مبلغ لرسالات الله ومذكر بایاته وليست له سلطة وسيطرة قال سبحانه «انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر» (الغاشية ٢١ ـ ٢٢) غير ان الرسول اذا كان له مع الرسالة منصب الحكم وحق الامر والنهى فى تدبير المجتمع و تجسيد الشريعة يكون له حق الطاعة و على الامة فرض الاقتفاء. والايات التالية تشير الى ذلك النوع من الطاعة حيث يقول: سبحانه «اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم». (النساء ـ ٥٩)

فترى انه سبحانه يعطف طاعة الرسول على طاعته. لكن بتكرار الفعل مشيراً الى ان له طاعة خاصة و ان كانت فى طول طاعة الله و مشتقة منها. وقال سبحانه «ومن يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظاً» (النساء ـ ٨٠) يقول الامام امير المؤمنين عليه السلام فى تفسير الاية: فقرن طاعته بطاعته و معصيته بمعصيته و كان ذلك دليلا على ما فوض اليه وشاهداً على من اتبعه وعصاه، وبيّن ذلك فى غير موضع من الكتاب العظيم. (١)

فالرجوع الى الايات الواردة فيها طاعة الرسول يوقعك على جلاء الحال.

الامامة فى الاحاديث الاسلامية:

قدعرفت ان الامامة التى افيضت على الخليل كانت عبارة عن حكمه بين الناس وتدبيره امورهم وقد استظهرنا ذلك من سائر الايات الواردة فى هذا المضمار و الاحاديث الاسلامية تدعم ذلك المعنى بوضوح وتفسر الاية على النحو الذى فسرناه.

قال الامام امير المؤمنين عليه السلام: والامامة نظاماً للامة والطاعة تعظيماً للامامة. (٢)

---

(١) نور الثقلين ج١ ص ٤٣١

(٢) نهج البلاغة قسم الحكم رقم ٢٥٢. وقدجاء فى المطبوع. من نهج البلاغة بمصر بشرح الشيخ محمد عبده «الامانات» مكان الامامة. وهو اشتباه محض وقد تبعه صبحى الصالح فى الاشتباه.

وقال الامام الصادق عليه السلام: اتقوا الحكومة انما هي للامام العالم بالقضاء العادل في المسلمين (١).

وقال الامام الثامن علي الرضا عليه السلام: ان الامامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين. (٢)

وقال عليه السلام ايضاً: الامام يحلل حلال الله، و يحرم حرامه، و يقيم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة، الى ان قال: مضطلع بالامر، عالم بالسياسة، مستحق للرئاسة مفترض الطاعة قائم بامر الله ناصح لعباد الله. (٣)

فهذه العقود الدرية تعرب عن مفهوم الامامة لدى ائمة اهل البيت وهو مطابق لما استفدناه من الايه الكريمة.

هذه هي النظريات الاربع المذكورة حول ملاك أمامة الخليل الواردة في آية الابتلاء وبقيت هنا نظرية خامسة اختاره العلامه الطباطبائي نتبرك في خاتمة المطاف بذكرها وتحليلها وانما اخرنا ذكرها لان للنظرية الرابعة تأثيراً خاصاً في فهمها وتوضيحها ومايتوجه اليها من الاشكال، واليك بيانها.

الملاك الخامس: تسيير النفوس الى الكمال بهداية تكوينية:

ويتضح ببيان امور:

الاول: ان تفسير الامامة بالنبوة والخلافة او الوصاية او الرئاسة في امور الدين والدنيا، و كونه مطاعاً حدث من تكرر الاستعمال بمرور الزمان كما ابتليت به سائر الالفاظ الواقعة في القرآن، فان النبوة معناها تحمل النبأ من جانب الله.

---

(١) وسائل الشيعة ج١٨ كتاب القضاء الباب ٣ من ابواب صفات القاضي الحديث الثالث ص٧.

(٢) الكافي ج١ كتاب الحجة باب النادر ص٢٠٠.

(٣) تحف العقول ص ٤٣٦-٤٤١.

والرسالة معناها تحمل التبليغ . والاطاعة من لوازم النبوة والرسالة [فكيف تفسر الامامة بالاطاعة] والخلافة نحو من النيابة وكذلك الوصاية والرئاسة نحو من الطاعة للموصى والرئيس وهو كون الانسان مصدراً للحكم فى المجتمع، وكل هذه المعانى غير معنى الامامة ، اذ لا معنى لأن يقال لنبى من الانبياء مفترض الطاعة انى جاعلك للناس نبياً اومطاعاً فيما تبلغه اورئيساً تأمر وتنهى فى الدين اووصياً او خليفة فى الارض تقضى بين الناس فى مراجعاتهم بحكم الله .

وبعبارة اخرى: لايصح ان يقال لنبى من لوازم نبوته كونه مطاعاً بعد نبوته انى جاعلك مطاعاً فى الناس بعد ماجعلتك كذلك. ولايصح ان يقال له مايؤول اليه معناه وان اختلف معه فى العبارة فهذه المواهب ـ امثال الامامة الالهية ـ ليست مقصورة على مجرد المفاهيم اللفظية بل تصحبها المعارف الحقيقية.

الثانى : انا نجد فى كلامه تعالى انه كلما تعرض لمعنى الامامة تعرض معها للهداية تعرضا تفسيرياً قال تعالى « ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا » (الانبياء ٧٣) وقال سبحانه : « وجعلنا منهم (اى من بنى اسرائيل) ائمة يهدون بامرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» (السجدة ـ ٢٤) فوصفها بالهداية وصف تعريف ثم قيدها بالامر فبيّن ان الامامة ليست مطلق الهداية بل الهداية التى تقع بامر الله والتعرف على ان الامام هو الهادى « بامرالله » هو المهم فى فهم معنى الامامة .

الثالث : انه سبحانه بيّن سبب هبته الامامة بقوله : « لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » فبين ان الملاك فى ذلك هو صبرهم فى جنب الله وكونهم قبل ذلك موقنين : وقال سبحانه فى حق ابراهيم : وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين» (الانعام ـ ٧٥) فارائة الملكوت لابراهيم كانت مقدمة لافاضة اليقين عليه وقدعلمت ان كونهم موقنين احد اسباب امامتهم .

الرابع : ان «الامر» الذى يكون الامام به هادياً ليس بمعنى الاذن بل المراد هو الامر التكوينى الذى بينت حقيقته فى قوله : « انما امره اذا ارادشيئاً

ان يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيئ» (يس ٨٢-٨٣) .

وقال سبحانه : «وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر» (القمر- ٥٠) والمراد بكلمة (كن) ليس هو التلفظ بل وجود الشيء المعين بلا تدرج وتغيير كما هو اللائق لافعاله سبحانه كما انه مع التغير والانطباق على قوانين الحركة والزمان هو الخلق:

اذا عرفت ذلك نقول : ان شأن النبى و الرسول هو اراءة الطريق و شأن الامام هو الايصال الى المطلوب، لان الانسان الكامل الذى يهدى بامر ملكوتى(١) (لابامر لفظى) يصاحب ذلك الامر . فالامامة نحو ولاية للناس فى اعمالهم ، وهدايتها، ايصالها اياهم الى المطلوب بامر الله . (٢)

وقد اوضحه ايضا فى كتابه «الشيعة فى الاسلام» : بقوله :

كما ان الامام قائد ومسيّر وزعيم للامة بالنسبة للظاهر من الاعمال، كذلك هو قائد وزعيم بالنسبة للباطن من الاعمال ايضا فهو المسّير والقائد للانسانية من الناحية المعنوية نحو خالق الكون وموجده .

ان كل عمل من الاعمال الحسنة والسيئة تولد فى الانسان واقعية، والحياة الاخروية ترتبط بهذه الواقعيات ارتباطاً وثيقاً . والانسان يتصف بحياة باطنية غير الحياة الظاهرية التى يعيشها والتى تنبع من اعماله، وترتبط حياته الاخروية بهذه الاعمال والافعال التى يمارسها فى حياته هنا . قال سبحانه «من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة» . (النحل - ٩٧)

ان القرآن يدل على ان هناك حياة اسمى وروحا ارفع من هذه الحياة للصالحين والمؤمنين ويؤكد على ان نتائج الاعمال الباطنية تلازم الانسان دوماً ولكن الانسان ربما لايشعر بان الاعمال الحسنة او السيئة تكوّن فى الانسان حياة اخروية وواقعية باطنية وسعادة وشقاء ، ومع ذلك كله هى مؤثرة . والانسان فى

---

(١) يريد بالامر الملكوتى، الامر التكوينى الذى تعلقه بشيء نفس تحققه وتكونه واين هو من الامر اللفظى او الذهنى الذين ينفكان عن المراد والمأمور به ويتوقفان على مقدمات ومعدات

(٢) الميزان ج١ ص٢٧٤-٢٧٦ بتلخيص .

حياته يشبه الطفل حيث يملى عليه مربيه بالفاظ الامر والنهى فهما كافلان لتكوين حياة سعيدة له، هو يأتمر امره ولايشعر بما يرتب على طاعة امره ونهيه من النتائج لكنه كلما تقدم فى العمر استطاع ان يدرك ما قاله مربيه فينال بذلك الحياة السعيدة . وما ذلك الا بما اتصف به من ملكات . واذا مارفض وعصى معلمه الذى كان يسعى له بالصلاح ، تجد حياته مليئة بالمآسى والالام .

الانسان يشبه المريض الذى دأب على تطبيق اوامر الطبيب فى الدواء و الغذا اورياضة خاصة فهو لم يبال بشيء الا ما املاه عليه طبيبه فعندئذ يجد الراحة والصحة ويتحسن بتحسن صحته .

فاذن الانسان الذى يصبح قائداً للامة بامر من الله فهو قائد للحياة الظاهرية والمعنوية ومايتعلق بها من اعمال تسير مع سيره ونهجه .

فالامام فضلا عن الارشاد والهداية الظاهرية ، يختص بنوع من الهداية المعنوية فهو بواسطة الحقيقة والنور الباطنى الذى يتصف به ، يستطيع ان يؤثر فى القلوب المهيأة وان يتصرف بها كيف ماشاء ويسيرها نحو مراتب الكمال والغاية المتوخاة . (١)

هذا غاية توضيح لهذه النظرية حررناها بشكل يقف على مرادها كل من له ادنى المام بالعلوم العقلية .

تحليل هذه النظرية :

لاشك ان النفوس القوية تستطيع ان تؤثر فى القلوب المهيأة وتسيّرها نحو الكمال لكن البحث فى تفسير الامام الوارد فى الاية الكريمة بالمتصرف فى القلوب والهادى لها تكويناً ومسيرها نحو الكمال ، فانه لاشاهد لذاك التفسير .

اما اولا : فان قوله : «يهدون بامرنا» فى مقام الثناء عليهم بانهم لايصدرون فى امرهم ونهيهم الا عن اذنه تعالى فلاجل ذلك صاروا هداة واقعيين فمنطقهم صواب ، وفعلهم وتقريرهم حجة وكل مايمت اليهم هداية ، واين ذلك من كون

(١) الشيعة فى الاسلام للعلامة الطباطبائى ١٦٣-١٦٦

الجملة فى مقام بيان حقيقة الامامة وانها عبارة عن القدرة التكوينية التى يستطيع بها الانسان الكامل ان يؤثر فى النفوس المهيأة لسوقها نحو الكمال.

ويظهر ماذكرنا من رواية طلحة بن زيد عن ابى عبدالله الصادق عليه السلام حيث قال: «ان الامام فى كتاب الله عزوجل امامان: قال الله تبارك وتعالى «وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا» لابأمر الناس يقدمون امر الله قبل امرهم وحكم الله قبل حكمهم قال: «وجعلناهم ائمة يدعون الى النار» يقدمون امرهم قبل امر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون باهوائهم خلاف ما فى كتاب الله عزوجل. (١)

ويقول العلامة المجلسى (ره) حول الرواية: «اى ليست هدايتهم للناس وامامتهم بنصب الناس وامرهم بل هم منصوبون لذلك من قبل الله تعالى ومأمورون بامره. (٢)

وثانياً: ان تفسير الامامة بالقيادة العامة للامة هو كون المتلبس بها اسوة فى القول والعمل، ليس من المعانى المبتذلة كيف ويقول الامام امير المؤمنين عليه السلام: والامامة نظاماً للامة. (٣)

وثالثا: ماافاده من انه: «لامعنى ان يقال لنبى مفترض الطاعة «انى جاعلك للناس اماماً اومطاعاً» غير تام لما اوقفناك عليه من ان النبى بماهو نبى ليس له شأن الاالتنبؤ، كما ان الرسول ليس له شأن الاابلاغ الرسالات واما كونه مطاعاً بالنسبة الى الاوامر التى تصدر منه لاجل مصالح الامة فهو ليس من شؤون الرسالة وانما يكون من شؤون مقام آخر يتلبس به بعدهما ويحول اليه بعد الاختيار والابتلاء.

وقد اوقفناك على ان مثل النبى والرسول فيما يبلغ من امر الرسالة مثل المفتى والمستنبط للاحكام من الكتاب والسنة ليس له امر ولا نهى ولاطاعة

---

(١) الكافى ج١ ص٢١٦.

(٢) مرآة العقول ج١ ص١٦٥ - الطبعة القديمة الحجرية وفى اواخر الجزء الثانى من الطبعة الحديثة.

(٣) نهج البلاغة: قسم الحكم الرقم: ٢٥٢

ولامعصية ، بل له حق الابلاغ والاعلام لاالامر والبعث والزجر والمنع. كل ذلك يستوجب ان يكون له مقام آخر يناسب تلك الامور . وهومقام الامامة والقيادة والرئاسة وما اشبهها .

ففي المجال الاول يكون المطاع حقيقة هوالله ولو نسبت الطاعة الى الرسول فبالعناية وبهذا يفسر قوله : «وما ارسلنا من رسول الاليطاع باذن الله» (النساء ـ٦٤) والا فالرسول بما هورسول ومبلغ وواسطة بين الخالق والمخلوق لاامر له حتى يطاع ولانهى له حتى لايعصى ، فمن اطاعه فقد اطاع الله ومن عصاه فانما عصى الله ونسبة الاطاعة اليه في الاية المباركة بضرب من العناية والمقصود من اطاعته سماع قوله ، وتطبيق العمل على كلامه نظير مايقول الصديق للصديق «اطعت قولك» والمقصود ، جعل العمل مطابقا لكلامه .

وبذلك يعلم ان ماورد من الايات من الامر باطاعة الرسول في جنب اولى الامر ليس المراد من الرسول فيها الرسول بماهو رسول، بل بماله من مقام الاطاعة فيكون الرسول عنوانا مشيراً الى قيادته وامامته قال سبحانه «واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم» (النساء ـ ٥٩) «واطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا». (الانفال ـ ٤٦)

والحاصل : ان للرسول اطاعتين .

احداهما بضرب من العناية كما هو شأن كل واسطة بين الامر والمأمور ولاتعد هذه طاعة حقيقية وعلى هذا المعنى تنزل عدة من الايات الواردة فيها طاعة الرسول .

وثانيتهما : اطاعة حقيقية عندما خلع عليه سبحانه ثوب الامامة ولباس القيادة فيكون مطاعاً واقعاً وعلى كلا المعنيين يمكن تنزيل قوله سبحانه «ومن يطع الرسول فقد اطاع الله» . (النساء ـ ٨٠)

وعلى الجملة فما افاده (قدس الله اسراره) ـ فله حق عظيم علينا وعلى الامة الاسلامية ـ كلام غير تام والله العالم .

وعلى كل تقدير فبين ماافاده فى الميزان وما بيّنه فى الموضع الاخر فرق واضح ، لانه قدس سره فى الاول لايسلم كون القيادة الظاهرية من شؤون الامام بل يفسر الامام ، بالمتصرف فى القلوب ، الهادى على نحو الايصال الى المطلوب ولكنه يسلم فى كتاب «الشيعة فى الاسلام» كونها احد شؤونه كما هو لائح من عبائره، ولعله امتن وقدعرفت فيما سبق ان الوقوف على مفاد الاية يتوقف على البحث عن نقاط سبع ، وقد فرغناعن البحث اربع منها وبقى الكلام فى نقاط ثلاث واليك بيان الخامس منها .

٥ - الامامة عهد من الله .

العهد فى الاصل هو الاحتفاظ بالشيء واليه ترجع سائر المعانى التى استعملت فيها تلك اللفظة فيقال للوصية : العهد . لانه ينبغي الاحتفاظ بها كما يطلق على ما يكتب للولاة من الوصية لانه مما ينبغى الاحتفاظ به . والعهد ، الكتاب الذى يستوثق به فى البيعات (١) .

وعلى ذلك فكل شيء غال قيم ينبغى الاحتفاظ به فهو العهد والله سبحانه ينسب الامامة الى نفسه ويقول : « عهدى » ويريد بذلك انه شيء غال وهدية ثمينة من الله سبحانه يجب الاحتفاظ بها من جانب الامة وبما ان الشيء الثمين لايودع الاعند من كان اميناً واضعاً كل شيء فى مكانه قال سبحانه : «لاينال عهدى الظالمين» فالامامة ميثاق الله سبحانه بين الامة يجب الاحتفاظ بها عن طريق امتثال مايفترض من الاوامر والنواهى وعدم اضاعتها .

ويظهر ذلك - اى ان الامامة عهد الله سبحانه - ان الامامة نوع من الحكومة وليس لاحد حق الحكم على احد الا باذنه سبحانه . فالحاكم الواقعى المشروع حكمه ، النافذ امره ونهيه ، من استند فى ولايته الى الله سبحانه وتعالى.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ج٤ ص١٦٨

٦- ماهوالمقصود من الظالمين ؟

الظلم فى اللغة : هووضع الشيىء فى غيرموضعه ، قال ابن فارس بعدذكره لهذه الجملة : الاتراهم يقولون من اشبه اباه فما ظلم أى : ما وضع الشبه غير موضعه وبه قال غيره من اللغويين قال ابن منظور : الظلم وضع الشيء فى غير موضعه، ومن امثال العرب : من اشبه اباه فما ظلم. قال : الاصمعى : اى ماوضع الشبه في غير موضعه وفى المثل : من استرعى الذئب فقد ظلم . وفى حديث ابن زمل : لزموا الطريق فلم يظلموه اي : لم يعدلوا عنه يقال : اخذ فى طريق فما ظلم يميناً ولاشمالا . واصل الظلم : الجور ومجاوزة الحد . والظلم : الميل عن القصد، والعرب تقول: الزم هذا الصوب ولاتظلم عنه ، اىلاتجزعنه. وقالسبحانه «ان الشرك لظلم عظيم» وذلك لانه جعل النعمة لغير ربها .

فاذا كان الظلم بمعنى مجاوزة الحد الذى عينه العرف اوالشرع فالمعصية كبيرهاوصغيرهاظلم لانمقترفهما يتجاوز عن الحد الذىرسمه الشارع. والظلم له مراتب والمجموع يشترك فى كونه تجاوزاً عن الحد ووضعاً للشيىء فى غيرموضعه.

ولماخلع سبحانه ثوب الامامة على خليله ونصبه اماماً للناس ودعا ابراهيم ان يجعل من ذريته اماماً فاجيب بان الامامة وثيقة الهية قيمة لاتنال الظالمين ، لان الامام هوالمطاع بين الناس، المتصرف فى النفوس والاموال ، والقائد للمجتمع الى السعادة ، فيجب ان يكون على الصراط السوى حتى يكون امره ونهيه وتصرفه وقيادته نابعة عنه . والظالم هوالمتجاوزعن الحد ، المتمايل عن الصراط الى اليمين والشمال . (١) الواضع للشيء فى غير موضعه لايصلح لهذا المنصب وحدوده .

ان الظالم الناكث لعهدالله، والناقض لدساتيره وحدوده على شفا جرف هار

(١) ونعم ماقال الامام امير المؤمنين : اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هى الجادة (نهج البلاغة قسم الخطب الرقم ١٥)

لايؤتمن عليه ولاتلقى اليه مقاليد الخلافة ، ولامفاتيح القيادة لانه على مقربة من الخيانة والتعدى وعلى استعداد لان يقع اداة الجائرين فكيف يصح فى منطق العقل ان يكون اماماً مطاعاً، نافذاً قوله، مشروعاً تصرفه ، الى غير ذلك من شؤن الامامة؟

ان بعض المناصب والمقامات تعين شروطها بنفسها ، فمدير المستشفى، له شروط تختلف عن شروط قائد الجيش وهكذا غيرهما .

فالامامة التى لاتنفك عن التصرف فى النفوس والاموال وبها يناط حفظ القوانين ، يجب ان يكون القائم بها انساناً مثالياً مالكاً لنفسه ، وغرائزه حتى لايتجاوز في حكمه عن الحد ، وفى قضائه عن الحق .

والمستفاد من الاية ان الظلم بشتى الوانه مانع من النيل لمقام الامامة ، لان كلمة «الظالمين» بحكم كونها محلاة باللام تفيد الاستغراق فى الافراد فاذا كان الظالمون بعامة افرادهم ممنوعين من الارتقاء الى هذا المقام، يكون الظلم بكل الوانه وصوره مانعا عن الرقى والنيل لهذا المنصب الالهى، فالاستغراق فى جانب الافراد يستلزم الاستغراق فى جانب الظلم واقسامه وتكون النتيجة مانعية كل فرد منه عن الارتقاء الى منصب الامامة .

وبالجملة : فالاية تستغرق جميع الظالمين وتسلب الصلاحية عن كل فرد فرد منهم. وبالنتيجة تفيد بان الظلم باى شكل كان مانع عن الارتقاء الى الامامة. فالاستغراق فى ناحية الافراد يلازم الاستغراق فى اقسام الظلم فتكون النتيجة ان من صدق عليه انه ظالم ولو فى فترة من عمره يكون ممنوعاً من نيل هذا المقام الرفيع .

سؤال وجواب :

اما السؤال : فهو ان الاية انما تشمل من كان مقيماً على الظلم فاما التائب عنه فلا يتعلق به الحكم لان الحكم اذا كان معلقاً على صفة وزالت الصفة زال الحكم، وصفة الظلم صفة ذم فانما تلحقه مادام مقيما عليه فاذا زال عنه زالت الصفة عنه (كذلك

يزول عنه الحكم الذى علق به من نفى نيل العهد فى قوله تعالى «لا ينال عهدى الظالمين» الا ترى ان قوله تعالى: «ولا تركنوا الى الذين ظلموا» انما هو نهى عن الركون اليهم ما اقاموا على الظلم وكذلك قوله تعالى: «ماعلى المحسنين من سبيل» انما هو ما اقاموا على الاحسان فقوله تعالى: «لا ينال عهدى الظالمين» لم ينف به العهد عن من تاب عن ظلمه. لانه فى هذه الحالة لا يسمى ظالماً كما لا يسمى من تاب من الكفر كافراً ومن تاب من الفسق فاسقاً وانما يقال كان كافراً وكان فاسقاً وكان ظالماً والله تعالى لم يقل لم ينل عهدى من كان ظالماً وانما نفى ذلك عن من كان موسوماً بسمة الظالم والاسم لازم له باق عليه. (١)

الجواب :

ان ماافاده الجصاص من ان الحكم يدور مدار وجود الموضوع ليس ضابطا كليا يعتمد عليه فى كل الموارد وما استشهد به من المثالين لا يكون مبدأ لانتزاع القاعدة الكلية المزعومة بل الاحكام على قسمين: قسم يدور مدار وجود الموضوع فينتفى بانتفائه، وقسم يكفى فيه اتصاف الموضوع بالوصف والعنوان آناً ما ولحظة خاصة، وان انتفى بعد الاتصاف. واليك توضيح كلا القسمين :

اما القسم الاول: مثل قولنا الخمر حرام، اوفى سائمة الغنم زكاة، فالمانع مادام يصدق عليه عنوان الخمر يحرم شربه، فاذا انقلب الى الخل يرتفع عنه الحكم. والغنم مادامت سائمة تتعلق بها الزكاة فاذا زال العنوان وعادت معلوفة يرتفع عنها الحكم ولها فى العرف والشريعة امثلة لا تعد ولا تحصى.

واما القسم الثانى : اعنى مايكفى فى بقاء الحكم اتصاف الموضوع بالعنوان ولو مرة واحدة اولحظة سريعة عابرة، فهو كالزانى والسارق، فالانسان اذا تلبس بالزنا او السرقه، يكون محكوما بالحد وان زال عنه العنوان، بل وان تاب

(١) احكام القرآن لابى بكر احمد بن على الرازى الجصاص المتوفى عام ٣٧٠ ج ١ ص ٧٢ بتلخيص.

واناب بعد ثبوت الحكم فى حقه . ومثله عنوان المستطيع ، فمن استطاع الحج يجب عليه وان زالت عنه الاستطاعة وقصر فى اداء الحج .

ومثل هذه الامثلة، عنوان «امهات نسائكم» فمن اتصفت بكونها امّاً لزوجة ولو لحظة تحرم على الزوج وان زالت علقة الزوجية وعلى هذا الضوء يكون قوله تعالى: «والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما» (المائدة-٣٨) وقوله سبحانه: «الزانية والزانى فاجلد وا كل واحد منهما مأة جلدة» (النور - ٢) وقوله سبحانه : «ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا» (آل عمران - ٩٧) وقوله سبحانه : «وامهات نسائكم» (النساء - ٢٣) شاملا لكل من تلبس بالسرقة والزنا والاستطاعة والامومة للزوجة سواء بقوا على العنوان ام زال عنهم وعلى هذا القياس يجب تقسيم الموضوعات المتصفة بالعناوين الى قسمين لاجعلهما قسما واحداً كما صنع الجصاص .

نعم : المهم فى المقام اثبات ان الموضوع فى الاية من قبيل القسم الثانى لا القسم الاول فما لم يثبت كونه منه لايفيد تقسيم العنوان الى قسمين .

وبعبارة اخرى : اللازم اثبات ان المتلبس بالظلم ولو آناً ما ، ولو فترة يسيرة من عمره لايصلح للامامة فى كل عمره وان تاب عن الذنب ويمكن اثبات ذلك من طريقين .

الاول : طريق العقل :

ان الهدف الاسمى من تنصيب امثال الخليل عليه السلام على الامامة تحقيق الشريعة الالهية فى المجتمع وتحقيقها بين الناس فاذا كان القائد رجلا مثالياً نقى الثوب ، مشرق الصحيفة ، ناصع السلوك ، يكون لامره ونهيه نفوذ فى القلوب ولاتكون قيادته محل طعن من قبل المجتمع بل يستقبله الشعب بوجوه ملؤها الاجلال والاكبار ، لانه عاش بين ظهرانيهم ولم يروا منه عصيانا ولازلة بل كان قائماً على الصراط السوى غير مائل عنه وعند ذلك يتحقق الهدف الاسمى من

تنصيب الشخصيات المعينة على الامامة.

واما اذا كان فى فترة من عمره مقترفاً للمعاصى، مجترحاً للسيئات فهو غرض لسهام الناقدين، ومن البعيد ان ينفذ قوله وتقبل قيادته بسهولة، بل يقع مورداً للاعتراض بانه كان بالامس يقترف الذنوب ويعمل بالمعاصى، يتبنى الباطل واصبح اليوم آمراً بالحق ومميتاً للباطل!، وعندذلك لايتحقق الهدف الذى لاجله خلعت عليه الامامة.

وهذا التحليل العقلى يحكم بلزوم نقاوة الامام عن كل زلة ومعصية وان الانابة لو كانت ناجحة فى حياته الفردية لاتكون ناجحة فى حياته الاجتماعية ولايقع امره ونهيه موقع القبول ولايقدر أن يأخذ بمجامع القلوب.

الثانى: طريق النقل:

وهو تحليل الاية: ببيان ان الناس بالنسبة الى الظلم على اربعة اقسام:

١ ـ من كان فى طيلة عمره ظالماً.

٢ ـ من كان طاهراً ونقيا فى جميع عمره.

٣ ـ من كان ظالماً فى بداية عمره وتائباً فى آخره.

٤ ـ من كان طاهراً فى بداية عمره وظالماً فى آخره.

عند ذلك يجب ان نقف على ان ابراهيم عليه السلام الذى سأل الامامة لبعض ذريته، اراد اى قسم منها؟ حاشا ابراهيم عليه السلام ان يسأل الامامة للقسم الاول والرابع من ذريته لوضوح ان الغارق في الظلم من بداية عمره الى آخره اوالموصوف به ايام تصديه للامامة لايصلح لان يؤتمن عليها فبقى القسمان الاخران، اعنى الثانى والثالث وقد نص سبحانه على انه: لاينال عهده الظالم. (والظالم فى هذه العبارة لاينطبق الاعلى القسم الثالث اعنى من كان ظالماً فى بداية عمره وصار تائباً حين التصدى، فاذا خرج هذا القسم بقى القسم الثانى ـ وهو من كان نقى الصحيفة فى طيلة عمره، لم يرمنه لاقبل التصدى ولابعده انحراف عن الحق، ومجاوزة للصراط السوى.

وحصيلة البحث : ان الامام هوالانسان المثالى المطاع قوله ، المقتدى بفعله ، المنصوب من الله سبحانه ، لاجل تحقيق الاهداف الالهية فى المجتمع ولايختلف كلامه وتقريره عنها قيد شعرة ، حتى يحقق الهدف الذي نصب لاجله وبما ان الاية الكريمة تنفى صلاحية الظالم لنيل هذا المقام وهى على وجه الاستغراق، فالظالم بجميع اصنافه لايصلح لهذا المقام وان تاب وطهر ، لماعرفت من الوجهين من ان المقام من قبيل القسم الثانى الذى يكفى فى ثبوت الحكم دائما تلبس الموضوع بالعنوان آناًماً .

سؤال وجواب :

اماالسؤال فحاصله: انغاية مايستفادمن الاية لزوم كون الامام نقى الصحيفة عادلاغير ظالم،واما كونه معصوماً قدافيضت عليه ملكة العصمة فلايستفاد من الاية

وان شئت قلت : ان نفى صلاحية الظالم للتصدى للامامة لايثبت الاصلاحية تصدي العادل وهواعم من المعصوم الذى نحن بصدد اثباته .

اما الجواب: فان العدالة المطلقة التى يؤكد عليها القرآن - وهى كون الرجل نقياً عن كل ذنب صغيرة و كبيرة طيلة عمره من اوان بلوغه الى لقاء ربه- تلازم العصمة ولاتنفك عنهـا اذ من المستحيل عادة ان يثبت الانسان على الحق ولايتجاوز عنه ولاتصدر منه كبيرة ولاصغيرة الى ان يلاقى ربه، ومع ذلك يكون فاقداً للعصمة وملكة المصونية .

ان الانسان القائم على الصراط السوى فى جميع لحظات عمره غير مائل عن الحق فكراً وعملا، لاينفك عن كونه يمتلك ملكة العصمة الحامية من الزلل.

نعم : العدالة غير المطلقة لاتلازم العصمة ولاجل ذلك ربما يقترف العادل بعض المعاصى وان كان يتوب بسرعة ، لكنهاليست عدالة مطلقة ، بل عدالة خاصة لاتنافى صدور المعصية ، واما العدالة المطلقة فى جميع سنى العمر ، رالالتزام بالحق قولا وفعلا ، عقيدة وعملا ، بلاانحراف ، فهى عبارة اخرى عن العصمة ،

ولاتتحقق الا بالموهبة الالهية المفاضة من الله سبحانه على عباده المخلصين .

وان ابيت الاعن أعمية ماتهدف اليه الاية وان المستفاد منها العدالة المطلقة لاالعصمة المفاضة من الله سبحانه فنقول : ان الشيعة الامامية تكتفى بذلك فى نفى خلافة من تصدى للخلافة بعد رسول الله ﷺ ، بحجة انهم لم يكونو ذوى عدالة مطلقة ، كيف وقد عبدوا الصنم والوثن فى فترات من عمرهم ؟

فاذا ثبت عدم صلاحيتهم تعينت امامة العترة الطاهرة : لان الامة فى مسألة الامامة ذات قولين : فذهب طائفة الى امامة الخلفاء وذهبت طائفة اخرى الى امامة على واهل بيته عليهم السلام : فاذا نفيت صلاحية الفرقة الاولى تعينت خلافة الطائفة الثانية لان امامة غيرهاتين الطائفتين لم يذهب اليها احد .

وبالجملة: اتفقت الامة الاسلامية على قولين فى مسألة الامامة . فذهب اهل السنة الى خلافة الخلفاء الاربع بعد رسول الله ﷺ ثم تبدلت الخلافة بعد الخليفة الرابع الى الملوكية وخرجت عن صبغة الخلافة الاسلامية ، وقد كان أكثر هؤلاء الخلفاء الاربع غير مجتنبين عن الشرك وعبادة الوثن فى اوليات حياتهم وان صاروا ببركة الاسلام موحدين تاركين الخط الجاهلى .

وذهب الشيعة بعامة فرقهم الى خلافة على وبعده الحسن والحسين الى آخر ائمة الهدى ، فهؤلاء كانوا طاهرين عن الشرك منذ نعومة اظفارهم الى لقاء ربهم وليس بين الامة قول بامامة غيرهاتين الطائفتين .

هذا هما القولان اللذان أشرنا اليهما، ومن جانب اخر ان الاية تدل على شرطية طهارة الامام على وجه الاطلاق عن كل ظلم فى جميع أدوار الحياة وهذا لاينطبق الاعلى الطائفة الثانية لان كثيراً من افراد الطائفة الاولى كانوا غير مجتنبين عن الظلم فى بداية حياتهم وذلك مما لم يختلف فيه اثنان .

الاية الثانية آية التطهير :

قد عرفت دلالة آية الابتلاء على لزوم نزاهة الامام عن اقتراف الذنب و لولحظة قصيرة فى مدة عمره وقد قلنا ان مثل تلك العدالة المطلقة تلازم العصمة فمن اتصف بالثبات على الحق، وعدم التجاوز عنه ولم تصدرمنه صغيرة ولا كبيرة الى ان يلقى ربه ، لاينفك عن العصمة .

وهناك آية اخرى تدل على عصمة عدة خاصة من المتسمين لمنصب الامامة وهى آية التطهيراعنى قوله سبحانه: «وقرن فى بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى واقمن الصلاة وآتين الزكاة واطعن الله ورسوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً . (الاحزاب ـ ٣٣)

وقد استدلت الشيعة الامامية عن بكرة ابيها بهذه الاية على عصمة اهل البيت الذين نزلت هذه الاية فى حقهم . والفرق بين دلالة تلك الاية وآية الابتلاء فى السعة والضيق ، فالاية الاولى تدل على عصمة كل من تسنم الامامة من الخليل الى يوسف وداود والنبى الاعظم وعلى امير المؤمنين عليه السلام وكل من ثبت عهدالله اليه بالامامة، وآية التطهير تدل على عصمة عدد خاص نزلت الاية فى حقه ودلالة الاية تتوقف على البحث عن عدة امور :

١ ـ ماهو المراد من الرجس ؟

٢ ـ هل ارادته تعالى فى هذه الاية ارادة تكوينية او تشريعية ؟

٣ ـ ماهو المقصود من اهل البيت ؟

٤ ـ من هم اهل البيت فى حديث النبى الاكرم (ص) .

٥ ـ مشكلة السياق فى الاية .

٦ ـ اهل البيت فى الادب العربى .

سنبحث عن هذه الامور واحداً بغير آخر:

١- ماهوالمراد من الرجس ؟

المراد من الرجس : هوالقذارة الاعم من المادية والمعنوية ، وقد اتفق على ذلك ائمة اللغة قال ابن فارس : الرجس اصل يدل على اختلاط و من هذا الباب : الرجس : القذر لانه لطخ وخلط . (١)

وقال ابن منظور: الرجس: القذروكل قذررجس وفى الحديث: اعوذ بك من الرجس النجس . وقد يعبربه عن الحرام والفعل القبيح والعذاب واللعن والكفر. قال الزجاج : الرجس فى اللغة كل ما استقذر من عمل . . . فبالغ الله فى ذماشياء وسماها رجساً. وقال ابن الكلبى: رجس من عمل الشيطان اى مأثم.(٢)

و قد استعملت هذه اللفظة فى الذكر الحكيم ثمانية مرات : و وصف به الخمر والميسر والانصاب والازلام والكافرغيرالمؤمن بالله والميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير والاوثان وقول الزور . . الى غيرذلك من الموارد التى وصفت به فى الذكر الحكيم .

ونكتفى بنقل بعض الايات قال سبحانه «انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان» (المائدة ـ ٩٠) وقال سبحانه «الاان يكون ميتة اودماً مسفوحاً اولحم خنزير فانه رجس» (الانعام ـ ١٤٥) وقال سبحانه : « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون» (الانعام ـ ١٢٥) الى غيرذلك من الايات

و المتفحص فى كلمات ائمة اهل اللغة و الايات الواردة فيها تلك اللفظة يصل الى انها موضوعة بمعنى القذارة التى تستنفرمنها النفوس سواءاًكانت مادية كما وردت فى الايات ام معنوية كما هوالحال فى الكافر وعابد الوثن ووثنه .

فلووصف به العمل القبيح عرفاً اوشرعاً فلاجل ان العمل القبيح يوصف

---

(١) معجم مقاييس اللغة ج٢ ص٤٩٠

(٢) لسان العرب ج٦ ص٩٤-٩٥ (مادةرجس)

بالقذارة التى تستنفرها الطباع السليمة. وعلى هذا فالمراد من الرجس فى الاية هى الاعمال القبيحة عرفاً اوشرعاً ويدل عليه قوله سبحانه : بعد تلك اللفظة «ويطهركم تطهيراً» فليس المراد من هذا التطهير الا تطهيرهم من الرجس المعنوى الذى لاتقبله النفوس السليمة .

وقد ورد نظير قوله «ويطهركم تطهيراً» فى حق السيدة مريم عليها السلام قال سبحانه «ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» (آل عمران - ٤٢)

نعم: ان لتطهير النفوس وطهارتها مراتب ودرجات ولاتكون جميعها مستلزمة للعصمة وانما الملازم لها هو الدرجة العليا قال سبحانه : «فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين» . (التوبة - ١٠٨)

قال العلامة الطباطبائى : الرجس بالكسر والسكون صفة من الرجاسة و هى القذارة ، والقذارة هيئة فى النفس توجب التجنب والتنفر منها وهى تكون تارة بحسب ظاهر الشيىء كرجاسة الخنزير قال تعالى : «اولحم خنزير فانه رجس» (الانعام - ١٤٥) وبحسب باطنه، اخرى وهى الرجاسة والقذارة المعنوية كالشرك والكفر واثر العمل السيىء قال تعالى : «واما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون» (التوبة - ١٢٥) وقال : «ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كانما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون» . (الانعام - ١٢٥)

وايا ماكان فهو ادراك نفسانى واثر شعورى يحدث من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل اوالعمل السيء واذهاب الرجس عبارة عن ازالة كل هيئة خبيثة فى النفس تضاد حق الاعتقاد والعمل ، وعند ذلك يكون اذهاب الرجس معادلا للعصمة الالهية التى هى صورة علمية نفسانية ، تحفظ الانسان من رجس باطنى الاعتقاد وسيء العمل . (١)

---

(١) الميزان ج١٦ ص٣٣٠

المنفى مطلق الرجس :

اذا كان المراد من الرجس فى الاية الكريمة : هو الافعال القبيحة عرفاً اوشرعاً والمعاصى صغيرها و كبيرها: فيجب ان يقال: ان المنفى فى الاية هوعموم الرجس وذلك لان المنفى هو جنس الرجس لانوعه ولاصنفه ونفى الجنس يلازم نفى الطبيعة بعامة مراتبها ولاجل ذلك لم يكتف سبحانه بقوله : «ليذهب عنكم الرجس»، بل اكده بقوله «ويطهر كم تطهيراً» فلو كان المراد نفى قسم خاص من الرجس ـ اعنى الشرك او الاوسع منه كالمعاصى الكبيرة ـ لما كان لهذه العناية وجه .

والحاصل ان المفهوم من قول القائل لاخير فى الحياة اولارجل فى الدار هو المفهوم من قوله ليذهب عنكم الرجس ، والتفكيك بين المقامين غير مقبول

٢ ـ الارادة فى الاية تكوينيه أم تشريعية ؟

ان انقسام ارادته سبحانه الى تكوينية وتشريعية من الانقسا مات الواضحة التى لاتحتاج الى بسط فى القول ، ومجمل القول فيها هو انه اذا تعلقت ارادته سبحانه على ايجاد شيىء وتكوينه فى صحيفة الوجود ، فهى الارادة التكوينية ولاتتخلف تلك الارادة عن مراده، وربما يعبر عنها بالامر التكوينى قال سبحانه : «انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون» . (يس ـ ٨٢)

ففى هذا المجال يكون متعلق الارادة تكوّن الشيىء وتحققه وتجسده والله سبحانه لاجل سعة قدرته ونفوذ ارادته لاتنفك ارادته عن مراده ولاامره التكوينى عن متعلقه .

واما اذا تعلقت ارادته سبحانه بتشريع الاحكام وتقنينها فى المجتمع حتى يقوم المكلف مختاراً بواجبه ، فهى ارادة تشريعية ففى هذا المجال يكون متعلق الارادة تحقيقاً هو التشريع والتقنين . واما قيام المكلف فهو من غايات التكليف

ولاجل ذلك ربما تترتب عليه الغاية ، وربما تنفك عنه، ولا يوجب الانفكاك خللا في ارادته سبحانه لانه ما اراد الا التشريع وقد تحقق كما انه ما اراد قيام المكلف بواجبه الا مختاراً فقيامه بواجبه او عدم قيامه من شعب اختياره. هذا هو اجمال القول في الارادتين وللتفصيل محل آخر .

والقرائن التي ستمر عليك تدل على ان الارادة في الاية تكوينية لا تشريعية بمعنى ان ارادته التكوينية التي تعلقت بتكوين الاشياء وابداعها في عالم الوجود، تعلقت ايضاً باذهاب الرجس عن اهل البيت، وتطهيرهم من كل رجس وقذر ، ومن كل عمل يستنفر منه ، واليك تلك القرائن :

١ ـ ان الظاهر من الاية هو تعلق ارادة خاصة باذهاب الرجس عن اهل البيت ، والخصوصية انما تتحقق لو كانت الارادة تكوينية ، اذ لو كانت تشريعية لما اختصت بطائفة دون طائفة ، لان الهدف الاسمى من بعث الانبياء هو ابلاغ تشريعاته ودساتيره الى الناس عامة لا لأناس معينين ولاجل ذلك ترى انه سبحانه عند ما شرع للمسلمين الوضوء والغسل بقوله : (يا ايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برؤسكم وارجلكم الى الكعبين وان كنتم جنباً فاطهروا . . .» علله بقوله : «ولكن يريد ليطهر كم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون» (المائدة ـ ٦) خاطب هو سبحانه المؤمنين عامة بالوضوء والغسل وعلل تشريعه العام بتطهيرهم واتمام نعمته عليهم وهذا بخلاف الاية التي نحن بصددها فانها خصصت ارادة تطهيره بجمع خاص تجمعهم كلمة «اهل البيت» وخصهم بالخطاب وقال : (عنكم اهل البيت) اى لاغير كم وبالجملة فتخصيص تعلق الارادة بجمع خاص على الوجه الوارد في الاية، يمنع من تفسير الارادة بالارادة التشريعية التي عمت الامة جميعاً .

نعم لا يتوهم من ذلك ان اهل البيت خارجون عن اطار التشريع بل التشريع في كل المجالات يعمهم كما يعم غيرهم ولكن هنا ارادة تكوينية مختصة بهم .

٢ ـ ان العناية البارزة في الاية المباركة اقوى شاهد على ان المقصود

بالارادة، الارادة التكوينية لا التشريعية لوضوح ان تعلق الارادة التشريعية باهل البيت لايحتاج الى العناية فى الاية واليك بيان تلك العناية :

أ ـ ابتدأ سبحانه كلامه بلفظ الحصر ولامعنى له اذا كانت الارادة تشريعية لانها غير محصورة باناس مخصوصين .

ب ـ عين تعالى متعلق ارادته بصورة الاختصاص فقال : « اهل البيت » اى اخصكم اهل البيت .

ج ـ قد بين متعلق ارادته بالتاكيد وقال بعد قوله : ليذهب عنكم الرجس . . . «ليطهر كم» .

د ـ قد اكده ايضاً بالاتيان بمصدره بعد الفعل وقال : ويطهر كم تطهيراً . ليكون اوفى فى التأكيد .

هـ ـ انه سبحانه اتى بالمصدر نكرة . ليدل على الاكبار والاعجاب اى تطهيراً عظيماً معجبا .

و ـ ان الاية فى مقام المدح والثناء فلو كانت الارادة ارادة تشريعية لما ناسب الثناء والمدح .

وعلى الجملة: العناية البارزة فى الاية تدل بوضوح على ان الارادة هناك غير الارادة العامة المتعلقة لكل انسان حاضر او بادو لاجل ذلك فان المحققين من المفسرين يفسرون الارادة فى المقام بالارادة التكوينية ويجيبون عن كل سؤال يطرح عنها

قال الشيخ الطبرسى: ان لفظة «انما» محققة لما اثبت بعدها، نافية لما لم يثبت فان قول القائل : انما لك عندى درهم ، وانما فى الدار زيد : يقتضى انه ليس عنده سوى الدرهم وليس فى الدار سوى زيد وعلى هذا فلا تخلو الارادة فى الاية ان تكون هى الارادة المحضة (التشريعية) او الارادة التى يتبعها التطهير واذهاب الرجس ولايجوز الوجه الاول لان الله تعالى قد اراد من كل مكلف هذه الارادة المطلقة فلا اختصاص لها باهل البيت دون سائر الخلق ، ولان هذا القول يقتضى المدح والتعظيم لهم بغير شك وشبهة ولامدح فى الارادة المجردة فثبت الوجه

الثانى وفى ثبوته ثبوت عصمة المعنيين بالاية من جميع القبائح . (١)

وقال السيد ابن معصوم المدنى فى تقريب دلالة الاية على عصمة المعنيين بالاية «ان لفظة «انما» محققة لما اثبت بعدها ، نافية لما لم يثبت فان قول القائل انما لك عندى درهم وانما فى الدار زيد يقتضى انه ليس له عنده سوى درهم وليس فى الدار سوى زيد . اذا تقرر هذا فلا تخلو الارادة فى الاية ان تكون هى الارادة المطلقة او الارادة التى يتبعها التطهير واذهاب الرجس فلا يجوز الوجه الاول لان الله تعالى قد اراد من كل مكلف هذه الارادة المطلقة ، فلا اختصاص لها باهل البيت دون سائر الخلق. وهذا القول يقتضى المدح والتعظيم لهم بغير شك ولا شبهة ولا مدح فى الارادة المجردة فثبت الوجه الثانى وفى ثبوته ثبوت عصمة المعنيين بالاية من جميع القبائح لان اللام فى الرجس للجنس ونفى الماهية نفى لكل جزئياتها . وقد علمنا ان من عدا من ذكرناه من اهل البيت حين نزول الآية غير مقطوع على عصمته فثبت ان الاية مختصة بهم لبطلان تعلقها بغيرهم . وما اعتمدوا عليه من ان صدر الاية وما بعدها فى الازواج فجوابه ان من عرف عادة العرب العرباء فى كلامهم واسلوب البلغاء والفصحاء فى خطابهم لا يذهب عليه ان هذا من باب الاستطراد وهو خروج المتكلم من غرضه الاول الى غرض آخر ثم عوده الى غرضه الاول . واتفقت كلمة اهل البيان على ان ذلك من محاسن البديع فى الكلام نثراً ونظماً والقرآن المجيد وخطب البلغاء واشعارهم مملوءة من ذلك(٢).

اسئلة واجوبة :

قد تعرفت على مفاد الاية : واتضح لديك ان القرائن الداخلية فى نفس

---

(١) مجمع البيان ج ٤ ص ٣٥٧ (تفسير سورة الاحزاب) وقريب منه ما افاده الشيخ الطوسى فى تبيانه ج ٨ ص ٣٤٠

(٢) رياض السالكين : الروضة السابع والاربعون ص ٤٩٧ وقد نقلنا عن الطبرسى ما يقرب منه .

الاية تدل بوضوح على ان الارادة الواردة في الاية ارادة تكوينية تعلقت بطهارة اهل البيت واذهاب الرجس عنهم ويكون وزان الارادة فيها وزان الارادة الواردة في الايات التالية ونظائرها :

١- «ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين». (القصص - ٥)

٢- «ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين» .
(الانفال - ٧)

٣- «ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزى ولهم في الاخرة عذاب عظيم». (المائدة - ٤١)

وعند ذلك تطرح في المقام اسئلة لابد من الاجابة عليها .

السؤال الاول :

هل يصح تعريف الارادة التشريعية بالارادة المتعلقة بفعل الغير كتكليفه سبحانه عباده بالصلاة والزكاة ، وتكليف الآمر البشرى غيره بالسقى والرعى ؟ واذا كانت الارادة التشريعية عبارة عما ذكر ، فتكون الارادة التكوينية عبارة عن تعلقها بفعل نفس المريد كتعلق ارادته سبحانه بخلق السماوات والارض ، وارادة غيره بالاكل والشرب ؟

الجواب : ان تعريف الارادة التكوينية بما ذكر وان كان صحيحاً ، لكن تعريف التشريعية منها بتعلقها بفعل الغير غير صحيح قطعاً ، وذلك لان الارادة لاتتعلق الابامر اختيارى وهو فعل المريد واما فعل الشخص الاخر فهو بما انه خارج عن اختيار المريد، لاتتعلق به ارادته و كيف يصح لشخص ان يريد صدور فعل من الغير مع ان صدوره منه تابع لارادة ذلك الغير وليس تابعاً لارادة المريد الآخر؟

وان شئت قلت : ان زمام فعل الفاعل المختار بيد الفاعل المباشر فلو اراده لقام به . ولو لم يرده لما قام به وليس زمامه بيد الآمر ، حتى يريده منه جداً

ولاتصيّره ارادة الآمر مسلوب الاختيار ولاتجعله مضطراً مقهوراً مسخراً فى مقابل ارادة الامر ، لان المفروض ان الفاعل بعد، فاعل مختار ، ومن هذا شأنه لاتتعلق بفعله ، ارادة الغير الجدية ، لان معنى تعلقها بفعل الغير أنه فى اختيار المريد ومتناوله ، ويوجد بارادته وينتفى بانتفائه، مع انه ليس كذلك وانما يوجد بارادة الفاعل المباشر وينتفى بانتفاء ارادته ، ولاملازمة بين ارادة الآمر وارادة المامور ولاجل ذلك كثيراً مايعصى ويخالف .

وفى الجملة : ليست ماهية الارادة التشريعية امراً يخالف ماهية الارادة التكوينية، بل الكل من وادواحد تختلفان فى الاسم وتتحدان فى الماهية، والجميع يتعلق بفعل نفس المريد غير أن المراد فيهما مختلف حسب الاعتبار ، وهو فى التكوينية ، عبارة عن الفعل الخارجى الصادرعنه مباشرة كالتكوين والتصنيع سواء كان المريد هوالله سبحانه ام احد عباده القادرين على الافعال الخارجية باقداره ، ولكنه فى التشريعية عبارة عن نفس الطلب والانشاء بالايماء و الاشارة واللفظ والكتابة وهو ايضا فعل المريد الواقع فى اختياره . و اما قيام الغير بالمطلوب فهو من غايات ارادة المريد و مقاصده واغراضه ، وهى تترتب تارة . وتنفك اخرى فلوتكونت فى نفسه مبادىء الخوف والرجاء لقام به والا فلايقوم به ولاتتحقق الغاية لكن تتم عليه الحجة .

وعلى ذلك فما اشتهر على الالسن من ان الارادة التشريعية عبارة عن تعلق ارادة الامر بفعل الغير تسامح فى التعبير ومن باب اقامة الغاية مكان ذيها .

والذى يوضح ذلك : ان ارادته سبحانه لاتنفك عن مراده ، ومن المستحيل ان يخاطب شيئاً بـ « كن » ولايتحقق، ولسعة قدرته وعموميتها. قال سبحانه:«انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون» (يس - ٨٢) فلوتعلقت ارادته بفعل العباد كالصلاة والصوم لما انفك عنهم ولوتعلقت على ايمانهم وهدايتهم، لماوجد على اديم الارض عاص ومتمرد ، قال سبحانه : «ولوشاء الله لجمعهم على الهدى فلاتكونن من الجاهلين» (الانعام - ٣٥) وتكون نتيجة ذلك كونهم مجبورين

فى قبول الهداية ، ومضطرين الى الطاعة فلايقام لمثلهاوزن ولاقيمة وهذا يعرب بوضوح عن ان متعلق ارادته فى مجال التشريع هوفعل نفس المشرع وهوالتشريع وهو بعد غير منفك عن ارادته ، موجود معها .

السؤال الثانى :

لوكانت الارادة فى المقام ارادة تكوينية فبما ان ارادته سبحانه لاتتخلف عن المرادفلازمها هنا كون طهارتهم وابتعادهم عن الرجس امراً جبريا لايتخلف ، وهذا لايعد فضيلة وثناء لاهل البيت مع ان الاية بصدد الثناء عليهم .

وقد اجاب عنه المحققون على وجه الاجمال وقالوا: ان القدرة والتمكن من فعل المعصية ثابت للمعصوم . والعصمة مانع شرعى ولامنافاة بين عدم القدرة الشرعية والقدرة الذاتية وهذا الجواب باجماله كاف لاهل التحقيق ولكن يحتاج الى ايضاح فنقول :.

ان مشكلة الجبر تنحل بالتعرف على كيفية تعلق ارادته سبحانه بافعال العباد والامعان فى هذا الموضوع يكفى لحل بعض المشاكل المطروحة فى مسألة الجبر والاختيار .

وبعبارة اخرى:هل تعلقت ارادته سبحانه بصدور افعال العباد عنهم باختيارهم وارادتهم، امتعلقت بصدورهامنهم مطلقاً وان لم تكن مسبوقة باختيارهم وارادتهم؟ فالجبر لازم القول الثانى ، والاختيار نتيجة القول الاول ، والحق هوالقول الاول فنقول فى توضيحه :

ان لازم التوحيد فى الفاعلية والخالقية ـ كما هو منصوص الايات ومقتضى البراهين ـ هو ان كل مايقع فى صفحة الوجود سواء كان فعلا للعباد امالغيرهم لايخرج عن اطار الارادة التكوينية لله سبحانه ، ولايقع شيىء فى الكون الابارادته واذنه سبحانه ، قال تعالى : « ماقطعتم من لينة اوتر كتموها قائمة على اصولها فباذن الله» (الحشر ـ ٥) وهذه الاية وغيرها تدل بصراحة على ان افعال العباد

حلالها وحرامها غير خارجة عن اطار الارادة التكوينية لله والالزم ان يكون الانسان اوالفوا على الاخر مستقلة فى الفعل والتأثير وهو يستلزم الاستقلال فى الذات ، وهوعين الشرك ونفى التوحيد فى الافعال والخالقية .

ومع ذلك فليس العباد مجبورين فى افعالهم وتصرفاتهم لان ارادته سبحانه وان تعلقت بافعالهم لكن ارادته سبحانه متعلقة بافعالهم بتوسط ارادتهم الخاصة وفى طول مشيئتهم ، وبذلك صح ان يقال لاجبر ولاتفويض بل امر بين الامرين .

وعلى ذلك فالله سبحانه وان اراد طهارتهم عن الذنوب بالارادة التكوينية ولكن تلك الارادة تعلقت بها ، لما علم سبحانه انهم بمازودوا من امكانات ذاتية ومواهب مكتسبة نتيجة تربيتهم وفق مبادى الاسلام، لايريدون الاماشرع لهم سبحانه من احكام، فهم لايشاؤون الامايشاء الله ، وعندذلك صح له سبحانه ان يخبر بانه اراد تكويناً اذهاب الرجس عنهم لانهم عليهم السلام مادامو لايريدون لانفسهم الاالجرى على وفق الشرع لايفاض عليهم الاهذا النوع من الوصف .

وحصيلة الكلام ان مبنى الاشكال هو الغفلة عن كيفية تعلق ارادته سبحانه بافعال العباد حيث توهم المستشكل :

اولا - : ان افعال العباد خارجة عن اطار الارادة التكوينية لله سبحانه ، وغفل عن ان هذا النوع من الاعتقاد يساوق الشرك ويصادم التوحيد .

وثانيا : ان سبق الارادة التكوينية على افعال العباد يستلزم سلب الاختيار عنهم ،وغفل عن ان ارادته سبحانه انما تتعلق بتوسط ارادة العباد واختيارهم ، فهم إذا ارادوا لانفسهم شيئاً فالله سبحانه يريد ذلك الشيىء لهم تكويناً ، وليس فى ذلك اية رائحة للجبر ، بل هوالامر بين الامرين .

وعندئذيكون المراد من تطهيرهم - بعدتجهيزهم بادراك الحق فى الاعتقاد والعمل،واعطائهم البصيرة الكاملة لمعرفة الحق فى مجال الاعتقاد والعمل - . تعلق ارادته التكوينية بطهارتهم من الذنوب، لاجل تعلق ارادتهم بذلك فقدتعلقت ارادته سبحانه بتنزيههم عن طريق ارادتهم واختيارهم ، واين هذا من الجبر ؟

تحليل آخر لتفسير الارادة بالتكوينية في المقام :

ماذكرناه في كيفية تعلق ارادته سبحانه بافعال العباد ، جواب عام سارفي جميع الموارد ورافع للاشكال في مجال الجبر وان من اعضل الموارد في الجبر والاختيار ، هي تحليل كيفية تعلق ارادته بافعال العباد وانه : هل يوجب الجبر ويسلب الاختيار ، باعتبار ان ارادته لاتنفك عن المراد ، ام لا ؟ لان ارادته تعلقت بصدور افعالهم عن انفسهم عن مبادئها المكونة فيهم وهي ارادتهم واختيارهم فلو صدرت عنهم بلاهذه الخصوصية لزم انفكاك ارادته عن مراده .

ولما استشكل هذا المطلب على بعضهم انصرفوا الى اخراج افعال العباد عن اطار ارادته سبحانه ، وانما تتعلق بالكائنات دون افعالهم . وهو كما ترى ، لانه يستلزم تحقق شيىء في صحيفة الوجود بغير اذنه وارادته ، مع ان مقتضى التوحيد في الخالقية انتهاء كل مافي عالم الامكان الى وجوده وخالقيته ، وبالتالى الى ارادته ، فاخراج افعال العباد عن مجال ارادة الله ، يخالف الاسس التوحيدية التى جاء بها القران ودعمها العقل .

الا ان في مسألة العصمة و كيفية تعلق ارادته تعالى بعصمة المعصوم تحليلا آخر يختص بهذا المقام ولايتعداه وحاصل هذا التحليل يتوقف على معرفة كيفية العصمة وحقيقتها . فنقول :

ان حقيقة العصمة ترجع الى الدرجة العليا من التقوى، بمعنى ان التقوى اذا بلغت قمتها تعصم الانسان عن اقتراف الذنب و جميع القبائح . و ان شئت قلت : العصمة نتيجة العلم القطعى الثابت والعرفان بعواقب المعصية علماً يصد الانسان عن اجتراح المعاصى واقتراف المآثم ، كالانسان الواقف امام الاسلاك التى يجرى فيها التيار الكهربائى ، فانه لايقدم بنفسه على امساكها . وبعبارة ثالثة : العصمة : الاستشعار بعظمة الرب و كماله و جلاله. استشعاراً منقطع النظير حيث يحدث في المستشعر التفانى فى الحق ، والعشق لجماله و كماله ، بحيث

لايستبدل برضاه شيئاً .

فاذاكانت حقيقة العصمة نفس هذه الحقائق اوقريباً منها فليس اتصاف الانسان بهذه الحقائق موجبا للجبر وسالباً للاختيار، بل المعصوم مع هذه المواهب الالهية قادر على اقتراف المعاصى وارتكاب الخطايا غيرانه لاجل حصوله على الدرجة العليا من التقوى ، والعلم القطعى بآثار المعاصى والاستشعار المنقطع النظير بعظمة الخالق ، يختار الطاعة وترك المعصية مع القدرة على خلاف ذلك فحاله كالوالد العطوف لايقدم على قتل ولده ولواعطيت له الكنوز الكثيرة .

ان هذه الحقائق الموهوبة للمعصوم اشبه بحبل يلقى الى الغارق فى البحر والساقط فى البئر حتى يتمسك به وينجى نفسه ، فلاشك ان العاقل يتمسك به دائماً وينجى نفسه ولكن هذا العمل لايخالف قدرته على ترك التمسك به والقاء نفسه فى مهاوى الهلكة .

فهذه الحقائق النفسانية الموهوبة ليست الااسباباً لترك العصيان ومقتضيات للطاعات، ومعدات لقرب العبد من ربه ، ومع ذلك تتوسط بينها وبين فعل العبد من طاعة اوعصيان، ارادته واختياره ، فليست هذه المواهب عللا تامة لتوجه العبد الى جانب واحد وانحيازه عن جانب آخر ، بل هى اسباب مقربة ومعدات للارادة ومع ذلك كله فاختيار المعصوم وارادته باقيان على حالهما .

فمعنى تعلق ارادته سبحانه بعصمتهم ليس تعلقها بالطاعة وترك العصيان ، بل معناه تعلق ارادته التكوينية بافاضة هذه المواهب عليهم وجعلها فى مكامن نفوسهم وتحليتهم بهذه الحلية الالهية ، ولكن هذا الجعل والتحلية لايهدف الى كونهم مكتوفى الايدى امام التكاليف ومسوقين الى جانب واحد ، فالاشتباه فى المقام حصل فى تعيين ماهو المفاض من الله سبحانه على هذه الشخصيات فتخيل: «ان المفاض هو العصمة المفسرة بترك المعصية ونفس الطاعة» غفلة عن ان المفاض هو هذه الكيفيات والصفات العليا النفسانية عليهم . وهى توجد استعداداً فى النفس بترك العصيان واختيار الطاعة مع القدرة على الخلاف .

نعم : لو كان هناك جبر فالجبر فى تحليتهم بهذه المواهب والعطايا الالهية ولكنهم معهامختارون فى التوجه لاي طرف ارادوا، وان كانوا لايشاؤون الاالطاعة وترك المعصية .

ماهو الاساس لتفسير الارادة بالتشريعية ؟

ثم ان الجمهور لمّا ذهبوا الى كون الارادة تشريعية احتالوا فى توجيهها يقول المفسر المعاصر سيدقطب فى هذا الصدد : انه سبحانه يجعل تلك الاوامر -الاوامر الواقعة قبل الاية من قوله : وقرن .. ولاتبرجن- وسيلة لاذهاب الرجس وتطهير البيت ، فالتطهير واذهاب الرجس يتم بوسائل يأخذ الناس بها انفسهم ويحققونها فى واقع الحياة العملى . . ويختم هذه التوجيهات لنساء النبى بمثل مابداها ، بتذكيرهن بعلومكانتهن وامتيازهن على النساء بمكانتهن من رسول الله وبما انعم الله عليهن فجعل بيوتهن مهبط القرآن ومنزل الحكمة وتشرف النور والهدى والايمان ، وانه لحظ عظيم يكفى التذكر به لتحس النفس جلالة قدره ولطيف صنع الله فيه وجزالة النعمة التي لايعد لهانعيم .

وحاصل ماذكره مبنى على نزول القرآن فى مورد نساء النبى وانه سبحانه علل خطاباته لهن بانه يريد من هذه التكاليف اذهاب الرجس عنهن ويكون المعنى ان التشديد فى التكاليف وتضعيف الثواب والعقاب ليس لانتفاع الله سبحانه به بل لاذهاب الرجس عنكن وتطهير كن .

ولايخفى ان ماورد فى الايات من الاحكام ليست احكاماً خاصة بنساء النبى ﷺ فهذا قوله سبحانه قبل آية التطهير :

«وقرن فى بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى واقمن الصلوة وآتين الزكاة واطعن الله ورسوله» .

وهذا قوله سبحانه بعد الاية : واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله

(١) فى ظلال القران فى تفسير سورة الاحزاب

والحكمة ... كلها احكام عامة لنساء المسلمين فالله سبحانه بهذه التكاليف يريد ان يطهر الكل واذهاب الرجس عن عموم النساء لا عن زوجات النبى خاصة وعندئذ لا وجه لتخصيصهن بالخطاب بالعناية التى عرفت .

وانما ذهب بعض الجمهور الى ماذهب لاجل انهم تصوروا نزول الاية فى حق نساء النبى ﷺ فاحتالوا لتفسير الارادة بما ذكره سيد قطب ونظراؤه ، وانما ذهبوا الى ذلك بزعمهم اتصال الاية بما قبلها من الايات ، مع انه سيوافيك ان الاية (آية التطهير) آية مستقلة . لاصلة لها بماقبلها ولامابعدها وانماوضعت فى هذا الموضع لمصلحة خاصة سنشير اليها والاحاديث بكثرتها البالغة ناصة على نزول الاية وحدها ولم يرد نزولها فى ضمن آيات نساء النبى ﷺ ولا ذكره احد حتى ان القائل باختصاص الاية بازواج النبى ينسب القول الى عكرمة وعروة لاالى الرواية .

فالاية لم تكن بحسب النزول من آيات النساء ، ولامتصلة بها ، وستوافيك الروايات الكثيرة الواردة فى هذا المضمار .

السؤال الثالث : هل العصمة الموهوبة مفخرة ؟

وهذا سؤال ثالث يتردد فى المقام وفى غيره وقدطرحناه عند البحث عن العصمة على وجه الاطلاق ونطرحه هنا بشكل آخر ، وهوان عصمة اهل البيت لوكانت امراً موهوباً من الله سبحانه كيف يمكن ان تعدمفخرة لاهله ؟ والاجابة عن هذا السؤال واضحة بعد الوقوف على معنى العصمة الموهوبة لهم، وقدعرفت ان المراد من هبتها لهم هو اعطاء المقتضيات والمعدات لهم التى لاتسلب الاختيار عنهم وهم بعد قادرون على الطاعة والعصيان والنقض والابرام، والسائل تخيل ان العصمة الموهوبة هى نفس ترك العصيان والمخالفة، فزعم ان شيئاً مثلها لايعد فخراً ولايوجب ثناءاً وقد اوضحنا هذا فى السوال السابق فراجع .

* * *

السؤال الرابع : هل الاية تدل على فعلية التطهير ؟

وربما يقال : ان اقصى ماتدل عليه الاية هو اخباره سبحانه عن انه يريد اذهاب الرجس عن اهل البيت وتطهيرهم ، وليس في الاية مايدل على تحقق هذه الارادة بالفعل . وانها صدرت منه سبحانه ، مع ان القائلين بعصمة اهل البيت يذهبون بدلالتها على اتصافهم بالعصمة،وفي هذا الصدد ينقل الشيخ زين الدين البياضي العاملي اشكالا عن المخالف ويقول : «يريد»لفظ مستقبل فلادليل على وقوعه (١)

ولايخفى ان هذا الاشكال نشأ من اتخاذ موقف خاص بالنسبة الى اهل البيت بشهادة ان هذه اللفظة وردت في كثير من الايات مع انه ماخطر ببال احد مثل هذا الاشكال قال سبحانه . «يريد الله ليبين لكم» (النساء ـ ٢٦) وقال : «والله يريد ان يتوب عليكم»(النساء ـ ٢٧) وقال «يريد الله ان يخفف عنكم (النساء ٢٨) وقال ويهديكم سنن الذين من قبلكم (النساء ـ ٢٦) اضف الى ذلك ان هناك قرينة واضحة على تحقق الارادة بشهادة ان الاية في مقام المدح والثناء .

واما الاتيان بصيغة المستقبل والعدول عن الماضي فهو لاجل ظهور فعل المستقبل في الدوام وهو سبحانه يريد افادة دوام هذه الارادة واستمرارها مدى الايام والسنين .

السؤال الخامس : هل الاذهاب يستلزم الثبوت !

خلاصة هذا السؤال ترجع الى ان الاذهاب يتعلق بشيء موجود ، فعلى ذلك يستلزم ان يكون هناك رجس موجود اذهبه الله وطهرهم منه ، وهذا يضاد مقالة اهل العصمة . ولكن السائل او المعترض غفل عن ان هذه التراكيب كما تستعمل في اذهاب الشيء الموجود، كذلك تستعمل فيما اذا لم يكن موجوداً ولكن كانت هناك مقتضيات ومعدات له حسب الطبيعة الانسانية وان لم يكن موجوداً

(١) الصراط المستقيم ج ١ ص١٨٤ .

بالفعل كقول الانسان لغيره : اذهب الله عنك كل مرض . ولم يكن حاصلا له ، ولكن كانت بعض المعدات للمرض موجودة. وفي المقام نزيد توضيحاً : ان الانسان حسب الطبيعة الاولية مجهز بالغرائز والميول العادية المتجاوزة عن الحدود ، ولم يشذ اهل البيت عنها ولم تكن لهم في العالم الجسماني خلقة خاصة بهم فكانت هناك ارضية صالحة للتعدي والطغيان ، فلما جهزوا بهذه الغرائز اولا ، ثم بالعصمة - بالمعنى الذي عرفت - ثانياً صح ان يقال : انه سبحانه اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً من العصيان .

وهذه الاسئلة واشباهها لاتحتاج الى البسط في المقال ولاجل ذلك نطوي الكلام عنها وندخل في بحث آخر وهو من اهم الابحاث المتعلقة بالاية .

٣ - مفهوم اهل البيت :

التعرف على مفهوم اهل البيت لغة ، اولا : وعلى المقصود منه في هذه الاية ثانياً ، يعد من الابحاث الضرورية في فهم مفادها فمن ضل في تفسير الاية فانما ضل من هذا الجانب ضلالا مبيناً ولاجل ذلك نبحث عن تحديد هذا المفهوم لغة على وجه يرفع الستار عن وجه الحقيقة .

اهل البيت عند اللغة :

قد ورد لفظ اهل البيت في القرآن مرتين احداهما : في هذه الاية والاخرى في قوله تعالى : «قالوا اتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد» (هود - ٧٣) وقد جاء هذا اللفظ مركباً من كلمتين ولكل مفهوم ويمكن تحديد مفهوم «الاهل» من موارد استعماله فيقال : ١ - اهل الامر والنهي . ٢ - اهل الانجيل . ٣- اهل الكتاب . ٤- اهل الاسلام . ٥ - اهل الرجل ٦ - اهل الماء . وهذه الموارد توقفنا على ان كلمة «اهل» تستعمل مضافاً فيمن كان له علاقة قوية بمن اضيف اليه فاهل الامر والنهي هم الذين يمارسون الحكم

والبعث والزجر ، واهل الانجيل هم الذين لهم اعتقاد به كاهل الكتاب واهل الاسلام

وقد اتفقت كلمة اهل اللغة على ان الاهل والآل كلمتان بمعنى واحد قال ابن منظور : آل الرجل : اهله وآل الله وآل رسوله : اولياؤه ، اصلها اهل ثم ابدلت الهاء همزة فصارت فى التقدير أأل فلما توالت الهمزتان ابدلوا الثانية الفاً . كما قالوا : آدم وآخر ، وفى الفعل آمن وآزر .

وقد انشأ عبدالمطلب عند هجوم ابرهة على مكة المكرمة وقد اخذ حلقة باب الكعبة وقال :

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

وعلى ماذكرنا فهذا اللفظ اذا اضيف الى شيىء يقصد منه المضاف الذى له علاقة خاصة بـالمضاف اليه ، فاهل الرجل مثلا هم اخص الناس به ، واهل المسجد ، المترددون كثيراً اليه ، واهل الغابة القاطنون فيها . . . فاذا لاحظنا موارد استعمال هذه الكلمة لانتردد فى شمولها للزوجة والاولاد ، بل وغيرهم ممن تربطهم رابطة خاصة بالبيت من غير فرق بين الاولاد والازواج ، ولاجل ذلك ترى انه سبحانه يطلقه على زوجة ابراهيم كما عرفت فى الاية .

هذا هو حق الكلام فى تحديد مفهوم هذا الكلمة ، ولنأت ببعض نصوص ائمة اللغة ، قال ابن منظور : اهل البيت سكانه ، واهل الرجل اخص الناس به ، واهل بيت النبى ، ازواجه وبناته وصهره ، اعنى عليا (عليه السلام) ، وقيل : نساء النبى والرجال الذين هم آله . (١)

فلقد احسن الرجل فى تحديد المفهوم اولا ، وتوضيح معناه فى القرآن الكريم كما اشار بقوله : قيل : الى ضعف القول الاخر لانه نسبه الى القيل .

وقال ابن فارس ناقلا عن الخليل بن احمد : اهل الرجل زوجه ، والتأهل التزوج واهل الرجل اخص الناس به ، واهل البيت سكانه واهل الاسلام من يدين به . (٢)

(١) لسان العرب ج ١١ ص ٢٩ «اهل»

(٢) معجم مقاييس اللغة ج١ ص ١٥٠

وقال الراغب في مفرداته : اهل الرجل من يجمعه واياهم نسب او دين او ما يجرى مجراهما من صناعة وبيت وبلد ، فاهل الرجل في الاصل من يجمعه واياهم مسكن واحد ، ثم تجوز به فقيل اهل بيت الرجل لمن يجمعه واياهم النسب وتعورف في اسرة النبى عليه الصلاة والسلام مطلقاً اذا قيل اهل البيت . (١)

وقال صاحب القاموس : اهل الامر : ولاته ، وللبيت سكانه ، وللمذهب من يدين به ، وللرجل زوجته كاهله وللنبى ازواجه وبناته وصهره على رضى الله تعالى عنه ، او نساؤه والرجال الذين هم آله . (٢)

هذه الكلمات ونظائرها بين اعلام اهل اللغة كلها تعرب عن ان مفهوم اهل البيت في اللغة هم الذين لهم صلة وطيدة بالبيت ، واهل الرجل من له صلة به بنسب اوسبب اوغيرهما .

هذا هو الحق الذي لامرية فيه والعجب ممن ينقل هذه النصوص من ائمة اللغة وغيرهما ثم يستظهر ان اهل البيت يطلق اصلا على الازواج خاصة ثم يستعمل في الاولاد والاقارب تجوزاً ، ثم يقول هذا ما يثبت من القرآن الكريم كما وردت هذه اللفظة في قصة ابراهيم بالبشرى فقال الله عزوجل في سياق الكلام «وامراته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب قالت ياويلتى أألد وانا عجوز وهذا بعلى شيخاً ان هذا لشيىء عجيب قالوا اتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت» (هود - ٧٣) ثم قال : فاستعمل الله عزوجل هذه اللفظة على لسان ملائكته في زوجة ابراهيم عليه السلام لاغير . وهكذا قال الله عزوجل في كلامه المحكم في قصة موسى عليه الصلاة والسلام «فلما قضى موسى الاجل وسار باهله آنس من جانب الطور ناراً قال لاهله امكثوا انى آنست ناراً» (القصص -٣٠) فالمراد من الاهل زوجة موسى عليه السلام وهى بنت شعيب . (٣)

---

(١) المفردات للراغب ص٢٩

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادى ج ٣ ص٣٣١

(٣) الشيعة واهل البيت . لاحسان الهى ظهير ص١٦-١٧

نحن نسأل الكاتب من اين استظهر من كلمات اهل اللغة ان «الاهل» تطلق اصلا على الازواج خاصة ، ثم تستعمل فى الاولاد تجوزاً ؟

أليس قد تقدم لنا كلام ابن منظور : اهل الرجل اخص الناس به ؟ أليس الاولاد اخص الناس بالرجل؟ ومن فسره بقوله : اهل الرجل زوجه لا يريد اختصاصه بالزوج بل يشير الى احد موارد استعماله ولاجل ذلك يستدركه ويصرح بقوله: اهل الرجل اخص الناس به .

ثم نسأله عن دلالة الايتين على اختصاص الاهل بالازواج وهل فى منطق اللغة والادب جعل الاستعمال دليلا على الانحصار فلاشك ان الاهل فى الايتين اطلق على الزوجة ، وليس الاطلاق دليلا على الانحصار ، على انه اطلق فى قصة الخليل واريد الزوجة والزوج معاً اى نفس الخليل بشهادة قوله تعالى : «عليكم اهل البيت» ، والاتيان بضمير الجمع المذكر ، وارادة واحد منهما وحمل الخطاب العام على التعظيم ، لاوجه له فى المقام .

وحصيلة الكلام ان مراجعة كتب اللغة وموارد استعمال الكلمة فى الكتاب والسنة تعرب عن ان مفهوم «الاهل» هو المعنى العام وهو يشمل كل من له صلة بالرجل والبيت صلة وطيدة مؤكدة من نسب اوسبب اوغير ذلك من غير فرق بين الزوجة والاولاد وغيرهم، وان تخصيصها بالزوجة قسوة على الحق، كما ان تخصيصها لغة بالاولاد واخراج الازواج يخالف نصوص القرآن واستعمالها كما عرفت فى الايات الماضية .

هذا هو الحق فى تحديد المفهوم ، فهلم معى نبحث عما هو المراد من هذا المفهوم فى الاية الكريمة وهل اريد منه كل من انتمى الى البيت من ازواج واولاد اوأن هناك قرائن خاصة على ان المقصود قسم من المنتمين اليه ؟ وليس هذا بشيىء غريب لان المفهوم العام قد يطلق ويراد منه جميع الاصناف والاقسام كما يطلق ويراد منه حسب القرائن بعضهم وقد عرفت ان المراد من الاهل فى قصة موسى زوجته وفى قصة ابراهيم وزوجته ، وعلى هذا لاشك فى شمول كلمة

اهل البيت للزوجة و الاولاد وغيرهما الا ان تقوم قرائن على ان المراد صنف خاص والمدعى انه قد قامت القرائن على ارادة صنف خاص منهم وتتبين فى البحث الاتى:

٤ - ماهو المراد من اهل البيت

اختلف المفسرون فى بيان ماهو المراد من «اهل البيت» فى الاية المباركة على اقوال ، غير ان العبرة بقولين والاقوال الاخر شاذة لا يعبأ بها وانما اختلفت لحل الاشكالات الواردة على القول الثانى كما سيوافيك بيانها فى آخر البحث .

١- المراد بنت النبى وصهره وولداهما الحسن والحسين عليهم السلام

٢- نساء النبى صلى الله عليه وآله (١)

و لابد من امعان النظر فى تعيين المراد بعد قابلية اللفظ لشمول كلتا الطائفتين فيقول ان هناك قرائن تدل بوضوح على ان المراد من هذه الكلمة جماعة خاصة منتمين الى البيت النبوى بوشائج خاصة لا كل المنتمين اليه واليك تلك القرائن

القرينة الاولى : اللام فى «اهل البيت» للعهد

لاشك ان اللام قد تطلق ويراد منها الجنس المدخول كقوله سبحانه «ان الانسان لفى خر «وقد يطلق ويراد منها استغراق افراده كقوله سبحانه « يا ايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » (التوبه - ٧٣) وثالثة تستعمل فى العهد باعتبار معهودية مدخولها بين المتكلم والمخاطب .

ولا يمكن حمل اللام فى «البيت» على الجنس او الاستغراق لان الاول انما يناسب اذا اراد المتكلم بيان الحكم المتعلق بالطبيعة كما يعلم من تمثيلهم لذلك بقوله تعالى « ان الانسان خلق هلوعاً » (المعارج - ١٩) ومن المعلوم ان الاية الكريمة ليست لصدد بيان حكم طبيعة (اهل البيت) كما لا يصح ان يحمل على

(١) وهناك اقوال اخر شاذة جدا ستوافيك فى مختتم البحث

العموم اى : جميع البيوت فى العالم او بيوت النبى و الا لناسب الاتيان بصيغة الجمع فيقول اهل البيوت كما اتى به عندما كان فى صدد افادة ذلك وقال فى صدر الاية « وقرن فى بيوتكن » فتعين ان يكون المراد هو الثالث اى البيت المعهود فالاية تشير الى اذهاب الرجس عن اهل بيت خاص معهود بين المتكلم والمخاطب وحينئذ يقع الكلام فى تعيين هذا البيت المعهود. فما هو هذا البيت ؟ هل هو بيت ازواجه ، ام بيت فاطمة وزوجها والحسن والحسين (ع) ؟ لاسبيل الى الاول ، لانه لم يكن لازواجه بيت واحد حتى تشير اللام اليه بل تسكن كل واحدة فى بيت خاص ، ولو اريد واحداً من بيوتهن لاختصت الاية بواحدة منهن . وهذا ما اتفقت الامة على خلافه .

اضف الى ذلك انه على هذا يخرج بيت فاطمة مع ان الروايات ناطقة بشمولها وانما الكلام فى شمولها لازواج النبى كما سيوافيك بيانه .

هذا كله على تسليم ان المراد من البيت هو البيت المبنى من الاحجار و آلاجر والاخشاب فقد عرفت ان المتعين حمله على بيت خاص معهود ولا يصح الاعلى حمله على بيت فاطمة اذ ليس هناك بيت خاص صالح لحمل الاية عليه. واما لو قلنا بان البيت قد يطلق ويراد منه تارة هذا النسق كما فى قوله تعالى «وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى» واخرى غير هذا النمط من البيت ، مثل قول القائل «بيت النبوة» و«بيت الوحى» تشبيها لهما على المحسوس فلا محيص ان يراد منه المنتمون الى النبوة والوحى بوشائج معنوية خاصة على وجه يصح مع ملاحظتها، عدهم اهلا لذلك البيت ، وتلك الوشائج عبارة عن النزاهة فى الروح والفكر. ولا يشمل كل من يرتبط ببيت النبوة عن طريق السبب او النسب فحسب، وفى الوقت نفسه يفتقد الاواصر المعنوية الخاصة ولقد تفطن العلامة الزمخشرى صاحب التفسير لهذه النكتة فهو يقول فى تفسير قوله تعالى «أتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت» (هود ٧٠) لانها كانت فى بيت الايات ومهبط المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان عليها ان تتوقر و لا يزدهيها مايزد هى سائر النساء الناشئات فى غير بيوت النبوة ، و ان

تسبح الله وتمجده مكان التعجب والى ذلك اشارت الملائكة فى قولها « رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت » ارادوا ان هذه وامثالها ممايكرمكم به رب العزة ويخصكم بالانعام به يا اهل بيت النبوة . (١)

وعلى ذلك لايصح تفسير الاية بكل المنتسبين عن طريق الاواصر الجسمانية بيت خاص حتى بيت فاطمة الا ان تكون هناك الوشائج المشار اليها ، ولقد ضل من ضل فى تفسير الاية بغير تلك الجماعة عليها السلام فحمل البيت فى الاية على البيت المبنى من حجر ومدر مع ان المراد غيره .

ولقد جرى بين قتادة ذلك المفسر المعروف وبين ابى جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام محادثة لطيفة ارشده الامام فيها الى هذا المعنى الذى اشرنا اليه ، قال عند ما جلس أمام الباقر عليه السلام : لقد جلست بين يدى الفقهاء و قدام ابن عباس فما اضطرب قلبى قدام واحد منهم مااضطرب قدامك . قال له ابوجعفر الباقر عليه السلام ويحك اتدرى اين انت ؟ انت بين يدى : «بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكوة» فانت ثم ونحن اولئك . فقال له قتادة : صدقت والله جعلنى الله فداك، والله ماهى بيوت حجارة ولاطين(٢)

وهذه القرينة تحض المفسر على التحقيق عن الافراد الذين يرتبطون بالبيت باواصر معينة وبذلك يسقط القول بان المراد منه ازواج النبى ﷺ لانه لم تكن تلك الوشائج الخاصة باتفاق المسلمين بينهم واقصى ما عندهن انهن كن مسلمات مؤمنات .

القرينة الثانية : تذكير الضمائر :

نرى انه سبحانه عندمايخاطب ازواج النبى يخاطبهن حسب المعتاد بضمائر

(١) الكشاف ج ٢ ص ١٠٧

(٢) لكافى ج ٦ ص٢٥٦ - ٢٥٧

التأنيث ولكنه عند مايصل الى قوله: انما يريدالله ليذهب . . .) يغير الصيغة الخطابية في التأنيث ويأتي بصيغة التذكير فما السر في تبديل الضمائر لو كان المراد ازواج النبي ؟ واليك نص الآيات :

«يانساء النبي لستن كاحد من النساء ان أتقيتن فلاتخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفاً» . (الاحزاب ـ ٣٢)

«وقرن في بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى وأقمن الصلوة وآتين الزكوة واطعن الله ورسوله انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً» (٣٣) .

«واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفاً خبيراً» (٣٤) .

ترى انه سبحانه يخاطبهن في الاية الاولى بهذه الخطابات : ١ ـ لستن ٢ـ اتقيتن ٣ـ فلاتخضعن ٤ـ وقلن . ويخاطبهن في الاية الثانية بهذه الخطابات : ١ـ قرن ٢ـ بيوتكن ٣ـ تبرجن ٤ـ اقمن ٥ ـ آتين ٦ـ اطعن . كما يخاطبهن في الاية الثالثة بقوله : ١ـ واذكرن ٢ـ بيوتكن .

وفي الوقت نفسه يتخذ في ثنايا الاية الثانية موقفاً خاصاً في الخطاب ويقول: ١ـ عنكم ٢ـ يطهركم ـ فما وجه هذا العدول اذا كان المراد نساء النبي ؟

أو ليس هذا يدل على ان المراد ليس نساءه صلى الله عليه وآله .

وقد حاول القرطبي التفصّي عن الاشكال فقال : ان تذكير الضمير يحتمل لان يكون خرج مخرج «الاهل» كما يقول لصاحبه : كيف اهلك اي امرأتك ونساؤك فيقول هم بخير قال الله تعالى : «اتعجبين من امر الله ورحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت» . (١)

ولكن المحاولة فاشلة فان ماذكره من المثال على فرض سماعه من العرب ، انما اذا تقدم «الاهل» وتأخر الضمير، دون العكس كما في الاية فان احد الضميرين

(١) جامع الاحكام ج١٤ ص١٨٢

مقدم على لفظ «الاهل» فى الاية كما يقول : «عنكم الرجس اهل البيت». واما الاستشهاد بالاية فغير صحيح، لان الخطاب فيها لابراهيم وزوجته فيصح التغليب تغليب الاشرف على غيره فى الخطاب والمفروض فى المقام ان الاية نزلت فى زوجاته ونسائه خاصة فلامعنى للتغليب.

نعم انما تصح فكرة التغليب لوقيل بان المراد منه ، هو اولاده وصهره وزوجاته وهو قول ثالث سنبحث عنه فى مختتم البحث وسيوافيك ان بقية الاقوال كلها مختلفة لتصحيح الاشكالات الواردة على النظرية الثانية ، فلاحظ .

القرينة الثالثة : الارادة تكوينية لاتشريعية :

قدسبق منا الاستدلال على ان المراد من الارادة فى قوله : انما يريدالله... الارادة التكوينية . التى لاينفك المراد فيها عن الارادة وتكون متحققة وثابتة فى الخارج، وبما ان المراد هوازهاب الرجس واثبات التطهير وتجهيزهم بالاسباب والمعدات المنتهية الى العصمة ، فلايصح ان يراد من اهل البيت ازواج النبى اذ لم يدّع احد من المسلمين كونهن معصومات من الذنب ومطهرات من الزلل . فلا مناص عن تطبيقه على جماعة خاصة من المنتمين الى البيت النبوى الذين تحقق فيهم تعلقهم بالاسباب والمقتضيات التى تنتهى بصاحبها الى العصمة ولاينطبق هذا الاعلى الامام على عليه السلام وزوجته والحسنين عليهم السلام لان غيرهم مجمع على عدم اتصافهم بهذه الاسباب .

القرينة الرابعة ان الايات المربوطة بازواج النبى تبتدى من الاية ٢٨ وتنتهى بالاية ٣٤ وهى تخاطبهن تارة بلفظ «الازواج» ومرتين بلفظ «نساء النبى» الصريحين فى زوجاته فما هو الوجه فى العدول عنهما الى لفظ «اهل البيت» . اذليس العدول قرينة على ان المخاطب به غير المخاطب بهما ؟ فتامل .

٥ - اهل البيت فى كلام النبى الاكرم :

ان للنبى الاكرم عناية وافرة بتعريف اهل البيت لم يرمثلها الا فى اقل

الموارد حيث قام بتعريفهم بطرق مختلفة سيوافيك بيانها ، كما ان للمحدثين و المفسرين واهل السير والتاريخ عناية كاملة بتعريف اهل بيت نبيه ﷺ فى مواضع مختلفة حسب المناسبات التى تقتضى طرح هذه المسألة كما أن للشعراء الاسلاميين المخلصين فى طوال قرون ، عناية بارزة ببيان فضائل اهل البيت والتعريف بهم، والتصريح باسمائهم على وجه يظهر من الجميع اتفاقهم على نزول الآية فى حق العترة الطاهرة وسيوافيك نزر من شعرهم فى مختتم البحث .

كل ذلك يعرب عن ان الرأى العام بين المسلمين فى تفسير اهل البيت هو القول الاول وان القول بان المقصود منهم زوجاته كان قولا شاذاً متروكا ينقل ولا يعتنى به ولم ينحرف عن ذلك الطريق المهيع الا بعض من اتخذ لنفسه تجاه اهل البيت موقفاً يشبه موقف اهل العدا ، والنصب .

قام النبى بتعريف اهل البيت بطرق ثلاثة نشير اليها .

١ ـ صرح باسماء من نزلت الاية فى حقهم حتى يتعين المنزول فيه باسمه ورسمه .

٢ ـ قد ادخل جميع من نزلت الاية فى حقهم تحت الكساء ومنع من دخول غيرهم واشار بيده الى السماء وقال : « اللهم ان لكل نبى اهل بيت و هؤلاء اهل بيتى » كما سيوافيك نصه .

٣ ـ كان يمر ببيت فاطمة عدة شهور كلما خرج الى الصلاة فيقول: الصلاة اهل البيت «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً».

وبهذه الطرق الثلاثة حدد افراد اهل البيت و عين مصاديقهم على وجه يكون جامعاً لهم ومانعا عن غيرهم ونحن ننقل ماورد حول الطرق الثلاثة فى التفسيرين : الطبرى والدر المنثور للسيوطى ، ثم ناتى بماورد فى الصحاح الستة حسب ماجمعه ابن الاثير الجزرى فى كتابه «جامع الاصول» و اخيراً نشير الى الجوامع التى جمعت فيها احاديث الفريقين حول نزول الاية فى حق الخمسة الطيبة، ونترك الباقى الى القارىء الكريم فان البحث قرآنى لاحديثى والاستيعاب

فى الموضوع يحوجنا الى تأليف مفرد .

الطائفة الاولى : التصريح باسمائهم :

١ - روى الطبرى : عن ابى سعيدالخدرى قال: قالرسول الله ﷺ : نزلت هذه الاية فى خمسة : فىّ وفى علىّ رضى الله عنه وحسن رضى الله عنه وحسين رضى الله عنه وفاطمة رضى الله عنها «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً » .

٢- عن ابى سعيد عن ام سلمة زوج النبى ﷺ ان هذه الاية نزلت فى بيتها « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً » قالت وانا جالسة على باب البيت فقلت : انا يارسول الله الست من اهل البيت ؟ قال انك الى خير انت من ازواج النبى ﷺ قالت : وفى البيت رسول الله ﷺ وعلى وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم .

وفى الدر المنثور مايلى

٣- روى السيوطى عن ابن مردويه عن ام سلمة قالت: نزلت هذه الاية فى بيتى « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً » وفى البيت سبعة جبريل وميكائيل عليهما السلام وعلى وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم وانا على باب البيت قلت يا رسول الله الست من اهل البيت . قال انك الى خير انك من ازواج النبى ﷺ .

٤ - السيوطى : واخرج ابن جرير وابن ابى حاتم والطبرانى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : نزلت هذه الاية فى خمسة : فىّ وفى على وفاطمة وحسن وحسين «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» .

* * *

الطائفة الثانية :

أدخالهم تحت الكساء او«مرط اوثوب» او «عباءة اوقطيفة» : فقدوردحوله هذه الروايات :

٥ ـ اخرج الطبرى قال : قالت عائشة : خرج النبى ﷺ ذات غداةوعليه مرط مرجل من شعراسود فجاء الحسن فادخله معه ثم جاء على فادخله معه ثم قال «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» .

٦ ـ اخرج الطبرى قال : عن ام سلمة قالت : كان النبى ﷺ عندىوعلى وفاطمة والحسن والحسين فجعلت لهم خزيرة فاكلوا وناموا وغطى عليهم عباءة او قطيفة ثم قال : اللهم هؤلاء اهل بيتى اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

٧ ـ اخرج الطبرى : ابوعمار قال : انى لجالس عند وائلة بن الاسقع اذ ذكروا علياً رضى الله عنه فشتموه فلما قاموا قال اجلس حتى اخبرك عن هذاالذى شتموا ، انى عندرسول الله ﷺ اذجاءه على وفاطمة وحسن وحسين فالقى عليهم كساءله ثم قال : اللهم هؤلاء اهل بيتى، اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»

٨ ـ اخرج الطبرى : ابوعمارقال : سمعت وائلةبن الاسقع يحدث قال سألت عن على بن ابى طالب فى منزله فقالت فاطمة : قدذهب يأتى برسول الله ﷺ اذجاء فدخل رسول الله ﷺ ودخلت فجلس رسول الله ﷺ على الفراش واجلس فاطمةعن يمينه وعليا عن يساره وحسناً وحسيناً بين يديه فلفع عليهم بثوبه وقال:«انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» اللهم هؤلاء اهلى اللهم اهلى .

٩ ـ أخرج الطبرى : عن ابى سعيد الخدرى عن ام سلمة قالت : لما نزلت هذه الاية : «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً»، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً،فجلّل عليهم كساءاً خيبرياًفقال : اللهم هؤلاء اهل بيتى اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، قالت : ام سلمة قلت الست منهم ؟ . قال : انت الى خير .

١٠ - اخرج الطبرى : عن ابى هريرة عن ام سلمة : قالت : جاءت فاطمة الى رسول الله ﷺ ببرمة لها قدصنعت فيها عصيدة تحلها على طبق فوضعته بين يديه فقال : اين ابن عمك ؟! وابناك ؟ فقالت فى البيت فقال : ادعيهم فجاءت الى على فقالت : اجب النبى ﷺ انت وابناك قالت ام سلمة فلما رآهم مقبلين مديده الى كساء كان على المنامة فمده وبسطه واجلسهم عليه ثم اخذ باطراف الكساء الاربعة بشماله فضمه فوق رؤسهم واومأ بيده اليمنى الى ربه فقال : هؤلاء اهل البيت فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

١١ - اخرج الطبرى : عن عمر بن ابى سلمة قال : نزلت هذه الاية على النبى ﷺ فى بيت ام سلمة : «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» فدعاحسنا وحسيناً وفاطمة فاجلسهم بين يديه ، ودعا علياً فاجلسه خلفه فتجلّل هووهم بالكساء ثم قال: هؤلاء اهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . قالت ام سلمة انامعهم ، قال : مكانك وانت على خير .

١٢ - اخرج الطبرى: قال عامر بن سعد قال : قال سعد : قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحى فاخذ علياً وابنيه وفاطمة وادخلهم تحت ثوبه ثم قال : رب هؤلاء اهلى واهل بيتى .

١٣ - اخرج الطبرى : عن حكيم بن سعد قال : ذكرنا على بن ابى طالب رضى الله عنه عندام سلمة قالت : فيه نزلت «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً » قالت ام سلمة : جاء النبى ﷺ الى بيتى فقال : لاتاذنى لاحد ، فجاءت فاطمة فلم استطع ان احجبها عن ابيها ، ثم جاء الحسن فلم استطع ان امنعه ان يدخل على جده وامه وجاء الحسين فلم استطع ان احجبه ، فاجتمعوا حول النبى ﷺ على بساط فجللهم نبى الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال : هؤلاء اهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، فنزلت هذه الاية حين اجتمعوا على البساط . قالت : فقلت يارسول الله وانا ؟ قال : انك الى خير .

١٤ - روى السيوطى : قال : واخرج ابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم

والطبرانى وابن مردويه عن ام سلمة : رضى الله عنها زوج النبى ﷺ ان رسول الله ﷺ كان ببيتها على منامة له عليه كساء خيبرى، فجاءت فاطمة رضى الله عنها ببرمة فيها خزيرة فقال رسول الله ﷺ : ادعى زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فبينما هم يأكلون اذ نزلت على رسول الله ﷺ : «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً» فاخذ النبى ﷺ بفضلة ازاره فغشاهم اياها ثم اخرج يده من الكساء واومأ بها الى السماء ثم قال: اللهم هؤلاء اهل بيتى وخاصتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالها ثلاث مرات. قالت ام سلمة رضى الله عنها: فادخلت رأسى فى الستر فقلت يارسول الله وانا معكم ؟ فقال انك الى خير مرتين .

١٥ ـ روى السيوطى : واخرج الطبرانى عن ام سلمة رضى الله عنها : ان رسول الله ﷺ قال لفاطمة رضى الله عنها : أئتنى بزوجك وابنيه فجاءت بهم فالقى رسول الله ﷺ عليهم كساءاً فدكياً ثم وضع يده عليهم ثم قال : اللهم ان هؤلاء اهل محمد (وفى لفظ : آل محمد) فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل ابراهيم انك حميد مجيد . قالت ام سلمة رضى الله عنها : فرفعت الكساء لادخل معهم فجذبه من يدى وقال : انك على خير .

١٦ ـ روى السيوطى : واخرج الطبرانى عن ام سلمة رضى الله عنها قالت : جاءت فاطمة رضى الله عنها الى أبيها بثريدة لها تحملها فى طبق لها حتى وضعتها بين يديه فقال لها اين ابن عمك ؟ قالت : هو فى البيت . قال : اذهبى فادعيه وابنيك فجاءت تقود ابنيهما كل واحد منهما فى يد وعلى رضى الله عنه يمشى فى اثرهما حتى دخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسهما فى حجره وجلس على رضى الله عنه عن يمينه وجلست فاطمة رضى الله عنها عن يساره قالت ام سلمة رضى الله عنها فاخذت من تحتى كساء كان بساطنا على المنامة فى البيت (١) .

١٧ ـ روى السيوطى : واخرج ابن مردويه والخطيب عن ابى سعيد الخدرى

(١) واجمال الحديث وابهامه يرتفع بالرجوع الى سائر ماروى عن ام سلمة فى ذلك المضمار.

رضى الله عنه قال : كان يوم ام‌سلمة ام‌المؤمنين رضى الله عنها فنزل جبرئيل(ع) على رسول‌الله ﷺ بهذه الاية «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» قال: فدعا رسول‌الله ﷺ بحسن وحسين وفاطمة وعلى فضمهم اليه ونشر عليهم الثوب ، والحجاب على ام سلمة مضروب ، ثم قال : اللهم هؤلاء اهل بيتى اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . قالت ام سلمة رضى الله عنها فانا معهم يانبى الله ؟ قال : انت على مكانك وانك على خير .

١٨ - روى السيوطى : واخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه من طرق عن ام‌سلمة رضى الله عنها قالت : فى بيتى نزلت : «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت» وفى البيت فاطمة وعلى والحسن والحسين فجلّلهم رسول‌الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال: هؤلاء اهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

١٩ - روى السيوطى : و اخرج ابن ابى شيبة واحمد ومسلم وابن جرير وابن ابى حاتم والحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : خرج رسول‌الله ﷺ غداة وعله مرط مرجل من شعر اسود فجاء الحسن والحسين رضى الله عنهما: فادخلهما معه ثم جاء على فادخله معه ثم قال «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» .

٢٠ - روى السيوطى : واخرج ابن جرير و الحاكم وابن مردويه عن سعد قال : نزل على رسول الله ﷺ الوحى فادخل علياً وفاطمة و ابنيهما تحت ثوبه ثم قال : اللهم هؤلاء اهلى واهل بيتى .

٢١- روى السيوطى : واخرج ابن ابى شيبة واحمد وابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن واثلة بن الاسقع رضى الله عنه قال : جاء رسول‌الله ﷺ الى فاطمة ومعه حسن وحسين وعلى حتى دخل فادنى علياً و فاطمة فاجلسهما بين يديه واجلس حسنا وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه وانا مستدبرهم . تم تلا هذه‌الاية : «انما يريد

الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً».

الطائفة الثالثة : تعيينهم بتلاوة الاية على بابهم :

٢٢ ـ اخرج الطبرى : عـن انس ان النبى ﷺ كان يمر ببيت فاطمة ستة اشهر كلما خرج الى الصلاة فيقول : الصلاة اهل البيت «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً».

٢٣ـ اخرج الطبرى: اخبرنى ابوداود عن ابى الحمراء قال : رابطت المدينة سبعة اشهر على عهد النبى ﷺ قال : رأيت النبى ﷺ اذا طلع الفجر جاء الى باب على وفاطمة فقال : الصلاة الصلاة «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً».

٢٤ ـ اخرج الطبرى : عن يونس بن ابى اسحاق باسناده عن النبى ﷺ مثله.

٢٥ ـ روى السيوطى: اخرج ابن ابى شيبة واحمد والترمذى وحسّنه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن انس رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضى الله عنها اذا خرج الى صلاة الفجر ويقول : الصلاة ياهل البيت «انمـا يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً».

٢٦ ـ روى السيوطى : اخرج ابن مردويه عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : لما دخل على رضى الله عنه بفاطمة رضى الله عنها جاء النبى ﷺ اربعين صباحاً الى بابها يقول : السلام عليكم اهل البيت ورحمة الله وبركاته ، الصلاة رحمكم الله ، «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» انا حرب لمن حاربتم ، انا سلم لمن سالتم .

٢٧ ـ روى السيوطى : اخرج ابن جرير وابن مردويه عـن ابى الحمراء رضى الله عنه قال حفظت من رسول الله ﷺ ثمانية اشهر بالمدينة ليس مـن مرة يخرج الى صلاة الغداة الا اتى الى باب على رضى الله عنه فوضع يده على جنبتى

الباب ثم قال : الصلاة الصلاة ، «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» .

٢٨ - روى السيوطى : واخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : شهدنا رسول الله ﷺ تسعة اشهر يأتى كل يوم باب على بن ابى طالب رضى الله عنه عند وقت كل صلاة . فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته اهل البيت «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» الصلاة رحمكم الله كل يوم خمس مرات .

٢٩ - روى السيوطى : واخرج الطبرانى عن ابى الحمراء رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ يأتى باب على وفاطمة ستة اشهر فيقول : «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» . (١)

جولة حول مارواه العلمان :

قد تعرفت على اكثر مارواه الطبرى والسيوطى فى تفسيرهما وتركنا بعض مانقلاه فى ذلك المجال عن اعلام التابعين وما رويناه ينتهي اسناده الى اقطاب الحديث من الصحابة وعيون الاثر وهم :

١ - ابوسعيد الخدرى ٢ - انس بن مالك ٣ - ابن عباس ٤ - ابوهريرة الدوسى ٥ - سعد بن ابى وقاص ٦ - واثلة بن الاسقع ٧ - ابو الحمراء ، اعنى هلال بن الحارث ٨ - امهات المؤمنين : عائشة وام سلمة .

أبعد هذا يصح لمناقش ان يشك فى صحة نزولها فى حق العترة الطاهرة ؟ وليس الطبرى والسيوطى فريدين فى نقل تلك المأثورة ، بل سبقهما ، اصحاب الصحاح والمسانيد فنقلوا نزول الاية فى حقهم صريحاً او كناية ولا بأس بنقل ماجاء فى خصوص الصحاح حتى يعضد بعضه بعضا فنقول :

---

(١) لاحظ فى الوقوف على مصادر هذه الروايات تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ٥-٧ والدر المنثور ج ٥ ص ١٩٨-١٩٩

٣٠ ـ اخرج الترمذى : عن سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الاية «فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناء كم ونساءنا ونساء كم» (آل عمران ـ ٦١) الاية دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء اهلى» .

٣١ ـ اخرج الترمذى : عن ام سلمة رضى الله عنها : قالت : «ان هذه الاية نزلت فى بيتى «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» (الاحزاب ـ ٣٣) قالت : وانا جالسة عند الباب فقلت : يا رسول الله : الست من اهل البيت ؟ فقال : انك الى خير ، انت من ازواج رسول الله ﷺ . قالت : وفى البيت رسول الله ﷺ وعلى وفاطمة وحسن وحسين . فجللهم بكسائه وقال : اللهم هؤلاء اهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . وفى رواية ان النبى ﷺ جلل على الحسن والحسين وعلى وفاطمة ثم قال : اللهم هؤلاء اهل بيتى وحامتى اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . قالت ام سلمة : وانا معهم يا رسول الله ؟ قال انك الى خير .

٣٢ ـ اخرج الترمذى : عن عمر بن ابى سلمة قال : نزلت هذه الاية على النبى ﷺ «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» (الاحزاب ـ ٣٣) فى بيت ام سلمة، فدعا النبى ﷺ فاطمة وحسنا وحسيناً فجللهم بكساء و على خلف ظهره ثم قال : اللهم هؤلاء اهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . قالت ام سلمة : وانامعهم يانبى الله ؟ قال : انت على مكانك و انت على خير .

٣٣ ـ اخرج الترمذى : عن انس بن مالك : ان رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة اذا خرج الى الصلاة حين نزلت هذه الاية قريباً من ستة اشهر يقول: الصلاة اهل البيت «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً».

٣٤ ـ اخرج مسلم : عن عائشة قالت : خرج النبى ﷺ وعليه مرط مرجل اسود فجاءه الحسن فادخله ، ثم جاءه الحسين فادخله ، ثم جاءت فاطمة فادخلها ثم جاء على فادخله ثم قال : «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس» الاية .

٣٥ - اخرج مسلم : عن زيد بن ارقم : قال يزيد بن حيان : انطلقت انا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم الى زيد بن ارقم ، فلما جلسنا اليه قال له حصين: لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً ، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه وصليت خلفه ، لقدلقيت يازيد خيراً كثيراً، حدثنا يازيد ما سمعت من رسول الله ﷺ ، قال يا ابن اخي : والله لقد كبرت سني ، وقدم عهدي ، ونسيت بعض الذي كنت اعي من رسول الله ﷺ ، فما حدثتكم فاقبلوا ومالا فلاتكلفونيه . ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيباً بماء يدعى : خما ، بين مكة والمدينة ، فحمدالله واثنى عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال : « اما بعد : الا ايها الناس ، انما انا بشر ، يوشك ان يأتيني رسول ربي فاجيب ، وانا تارك فيكم ثقلين اولهما : كتاب الله فيه الهدى و النور ، فخذوا بكتاب الله ، و استمسكوابه ، فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال : واهل بيتي، اذكركم الله في اهل بيتي، اذكركم الله في اهل بيتي ، اذكركم الله في اهل بيتي . فقال له حصين : ومن اهل بيته يازيد ؟ . أليس نساؤه من اهل بيته ؟ قال : نساؤه من اهل بيته . ولكن اهل بيته من حرم الصدقة بعده قال : ومن هم ؟ قال : آل علي ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم» زاد في رواية « كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به واخذ به كان على الهدى ومن اخطأه ضل .

وفي اخرى نحوه : غيرانه قال : «واني تارك فيكم ثقلين احدهما : كتاب الله وهوحبل الله فمن اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة . وفيها « فقلنا : من اهل بيته ؟ نساؤه قال : لا . وايم الله ان المرأة تكون مع الرجل العصرمن الدهر . ثم يطلقها فترجع الى ابيها وقومها ، اهل بيته : اصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . (١)

هذا ما رواه اصحاب الصحاح حول نزول الاية في حق العترة الطاهرة

---

(١) راجع الموقوف على هذه المأثورات جامع الاصول لابن الاثير الجزء العاشر ص١٠٠-١٠٣ وصحيح مسلم ج٧ ص١٢٢-١٢٣

وتركنا مارواه الامام احمد فى مسنده روماً للاختصار وفى هذا غنى وكفاية لمن رام الحق واتبعه وعرف الباطل فاجتنبه و من اراد التوسع فعليه الرجوع الى المصادر التالية :

١ ـ العمدة للمحدث الحافظ يحيى بن سعيد (المتوفى عام ٦٠٠) :المطبعة الحديثة (١) .

٢ ـ بحار الانوار ج ٣٥ ـ ص ٢٠٦ ـ ٢٢٦ .

٣ ـ غاية المرام ص ٢٨٧/ ٢٩٤ فقد اورد فيه واحداً واربعين حديثا من كتب اهل السنة واربعاً وثلاثين من كتب الشيعة .

٤ ـ تفسير البرهان ج ٣ ص ٣٠٩ـ٣٢٥ فقد اورد فيه خمساً وستين حديثاً

٥ ـ نور الثقلين ج ٤ ص ٢٧٠ ـ ٢٧٧ اورد فيه خمسة وعشرين حديثا .

٦ ـ احقاق الحق الاجزاء الثلاثة : ج٢ ص ٥٠٢ ـ ٥٤٤ فقد نقل نزول الاية فى حق العترة الطاهرة عن كتب اهل السنة حديثا وتفسيراً ثم استدرك مافاته فى الجزء التاسع والرابع عشر .

٧ ـ آية التطهير فى حديث الفريقين فقد استقصى فى جزء خاص الاحاديث الواردة حول الموضوع من طريق الفريقين شكر الله مساعى الجميع .

وبعد هذا ، حان حين البحث عن دلائل القول الاخر : وهو نزول الاية فى نسائه .

٦ـ نزولها فى نسائه عليه الصلاة والسلام :

قد تعرفت على دلائل القول وقرائنه ومؤيداته و احاديثه المتواترة التى اطبق على نقلها تسع واربعون(٢) صحابيا وصحابية من امهات المؤمنين ، وقد تلقته الامة بالقبول فى القرون الماضية ، و اما القول الثانى اعنى نزولها فى نسائه وزوجاته ﷺ فقد نسب الى اشخاص نقل عنهم ، منهم :

---

(١) حققت تحقيقا انيقاً وتم طبعها وسوف تنتشر بأذنه سبحانه (٢) سيوافيك مصدره

١ - ابن عباس :

٢ - عكرمة :

٣ - عروة بن الزبير :

٤ - مقاتل بن سليمان :

اما الاول : فقد نقل عنه تارة عن طريق سعيد بن جبير واخرى عن طريق عكرمة . قال السيوطي في الدر المنثور : واخرج ابن ابي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس عن قوله: انما يريد الله... قال: نزلت في نساء النبي ﷺ.

و قال ايضا : اخرج ابن مردويه عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نزلت في نساء النبي ﷺ .

واما الثاني، اعني عكرمة : فقد نقله عنه الطبري عن طريق «علقمة» وان عكرمة كان ينادي في السوق : «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس» . . . نزلت في نساء النبي ﷺ .

ونقل في الدر المنثور : اخرج ابن جرير و ابن مردويه عن عكرمة في قوله : « انما يريد الله ليذهب عنكم » . . انه قال ليس بالذي تذهبون اليه انما هو نساء النبي ﷺ .

واما الثالث ، اعني عروة بن الزبير: فقال السيوطي : واخرج ابن سعد عن عروة بن الزبير انه قال : «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت» قال : ازواج النبي نزلت في بيت عائشة .

واما الرابع : فقد نقل عنه في اسباب النزول . (١)

تحليل هذه القول :

اما نقله عن ابن عباس : فليس بثابت بل نقل عنه خلاف ذلك فقد نقل

---

(١) تفسير الطبري ج٢٢ ص٧ و٨ والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ج٥ ص١٩٨ واسباب النزول للواحدي ص٢٠٤

السيوطى فى الدرالمنثورقال : واخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : شهدنا رسول الله ﷺ تسعة اشهريأتى كل يوم باب على بن ابى طالب عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته اهل البيت « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً» .

وليس ابن مردويه فريداً فى هذا النقل ، فقد نقله عنه الحاكم الحسكانى فى شواهد التنزيل (١) بسند ينتهى الى أبى صالح عن ابن عباس : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً » نزلت فى رسول الله وعلى وفاطمة والحسن والحسين . والرجس : الشك .

كما نقله الحافظ الحسين بن الحكم الحبرى فى تنزيل الآيات عن أبى صالح بمثل ما سبق .

و ممن رواه عن ابن عباس صاحب ارجح المطالب ص ٥٤ طبع لاهور ، والعلامة اسماعيل النقشبندى فى مناقب العشرة (٢) .

اضف الى ذلك ان من البعيد أن يخفى على ابن عباس حبر الامة ما اطلع عليه عيون الصحابة وامهات المؤمنين وقد انهى بعض الفضلاء السادة (٣) عدد رواة الحديث من الصحابة الى تسع واربعين صحابياً . وجمعهما من مصادر الفريقين فى الفضائل والمناقب .

واما عكرمة :

فقد ثبت تقوّله بذلك كما عرفت لكن فى نفس كلامه دليلا واضحاً على ان الرأى العام يوم ذاك فى شأن نزول الآية هو نزولها فى حق فاطمة ، وانما تفرد

---

(١) شواهد التنزيل ج ٢ ص ٣٠

(٢) مناقب العشرة : « مخطوط » منه نسخة فى جامعة طهران لاحظ احقاق الحق ج ١٤ ص ٥٣

(٣) آية التطهير فى حديث الفريقين

هوبذلك . ولاجله رفع عقيرته فى السوق بقوله : «ليس بالذى تذهبون اليه وانما هو نساء النبى» اضف الى ذلك : ان تخصيص هذه الآية بالنداء فى السوق وانها نزلت فى نساء النبى يعرب عن موقفه الخاص بالنسبة الى من اشتهر نزول الآية فى حقهم والا فالمتعارف من الناس يجهر بالحقيقة بشكل معقول لابهذه الصورة المعربة عن الانحراف عنهم .

هذا كله حول ما نقل عنه . واما تحليل شخصيته وموقفه من الامانة والوثاقة . وانحرافه عن على وانحيازه الى الخوارج وطمعه الشديد بمافى ايدى الامراء فحدث عنه ولاحرج ، ولاجل ايقاف القارىء على قليل مما ذكره ائمة الجرح والتعديل فى حقه نأتى ببعض ما ذكره الامام شمس الدين الذهبى نقاد الفن فى كتابيه : تذكرة الحفاظ ، وسيراعلام النبلاء ومن اراد التفصيل فليرجع الى كتب الجرح والتعديل .

نقل الامام شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبى المتوفى ٧٤٨هـ فى سيراعلام النبلاء هذه الكلمات فى حق عكرمة :

١ - قال ايوب: قال عكرمة: أنى لاخرج الى السوق فاسمع الرجل يتكلم بالكلمة فينفتح لى خمسون باباً من العلم ...» ما معنى هذه الكلمة ؟ وهل يقولها انسان يملك شيئاً من العقل والوقار ؟

٢ - قال : ابن لهيعة : وكان يحدث برأى نجدة الحرورى (١) واتاه، فاقام عنده ستة اشهر، ثم اتى ابن عباس فسلم ، فقال ابن عباس : قد جاء الخبيث.

٣ - قال سعيد بن أبى مريم ، عن أبى لهيعة ، عن أبى الاسود قال : كنت اول من سبّب لعكرمة الخروج الى المغرب وذلك أنى قدمت من مصر الى المدينة فلقينى عكرمة وسألنى عن أهل المغرب ، فأخبرته بغفلتهم ، قال : فخرج اليهم

(١) هونجدة بن عامر الحرورى الحنفى من بنى حنيفة رأس الفرقة النجدية . . . انفرد عن سائر الخوارج بآراء

وكان اول ما احدث فيهم رأى الصفرية (١).

٤ ـ قال يحيى بن بكير : قدم عكرمة مصر ونزل هذه الدار وخرج الى المغرب فالخوارج الذين بالمغرب عنه اخذوا.

٥ ـ قال على بن المدينى :كان عكرمة يرى رأى نجدة الحرورى.

٦ ـ وقال احمدبن زهير: سمعت يحيى بن معين يقول : انما لم يذكر مالك عكرمة ـ يعنى فى الموطأ ـ قال : لان عكرمة كان ينتحل رأى الصفرية.

٧ ـ وروى عمر بن قيس المكى عن عطاء قال :كان عكرمة اباضياً (٢).

٨ ـ وعن أبى مريم قال :كان عكرمة بيهسياً (٣).

٩ ـ وقال أبراهيم الجوزجانى : سألت أحمد بن حنبل عن عكرمة أكان يرى رأى الاباضية ؟ فقال : يقال : أنه كان صفرياً ، قلت أتى البربر؟ قال : نعم وأتى خراسان يطوف على الامراء يأخذ منهم.

١٠ ـ وقال على بن المدينى : حكى عن يعقوب الحضرمى عن جده قال : وقف عكرمة على باب المسجد فقال: مافيه الاكافر. قال: وكان يرى رأى الاباضية

لاحظ سيراعلام النبلاء للذهبى ج٥ ص١٨ـ٢٢.

وقال فى ميزان الاعتدال : ج٣ ص ٩٣ ـ ٩٧ : وقد وثقه جماعة واعتمده البخارى وأما مسلم فتجنبه وروى له قليلا مقروناً بغيره ، واعرض عنه مالك وتحايده الافى حديث اوحديثين.

عفان، حدثنا وهيب قال شهدت يحيى بن سعيد الانصارى وايوب فذكرا عكرمة فقال يحيى : كذاب وقال أيوب : لم يكن بكذاب ، عن عبدالله بن الحارث : دخلت على على بن عبدالله بن عباس فاذا عكرمة فى وثاق عند باب الحش

(١) هم فرقة من الخوارج اتباع زياد بن الاصفر

(٢) هم اتباع عبدالله بن اباض رأس الاباضية

(٣) فرقة من الصفرية اصحاب أبى بيهس هيصم بن جابر الضبعى رأس الفرقة البيهسية من الخوارج

فقلت الاتتقى الله ؟ قال : ان هذا الخبيث يكذب على ابى

سئل محمدبن سيرين عن عكرمة فقال ما يسؤنى ان يكون من اهل الجنة ولكنه كذاب . هشام بن عبدالله المخزومى : سمعت ابن ابى ذئب يقول : رأيت عكرمة و كان غير ثقة . وعن بريدبن هارون قال قدم عكرمة البصرة فاتاه ايوب ويونس وسليمان التيمى فسمع صوت غناء فقال : اسكتوا ثم قال : قاتله الله لقداجاد

وعن خالدبن ابى عمران قال: كنا بالمغرب وعندنا عكرمة فى وقت الموسم فقال : وددت ان بيدى حربة فاعترض بها من شهد الموسم يمينا وشمالا . وعن يعقوب الحضرمى عن جده قال : وقف عكرمة على باب المسجد فقال : مافيه الا كافر قال : ويرى رأى الاباضية ان عكرمة لم يدع موضعاً الا خرج اليه : خراسان والشام واليمن ومصر وافريقية كان يأتى الامراء فيطلب جوائزهم .

روى سلمان بن معبد السنجى قال : مات عكرمة و كثير عزة فى يوم واحد فما شهدهما الا سودان المدينة : وعن ابن المسيب انه قال مولاه «برد» : لاتكذب على كما كذب عكرمة على ابن عباس .

افبعد هذه الكلمات المتضافرة الحاكية عن انحراف الرجل عن جادة الحق وتكفيره عامة المسلمين وتمنيه ان يقتل كل من شهد الموسم ، يصح الاعتماد عليه فى تفسير الذكر الحكيم ؟ والاسف ان المفسرين نقلوا اقواله وارسلوها ولم يلتفتوا الى ان الرجل كذاب على مولاه وعلى المسلمين . فواجب على عشاق الكتاب العزيز و طلاب التفسير ، تهذيب الكتب عن اقوال و آراء ذلك الدجال ومن يحذوحذوه من مقاتل بن سليمان وغيرهما .

٣ - عروة بن الزبير :

واما عروة بن الزبير فيكفى فى عدم حجية قوله ، عداؤه لعلى وانحرافه عنه ، ففى هذا الصدد يقول ابن ابى الحديد : روى جريربن عبدالحميد عن محمد بن شيبة قال: شهدت مسجد المدينة فاذا الزهرى وعروة بن الزبير جالسان يذكران

علياً عليه السلام فنالامنه ، فبلغ ذلك على بن الحسين عليه السلام ، فجاء حتى وقف عليهما ، فقال : اما انت ياعروة فان ابى حاكم اباك الى الله فحكم لابى على ابيك واما انت يازهرى فلو كنت بمكة لأريتك كيرابيك .

وقدروى من طرق كثيرة : ان عروة بن الزبير كان يقول : لم يكن احدمن اصحاب رسول الله ﷺ يزهو الاعلى بن ابى طالب واسامة بن زيد .

وروى عاصم بن ابى عامر البجلى عن يحيى بن عروة قال : كان ابى اذاذكر علياً نال منه .

وقال لى مرة : يابنى والله ماحجم الناس عنه الاطلباً للدنيا ، لقدبعث اليه اسامة بن زيد ان ابعث الى بعطائى فوالله انك لتعلم انك لو كنت فى فم اسدلدخلت معك . فكتب اليه : ان هذاالمال لمن جاهدعليه ولكن لى مالا بالمدينة . فاصب منه ماشئت .

قال يحيى : فكنت اعجب من وصفه اياه بما وصفه به ومن عيبه له وانحرافه عنه . (١)

٤ ـ مقاتل بن سليمان :

وهو رابع النقلة لنزول الاية فى نسائه ويكفى فى عدم حجية قوله ما نقله الذهبى فى حقه فى سير اعلام النبلاء قال : قال ابن عيينة قلت لمقاتل : زعموا انك لم تسمع من الضحاك قال: يغلق على وعليه باب فقلت فى نفسى: اجل باب المدينة :

وقيل انه قال سلونى عمادون العرش فقالوا : أين امعاء النمله ؟ فسكت ، وسألوه لماحج آدم من حلق رأسه ؟ فقال لاادرى قال وكيع : كان كذاباً .

( ) شرح النهج لابن ابى الحديد الجزء الرابع ص ١٠٢ من الطبعة الجديدة وراجع سير اعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٢١ ـ ٤٣٧ مايدل على كونه من بغاة الدنيا وطالبها وقد بنى قصراً فى العقيق وانشد شعراً فى مدحه وكان مقرباً لدى الامويين خصوصاً عبدالملك بن مروان .

وعن ابن حنيفة قال : اتانامن المشرق رأيان خبيثان : جهم معطل (١) ومقاتل مشبّه، مات مقاتل سنة نيف وخمسين ومائة وقال البخاري: مقاتل لاشيء البتة قلت : اجمعوا على تركه (٢) .

تجد اتفاق المتكلمين من الاشاعرة المعتزلة ومن قبلهم على ان القول بالتشبية انما تسرب الى الاوساط الاسلامية من مقاتل ، فهوالزعيم الركن بالقول بان له سبحانه اعضاء مثل ماللانسان من اليد والرجل والوجه وغيرذلك ، قاتل الله مقاتل كيف يفترى على الله سبحانه كذباً وتفسر آياته بغيروجهها ؟! .

وقال الذهبي ايضا في ميزان الاعتدال ج٤ ص١٧٢- ١٧٥- ماهذا تلخيصه : قال النسائي : كان مقاتل يكذب وعن يحيى : حديثه ليس بشيء وقال الجوزجاني : كان دجالا جسوراً وقال ابن حبان : كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذى يوافق كتبهم ، وكان يشبه الرب بالمخلوقات وكان يكذب في الحديث . وعن خارجة بن مصعب : لم استحل دم يهودي ولووجدت مقاتل بن سليمان خلوة لشققت بطنه وقال ابن ابي حاتم : حديثه يدل على انه ليس بصدوق

٧ - مشكلة السياق ؟!

ان آية التطهير جزء من الاية الثالثة والثلاثين ، التي يرجع صدرها وذيلها الى نساء النبي فعندئذ كيف يصح القول بانها راجعة الى غيرهن فان وحدة السياق قاضية على ان الكل راجع الى موضوع واحد ، وارجاعها الى غير نسائه يستلزم التفكيك بين اجزاء آية واحدة ؟ نعم لوكانت آية التطهير آية مستقلة لكان الامر سهلا اذ كان الاشكال اضعف ولكنها جزء من آية واحدة نزلت في نساء النبي ، والجواب : لاشك ان السياق من الامور التي يستدل بها على كشف المراد

(١) التعطيل: هو ان لاتثبت لله الصفات التي وصف بها نفسه اووصفه بها رسوله (ص) والتشبيه : ان يشبه الله سبحانه وتعالى باحد من خلقه

(٢) سير اعلام النبلاء ٧١ ص٢٠٢

ويجعل صدر الكلام ووسطه وذيلها قرينة على المراد ووسيلة لتعيين ما اريد منه ولكنه حجة اذا لم يقم دليل اقوى على خلافه ، فلوقام ترفع اليد عن وحدة السياق وقرينيّته ، وبعبارة اخرى: ان الاعتماد على السياق انما يتم لولم يكن هناك نص على خلافه ، وقدعرفت النصوص الدالة على خلافه .

اضف اليه ان هناك دلائل قاطعة على ان آية التطهير آية مستقلة نزلت كذلك ووقعت فى ثنايا الاية المربوطة بازواج النبى ﷺ لمصلحة كان صاحب الشريعة اعرف بها . (١) ، واليك هاتيك الدلائل الدالة على استقلالها .

الدليل الاول : على استقلال الاية :

اطبقت الروايات المنتهية الى الاصحاب وامهات المؤمنين والتابعين لهم باحسان على نزولها مستقلة ، سواء أقلنا بنزولها فى حق العترة الطاهرة وزوجات النبى واصحابه ، فالكل ـ مع قطع النظر عن الاختلاف فى المنزول فيه ـ اتفقوا على نزولها مستقلة ، وقد مضت النصوص عن الطبرى والدر المنثور والصحاح ترى ان ام سلمة تقول : «نزلت فى بيتى» «انما يريدالله ليذهب عنكم الرحس اهل البيت ويطهر كم تطهيرا» .

ويروى ابوسعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ : نزلت هذه الاية فى خمسة : فىّ وفى على وفاطمة وحسن وحسين «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً» .

وروت عائشة: خرج النبى ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرّجل من شعر اسود فجاء الحسن فادخله معه، ثم جاء الحسين فادخله معه، ثم جاءت فاطمة فادخلها معه،

---

(١) نقل السيوطى عن ابن الحصار: ان ترتيب السوروضع الايات مواضعها انما كان بالوحى كان رسول الله (ص) يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا . لاحظ الاتقان ج١ ص١٧٦ . الفصل الثامن عشر فى جمع القرآن وترتيبه من طبعة مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم

ثم جاء علي فادخله معه، ثم قال : «انمايريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً» الى غير ذلك من النصوص .

حتى ان ظاهر كلام عكرمة وعروة بن الزبير نزولها مستقلة بقول السيوطي: كان عكرمة ينادى فى السوق «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت» نزلت فى نساء النبى .

واخرج ابن سعد عن عروة بن الزبير انه قال : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت » قال : ازواج النبى . نزلت فى بيت عائشة . (١)

فالموافق والمخالف اتفقا على كونها آية مستقلة اما نزلت فى بيت امسلمة اوبيت عائشة ، امافى حق العترة اونسائه .

وعلى ذلك تسهل مخالفة السياق ، والقول بنزولها فى حق العترة الطاهرة وان الصدر و الذيل راجعان الى نسائه ﷺ لاماورد في ثناياها ، فهوراجع الى غيرهن .

ولاغرو فى ان يكون الصدر والذيل راجعين الى موضوع وماورد فى الاثناء راجعا الى غيره فان ذلك من فنون البلاغة واساليبها . نرى نظيره فى الذكر الحكيم و كلام البلغاء. وعليه ديدن العرب فى محاوراتهم. فربمايرد فى موضوع قبل ان يفرغ عن الموضوع الذى كان يبحث عنه ثم يرجع اليه ثانياً.

يقول الطبرسى: من عادة فصحاء العرب فى كلامهم انهم يذهبون من خطاب الى غيره ويعودون اليه . والقرآن من ذلك مملوء ، وكذلك كلام العرب و اشعارهم . (٢)

قال الشيخ محمد عبده : ان من عادة القرآن ان ينتقل بالانسان من شأن الى شأن ثم يعود الى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة . (٣)

وروى عن الامام جعفر الصادق : ان الاية من القرآن يكون اولها فى شيء

(١) لاحظ ص٢٨٦-٢٩٦ من هذا الجزء (٢) مجمع البيان ج٤ ص ٣٥٧
(٣) المنار ج٢ ص٤٥١

وآخرها فى شىء . (١)

ولاجل ان يقف القارىء على صحة ماقاله هؤلاء الاكابر نأتى بشاهد فنقول قال سبحانه ناقلاعن «العزيز» مخاطبا زوجته: «انه من كيد كن ان كيد كن عظيم» يوسف اعرض هذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين . (يوسف ٢٨-٢٩)

نرى ان العزيز يخاطب اولا امرأته بقوله «انه من كيد كن» وقبل ان يفرغ من كلامه معها، يخاطب يوسف بقوله: «يوسف اعرض عن هذا»... ثم يرجع الى الموضوع الاول ويخاطب زوجته بقوله : «واستغفرى لذنبك» . . . فقوله «يوسف اعرض عن هذا» جملة معترضة وقعت بين الخطابين والمسوغ لوقوعها بينهما كون المخاطب الثانى احد المتخاصمين وكانت له صلة تامة بالواقعة التى رفعت الى العزيز.

والضابطة الكلية لهذا النوع من الكلام هو وجود التناسب المقتضى للعدول من الاول الى الثانى ثم منه الى الاول، وهى ايضا موجودة فى المقام ، فانه سبحانه يخاطب نساء النبى ﷺ بالخطابات التالية :

١ - «يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين»

٢ - «يانساء النبى لستن كاحد من النساء ان اتقيتن» . . .

٣ -«وقرن فى بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى» . . .

فعند ذلك صح ان ينتقل الى الكلام عن اهل البيت الذين اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وذلك لوجهين .

١- تعريفهن على جماعة بلغوا فى التورع والتقى، الذروة العليا، وفى الطهارة عن الرذائل والمساوى، القمة. وبذلك استحقوا ان يكونوا اسوة فى الحياة وقدوة فى مجال العمل فيلزم عليهن ان يقتدين بهم ويستضيئن بضوءهم .

٢ - التنبيه على ان حياتهن مقرونة بحياة امة طاهرة من الرجس ومطهرة من الدنس، ولهن معهم لحمة القرابة ووصلة الحسب، واللازم عليهن التحفظ على شؤون هذه القرابة بالابتعاد عن المعاصى والمساوى ، والتحلى بما يرضيه سبحانه

(١) الكاشف ج٦ ص٢١٧

ولاجل ذلك يقول : «يانساء النبى لستن كاحد من النساء» وما هذا الا لقرابتهن منه ﷺ وصلتهن باهل بيته . وهى لاتنفك عن المسؤولية الخاصة، فالانتساب للنبى الاكرم ﷺ ولبيته الرفيع، سبب المسؤولية ومنشؤها. وفى ضوء هذين الوجهين صح ان يطرح طهارة اهل البيت فى اثناء المحاورة مع نساء النبى والكلام حول شؤونهن .

ولقد قام محققو الامامية ببيان مناسبة العدول فى الاية نأتى ببعض تحقيقاتهم قال السيد القاضى التسترى: «لايبعد ان تكون اختلاف آية التطهير مع ماقبلها على طريق الالتفات من الازواج الى النبى ﷺ واهل بيته عليهم السلام على معنى ان تأديب الازواج وترغيبهن الى الصلاح والسداد، من توابع اذهاب الرجس والدنس عن اهل البيت عليهم السلام فالحاصل نظم الآية على هذا : ان الله تعالى رغب ازواج النبى ﷺ الى العفة والصلاح بانه انما اراد فى الازل ان يجعلكم معصومين ياأهل البيت واللائق ان يكون المنسوب الى المعصوم عفيفاً صالحاً كما قال «والطيبات للطيبين» . (١)
(النور - ٢٦)

وقال العلامة المظفر : وانما جعل سبحانه هذه الآية فى اثناء ذكر الازواج وخطابهن للتنبيه على انه سبحانه امرهن ونهاهن وادبهن اكراماً لاهل البيت وتنزيها لهم عن ان تنالهم بسببهن وصمة ، وصوناً لهم عن ان يلحقهم من اجلهن عيب ورفعاً لهم عن ان يتصل بهم اهل المعاصى ولذا استهل سبحانه الآيات بقوله: «يانساء النبى لستن كاحد من النساء» ضرورة ان هذا التميز انما هو للاتصال بالنبى وآله لالذواتهن فهن فى محل، واهل البيت فى محل آخر، فليست الآية الكريمة الا كقول القائل : يازوجة فلان لست كازواج سائر الناس فتعففى ، وتستّرى ، واطيعى الله تعالى ، انما زوجك من بيت اطهار يريدون الله حفظهم من الادناس وصونهم عن النقائص (٢) .

---

(١) احقاق الحق ج٢ ص٥٧٠

(٢) دلائل الصدق ج٢ ص٧٢

الدليل الثاني : على استقلالها :

ان لسان الآيات الواردة حول نساء النبي لسان الانذار والتهديد ، ولسان الاية المربوطة باهل بيته، لسان المدح والثناء فجعل الايتين آية واحدة وارجاع الجميع اليهن ممالا يقبله الذوق السليم فاين قوله سبحانه «يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب» من قوله : «انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً .

الدليل الثالث : على الاستقلال :

ان قوله سبحانه : انما يريد الله . . . في المصاحف جزء من الآية الثالثة والثلاثين فلو رفعناه منها لم يتطرق اى خلل في نظم الاية ومضمونها وتتحصل من ضم الاية الرابعة والثلاثين الى مابقيت، آية تامة واضحة المضمون، مبينة المرمى منسجمة الفاصلة ، مع فواصل الايات المتقدمة عليها ، واليك تفصيل الاية في ضمن مقاطع :

الف ـ وقرن في بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى واقمن الصلوة وآتين الزكوة واطعن الله ورسوله .

ب ـ انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهر كم تطهيراً . (الاية ـ ٣٣)

ج ـ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفاً خبيراً . (الاية ـ ٣٤)

فلو رفعنا قوله : انما يريد الله» وضممنا ما تقدم عليه بما تأخر ، جاءت الاية تامة من دون حدوث خلل في المعنى والنظم. وهذا دليل على ان قوله تعالى «انما يريدالله» آية مستقلة وردت في ضمن الاية لمصلحة ربما نشير اليها .

ان الاحاديث على كثرتها صريحة في نزول الاية وحدها ، ولم يرد حتى

فى رواية واحدة نزولها فى ضمن آيات نساء النبى ﷺ ولاذكره احد حتى القائل باختصاص الاية بازواج النبى كما ينسب الى عكرمة وعروة ، فالاية لم تكن حسب النزول جزءاً من آيات نساء النبى ولامتصلة بها ، وانما وضعت اما بامر النبى ﷺ اوعند التاليف بعد الرحلة .

ويؤيده ان آية «وقرن فى بيوتكن» باقية على انسجامها واتصالها لوقدر ارتفاع آية التطهير من بين جملها . (١)

وليس هذا امراً بدعاً فله نظير فى القرآن الكريم .

فقد تضافرت السنة و روى الفريقان ان قوله سبحانه : «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا» نزل فى غدير خم عند مانصب النبى ﷺ علياً اماماً للامة ووليا للمؤمنين. مع انه فى المصاحف جزء الاية الثالثة من «سورة المائدة» التى تبين احكام اللحوم واليك نفس الاية فى مقاطع ثلاثة .

الف - حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ماذكيتم وماذبح على النصب وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق .

ب- اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً .

ج - فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم (٢) .

فاذا رفعنا الجزء الثانى تحصل من ضم الاول الى الثالث آية تامة من دون طروء خلل فى مضمونها ونظمها وذلك آية على ان الجزء الثانى آية مستقلة وردت فى ضمن آية اخرى بتصويب صاحب الشريعة الغراء اوبتصويب من جامعى القرآن بعد رحلته ﷺ ،

---

(١) الميزان ج١٦ ص٣٣٠

(٢) سورة المائدة-٣

اضف الى ذلك ان مضمون الاية - اعنى احكام اللحوم - قد ورد فى آيات اخر من دون ان تشتمل على هذه الزيادة، فهذه قرينة على ان ماورد فى الاثناء ليس من صميم الاية فى سورة المائدة، وانما وضع فى اثنائها بامر من النبى الاكرم لمصلحة عامة يشير اليها.

ماهو السر فى جعلها جزء من آية اخرى

قد اتضح مما ذكرنا ان القرآن الكريم انما انتقل الى موضوع اهل البيت وخطابهم لاجل اعلام نساء النبى ﷺ بانهن فى جوار هؤلاء المطهرين فيجب عليهن القيام باداء حقوق هؤلاء العظماء، الذين ميزهم الله تعالى عن غيرهم من هذه الامة بالتطهير والعصمة كما يجب عليه الاقتداء بهم فى القول والسلوك.

ولكن يبقى هنا سؤال آخر، وهو انه اذا كانت الاية، آية مستقلة فلما ذا جاءت فى المصحف جزء من آية اخري؟ ولم تكتب بصورة آية تامة فى جنب الايات الاخرى؟.

الجواب: التاريخ يطلعنا بصفحات طويلة على موقف قريش وغيرهم من اهل البيت عليهم السلام، فان مرجل الحسد ما زال يغلى والاتجاهات السلبية ضدهم كانت كالشمس فى رابعة النهار، فاقتضت الحكمة الالهية ان تجعل الاية فى ثنايا الايات المربوطة بنساء النبى ﷺ من اجل تخفيف الحساسية ضد اهل البيت. وان كانت الحقيقة لاتخفى على من نظر اليها بعين صحيحة، وان الاية تهدف الى جماعة اخرى غير نساء النبى ﷺ كما بيناه قبل قليل.

وللسيد عبدالحسين شرف الدين هنا كلام ربما يفصل ما اجملناه فانه - قدس الله سره - بعد ما اثبت ان قوله سبحانه «انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكوة وهم راكعون» (المائدة - ٥٥) منزل فى حق الامام امير المؤمنين عليه السلام طرح سؤالا وهو انه اذا كان امير المؤمنين (ع)

هوالمراد من الاية فلماذا عبر عن المفرد بلفظ الجمع ؟ فقال: ان العرب قدتعبر عن المفرد بلفظ الجمع لنكتة التعظيم حيث يستوجب ثم قال: وعندى فى ذلك نكتة الطف وادق وهى انه انما اتى بعبارة الجمع دون عبارة المفرد بقياً منه تعالى على كثير من الناس فان شانئى على واعداء بنى هاشم وسائر المنافقين واهل الحسد والتنافس لايطيقون ان يسمعوها بصيغة المفرد اذ لايبقى لهم حينئذ مطمع فى التمويه ولاملتمس فى التضليل فيكون منهم (بسبب يأسهم) حينئذ ماتخشى عواقبه على الاسلام فجاءت الاية بصيغة الجمع مع كونها للمفرد اتقاء من معرتهم ، ثم كانت النصوص بعدها تترى بعبارات مختلفة ومقامات متعددة وبث فيهم امر الولاية تدريجاً حتى اكمل الله الدين واتم النعمة جرياً منه ﷺ على عادة الحكماء فى تبليغ الناس مايشق عليهم. ولو كانت الاية بالعبارة المختصة بالمفرد لجعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكباراً ، وهذه الحكمة مطردة فى كل ما جاء فى القرآن الحكيم من آيات فضل امير المؤمنين واهل بيته الطاهرين كما لايخفى وقداوضحنا هذه الجمل واقمنا عليها الشواهد القاطعة والبراهين الساطعة فى كتابينا (سبيل المؤمنين) و (تنزيل الآيات) والحمدلله على الهداية والتوفيق والسلام . (١)

الاقوال الاخر :

قد عرفت القولين المعروفين حول الاية كما عرفت الحق الواضح منهما فهلم معى ندرس سائر الاقوال الشاذة التى لاتعتمد الى ركن وثيق وانما هى آراء مختلقة لاجل الفرار عن المشاكل المتوجهة الى ثانى القولين ونحن نذكرها واحداً بعد آخر على نحو الايجاز .

١ـ المراد من «البيت» هو «بيت الله الحرام» والمراد من اهله هم المقيمون حوله

٢ـ المراد من «البيت» هو مسجد النبى ﷺ والمراد من اهله هم القاطنون

(١) المراجعات : المراجعة ٤٢ ص١٦٦

حوله وكان لبيوتهم باب الى المسجد .

٣ ـ المراد من تحرم عليهم الصدقة وهم ولد ابى طالب : على ، جعفر ، وعقيل ، وولد العباس .

٤ـ المراد من البيت بيت النسب والحسب فيعم ابناء النبى ﷺ ونساءه (١) وهذه الوجوه كلها عليلة .

اما الاول والثانى فلان اطلاق «اهل البيت» واستعماله فى اهل مكة والمدينة استعمال بعيد لايحمل عليه الكلام الابقرينة قطعية ، والمتبادر منه هو أهل بيت الرجل وعلى ذلك جرى الذكر الحكيم فى موردين احدهما فى قصة ابراهيم قال: سبحانه: قالوا اتعجبين من امر الله، رحمت الله وبركاته عليكم اهل البيت. (هود ـ ٧٢) وثانيهما فى قصة موسى قال سبحانه : هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه . (القصص ـ ١٢)

اضف اليه ان الاية واقعة فى سياق البحث عن نساء النبى فصرف الاية عنه ﷺ وارجاعها الى من جاور بيت الله اومن بات حول مسجده لايساعد عليه ظاهر الآيات ابداً .

ويتلوهما الثالث : فان تفسير «اهل بيت النبى ﷺ بمن تحرم عليه الصدقة من صلب ابى طالب والعباس تفسير بلاشاهد وكأنه حمل البيت على البيت النسبى اضف اليه ان الصدقة غير محرمة على خصوص ابنائهما بل هى محرمة على ابنائهما وكل من كان من نسل عبدالمطلب .

قال الشيخ الطوسى فى الخلاف : تحرم الصدقة المفروضة على بنى هاشم من ولد ابى طالب العقيليين والجعافرة والعلويين، وولد العباس بن عبدالمطلب وولد ابى لهب وولد الحارث بن عبدالمطلب ولاعقب لهاشم الامن هؤلاء ولايحرم على ولد

(١) لاحظ فى الوقوف على هذه الاقوال تفسير الطبرى ج٢٢ ص ٥ ـ ٧ وتفسير القرطبى ج١٤ ص١٨٢ ومفاتيح الغيب للرازى ج٦ ص٦١٥ والكشاف ج ٢ ص ٥٣٨ وغيرها .

المطلب ونوفل وعبد شمس بن عبد مناف قال الشافعي : تحرم الصدقة المفروضة على هؤلاء كلهم وهم جميع ولد عبدمناف (١) .

وقال بمثله ايضا في كتاب قسمة الصدقات ج ٢ ص ٣٥٣ . المسئلة ٢٦ .

وعلى ذلك فليس لهذه النظرية دليل سوى مارواه مسلم عن زيد بن ارقم وقد قدمنا نصه عند ذكر الاحاديث الواردة حول الاية . (٢)

واما النظرية الرابعة : فقدذهب اليها بعضهم جمعا بين الاحاديث المتضافرة الحاكية عن نزول الاية في العترة الطاهرة ، وسياق الايات الدالة على رجوعها الى نسائه ، فحاول القائل الجمع بين الدليلين بتفسير الاية باولاده وازواجه وجعل علياً ايضا منهم بسبب معاشرته وملازمته للنبي صلى الله عليه وآله .

قال الرازي : والاولى ان يقال هم : اولاده وازواجه والحسن والحسين منهم وعلى معهم لانه كان من اهل بيته بسبب معاشرته بيت النبي وملازمته . (٣)

وقال البيضاوي : والتخصيص بهم (اولاده) لايناسب ماقبل الاية وما بعدها والحديث يقتضي انهم من اهل البيت لاان غيرهم ليس منهم . (٤)

٥ـ وقال المراغي : اهل بيته من كان ملازماً له من الرجال والنساء والازواج والاماء والاقارب . (٥)

وهذه النظرية موهونة ايضاً :

اولا : ان اللام في «اهل البيت» ليس للجنس ولا للاستغراق ، بل هي لام العهد وهي تشير الى بيت معهود بين المتكلم والمخاطب وهو بيت واحد ، ولو صح ذلك القول لوجب ان يقول «اهل البيوت» حتى يعم الازواج والاولاد وكل من يتعلق بالنبي نسباً اوحسباً اولعلاقة السكنيّة مثل الاماء .

---

(١) الخلاف كتاب الوقوف والصدقات ج٢ ص٢٢٧ ـ المسئلة ٤

(٢) لاحظ ص٢٩٤ ـ الحديث٣٥　　(٣) مفاتيح الغيب ج٦ ص٦١٥

(٤) انوار التنزيل ج٤ ص١٦٢　　(٥) تفسير المراغي ج٢٢ ص٧

والحاصل انه لواريد «بيت النبى» المادى الجسمانى لايصح، اذ لم يكن له بيت واحد ، بل كان لكل واحدة من نسائه بيت مشخص ، فكان النبى صاحب البيوت لاالبيت الواحد :

ولواريدمنه بيت النسب، كمايقال«بيت من بيوتات «حمير» او«ربيعة»فلازمه التعميم الى كل من ينتمى الى هذاالبيت بسب اوسبب، مع انه كان بعض المنتمين اليه يوم نزول الاية من عبدة الوثن واعداء النبى، فان سورة الاحزاب نزلت سنة ست من الهجرة وقد ورد فيها زواج النبى من زينب بنت جحش وهوحسب ما ذكره صاحب تاريخ الخميس من حوادث سنة الخمس وعلى ذلك فلاتتجاوز الايات النازلة فى نساء النبى عن هذا الحدو كان عند ذاك ، بعض من ينتمى الى النبى بالنسب مشركا كابى سفيان بن عبدالمطلب ابن عم رسول الله ، وعبدالله بن امية بن المغيرة ابن عمته وقد اسلما فى عام الفتح وانشد الاول قوله فى اسلامه واعتذر الى النبى مماكان مضى منه فقال :

لعمرك انى يوم احمل راية لتغلب خيل اللات ، خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أوانى حين اهدى واهتدى(١)

ولواريد منه «بيت الوحى» فلازمه الاختصاص بمن بلغ فى الورع والتقوى ذروتهما ، حتى يصح عده من اهل ذلك البيت الرفيع المعنون ، ومثله لايعم كل من ينتمى بالوشائج النسبية اوالحسبية الى هذا البيت وان كان فى جانب الايمان والعمل فى درجة نازلة تلحقه بالعاديين من المسلمين .

ثانيا : قد عرفت ان الارادة الواردة فى الاية تكوينية تعرب عن تعلق ارادته الحكيمة على عصمة اهل ذلك البيت ومعه كيف يمكن القول بان المراد كل من ينتمى الى ذلك البيت بوشائج النسب والحسب .

ثالثاً : ان النظرية فى جانب مخالف للاحاديث المتضافرة الدالة على نزول الاية فى حق العترة الطاهرة، وقد قام النبى ﷺ بتفسيرها بوجوه مختلفة اوعزنا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٤٠١

اليها عند البحث عن القول الاول . والنبى ﷺ هو المبين الاول لمفاد كتابه الذى ارسل معه قال سبحانه : وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون . (النحل - ٤٤)

فليست وظيفة النبى ﷺ القراءه والتلاوة بل التبيين والتوضيح من وظائفه التى تنص الاية عليها .

هذا هو موجز القول فى تفسير الاية ولاباس باكمال البحث بنقل بعض ما انتجته قريحة الشعراء الاسلاميين حول اهل البيت وفضائلهم ، على وجه يعرب ان المتبادر من ذلك اللفظ فى القرون الاسلامية لم يكن الاالعترة الطاهرة اعنى فاطمة واباها وبعلها وابناها (سلام الله عليهم اجمعين) واليك نزراً يسيراً فى هذا المجال .

اهل البيت فى الادب العربى :

قال عمرو بن العاص فى قصيدته الجلجلية المعروفة يمدح بها الامام على بن ابى طالب وفيها هذا البيت فى حق العترة الطاهرة :

فوال مواليه ياذا الجلال　　وعاد معادى اخ المرسل
ولاتنقضوا العهد من عترتى　　فقاطعهم بى لم يوصل

الغدير ج ٢ ص ١١٥

وقال الكميت بن زيد الاسدى من قصيدة .

ألم ترنى من حب آل محمد　　اروح واغدو خائفاً اترقب
فان هى لم تصلح لحى سواهم　　فان ذوى القربى احق واوجب
يقولون لم يورث ولو لاتراثه　　لقد شركت فيها بكيل وارحب

(الغدير ج٢ ص ١٩١

قال العبدى الكوفى (المتوفى - ١٢٠) على مافى اعيان الشيعة ، والغدير (ج ٢ ص ٢٩٠ - ٣٢٦)

ولما رايت الناس قد ذهبت بهم مذاهبهم في ابحر الغى والجهل
ركبت على اسم الله فى سفن النجاة وهم اهل بيت المصطفى خاتم الرسل
وامسكت حبل الله وهو ولاؤهم كما قد امرنا بالتمسك بالحبل

وقال الامام الشافعى كمافى الغدير ج ٢ ص ٣٠٢ .

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله فى القرآن انزله
كفاكم من عظيم القدر انكم من لم يصل عليكم لاصلاة له

وذكر ابن الصباغ المالكى فى الفصول ص١٣ لقائل : كما فى الغدير ج٢ ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

هم العروة الوثقى لمعتصم بها مناقبهم جاءت بوحى و انزال
مناقب فى الشورى وسورة هل اتى وفى سورة الاحزاب يعرفها التالى
وهم آل بيت المصطفى فودادهم على الناس مفروض بحكم واسجال

وذكر الشبلنجى فى نور الابصار ص ١٣ عن ابى الحسن بن جبير كما فى الغدير ج٢ ص ٣١١ .

احب النبى المصطفى وابن عمه علياً و سبطيه و فاطمة الزهرا
هم اهل بيت اذهب الرجس عنهم واطلعهم افق الهدى انجماً زهرا
موالاتهم فرض على كل مسلم وحبهم اسنى الذخائر للاخرى
وماانا للصحب الكرام بمبغض فانى ارى البغضاء فى حقهم كفرا

وقال العبدى : كمافى الغدير ج ٢ ص ٣١٧ .

ياسادتى يـا بنى على يا « آل طه» و « آل صاد »
من ذا يوازيكم و انتم خلائف الله فى البلاد
انتم نجوم الهدى اللواتى يهدى بها الله كل هاد
لولا هداكم اذاً ضللنا و التبس الغى بالرشاد
لازلت فى حبكم اوالى عمرى وفى بغضكم اعادى
و ما تزودت غير حبى اياكم و هو خير زاد

وذاك ذخرى الذى عليه　　فى عرصة الحشر اعتمادى
و لاكم و البراءة ممن　　يشنأكم اعتقادى

وقال دعبل الخزاعى : كما فى الغدير ج ٢ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .

اتسكب دمع العين بالعبرات　　وبت تقاسى شدة الزفرات
و تبكى لاثار لال محمد　　فقد ضاق منك الصدر بالحسرات
الا فابكهم حقا و بلّ عليهم　　عيونا لريب الدهر منسكبات
ولاتنس فى يوم الطفوف مصابهم　　و داهية من اعظم النكبات
سقى الله اجداثاً على ارض كربلا　　مرابيع امطار من المزنات
وصلى على روح الحسين حبيبه　　قتيلا لدى النهرين بالفلوات
قتيلا بلا جرم فجعنا بفقده　　فريداً ينادى : اين اين حماتى
انا الظامىء العطشان فى ارض غربة　　قتيلا و مظلوماً بغير ترات
وقد رفعوا رأس الحسين على القنا　　و ساقوا نساءاً ولّها خفرات
فقل لابن سعد عذب الله روحه　　ستلقى عذاب النار باللعنات
سأقنت طول الدهر ماهبت الصبا　　و اقنت بالاصال والغدوات
على معشر ضلوا جميعاً وضيعوا　　مقال رسول الله بالشّبهات

وقال ايضاً :

نطق القرآن بفضل آل محمد　　و ولاية لعليّه لم تجحد
بولاية المختار من خير الذى　　بعد النّبى الصّادق المتودد

وقال الحمانى المتوفى ٣٠١ : كما فى الغدير ج ٣ ص٦٦ .

يا آل حاميم الذين بحبهم　　حكم الكتاب منزل تنزيلا
كان المديح حلى الملوك و كنتم　　حلل المدايح غرة و حجولا
بيت اذا عد المآثر اهله　　عدّوا النبى وثانياً جبريلا
قوم اذا اعتدلوا الحمايل اصبحوا　　متقسمين خليفة و رسولا
نشؤوا بآيات الكتاب فما انثنوا　　حتى صدرن كهولة و كهولا

ثقلان لن يتفرقا اويطفيا بالحوض من ظمأ الصدور غليلا
و خليفتان على الانام بقوله الحق اصدق من تكلم قيلا
فاتوا اكف الآيسين فاصبحوا مايعدلون سوى الكتاب عديلا

وقال العجلونى المتوفى ١١٦٢ : كمافى الغدير ج٣ ص ١٧٣ .

لقدحاز آل المصطفى اشرف الفخر بنسبتهم للطاهر الطيب الذكر
فحبهم فرض على كل مؤمن اشار اليه الله فى محكم الذكر
و من يدعى من غيرهم نسبة له فذلك ملعون اتى اقبح الوزر
وقدخص منهم نسل زهراء الاشرف باطراف تيجان من السندس الخضر
و يغينهم عن لبس ما خصهم به وجوه لهم ابهى من الشمس والبدر
ولم يمتنع من غيرهم لبس اخضر على رأى من يعزى لاسيوط ذى الخبر
وقد صححواعن غيره حرمة الذي رآه مباحاً فاعلم الحكم بالسبر

وقال جرير بن عبدالله البجلى : كمافى الغدير ج ٣ ص ٢٣٣

فصلى الا له على احمد رسول المليك تمام النعم
وصلى على الطهر من بعده خليفتنا القائم المدعم
عليا عنيت وصى النبى يجالد عنه غواة الامم
له الفضل و السبق و المكرما ت و بيت النبوة لا المهتضم

وقال الزاهى المتوفى ٣٥٢ : كما فى الغدير ج٣ ص٣٩١

يا سادتى يا آل ياسين فقط عليكم الوحى من الله هبط
لو لاكم لم يقبل الفرض ولا رحا لبحر العفو من اكرم شط
انتم ولاة العهد فى الذر ومن هوا هم الله علينا قد شرط
ما احد قايسكم بغيركم ومازج السلسل بالشرب اللمط
الا كمن ضاهى الجبال بالحصى او قايس الابحر جهلا بالنقط

وقال ايضا ضمن ابيات

هم آل احمد والصيد الجحاجحة الز هر الغطارفة العلوية الغرر

وقال ايضاً

يا آل احمد ماذا كان جرمكم　　فكل ارواحكم بالسيف تنتزع

الى اخر الابيات كما في الغدير ج ٣ ص ٣٩٦

قال الناشيء الصغير المتوفى ٣٦٥ : كما في الغدير ج ٤ ص ٢٥

بآل محمّد عرف الصواب　　و في ابياتهم نزل الكتاب

هم الكلمات والاسماء لاحت　　لادم حين عزله المتاب

وهم حجج الاله على البرايا　　بهم و بحكمهم لا يستراب

الى اخر الابيات ويقول فيها:

يقول لقد نجوت باهل بيت　　بهم يصلى لظى وبهم يثاب

هم النبأ العظيم و فلك نوح　　و باب الله و انقطع الخطاب

وقال البشنوى الكردى المتوفى بعد ٣٨٠ كما في الغدير ج٤ ص ٣٥

أليّة ربي بالهدى متمسكا　　باثنى عشر بعد النبي مراقباً

ابقي على البيت المطهر اهله　　بيوت قريش للديانة طالباً

وقال ايضا كما في الغدير ج ٤ ص ٣٨ .

يا ناصبى بكل جهدك فاجهد　　انى علقت بحب آل محمد

الطيبين الطاهرين ذوى الهدى　　طابوا وطاب وليهم في المولد

واليتهم و برئت من اعدائهم　　فاقلل ملامك لا ابا لك أوزد

فهم امان كالنجوم و انّهم　　سفن النجاة من الحديث المسند

وقال الصاحب بن عباد المتوفى ٣٨٥ كما في الغدير ج٤ ص ٦٠

او اليكم يا آل بيت محمد　　فكلكم للعلم و الدين فرقد

و اترك من ناواكم وهو هتكه　　ينادى عليه مولد ليس يحمد

وقال ابن الحجاج البغدادى المتوفى ٣٩١ : كما في الغدير ج ٤ ص ٨٩

فما وجدت شفاء تستفيد به　　الا ابتغاءك تهجو آل ياسين

كافاك ربك اذ أجرتك قدرته　　بسب اهل العلا الغر الميامين

الى ان يقول :

وان اجر ابن سعد فى استباحة آل النبوة اجر غير ممنون

وقال ابو الفتح كشاجم المتوفى ٣٦٠ من قصيدة كما فى الغدير ج ٤ ص ٣

له فى البكاء على الطاهرين مندوحة عن بكاء الغزل
فكم فيهم من هلال هوى قبيل التمام و بدر افل
هم حجج الله فى خلقه و يوم المعاد على من خذل
و من انزل الله تفضيلهم فرد على الله ما قد نزل
فجدّهم خاتم الانبيا و يعرف ذاك جميع الملل

وقال ايضا فى الغدير ج ٤ ص ١٧

آل النبى فضلتم فضل النجوم الزاهرة
و بهرتم اعدائكم بالمأثرات السائرة

وقال ابو محمد الصورى الشاعر المتوفى ٤١٩ كما فى الغدير ج ٤ ص ٢٢٢ ٢٢٥

فهل ترك البنين من أرتجيه من الاولين والاخرينا
سوى حب آل نبى الهدى فحبهم امل الآملينا
هم عدّتى لوفاتى هم نجاتى هم الفوز للفائزينا

وقال من قصيدة فى اهل البيت كما فى الغدير ج ٤ ص ٢٢٧

بما ذا ترى تحتج يا آل احمد على احمد فيكم اذا ما أستعدت
و اشهر ما يروونه عنه قوله : تركت كتاب الله فيكم وعترتى
و لكن دنياهم سعت فسعوا لها فتلك التى فلت ضميراً عن التى

وقال ايضاً من قصيدة كما فى الغدير ج ٤ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨

فلهذا ابناء احمد ابناء على طرا يد الافاق
فقراء الحجاز بعد الغنى الاكبر اسرى الشام قتلى العراق
جانبتهم جوانب الارض حتى خلت ان السماء ذات انطباق
ان اقصر يا آل احمد اوأغر ق كان التقصير كالاغراق

وقال الشبراوى الشافعى فى كتابه الاتحاف بحب الاشراف ص ٩٩

آل طه و من يقل آل طه　　مستجيراً بجاهكم لايرد
حبكم مذهبى وعقد يقينى　　ليس لى مذهب سواه و عقد

وقال ايضاً فى قصيدة اخرى ص ١٠٠.

آل بيت النبى مالى سواكم　　ملجأ ارتجيه للكرب فى غد
لست اخشى ريب الزمان وانتم　　عمدتى فى الخطوب يا آل احمد
من يضاهى فخاركم آل طه　　و عليكم سرادق العز ممتد

الى ان يقول فى قصيدته هذه

يا الهى مالى سوى حب آل البيت　　آل النبى طه الممجد
انا عبد مقصر لست ارجو　　عملا غير حب آل محمد

وقال ايضاً من قصيدة فى ص ١٠٣

يا كرام الانام يا آل طه　　حبكم مذهبى و عقد ولائى
ليس لى ملجأ سواكم و ذخر　　ارتجيه فى شدتى و رخائى
فاز من زار حيكم آل طه　　وجنا منكم ثمار العطاء

وقال ايضاً فى قصيدة فى ص ١٠٦ - ١٠٩

انا فى عرض آل بيت نبى　　طهر الله بيتهم تطهيراً
سادة اتقياء اعطاهم الله　　مقاماً ضخماً و ملكاً كبيراً

الى ان يقول

يا بحور الكمال يا آل طه　　كم مننتم و كم جبرتم كسيراً
هل على غير نبيكم نزل الو　　حى بجبريل خادماً مامورا
هل سواكم قد اذهب الله عنه الرج　　س نصاً فى ذكره مسطوراً

«اولئك الذين هدى الله فبهديهم اقتده»

(الانعام - ٩٠)

الشيعة و آية التطهير :

استدلت الشيعة عن بكرة ابيها بآية التطهير على عصمة العترة الطاهرة وافاض المفسرون منهم القول حول الاية واتوا ببيانات شافية فى وجه دلالتها على عصمتهم وهناك جماعة من العلماء قاموا بتأليف رسائل مفردة حول دلالتها وشأن نزولها ، نشير الى ما وقفنا علية فى مايلى .

١ ـ السحاب المطير فى تفسير آية التطهير للسيد السعيد القاضى نور الله المرعشى الشهيد عام ١٠١٩ .

٢ ـ تطهير التطهير تاليف الفاضل الهندى المتوفى عام ١٠٣٥ .

٣ ـ شرح تطهير التطهير تـأليف السيد عبد الباقى الحسينى كتبه شرحاً لكتاب الفاضل الهندى .

٤ ـ اذهاب الرجس عن حظيرة القدس للعلامة الشيخ عبدالكريم بن محمد طاهر القمى .

٥ ـ الصور المنطبعة له ايضا فى هذا المجال .

٦ ـ اقطاب الدوائر للعلامة عبدالحسين بن مصطفى احد علمائنا فى القرن الثانى عشر فرغ عنه عام ١١٣٨ وطبعت عام ١٤٠٣ .

٧ ـ تفسير آيه التطهير تأليف الشيخ اسماعيل بن زين العابدين الملقب بمصباح المتوفى عام ١٣٠٠ .

٨ ـ التنوير فى ترجمة رسالة «آيه التطهير» باللغة الاوردية تأليف السيد عباس الموسوى طبع فى الهند عام ١٣٤١ وهو ترجمة لرسالة السيد القاضى نورالله.

٩ ـ جلاء الضمير فى حل مشكلات آيه التطهير للشيخ محمد البحرانى طبع فى بمبسىء عام ١٣٢٥ .

١٠ ـ رسالة قيمة فى تفسير آيه التطهير للعلامة المحقق الشيخ لطف الله الصافى طبع عام ١٤٠٣ من منشورات دار القرآن الكريم فى قم المقدسة . وله رسالة اخرى فى العصمة طبعت معها حياه الله وبياه .

١١ - آية التطهير فى جزءين للسيد الجليل : على الابطحى وقد استقصى الكلام فيها حول الماثورات الوارده فيها فى الجزء الاول ، ودلالتها على العصمة فى الجزء الثانى .

١٢ - اخيرها - لااخرها - ماقدمناك فى هذه الصحائف لكاتب هذه السطور عفى الله عنه . ورزقه شفاعة اهل بيته يوم لاينفع مال . لابنون .

الى هنا قد خرجنا بالنتيجتين التاليتين :

الاولى : ان الانبياء معصومون من الذنب والعصيان وعلى الاصح من الخطاء والنسيان، وقدتعرفت على الدلائل المشرقة ، كما تعرفت على ضآلة ادلة المخطئة لعصمتهم .

الثانية : ان الامام هومن يؤم ويقصد ويتخذ دليلاواسوة، ومن لوازم الامامة كونه مفترض الطاعة ، وقد عرفت دلائل هذا المعنى .

وبما ان أهل السنة يعتقدون بعدالة الصحابة ، عدالة قريبة من العصمة ، ولايجوزون نسبة الذنب والعصيان اليهم ، وهم و ان كانوا لايصرحون بذلك ، لكنهم يتعاملون معهم معاملة العدل المطلق، النزيه من الذنب، القريب من العصمة.

كما أنهم يعتقدون بأطاعة السلطان الجائر او حرمة الخروج عليه و ان لم تجب اطاعته على تفصيل فى اقوالهم وآرائهم .

فلأجل وجود المناسبة بين النتيجتين المتقدمين ومايعتقده أهل السنة فى حق الصحابة والسلطان الجائر، عقدنا بحثين آخرين حول الموضوعين المذكورين واليك عنوانهما :

١ - عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان :

٢ - اطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة .

وتقدم البحث عن الثانى على الاول: لكونه امس بحياتنا اليومية فى المنطقة الاسلامية .

٣

١ ـ اطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة .

٢ ـ عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان .

فى هذا الفصل :

١ ـ اطاعة السلطان العادل من صميم الدين وبيان دلائله .

٢ ـ اطاعة السلطان الجائر ورأى اهل السنة فيها .

٣ ـ حكم الخروج عليه وجوباً وحرمة.

٤ ـ الاحاديث التى استدلت الحنابلة بها على وجوب اطاعة الحاكم الجائر وحرمة الخروج عليه .

٥ ـ عرض تلك الاحاديث على كتاب الله اولا ، والسنة الصحيحة ثانيا ، واحاديث العترة الطاهرة ثالثا ، وسيرة السلف رابعا .

٦ ـ محاولة الاستاد «ابوزهرة» لتصحيح نظرية امام الحنابلة فى هذا المورد وبيان ضعفها .

٧ ـ الصراع الدائم بين العقيدة والوجدان فى نظائر المقام .

٨ ـ من هو الصحابى وتعاريفه المختلفة والغاية السياسية بها .

٩ ـ نظرية عدالة الصحابة كلهم وتقييم تلك النظرية .

١٠ الصحبة ليست بمادة كيمياوية تقلب المصاحب الى انسان مثالى .

١١ ـ الذكر الحكيم واصناف الصحابة المختلفة

١٢ ـ الصحابة فى السنة النبوية

١٣ ـ الصحابة والتاريخ المتواتر

١٤ ـ آراء الصحابة بعضهم حول بعض

١٥ ـ النظرية الوسطى فى الصحابة نظرية الشيعة المنعكسة فى دعاء الامام السجاد

١٦ ـ كلام ابى المعالى الجوينى ونقد بعض الزيدية له

١٧ ـ النسبة المفتعلة الى الشيعة الامامية وابطالها .

١

اطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة

اطاعة الحاكم العادل من صميم الدين ، قال سبحانه : «اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم» (النساء ـ ٥٩) ، وليس المراد منه اطاعة مطلق ولاة الامر بل المراد خصوص العدول منهم بقرينة النهى عن اطاعة المسرفين والغافلين عن ذكر الله سبحانه، والمكذبين والآثمين وغيرهم ، قال سبحانه : «ولاتطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا وأتبع هواه وكان أمره فرطاً» (الكهف ـ ٢٨) ، وقال سبحانه : « يا ايها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين» (الاحزاب ـ ١) وقال سبحانه : «ولاتطع المكذبين» (القلم ـ ٨) ، وقال تعالى : « ولاتطع كل حلاف مهين» (القلم ـ ١٠) ، وقال سبحانه : «فاصبر لحكم ربك ولاتطع آثماً او كفوراً» (الانسان ـ ٢٤) وقال تعالى: «ولاتطيعوا أمر المسرفين» (الشعراء ـ ١٥١) الى غير ذلك من الآيات الناهية عن طاعة الطغاة العصاة . فبقرينة هذه الآيات الناهية يصح ان يقال ان المراد من الأمر باطاعة اولى الأمر ، هو اطاعة العدول منهم

وقد تضافرت الروايات على وجوب اطاعة السلطان العادل المعربة عن عدم وجوب اطاعة السلطان الجائر او حرمتها ، قال رسول الله ﷺ : «السلطان العادل المتواضع ظل الله ورمحه فى الارض ويرفع له عمل سبعين صديقاً» (١) .

وقال ﷺ : «مامن أحد أفضل منزلة من امام ان قال صدق ، وان حكم عدل

---

(١) كنز العمال ، ج٦ ،ص٦ الحديث ١٤٥٨٩ .

وان استرحم رحم (١) .

وقال ﷺ : «احب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم مجلسا ، امام عادل ، وأبغض الناس الى الله وأبعدهم منه امام جائر» (٢) .

وقال ﷺ : «السلطان ظل الله فى الارض يأوى اليه الضعيف ، وبه ينصر المظلوم ، ومن اكرم سلطان الله فى الدنيا اكرمه الله يوم القيامة» (٣) .

وقال ﷺ : «ثلاثة من كن فيه من الائمة صلح ان يكون اماما اضطلع بامانته: اذا عدل فى حكمه ، ولم يحتجب دون رعيته ، واقام كتاب الله تعالى فى القريب والبعيد» (٤) . . . الى غير ذلك من الروايات التى يقف عليها المتتبع فى الجوامع الحديثية .

هذا من طريق أهل السنة ، وأما من طريق الشيعة فحدث عنه ولاحرج .

روى عمر بن حنظلة عن الصادق عليه السلام فى لزوم طاعة الحاكم العادل: «من روى حديثنا ، ونظر فى حلالنا وحرامنا ، وعرف احكامنا فليرضوا به حكما فانى جعلته عليكم حاكما فاذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه ، فانما استخف بحكم الله وعلينا رد ، والراد علينا الرد على الله وهو على حد الشرك بالله (٥) .

ونكتفى بقول الامام الحسين بن على عليهما السلام فى كتابه الى أهل الكوفه حيث قال عليه السلام : فلعمرى ما الامام الا الحاكم بالكتاب ، القائم بالقسط ، الدائن بدين الحق . الحابس نفسه على ذات الله (٦) .

اذاً فوجوب اطاعة السلطان العادل مما لاشك فيه ولايحتاج الى «اسهاب الكلام فيه :

---

(١) (٢ ، ٣) المصدر السابق الحديث ١٤٥٩٣ ، ١٤٦٠٤ ، ١٤٥٧٢ .

(٤) المصدر السابق ج٥ الحديث ١٤٣١٥ .

(٥) الوسائل الجزء ١٨ الباب ١١ من أبواب صفات القاضى الحديث ١ .

(٦) بحار الانوار ج١٥ ص١١٦ والطبرى ج٤ احداث سنة ٦٠ ص٢٦٢ .

«اطاعة السلطان الجائر» :

اتفقت كلمة الحنابلة ومن لف لفهم على وجوب اطاعة السلطان الجائر واليك نصوصهم .

قال احمد بن حنبل فى احدى رسائله : «السمع والطاعة للائمة وأمير المؤمنين ، البر والفاجر ومن ولى الخلافة فأجمع الناس ورضوا به ومن غلبهم بالسيف ، وسمى امير المؤمنين ، والغزو ماض مع الامراء الى يوم القيامة ، البر والفاجر ، واقامة الحدود الى الائمة ، وليس لاحد أن يطعن عليهم وينازعهم ، ودفع الصدقات اليهم جائز من دفعها اليهم اجزأت عنهم براً كان او فاجراً وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل من ولى ، جائزة اقامته ، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للاوثار مخالف للسنة» (١) .

ومن خرج على امام من ائمة المسلمين وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه واقروا له بالخلافة باى وجه من الوجوه ، كان بالرضاء او بالغلبة فقد شق الخارج عصا المسلمين وخالف الاثار عن رسول الله فان مات الخارج عليه ، مات ميتة جاهلية

هذا الرأى المنقول عن امام الحنابلة لايمكن انكار صحة نسبته اليه ولاجل ذلك قال الاستاذ أبوزهرة : «ولاحمد رأى يتلاقى فيه مع سائر الفقهاء وهو جواز امامة من تغلب ورضيه الناس واقام الحكم الصالح بينهم بل انه يرى اكثر من ذلك ان من تغلّب وان كان فاجرا تجب اطاعته حتى لاتكون الفتن (٢) .

والعبارة التى نقلناها عن امام الحنابلة تعرب عن وجوب اطاعة الجائر ولو أمر بمعصية الخالق و هو أمر عجيب منه جدا مع أن اكثر الاشاعرة الذين يحرمون الخروج عليه ، لايوجبون طاعته كما سترى عند ما نوافيك بنصوصهم ولغرابة رأى ابن حنبل هذا ، ذيله أبوزهرة بقوله : ولكنه ينظر فى هذه القضية

(١) تاريخ المذاهب الاسلامية : لابى زهرة ج٢ ص٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص٣٢١ .

الى مصلحة المسلمين وانه لابد من نظام مستقر ثابت وان الخروج على هذا النظام يحل قوة الامة ، ويفك عراها ، ولانه رأى من أخبار الخوارج وفتنتهم ما جعله يقرر أن النظام الثابت اولى وان الخروج عليه يرتكب فيه من المظالم اضعاف مايرتكبه الحاكم الظالم .

ثم انه ينظر فى القضية نظرة أتباع فان التابعين عاشوافى العصر الاموى الى اكثر من ثلثى زمانه قدرأوا مظالم كثيرة ومع ذلك نهواعن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين وكانوا ينصحون الخلفاء والولاة ان وجدوا آذانا تسمع ، وقلوبا تفقه ، وفى كل حال لايخرجون ولايؤيدون خارجه . (١)

وهذا التوجيه من الاستاذ غريب جدا :

اما اولا : فلان الخروج على النظام الظالم اذا كان موجبا لحل قوة الامة وفك عراها ، يكون الصبر عليه تشويقا لتماديه فى الظلم ، واكثار الضغط على الامة وبالنتيجة : تحويل الدين وتحريفه عماهوعليه من الحق ... فأى فائدة تكمن فى حفظ قوة أمة، انحرف عن صراطها وتبدلت سننها وتغيرت أصولها. فان الظالم لايرى لظلمه حداً ولتعديه ضوابط ، فلو رأى أن الاسلام بواقعه يضاد آرائه الشخصية وميوله الخبيثة، عمد الى تغييره وتحويره فليس يقتصر ظلم الظالم على التعدى على النفوس والاموال ، بل الراكب على أعناق الناس ، يغير كل شيىء كيفمايريد ، وحيثما يرى انه لصالح شخصه، والتاريخ شاهدنا الاصدق على ذلك

وثانيا فان الاستاذابازهرة نسب الى التابعين الذين عاشوا فى العصر الاموى الى اكثر من ثلثى زمانه بأنهم رأوا مظالم كثيرة ومع ذلك نهوا عن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين... ولكنه كيف غفل عن قضية الحرة الدامية حيث كان الخارجون فيها على الحكومة الغاشمة هم الصحابة والتابعون . . .

وهذا المسعودى صاحب «مروج الذهب» ينقل الينا لمحة عما جرى هناك ويقول :

(١) تاريخ المذاهب الاسلامية : لابى زهرة ج٢ ص٣٢٢ .

« ولما انتهى الجيش من المدينة الى الموضع المعروف بالحرة وعليهم «مسرف» خرج الى حربه أهلها . عليهم عبدالله بن مطيع العروى وعبدالله بن حنظلة الغسيل الانصارى ، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من بنى هاشم وسائر قريش والانصار وغيرهم من سائر الناس ، فقد قتل من آل ابى طالب اثنان: عبدالله بن جعفر بن أبى طالب وجعفر بن محمد بن على بن ابى طالب ومن بنى هاشم من غير آل ابى طالب ، الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب ، وحمزة بن عبدالله بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب ، والعباس بن عتبة بن أبى لهب بن عبدالمطلب ، وبضع وتسعون رجلا من سائر قريش ومثلهم من الانصار وأربعة آلاف من سائر الناس ممن ادركه الاحصاء دون من لم يعرف . (١)

كيف نسى أبوزهرة أولعله تناسى قضية دير الجماجم حيث قام ابن الاشعث التابعى فى وجه الحجاج السفاك بالموضع المعروف بدير الجماجم فكان بينهم نيف وثمانون وقعة تفانى فيها خلق وذلك فى سنة اثنين وثمانين . (٢)

وعلى كل تقدير فقد اقتفى اثر احمد بن حنبل جماعة من متكلمى الاشاعرة وادعوا بان هذه عقيدة اسلامية كانت الصحابة والتابعون يدينون بها وانه يجب الصبر على الطغاة الظلمة اذا تصدروا منصة الحكم ، نعم غاية مايقولون انه لايجب اطاعتهم اذا أمروا بالحرام والفساد جاعلين قولهم هذا منعطفهم الوحيد عن قول ابن حنبل وبقية أهل الحديث ، واليك نبذة من اقوال القوم :

١ـ قال الامام الشيخ أبوجعفر الطحاوى الحنفى (المتوفى عام ـ ٣٢١) فى رسالته المسماة بـ «بيان السنة والجماعة» المشهور بـ «العقيدة الطحاوية» :

ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة ولانرى السيف على احد من أمة محمد الا على من وجب عليه السيف (أى سفك الدم بالنص القاطع كالقاتل والزانى المحصن والمرتد) ولانرى الخروج على أئمتنا ولا ولاة أمرنا

(١) مروج الذهب للمسعودى ج٣ ص٦٩ ـ ٧٠ طبع بيروت .
(٢) نفس المصدر السابق ج٣ ص١٣٢ .

وان جاروا، ولاندعوا على أحد منهم ولاننزع يدا من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعات الله عزوجل فريضة علينا مالم يأمروا بمعصية (١).

٢- قال الامام الاشعرى من جملة ماعليه اهل الحديث والسنة: ويرون العيد والجمعة والجماعة خلف كل امام بروفاجر. الى ان قال: ويرون الدعاء لائمة المسلمين بالصلاح، وان لايخرجوا عليهم بالسيف، وان لايقاتلوا فى الفتن.(٢)

٣- وقال الامام ابواليسر محمد بن عبدالكريم البزودى: الامام اذا جار أوفسق لاينعزل عند اصحاب أبى حنيفة باجمعهم وهو المذهب المرضى... ثم قال: وجه قول عامة اهل السنة والجماعة اجماع الامة، فانهم رأوا الفساق ائمة، فان اكثر الصحابة كانوا يرون بنى أمية وهم بنو مروان حتى كانوا يصلّون الجمعة والجماعة خلفهم، ويرون قضاياهم نافذة، وكذا الصحابة والتابعون وكذا من بعدهم يرون خلافة بنى عباس واكثرهم كانوا فساقا. ولان القول بانعزال الائمة بالفسق، ايقاع الفساد فى العالم، واثبات المنازعات وقتل الانفس، فانه اذا انعزل يجب على الناس تقليد غيره، وفيه فساد كثير ثم قال: اذا فسق الامام يجب الدعاء له بالتوبة ولايجوز الخروج عليه وهذا مروى عن أبى حنيفة لان فى الخروج اثارة الفتن والفساد فى العالم (٣).

٤- وقال الامام ابوبكر محمد بن الطيب الباقلانى (المتوفى عام ٤٠٣هـ ق) فى التمهيد:

ان قال قائل: ما الذى يوجب خلع الامام عندكم؟ قيل له: يوجب ذلك أمور: منها كفر بعد ايمان، ومنها تركه الصلاة والدعاء الى ذلك ومنها عند كثير من الناس فسقه وظلمه بغصب الاموال وضرب الابشار وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود وقال الجمهور من أهل الاثبات وأصحاب الحديث:

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابى جعفر الطحاوى طبع دمشق ص١١٠ و١١١.

(٢) مقالات الاسلاميين: ص٣٢٣.

(٢) أصول الدين للامام البزودى ط القاهرة ص١٩٠ - ١٩٢.

لاينخلع بهذه الامور ولايجب الخروج عليه بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء مما يدعوا اليه من معاصي الله اذ احتجوا في ذلك باخبار كثيرة متضافرة عن النبي ﷺ وعن الصحابة في وجوب طاعة الائمة وان جاروا واستأثروا بالاموال وانه قال عليه السلام :

«واسمعوا وأطيعوا ولو لعبد اجدع ولو لعبد حبشي وصلّوا وراء كل بر وفاجر» وروى انه قال : «وان أكلوا مالك وضربوا ظهرك وأطيعوهم ماأقاموا الصلاة» . (١)

٥ ـ وقال الشيخ نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النسفي (المتوفى عام ٥٣٧) في العقائد النسفية» :

ولاينزل الامام بالفسق والجور . . . ويجوز الصلاة خلف كل بر وفاجر وعلله الشارح التفتازاني بقوله : لانه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الائمة والامراء بعد الخلفاء الراشدين ، والسلف كانوا ينقادون لهم ويقيمون الجمع والاعياد باذنهم ولايرون الخروج عليهم . (٢)

وقد أيدت تلك العقائد بروايات ربما يتصور القارى أن لها مسحة من الحق أولمسة من الصدق لكن الحق ان اكثرها مفتعلة على لسان رسول الله ﷺ قد افرغها في قالب الحديث جمع من وعاظ السلاطين ومرتزقتهم تحفظا على عروشهم وحفظا لمناصبهم واليك بعض تلك الروايات التي رواها مسلم في صحيحه .

١ ـ روى مسلم عن حذيفة بن اليمان قلت يارسول الله. . . الى أن قال ، قال رسول الله ﷺ : يكون بعدى ائمة لايهتدون بهداى ولايتسنون بسنتى، وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان انس قال : قلت كيف أصنع يارسول الله ان أدركت ذلك قال : تسمع وتطيع للاميروان ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع .

(١) التمهيد : ط القاهرة ص١٨٦ .

(٢) شرح العقائد النسفية .

٢ - وروى عن ابى هريرة عن النبى ﷺ انه قال : من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة الجاهلية . . . الى أن قال : ومن خرج على امتى يضرب برها وفاجرها ، ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى لذى عهد عهده فليس منى ولست منه

٣ - روى عن ابن عباس انه قال رسول الله ﷺ : من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فانه من فارق الجماعة شبرا فمات فميتته جاهلية .

٤ - روى عنه ايضا عن رسول الله ﷺ قال: من رأى من أميره شيئاً فليصبر فأنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبرا فمات عليه الا مات ميتة جاهلية.

٥ - روى عن عبدالله بن عمر انه جاء الى عبدالله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال : اخرجوا لابى عبدالرحمان وسادة فقال : انى لم اتيتك لاجلس أتيتك لاحدثك حديثا سمعت رسول الله ﷺ يقوله : من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لاحجة له ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية .

وقد فسر قول رسول الله ﷺ ابن عمر بلزوم بيعة يزيد واطاعته حتى فى مسألة الحرة .

٦ - روى عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برء ومن انكر سلم ولكن من رضى وتابع قالوا يارسول الله : ألا نقاتلهم قال : لا ما صلوا .

٧ - وروى عن عوف بن مالك فى حديث : قيل يارسول الله أفلا ننابذهم بالسيف ؟ فقال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة واذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدا من طاعته . (١)

وقد أورد ابن الاثير الجزرى قسما من هذه الاحاديث فى جامع الاصول.(٢)

---

(١) صحيح مسلم باب الامر بلزوم الجماعة ج٦ وباب حكم من فرق أمر المسلمين ص٢٠ - ٢٤ .

(٢) لاحظ جامع الاصول ج٤ الكتاب الرابع فى الخلافة والامارة الفصل الخامس ص٤٥١ . . . الخ .

٨- روى البيهقي في سننه عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : سيكون بعدى خلفاء يعملون بما يعلمون ، ويفعلون بما يؤمرون وسيكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن انكر عليهم برء ومن أمسك يده سلم ولكن من رضى وتابع (١).

٩- وروى ابن عبد ربّه عن عبدالله بن عمر : اذا كان الامام عادلا فله الاجر وعليك الشكر واذا كان الامام جائرا فعليه الوزر وعليك الصبر(٢) .

وفي مقدم المحدثين احمد بن حنبل فقد جاء في احدى رسائله ما هذا نصها : السمع والطاعة للائمة وامير المؤمنين البر والفاجر ومن ولي الخلافة فاجمع عليه الناس ورضوا به ومن غلبهم بالسيف وسمي أمير المؤمنين ، والغزو ماض مع الامراء الى يوم القيامة (٣) .

وقبل كل شيء يجب علينا ان نعرض تلك الروايات على كتاب الله سبحانه فانه المحك الاول لتشخيص الحديث الصحيح من السقيم . قال سبحانه حاكيا عن العصاة والكفار : «يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول. وقالوا ربنا اطعنا سادتنا وكبرائنا فاضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا . (الاحزاب : ٦٦ - ٦٨)

فهذا القسم من الايات يندد بقول من يرى وجوب طاعة السلطان الظالم التي توجب ضلالة المطيع لهم عن السبيل السوى ، وثمة آيات تندد بعمل من يصبر على عمل الطاغية من دون ان يأمره بالمعروف أو ينهاه عن المنكر وترى نفس السكوت والصبر على طغيان الطاغية، جرما و اثما موجبا للهلاك وهذه الايات هي الواردة حول قوم من بني اسرائيل الذين كانوا يعيشون قرب ساحل من سواحل البحر فتقسمهم الى اصناف ثلاثة :

---

(١) السنن الكبرى ، ج٨ ، ص١٥٨ .

(٢) العقد الفريد ، ج١ ص٨ .

(٣) تاريخ المذاهب الاسلامية ج٢ ص٣٢٢ .

الاول : الجماعة المعتدية العادية التي رفضت حكم الله سبحانه حيث حرم عليهم صيد البحر يوم السبت قال سبحانه «اذ يعدون في السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تاتيهم» . (الاعراف - ١٦٣)

الثاني : الجماعة الساكتة التي اهمتهم انفسهم لا يرتكبون ما حرم الله وفي الوقت نفسه لا ينهون الجماعة العادية عن عدوانها ، بل كانوا يعترضون على الجماعة الثالثة التي كانت تقوم بواجبها الديني من ارشاد الجاهل والقيام في وجه العاصي والطاغي ، بقولهم : «لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا»

الثالث: الجماعة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر محتسبين ذلك وظيفة دينية عريقة ونصيحة لازمة للاخوان وقد حكى الله سبحانه على لسانهم في محكم كتابه العزيز حيث قال : «معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون» .

نرى ان الله سبحانه أباد الطائفتين الاوليين وأنجى الثالثة قال سبحانه : «فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون» . (الاعراف : ١٦٣ - ١٦٥)

فالاية الاخيرة صريحة في حصر النجاة في الناهين عن السوء فقط دون العادين والساكتين على عدوانهم . فلو كان السكوت والصبر على عدوان العادين أمرا جائزاً لماذا عم العذاب كلتا الطائفتين ؟ أو ما كان في وسع هؤلاء أن يعتذروا للقائمين بالامر بالمعروف، بأن في القيام والخروج وحتى في النصيحة بالقول تضعيفا لقوة الامة وفكا لعراها ؟ .

فلو دلت الاية الاولى على حرمة طاعة الظالم ودلت الاية الثانية على حرمة السكوت في مقابل طغيان اعادين فهناك آية ثالثة تدل على حرمة الركون الى الظالم يقول سبحانه: «فلا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار». (هود - ١١٣)

أوليس تأييد الحاكم الجائر والدعاء له في الجمعة والجماعات ، واقامة الصلاة بأمره، وادارة كل شأن خول منه اليه ، يعد ركونا الى الظالم؟ فما هو جواب هؤلاء المرتزقة في الدول الاسلامية اصطلاحا الذين يعترفون بجور حكامهم

وانحرافهم عن الصراط السوى ، فمع ذلك يدعون لهم عقب خطب الجمعات بطول العمر ودوام السلامة ويديرون الشؤون الدينية حسب الخطط التى يرسمها ويصورها لهم اولئك الحكام ، الذين تعدهم أولئك المرتزقة محاور ومراكز ، وانفسهم أقمارا تدور فى أفلاكها اللهم الا ان يعتذر هؤلاء بعدم التمكن ممايجب عليهم من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على مراتبها المختلفة ولكنه عذر لايقبل فى كثير من الاحيان وعلى ذلك الاساس فماقيمة تلك الروايات المعارضة لنصوص الكتاب وصريح الذكر الحكيم .

أضف الى ذلك أن هناك روايات تنفى صحة الروايات السابقة وتجعلها فى مدحرة البطلان و قد نقلها أصحاب الصحاح والسنن أيضا وعند المعارضة يؤخذ من السنة الشريفة مايوافق كتاب الله الحكيم . واليك نزرا من تلك الروايات .

قال رسول الله ﷺ : «اسمعوا : سيكون بعدى أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم واعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه وليس بوارد على الحوض».(١)

هذا بعض ما لدى السنة من الروايات واما ما لدى الشيعة فنأتى ببعضها .

عن رسول الله ﷺ انه قال: الاومن علق سوطا بين يدى سلطان جعل الله ذلك السوط يوم القيامة ثعبانا من النار طوله سبعون ذراعا يسلطه الله عليه فى نار جهنم وبئس المصير

وعنه ﷺ ايضا انه قال : اذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : اين أعوان الظلمة ، ومن لاق لهم دواة أوربط لهم كيسا، اومد لهم مدة قلم، فاحشروهم معهم.

وعنه ﷺ انه قال : من خف لسلطان جائر فى حاجة كان قرينه فى النار

وقال ﷺ : ماقترب عبد من سلطان جائر الاتباعد من الله .

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام انه قال : من أحب بقاء الظالمين فقد أحب أن يعصى الله .

وعنه عليه السلام انه قال : من سود اسمه فى ديوان الجبارين . . . حشره الله يوم القيامة حيرانا .

---

(١) جامع الاصول ج٤ ص ٧٥ نقلا عن الترمذى والنسائى .

وعنه عليه السلام انه قال : من مشى الى ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم فقد خرج عن الاسلام .

وعن الامام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام انه قال: ما أحسب أني عقدت لهم عقدة أو وكيت لهم وكاء وأن لي ما بين لابتيها لا ولامدة بقلم ، ان أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يفرغ الله من الحساب . (١)

وغيرها من عشرات الاحاديث والروايات الواردة من النبي ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام الناهية عن السكوت على الحاكم الجائر ، والحاثة على زجره ودفعه ، والانكار عليه بكل الوسائل الممكنة فهذه الاحاديث تدل على أن مامر من الروايات الحاثة على السكوت عن الحاكم الظالم ، والانصياع لحكمه، والتسليم لظلمه، والرضا بجوره، جميعها مما لفّقه رواة السوء والجور بايعاز من السلطات الحاكمة في تلك العصور المظلمة ، فنسبوها الى النبي ﷺ وهو ﷺ منها براء لمعارضتها الصريحة لمبادىء الكتاب والسنة.

ولو لم يكن في المقام الا قول علي عليه السلام في خطبته : « . . . وما أخذ الله على العلماء أن لايقاروا على كظة ظالم ولاسغب مظلوم . . . الخ » (٢) لكفى في وهن تلك الروايات المفتعلة على لسان النبي ﷺ وفي ختام الكلام نلفت نظر القارى الكريم الى ماقاله الامام أبو الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام الى أهالي الكوفة حيث خطب أصحابه وأصحاب الحر (قائد جيش عبيدالله بن زياد آنذاك) فحمدالله وأثنى عليه ثم قال : ايها الناس ان رسول الله ﷺ قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ولاقول ، كان حقا على الله أن يدخله مدخله . ألا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة

---

(١) راجع لمعرفة هذه الاحاديث وسائل الشيعة ج١٢ الباب ٤٢ ، الاحاديث ٦، ١٠، ١١، ١٢، ١٤، ١٥ ، والباب ٤٤ الحديث ٥ و٦ .

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٣ .

الرحمان وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله وانا أحق من غيره (١) .

وهذه النصوص الرائعة المؤيدة بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين قاموا في وجه الطغاة من بني أمية وبني العباس ، تشهد بان مانسب الى الصحابة و التابعين من الاستسلام و السكوت على ظلم الظالمين لكون ذلك من عقيدتهم الاسلامية ، ماهو الابعض مفتعلات أصحاب العروش وقد وضعها وعاظهم ومرتزقتهم والافالطيبون من الصحابة والتابعون بريئون من هذه النسبة

صراع بين العقيدة والوجدان :

نرى أن بعض الشباب المسلم في البلاد الاسلامية، قدانخرطوا في الاحزاب السياسية ، و رفضوا الدين من اساسه ، ولعل بعض السبب هو أنهم وجدوا في أنفسهم صراعا عنيفا بين العقيدة و الوجدان . فمن جانب توحي اليهم فطرتهم و عقيدتهم الانسانية السليمة ، الى انه تجب مكافحة الظالمين ، و الخروج عليهم ، ونصرة المظلومين ، وأخذ حقوقهم من أيدى الظالمين ، ومن جانب اخر يسمعون من علماء الدين أوالمتزين بلباسه، أنه لايجوز الخروج على السلطان ، بل تجب طاعته ، وان امر بالظلم والعدوان ، فحينئذ يقع الشاب في حيرة من امره بين اتباع الفطرة والعقل السليم . واتباع كلام هؤلاء العلماء الذين ينطقون باسم الدين خصوصا اذا كان المتكلم رجلا يكيل المجتمع له الاحترام والاكبار ، و يعرفه التاريخ بالخطيب الزاهد كالحسن البصري فانه عندماسئل عن مقاتلة الحجاج ذلك السيف المشهور على الامة والاسلام فأجاب: «أرى أن لاتقاتلوه فانها ان تكن عقوبة من الله ، فما انتم برادیها ، وان يكن بلائا فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين» فخرج السائلون من عنده وهم يقولون مستنكرين ماسمعوا منه: انطيع هذا العلج ثم خرجوا مع ابن الاشعث على قتال الحجاج (٢) .

(١) تاريخ الطبرى ج٤ حوادث سنة ٦١ ص٣٠٤ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص١٦٤ .

فأذا سمع الشاب الثورى هذه الكلمة من عميد الدين وخطيبه- كما يقال- عاد يصف جميع رجال الدين بما وصف به الحسن البصرى و بالتالى يخرج من الدين ويتركه ويصف الدين سنادا للظالم وملجأله .

وفى الختام نوجه نظر الاعلام من السنة الى خطورة الموقف فى هذه الايام، وأن أعداء الاسلام لبالمرصاد يصطادون الشباب بسهام الدعاية الكاذبة ، ويعرفون الاسلام بأنه سند الظالمين ، وركن الجائرين بحجة انه ينهى عن الخروج على السلطان الجائر .

والمسلم غير العارف بالدين وما الصق به ، لايميز بين الحقيقة الناصعة وبين ما البس عليها من ثوب ردىء قاتم .

وليس هذا اول ولا اخر مورد يجد الشاب الثورى صراعا فى نفسه بين العقلية الانسانية وبين الدعاية الكاذبة عن الاسلام ، فيختار وحى الفطرة ويصبح ثائرا على القوى الطاغية، ويظن انه ترك الاسلام باعتقاد ان المتروك هو الدين الحقيقى الذى انزله الله تعالى على النبى محمد ﷺ وهذه الجريمة متوجهة بالدرجة الاولى على هذا النمط من العلماء .

فواجب على علماء الدين أن يرجعوا الى المصادر الاسلامية الصحيحة فى تشخيص ماهو من صميم الدين عما الصق به ، ولايقتنعوا بما كتب باسم الدين عن السلف الصالح ، وليس كل مانسب الى السلف الصالح أوقالوا به صميم الدين، كما انه ليس كل سلف صالحا بل هم بين صالح وطالح، وسعيد وشقى ، وعالم وجاهل وليس كل سلف أفضل وأتقى وأعلم من كل خلف ، فليدرسوا الاصول المسلمة من رأس ، نعم لا اكتم ان هناك اناسا واقفين على الحقيقة و لكن لاتقتضى مصالحهم الشخصية اظهارها وقد نزل فيهم قوله سبحانه: «ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» (البقرة - ١٥٩) كما ان بينهم شخصيات لامعة جاهروا بالحقيقة و اصهروا بها و اشتروا رضا الرب باثمان غالية وتضحيات ثمينة .

٢

عدالة الصحابه بين العاطفة والبرهان

عدالة الصحابة كلهم بلااستثناء، ونزاهتهم من كل سوء هى احدى الاصول التى يتدين بها أهل السنة وقد راجت تلك العقيدة بينهم حتى اتخذها الامام الاشعرى احدى الاصول التى يبتنى عليها مذهب أهل السنة جميعا (١) و نحن نعرض هذه العقيدة على الكتاب أولاوعلى السنة النبوية الصحيحة ثانياً والتاريخ ثالثا حتى يتجلى الحق باجلى مظاهره انشاء الله تعالى وقبل أن ندخل فى صلب المسألة نقدم تعريف الصحابى فنقول :

من هوالصحابي ؟

ان هناك تعاريف مختلفة للصحابى نأتى ببعضها على وجه الاجمال :

١ ـ قال سعيد بن المسيب : الصحابى لانعده الامن اقام مع رسول الله ﷺ سنة أوسنتين وغزامعه غزوةأوغزوتين .

٢ ـ قال الواقدى : رأينا أهل العلم يقولون كل من رأى رسول الله وقد أدرك فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممن صحب رسول الله ، ولو ساعة من نهارولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم فى الاسلام .

---

(١) مقالة الاسلاميين ج ١ ص ٣٢٣ يقول : ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله سبحانه بصحبة نبيه صلى الله عليه وآله ويأخذون بفضائلهم و يمسكون عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم .

٣ - قال احمد بن حنبل : أصحاب رسول الله كل من صحبه شهرا أو يوما أو ساعة أو رآه .

٤ - قال البخارى : من صحب رسول الله أو رآه من المسلمين فهو اصحابه.

٥- وقال القاضى ابو بكر محمد بن الطيب : لاخلاف بين اهل اللغة فى ان الصحابى مشتق من الصحبة قليلا كان او كثيراً ثم قال : و مع هذا فقد تقرر للامة عرف فانهم لايستعملون هذا التسمية الا فى من كثرت صحبته ولايجيزون ذلك الافيمن كثرت صحبته لاعلى من لقيه ساعة اومشى معه خطى ، اوسمع منه حديثاً فوجب ذلك ان لايجرى هذا الاسم الاعلى من هذه حاله ومع هذا فان خبر الثقة الامين عنه مقبول ومعمول به وان لم تطل صحبته ولاسمع عنه حديثاً واحدا .

٦- وقال صاحب الغوالى: لايطلق اسم الصحبة الاعلى من صحبته ثم يكفى فى الاسم من حيث الوضع ، الصحبة ولوساعة ولكن العرف يخصصه بمن كثرت صحبته .

قال الجزرى بعد ذكر هذه النقول : قلت: وأصحاب رسول الله على ما شرطوه كثيرون فان رسول الله شهد حنيناً ومعه اثنا عشر الف سوى الاتباع والنساء ، وجاء اليه « هوازن » مسلمين فاستنقذوا حريمهم وأولادهم . وترك مكة مملوءة ناسا وكذلك المدينة ايضا وكل من اجتاز به من قبائل العرب كانوا مسلمين فهؤلاء كلهم لهم صحبة وقد شهد مع تبوك من الخلق الكثير مالايحصيهم ديوان وكذلك حجة الوداع وكلهم له صحبة (١) .

ولايخفى ان التوسع فى مفهوم الصحابى على الوجه الذى عرفته فى كلماتهم مما لاتساعده اللغة والعرف العام فان صحابة الرجل عبارة عن جماعة تكون لهم خلطة و معاشرة معه مدة مديدة فلا تصدق على من ليس له حظ الا الرؤية عن بعيد اوسماع الكلام اوالمكالمة او المحادثة فترة يسيرة اوالاقامة معه زمنا قليلا .

وأظن أن فى هذا التبسيط والتوسع غاية سياسية لما سيوافيك من ان النبى قد تنبأ بارتداد ثلة من اصحابه بعد رحلته فارادوا بهذا التبسيط صرف هذه النصوص

(١) اسد الغابة ج١ ص١١ - ١٢ ط مصر .

الى الاعراب وأهل البوادى ، الذين لم يكن لهم حظ من الصحبة الا اللقاء القصير وسيأتى ان هذه النصوص راجعة الى الملتفين حوله الذين كانوا مع النبى ليلا ونهاراً، صباحاً ومساء الى حد كان النبى يعرفهم باعيانهم واشخاصهم واسمائهم فكيف يصح صرفها الى أهل البوادى والصحارى من الاعراب فتربص حتى تاتيك النصوص

و على كل تقدير فلسنا فى هذا البحث بصدد تعريف الصحابة وتحقيق الحق بين هذه التعاريف غيرانا نركز الكلام فى ان أهل السنة يقولون بعدالة هذا الجمع الغفير المدعوين باسم الصحابة واليك كلماتهم :

عدالة الصحابة جميعهم

قال ابن عبدالبر : تثبت عدالة جميعهم (١) .

وقال ابن الاثير: ان السنن التى عليها مدار تفصيل الاحكام ومعرفة الحلال والحرام الى غير ذلك من امور الدين، انما تثبت بعد معرفة رجال اسانيدها ورواتها و اولهم والمقدم عليهم أصحاب رسول الله فاذا جهلهم الانسان كان بغيرهم أشد جهلا واعظم انكارا ، فينبغى أن يعرفوا بأنسابهم واحوالهم ، هم وغيرهم من الرواة حتى يصح العمل بما رواه الثقات منهم . و تقوم به الحجة فان المجهول لاتصح روايته ولاينبغى العمل بما رواه . والصحابة يشاركون سائر الرواة فى جميع ذلك الا فى الجرح والتعديل فانهم كلهم عدول لايتطرق اليهم الجرح لان الله عزوجل ورسوله زكياهم وعدلاهم وذلك مشهور لانحتاج لذكره (٢) .

وقال الحافظ ابن حجر فى الفصل الثالث من الاصابة : اتفق اهل السنة على ان الجميع عدول ولم يخالف فى ذلك الا شذوذ من المبتدعة . وقد ذكر الخطيب فى الكفاية فصلا نفيسا فى ذلك فقال : عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم واخباره عن طهارتهم واختياره لهم ثم نقل عدة آيات حاول بها اثبات عدالتهم و

(١) الاستيعاب : فى اسماء الاصحاب ج١ ص٢ فى هامش «الاصابة» .

(٢) أسد الغابة ج١ ص٣ .

وطهارتهم جميعا الى أن قال : روي الخطيب بسنده الى أبي زرعة الرازى قال : اذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله فاعلم انه زنديق وذلك أن الرسول حق ، والقرآن حق ، وماجاءبه حق ، وانما ادى الينا ذلك كلهالصحابة وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهمأولى وهم زنادقة (١) هذه كلمات القوم وكم لها من نظائر نتركها طلباللاختصار .

تقييم نظرية عدالة الصحابة كلهم :

تقييم هذه النظرية يتم بتبيين أمور :

١ - ان البحث عن عدالة الصحابى أو جرحه ليس لغاية ابطال الكتاب والسنة ، ولا لابطال شهود المسلمين ، لما سيوافيك من أن الكتاب شهد على فضل عدة منهم ، وزيغ آخرين وهكذا السنة ، والغاية فى هذا البحث هى الغاية فى البحث عن عدالة التابعين ومن تلاهم من رواة القرون المختلفة ، فالغاية فى الجميع هى التعرف على الصالحين والطالحين ، حتى يتسنى لنا أخذ الدين عن الصلحاء ، والتنزه عن أخذه عن غيرهم ، فلوقام الرجل بهذا العمل وتحمل العباء الثقيل ، لما كان عليه لوم فلو قال أبوزرعة مكان قوله الانف ، هذا القول : «اذا رأيت الرجل يتفحص عن أحد من أصحاب الرسول لغاية العلم بصدقه أو كذبه ، أوخيره أوشره ، حتى يأخذ دينه عن الخيرة الصادقين ، ويحترز عن الاخرين ، فاعلم أنه من جملة المحققين فى الدين والمتحرين للحقيقة» لكان أحسن وأولى بل هو الحسن والمتعين .

ومن غير الصحيح أن يتهم العالم أحدا ، يريد التثبت فى أمور الدين والتحقيق فى مطالب الشريعة «بالزندقة وأنه يريد جرح شهود المسلمين لابطال الكتاب والسنة» وماشهود المسلمين الا الاف المكتظة من أصحابه ﷺ فلايضر بالكتاب والسنة جرح لفيف منهم وتعديل قسم منهم . وليس الدين القيم قائما

(١) الاصابة : ج١ ص١٧ .

بهذا الصنف من المجروحين ، «ماهكذا تورد ياسعدالابل» .

٢ ـ ان هذه النظرية تكونت من العاطفة الدينية التى حملها المسلمون تجاه الرسول الاكرم ﷺ وجرتهم الى تبنى تلك الفكرة وقد قيل : «من عشق شيئا عشق لوازمه وآثاره» .

ان صحبة الصحابة لم تكن بأكثر ولااقوى من صحبة امرأة نوح وامرأة لوط فما اغنتهما عن الله شيئا قال سبحانه : «ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين» (التحريم ـ ١٠) .

ان التشرف بصحبة النبى لم يكن اكثر امتيازا وتأثيرا من التشرف بالزواج من النبى وقد قال سبحانه فى شأن أزواجه : «يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا» (الاحزاب ـ ٣٠) .

٣ ـ ان أساتذة العلوم التربوية كشفوا عن قانون مجرب وهو أن الانسان الواقع فى اطار التربية، انما يتأثر بعوامل هاإذا لم تكمل شخصيته الروحية والفكرية لان النفوذ فى النفوس المكتملة شخصية والتأثير عليها والثورة على أفكارها وروحياتها، يكون صعبا جدا (لااقول أمرا محالا) بخلاف ما اذا كان الواقع فى اطارها صبيا يافعا ، أوشابا فى عنفوان السن ، اذعندئذ يكون قلبه وروحه كالارض الخالية ينبت فيها ما القى بها ، وعلى هذا الاساس لايصح لنا أن نقول : ان الصحبة والمجالسة وسماع بعض الايات والاحاديث، اوجدت ثورة عارمة فى صحابة النبى ﷺ وأزالت شخصياتهم المكونة طيلة سنين فى العصر الجاهلى ، وكونت منهم شخصيات عالية تعد مثلا للفضل والفضيلة. مع انهم متفاوتين فى السن ومقدار الصحبة، مختلفين فى الاستعداد والتأثر ، وحسبك ان بعضهم اسلم وهو صبى لم يبلغ الحلم وبعضهم اسلم وهو فى اوليات شبابه ، كما اسلم بعضهم فى الاربعينات والخمسينات من أعمارهم الى أن اسلم بعضهم وهو شيخ طاعن فى السن يناهز الثمانين والتسعين فكما انهم كانوا مختلفين فى السن عند الانقياد للاسلام، كذلك كانوا مختلفين

ايضا فى مقدار الصحبة فبعضهم صحب النبى ﷺ من بدء البعثة الى لحظة الرحلة، وبعضهم أسلم بعد البعثة وقبل الهجرة ، و كثير منهم اسلموا بعد الهجرة وربما أدركوا من الصحبة سنة أوشهرا أوأياماً أوساعة فهل يصح أن نقول : ان صحبةما قلعت ما فى نفوسهم جميعا من جذور غير صالحة وملكات ردية و كونت منهم شخصيات ممتازة أعلى وأجل من أن يقعوا فى اطار التعديل والجرح .

ان تأثير الصحبة عند من يعتقد بعدالة الصحابة كلهم أشبه شيىء بمادة كيمياوية تستعمل فى تحليل عنصر كالنحاس الى عنصر آخر كالذهب . فكأن الصحبة قلبت كل مصاحب الى انسان مثالي يتحلى بالعدالة و هذا مما يرده المنطق والبرهان السليم و ذلك لأن الرسول الاعظم ﷺ لم يقم بتربية الناس وتعليمهم عن طريق الاعجاز (فلوشاء لهداكم أجمعين) (الانعام - ١٤٩) بل قام بارشادالناس ودعوتهم الحق وصبهم فى بوتقات الكمال مستعينا بالأساليب الطبيعية والامكانيات الموجودة كتلاوة القرآن الكريم ، والنصيحة بكلماته النافذة ، وسلوكه القويم وبعث رسله ، ودعاة دينه الى الاقطار ، ونحوذلك . والدعوة القائمة على هذا الاساس ، يختلف أثرها فى النفوس حسب اختلاف استعدادها وقابلياتها فلا يصح لنا أن نرمى الجميع بسهم واحد .

الى هنا خرجنا بهذه النتيجة : أن الاصول التربوية تقضى بأن بعض الصحابة يمكن أن يصل فى قوة الايمان ورسوخ العقيدة الى درجات عالية، كما يمكن أن يصل بعضهم فى الكمال والفضيلة الى درجات متوسطة ومن الممكن أن لايتأثر بعضهم بالصحبة وسائر العوامل المؤثرة الأشيئا طفيفا لايجعله فى صفوف العدول وزمرة الصالحين .

هذا هو مقتضى التحليل حسب الاصول النفسية والتربوية غير أن البحث لايكتمل ، ولايصح القضاء البات الابالرجوع الى القرآن الكريم حتى نقف على نظره فيهم كما تجب علينا النظرة العابرة الى كلمات الرسول فى حقهم ، وملاحظة سلوكهم وحياتهم فى زمنه ﷺ وبعده .

الصحابة فى الذكر الحكيم :

نرى أن الذكر الحكيم يصنف صحابة النبى الاكرم ﷺ و يمدحهم فى ضمن أصناف نأتى ببعضها :

١ـ السابقون الاولون :

يصف الذكر الحكيم السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والتابعين لهم بأن الله رضى عنهم وهم رضوا عنه ، قال عزّ من قائل : «والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم» .
(سورة التوبة ـ ١٠٠)

٢ ـ المبايعون تحت الشجرة

يصف سبحانه جماعة من الصحابة الذين بايعوه تحت الشجرة بنزول السكينة عليهم ويقول فى محكم كتابه : «لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا» .
(الفتح ـ ١٨)

٣ ـ المهاجرون

وهؤلاءهم الذين يصفهم تعالى ذكره بقوله : «للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون» . (سورة الحشر ـ ٨)

٤ ـ اصحاب الفتح :

هؤلاء هم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى فى آخر سورة الفتح بقوله : «محمد

رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تريهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعدالله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما» . (سورة الفتح - ٢٩)

الاصناف الاخرى للصحابة :

فالناظر المخلص المتجرد عن كل رأى مسبق ، يجد فى نفسه تكريما لهؤلاء الصحابة غير أن القضاء البات فى عامة الصحابة، يستوجب النظر الى كل الآيات القرآنية الواردة فى حقهم فعندئذ يتبين لنا أن هناك اصنافا اخرى من الصحابة غير ما سبق ذكرها ، تمنعنا من أن نضرب الكل بسهم واحد، ونصف الكل بالرضا والرضوان. وهذا الصنف من الآيات يدل بوضوح على وجود مجموعات من الصحابة تضاد الاصناف السابقة فى الخلقيات والملكات والسلوك والعمل واليك قسطا منهم:

١ - المنافقون المعروفون :

المنافقون المعروفون بالنفاق الذين نزلت فى حقهم سورة المنافقين ، قال سبحانه : «اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون . . . » (الى آخر سورة المنافقين) .

فهذه الآيات تعرب بوضوح عن وجود كتلة قوية من المنافقين بين الصحابة آنذاك وكان لهم شأن فنزلت سورة قرآنية كاملة فى حقهم .

٢ - المنافقون المختفون :

تدل بعض الآيات على أنه كانت بين الاعراب القاطنين خارج المدينة ومن نفس أهل المدينة ، جماعة مردوا على النفاق وكان النبى الاعظم لايعرف بعضهم

ومن تلك الآيات قوله سبحانه : « وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق (١) لاتعلمهم نحن نعلمهم » . (سورة التوبة - ١٠١)

لقد اعطى القرآن الكريم عناية خاصة بعصبة المنافقين واعرب عن نواياهم وندد بهم في السور التالية : البقرة ، آل عمران ، المائدة ، التوبة ، العنكبوت ، الاحزاب ، محمد ، الفتح ، الحديد، المجادلة ، الحشر ، والمنافقين .

وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ان المنافقين كانوا جماعة هائلة في المجتمع الاسلامي بين معروف، عرف بسمة النفاق ووصمة الكذب ، وغير معروف بذلك مقنع بقناع التظاهر بالايمان والحب للنبي ، فلو كان المنافقون جماعة قليلة غير مؤثرة لما رأيت هذه العناية البالغة في القرآن الكريم وهناك ثلة من المحققين كتبوا حول النفاق والمنافقين رسائل و كتابات وقد قام بعضهم باحصاء مايرجع اليهم فبلغ مقدارا يقرب من عشر القرآن الكريم ، (٢) وهذا ان دل على شيء فانما يدل على كثرة أصحاب النفاق وتأثيرهم يوم ذاك في المجتمع الاسلامي وعلى ذلك لايصح لنا الحكم بعدالة كل من صحب مع غض النظر عن تلك العصابة المجرمة ، المتظاهرة بالنفاق اوالمختفية في أصحاب النبي ﷺ .

٣ - مرضى القلوب ،

وهذه المجموعة من الصحابة لم يكونوا من زمرة المنافقين بل كانوا يتلونهم في الروحيات والملكات مع ضعف في الايمان والثقة بالله ورسوله ﷺ قال سبحانه بحقهم : « و اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله و رسوله الاغرورا » . (سورة الاحزاب - ١١)

فاني لنا أن نصف مرضى القلوب الذين ينسبون خلف الوعد الى الله سبحانه والى رسوله ﷺ بالتقوى والعدالة ؟

---

(١) مردوا على النفاق : تمرنوا عليه وتمارسوا عليه

(١) النفاق والمنافقون : تأليف الاستاذ : ابراهيم على سالم المصرى

٤ - السماعون :

تلك المجموعة كانت قلوبهم كالريشة في مهب الريح تتمايل تارة الى هؤلاء واخرى الى أولئك بسبب ضعف ايمانهم وقد حذر البارى عز وجل المسلمين منهم حيث قال عز من قائل ، واصفا اياهم بالسماعون لأهل الريب : « انما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين» (سورة التوبة : ٤٥ - ٤٧) وذيل الاية دليل على كون السماعين من الظالمين لامن العدول .

٥ - خالطوا العمل الصالح بالسيء :

و هؤلاء هم الذى يقومون بالصلاح والفلاح تارة ، والفساد والعبث مرة اخرى ، فلأجل ذلك خلطوا عملا صالحا بعمل سيء قال سبحانه : «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا» . (التوبة - ١٠٢)

٦ - المشرفون على الارتداد :

ان بعض الآيات تدل على أن مجموعة من الصحابة كانت قد اشرفت على الارتداد يوم دارت عليهم الدوائر ، وكانت الحرب بينهم وبين قريش طاحنة فأحسوا بضعفهم، وقد اشرفوا على الارتداد عرفهم الحق سبحانه بقوله : «وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل ان الامر كله لله يخفون في أنفسهم مالايبدون لك يقولون لو كان لنا من الامر شيء ماقتلنا هيهنا » . (آل عمران - ١٥٤)

٧ - الفاسق :

ان القرآن الكريم يحث المؤمنين وفي مقدمتهم الصحابة الحضور ، على

التحرز من خبر الفاسق حتى يتبين ، فمن هذا الفاسق الذى أمر القرآن فى التحرز منه ؟ اقرأ أنت ما نزل حول الآية من شأن النزول واحكم بما هو الحق . قال سبحانه « ياأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين » . (الحجرات ـ ٦)

فان من المجمع عليه بين أهل العلم انه نزل فى حق الوليد بن عقبة بن أبى معيط وذكره المفسرون فى تفسير الآية فلا نحتاج الى ذكر المصادر .

كما نزل فى حقه قوله تعالى: «أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون» (السجدة ـ ١٨) نقل الطبرى فى تفسيره باسناده انه كان بين الوليد وعلى، كلام فقال الوليد : أنا أبسط منك لسانا وأحد منك سنانا وأرد منك للكتيبة . فقال على : أسكت فانك فاسق فأنزل الله فيهما: «أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون»(١)

وقد نظم الحديث حسان بن ثابت (شاعر عصر الرسالة) وقال :

انزل الله و الكتاب عزيز ... فى على وفى الوليد قرآنا
فتبوء الوليد اذ ذاك فسقا ... و على مبوء ايمانا
ليس من كان مؤمنا عرف ... الله كمن كان فاسقا خوانا
سوف يدعى الوليد بعد قليل ... و على الى الحساب عيانا
فعلى يجزى بذاك جنانا ... ووليد يجزى بذاك هوانا(٢)

أفهل يمكن لباحث حر، التصديق بما ذكره ابن عبد البر وابن الاثير وابن حجر وفى مقدمتهم ابوزرعة الرازى الذى هاجم المتفحصين المحققين فى أحوال الصحابة واتهمهم بالزندقة .

---

(١) تفسير الطبرى ج ٢١ ص ٦٢ وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٦٢ .

(٢) تذكرة الخواص سبط ابن الجوزى ص ١١٥ و «كفاية» الگنجى ص ٥٥ و«مطالب السؤول» لابن طلحة ص ٢٠ وشرح النهج ، الطبعة القديمة ج ٢ ص ١٠٣ وجمهرة الخطب لاحمد زكى ج ٢ ص ٢٣ ، لاحظ الغدير ج ٢ ص ٤٢

٨ - المسلمون غير المؤمنين :

ان القرآن يعد جماعة من الاعراب الذين رأوا النبى وشاهدوه وتكلموا معه ، مسلمين غير مؤمنين وانهم بعد لم يدخل الايمان فى قلوبهم قال سبحانه : «قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم». (الحجرات - ١٤)

أفهل يصح عدعصابة غير مؤمنين من العدول الاتقياء .

٩ - المؤلفة قلوبهم :

اتفق الفقهاء على ان المؤلفة قلوبهم ممن تصرف عليهم الصدقات ، قال سبحانه «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم» . (التوبة - ٦٠)

والمراد من «المؤلفة قلوبهم»: الذين كانوا فى صدر الاسلام ممن يظهرون الاسلام ، - يتألفون بدفع سهم من الصدقة اليهم لضعف يقينهم . وهناك أقوال اخر فيهم متقاربة والكل يهدف الى الاعطاء لمن لايتمكن اسلامه حقيقة الا بالعطاء(١)

١٠ - المولون امام الكفار :

ان التولى عن الجهاد والفرار منه ، من الكبائر الموبقة التى ندد بها سبحانه بقوله : «يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير» . (الانفال - ١٥ - ١٦)

ان التحذير من التولى والفرار من الزحف ، والحث على الصمود امام العدو،

(١) تفسير القرطبى ج٨ ص١٨٧ لاحظ : المغنى لابن قدامة ج٢ ص٥٥٦

لم يصدر من القرآن الا بعدفرار مجموعة كبيرة من صحابة النبى فى غزوة «احد» و«حنين» اما الاول فيكفيك قول ابن هشام فى تفسير الآيات النازلة فى احد، قال: «ثم انّبهم بالفرارعن بينهم وهم يدعون، لايعطفون عليه لدعائه اياهم فقال: «اذتصعدون ولاتلوون على احد والرسول يدعوكم فى اخراكم» واما الثانى: فقد قال ابن هشام فيه ايضا: فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة اهل مكة، الهزيمة، تكلم رجال منهم بما فى انفسهم من الضغن فقال ابوسفيان بن حرب: لاتنتهى هزيمتهم دون البحر، وصرخ جبلة بن حنبل الابطل السحر اليوم... (١)

افبعد هذا يصح أن يعد جميع الصحابة بحجة أنهم رأوا نور النبوة عدولا أتقياء.

قال القرطبى فى تفسيره قدفر الناس يوم «احد» وعفى الله عنهم وقال الله فيهم يوم حنين: «ثم وليتم مدبرين» ثم ذكر فرار عدة من اصحاب النبى من بعض السرايا (٢).

هذاالامام الواقدى يرسم لناتولى الصحابة منهزمين ويقول: فقالت أم الحارث فمر بى عمر بن الخطاب فقالت ام الحارث ياعمر ماهذا؟ فقال عمر: «امر الله» وجعلت ام الحارث تقول يارسول الله من جاوز بعيرى فاقتله (٣)

هذه هى الاصناف العشرة من صحابة النبى ممن لايمكن توصيفهم بالعدالة والتقوى، اتينابها فى هذه العجالة مضافا الى الاصناف المضادة لها ولكن نلفت نظر

---

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص١١٤ ج٤ وص٤٤٤ ولاحظ التفاسير

(٢) تفسير القرطبى ج٧ ص٣٨٣

(٣) مغازى الواقدى ج٣ ص ٩٠٤. ان تعليل الفرارعن الزحف بقضاء الله كتعليل عباد الاوثان شركهم به كما فى قوله سبحانه حاكيا عن المشركين « لوشاءالله ماأشركنا ولا اباؤنا » (الانعام - ١٤٨) وتلزم من ذلك تبرئة العصاة والكفار لان اعمالهم كلها بقضاء منه.

القارىء الكريم الى الآيات الواردة في اوائل سورة البقرة وسورة النساء وغيرها من الآيات القرآنية فترى فيها ان الايمان بعدالة الصحابة مطلقا خطأ في القول، وزلة في الرأى، يضاد نصوص الذكر الحكيم ولم يكن الصحابة الا كسائر الناس فيهم صالح تقى بلغ القمة في التقى والنزاهة، وفيهم طالح شقى سقط الى هوة الشقاء والدناءة. ولكن الذى يميز الصحابة عن غيرهم انهم رأوا نور النبوة وتشرفوا بصحبة النبى ﷺ وشاهدوا معجزاته في حلبة المباراة بأم اعينهم ولأجل ذلك تحملوا مسؤلية كبيرة امام الله وامام رسوله وامام الاجيال المعاصرة لهم واللاحقة بهم، فانهم، ليسوا كسائر الناس، فزيغهم وميلهم عن الحق اشد لايعادل زيغا كثر الناس وانحرافهم وقد قال سبحانه في حق ازواج النبى ﷺ بقوله: «يانساء النبى لستن كاحد من النساء» لاحظ (سورة الاحزاب الاية ٣٠ - ٣١) فلو انحرف هؤلاء فقد، انحرفوا في حال شهدوا النور، ولمسوا الحقيقة، وشتان الفرق بينهم وبين غيرهم.

الصحابة في السنة النبوية:

اذا راجعنا الصحاح والمسانيد نجد ان اصحابهم افردوا بابا بشأن فضائل الصحابة الا انه لم يفردوا بابا في مثالبهم بل اقحموا مايرجع الى هذه الناحية في ابواب اخر ستراً لمثالبهم وقد ذكرها البخارى في الجزء التاسع من صحاحه في باب الفتن وادرجها ابن الأثير في جامعه في ابواب القيامة عند البحث عن الحوض والوضع الطبيعي لجمع الاحاديث وترتيبها كان يقتضى عقد باب مستقل للمثالب في جنب الفضائل حتى يطلع القارىء على قضاء السنة حول صحابة النبى الاكرم.

روى ابوحازم عن سهل بن سعد قال: قال النبى ﷺ: انى افرطكم على الحوض من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ ابدا وليردن على اقوام اعرفهم ويعرفونى ثم يحال بينى وبينهم... قال ابوحازم: فسمع النعمان بن ابى عياش وانا احدثهم بهذا الحديث فقال: هكذا سمعت سهلا يقول، فقلت: نعم قال: وانا اشهد على ابى سعيد الخدرى لسمعته يزيد فيقول: انهم منى فقال: انك لاتدرى ماأحدثوا

بعدك فاقول : سحقا سحقا لمن بدل بعدي اخرجه البخاري ومسلم (١) .

وظاهر الحديث أن المراد بقرينة «بدل بعدى» اصحابه الذين عاصروه وصحبوه وكانوا معه مدة ثم مضوا. روى البخاري ومسلم ان رسول الله ﷺ قال: يرد علىّ يوم القيامة رهط من أصحابى - أوقال من امتى - فيحلؤون عن الحوض فاقول يا رب أصحابى فيقول. انه لاعلم لك بما احدثوا بعدك انهم ارتدوا على ادبارهم القهقرى (٢)

ثم قال و للبخاري : ان رسول الله ﷺ قال بينما أنا قائم على الحوض اذاً زمرة حتى اذا عرفتهم خرج بينى وبينهم فقال : هلم فقلت . اين ؟ فقال : الى النار والله، فقلت: ماشأنهم ؟ قال: انهم ارتدوا على ادبارهم القهقرى ثم اذا زمرة حتى اذا عرفتهم خرج رجل بينى وبينهم فقال لهم: هلم فقلت الى أين؟ قال الى النار والله قلت: ما شأنهم قال انهم ارتدوا على ادبارهم فلاأراه يخلص منهم الا همل النعم (٣) .

وظاهر الحديث بقرينة « حتى اذا عرفتهم » وقوله « ارتدوا على ادبارهم القهقرى » أن الذين أدركوا عصره و كانوا معه هم الذين يرتدون بعده.

الصحابة والتاريخ المتواتر :

كيف يمكن عدالة الصحابة جميعاً عدولا والتاريخ بين أيدينا نرى أن بعضهم ظهر عليه الفسق فى حياة النبى وبعده كوليد بن عقبة ، اما الاول فقد عرفت نزول الآية فى حقه و اما الثانى فروى أصحاب السير و التاريخ أن الوليد بن عقبة أيام ولايته بكوفة شرب الخمر وقام ليصلى بالناس صلاة الفجر فصلى اربع ركعات و كان يقول فى ركوعه وسجوده: اشربى واسقنى ثم قام فى المحراب ثم سلم وقال هل أزيدكم الى اخر ماذكروه (٤) .

---

(١) جامع الاصول لابن الاثير ج١١ كتاب الحوض فى ورود الناس عليه ص١٢٠ رقم الحديث ٧٩٧٢ و«الفرط»: المتقدم قومه الى الماء ويستوى فيه الواحد والجمع يقال رجل فرط وقوم فرط (٢) جامع الاصول ج١١ رقم الحديث ٧٩٧٣ ص١٢٠.

(٣) جامع الاصول ج ١١ ص١٢١ ، و«همل النعم» كناية عن ان الناجى عدد قليل ، وقد اكتفينا من الكثير بالقليل ومن اراد الوقوف على مالم نذكره فليرجع الى «جامع الاصول»

(٤) الكامل لابن الاثير ج٢ ص٤٢ . أسد الغابة ج٥ ص٩١ وغيرهما . وقد اقام*

وبعضهم ظهرت عليه سمة الارتداد عند مابدت علائم الهزيمة عند المسلمين فقال : لاتنتهى هزيمتهم دون البحر(١) وقال الآخر أما بطل السحر(٢) .

وهذا رسول الله يخاطب ذى الخويصرة عند ما قال للنبى فى تقسيم غنائم حنين اعدل بقوله «ويحك ان لم يكن العدل عندى فعند من يكون؟ ثم قال : فانه يكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية» (٣)

وهذا أبوسفيان يضرب برجله قبر حمزة عليه السلام ويقول : ذق عقق ان الملك الذى كنا نتنازع عليه أصبح اليوم بيد صبياننا (٤) .

وهذا أبوسفيان عند ما بويع عثمان . دخل اليه بنو أبيه حتى امتلأت بهم الدار ثم اغلقوها عليهم فقال أبوسفيان أعندكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا . قال : يا بنى أمية تلقفوها تلقف الكرة فوالذى يحلف به ابوسفيان ما من عذاب ولاجنة ولانار ولا بعث ولاقيامة (٥) .

أفهل بعد هذه الكلمات الردة الخبيثة يصح لمسلم ان يعد هؤلاء وامثالهم من صنف العدول وطبقة الصالحين ويعدهم جرحهم أبطالا للكتاب والسنة وتضعيفا لشهود المسلمين .

آراء الصحابة بعضهم حول البعض :

النظرة العابرة لتاريخ الصحابة تقتضى بان بعضهم كان يتهم الاخر بالنفاق

---

*الامام امير المؤمنين على عليه السلام عليه الحد فى خلافة عثمان باصرار من الناس والحاح منهم لئلا تتعطل الحدود

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٤٤٣ والقائل ابو سفيان

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٤٤ والقائل كلدة ابن الحنبل فقال له صفوان : اسكت فض الله فاك .

(٣) سيرة ابن هشام ج٤ ص٤٩٦

(٤) قاموس الرجال ج١٠ ص ٨٩ نقلا عن الشرح الحديدى

(٥) الشرح الحديدى ج٩ ص٥٣ نقلا عن كتاب السقيفة للجوهرى

و الكذب ، كما ان بعضهم يقاتل بعضاً ، ويقود جيشاً لمحاربته فقتل بين ذلك جماعة كثيرة افهل يمكن تبرير اعمالهم من الشاتم والمشتوم ، والقاتل والمقتول ، عدولا ومثلا للفضل والفضيلة واليك نزراً يسيراً من تاريخهم مما خفظته يد النقل غفلة عن المبادى العامة لأصحاب الحديث .

١ـ روى البخارى مشاجرة سعد بن معاذ مع سعد بن عبادة سيد الخزرج فى قضية الافك قال : قام رسول الله ﷺ فاستعدا يومئذ من عبدالله ابن ابى وهو على المنبر فقال : يامعشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه اذاه فى اهلى ، والله ما علمت على اهلى الأخيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الاخيراً و ما يدخل على اهلى الامعى فقام سعد بن معاذ اخو بنى عبدالأشهل فقال : انا رسول الله اعذرك فان كان من الأوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج امرتنا ، ففعلنا امرك ، فقام رجل من الخزرج : وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج و كان قبل ذلك رجلا صالحاً ، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله لاتقتله ولاتقدر على قتله ولو كان من رهطك ما احببت ان يقتل فقام اسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيان : الأوس والخزرج حتى هموا ان يقتتلوا ورسول الله قائم على المنبر فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت(١)

اقرء فاقض فان هؤلاء يتهم بعضه بعضا بالكذب و النفاق ، ونحن نعتبرهم عدولا صلحاء . والانسان على نفسه بصيرة .

٢ ـ ان الحروب الدائرة بين الصحابة انفسهم وحتى الثورة التى اقامها أصحاب النبى و من اتبعهم على عثمان بن عفان حتى جرت الى قتله أفضل دليل على أنه لايصح تعريف الصحابة وتوصيفهم بالعدالة والتقوى اذ كيف يصح أن يكون القاتل والمقتول على الحق والعدالة .

وهذا هو طلحة وهذا الزبير قد جهزا جيشا جراراً لحرب الامام على (ع)

(١) صحيح البخارى ج٥ ص١١٨-١١٩ . فى تفسير سورة النور

واعانتهما أم المؤمنين فقتلت جماعة كثيرة بين ذلك فهل يمكن تعديل كل هذه الجماعة حتى الباغين على الامام المفترض الطاعة بالنص أولا، وبيعة المهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان ثانيا.

وهذا معاوية بن ابى سفيان يعد من الصحابة وقد صنع بالاسلام والمسلمين ماقد صنع مما هو مشهور فى التاريخ ومن ذلك انه حارب الأمام على عليه الصلاة والسلام فى حرب صفين وكان مع على كل من بقى من البدريين وهم قريب من مائة شخص، فهل من حارب هؤلاء الصحابة جميعا بما فيهم سيد الصحابة على(ع) يعد من أهل الفضل والصلاح والعدالة ؟ فاقض ما انت قاض.

نقل صاحب المنار: انه قال احد علماء الالمان فى «الاستانة» لبعض المسلمين وفيهم احد شرفاء مكة: انه ينبغى لنا ان نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن ابى سفيان فى ميدان كذا من عاصمتنا «برلين» قيل له لماذا؟ قال لانه هو الذى حول نظام الحكم الاسلامى عن قاعدته الدميقراطية الى عصبية الغلب (الملك لمن غلب) ولولا ذلك، لعم الاسلام العالم كله ولكنا نحن الالمان وسائر شعوب اوربة عربا مسلمين (١).

هذا خال المؤمنين ومن يترحم عليه خطباء الجمعة والجماعة فكيف حال غيره اضف اليه ماله من الموبقات والمهلكات مما لايمكن لاحد انكاره. والاعتذار منه فى تبرير اعماله القاسية باجتهاده فى ما ناءبه وباء باثمه من حروب دامية و ازهاق نفوس بريئة تعد بالالاف المؤلفة ليس الا ضلالة وخداعا المعقل فانه اجتهاد على خلاف الله وضد رسوله والا يصح ان يعد جميع المناوئين للاسلام مجتهدين فى صدر الاسلام ومؤخره.

هذا مجمل القول فى هذا الاصل الذي اتخذه أصحاب الحديث أصلا من أصول الاسلام ثم أدخله الأشعرى فى الأصول الذى يتبناها اكثر أهل السنة والجماعة

(١) المنار ج ١١ ص ٢٦٩ فى تفسير سورة يونس

التعذير التافه أو أسطورة الاجتهاد :

وما أتفه قول من يريد تبرير عمل هؤلاء بالاجتهاد ، وأنهم كانوا مجتهدين في أعمالهم وافعالهم أهل يصح تبرير عمل القتل والفتك والخروج على الامام المفترضة طاعته، بالاجتهاد . ولو صح هذا الاجتهاد (ولن يصح ابدا) لصح عن كل من خالف الحق وحالف الباطل من اليهود والنصارى وغيرهم من الطغام اللئام اى قيمة للاجتهاد في قبال النص وصريح السنة النبوية واجماع الامة . اى قيمة للاجتهاد الذى اباح دماء المسلمين ودمر كيانهم وشق عصاهم وفكك عرى وحدتهم . اى ، اى ، اى .

ان القائلين بعدالة الصحابة يتمسكون بما يروون عن النبى انه قال : اصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم (١) غير ان متن الحديث يكذب صدوره عن النبى اذليس كل نجم هاديا للانسان فى البر والبحر بل هناك نجوم خاصة موجبة للاهتداء ولأجل ذلك قال سبحانه : «وعلامات وبالنجم يهتدون» .
(النحل ـ ١٦)

ولم يقل «وبالنجوم يهتدون» ولو كان كل نجم هاديا للضال لكان الانسب الايتان بصيغة الجمع. ولوافترضنا صحة الاهتداء بكل نجم فى السماء، أهل يمكن أن يكون كل صحابى نجما لا معافى سماء الحياة ، هاديا للأمة .

هذا قدامة بن مظعون صحابى بدرى يعد من السابقين الأولين ومن المهاجرين هجرتين روى انه شرب الخمر و اقام عليه عمر الحد (٢) كما أن المشهور أن عبدالرحمان الاصغر بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر (٢) .

وقد ارتد طلحة بن خويلد عن الاسلام وادعى النبوة ومثله مسيلمة بن العنسى

---

(١) جامع الاصول ج٩ كتاب الفضائل ص٤١٠ رقم الحديث ٦٣٥٩

(٢) اسد الغابة ج٤ ص١٩٩ وسائر الكتب الرجالية .

(٢) نفس المصدر ج٣ ص٣١٢ .

الكذاب وأمرهما أشهر من أن يذكر .

ان بعض الصحابة خضب وجه الارض بالدماء فاقرأ تاريخ بسر بن أرطاة حتى امه قتل طفلين لعبيدالله بن عباس. وكم وكم بين الصحابة لدة هؤلاء من رجال العبث والفساد قد احتفل التاريخ بضبط مساويهم أفبعد هذه البينات يصح لاى ابن أنثى ان يتقول بعدالة الصحابة مطلقا ويتخذها مذهبا ويرمى المخالف له ، بما هو برى منه .

والنظرية القويمة المستقيمة هى نظرية الشيعة المنعكسة فى الدعاء المروى عن الامام الطاهر على بن الحسين عليهما السلام ترى انه يدعو الله سبحانه فى حق اصحاب محمد ﷺ لا لكلهم بل للذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن فى نصره ، والذين عاضدوه وأسرعوا الى وفادته و اليك تلك الكلمة المباركة من الصحيفة السجادية :

«اللهم واصحاب محمد ﷺ خاصة الذين أحسنوا الصحبة، والذين أبلوا البلاء الحسن فى نصره ، وكاتفوه واسرعوا الى وفادته، وسابقوا الى دعوته ، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد فى اظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء فى تثبيت نبوته، وانتصروا به، ومن كانوا منطوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور فى مودته، والذين هجرتهم العشائر اذا تعلقوا بعروته، وانتفت منهم القربات، اذ سكنوا فى ظل قرابته ، فلا تنس اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك، وكانوا مع رسولك ، دعاة لك اليك واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش الى ضيقه، ومن كثرت فى اعزاز دينك من مظلومهم اللهم وأوصل الى التابعين لهم باحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا . . : » (١)

---

(١) الصحيفة السجادية : الدعاء الرابع مع شرحه : فى ظلال الصحيفة السجادية ص٥٥ - ٥٦ .

خاتمة المطاف :

ان لابى المعالى الجوينى كلاما حول الصحابة دعافيه الى ان الواجب، الكف و الامساك عن الصحابة و عما شجر بينهم ، نقله الشارح الحديدى فى شرحه على نهج البلاغة كما نقل نقد بعض الزيدية له ، الذى سمعه من استاذه النقيب ابى جعفر يحيى بن محمد العلوى البصرى فى سنة احدى و عشرة وست مأة ببغداد وعنده جماعة ومانقله عن أستاذه رسالة مبسوطة فى الموضوع فيها نكات بديعة لايسعنا ايرادها فى المقام ولذلك نقتبس بعضها وقدنقل فيهاقضايا تعرب عن جريان السيرة على النقد والرد والمشاجرة واليك بعضها .

١ـ هذه عائشة ام المؤمنين خرجت بقميص رسول الله ﷺ فقالت للناس : هذا قميص رسول الله لم يبل ، وعثمان قد ابلى سنته ثم تقول : اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا ثم لم ترض بذلك حتى قالت : اشهد ان عثمان جيفة على الصراط غدا .

٢ـ هذا المغيرة بن شعبة وهومن الصحابة ، ادعى عليه الزنا وشهد عليه قوم بذلك ، فلم ينكر ذلك عمر ولا قال : هذا محال وباطل لان هذا صحابى من صحابة رسول الله ﷺ لايجوز عليه الزنا وهلا انكر عمر على الشهود وقال لهم : ويحكم هلا تغافلتم عنه لما رأيتموه يفعل ذلك ، فان الله تعالى قدأوجب الامساك عن مساوى اصحاب رسول الله ﷺ واوجب الستر عليهم ، وهلا تركتموه لرسول الله فى قوله دعوا لى أصحابى ، ما راينا عمر الا قد انتصب لسماع الدعوى واقامة الشهادة واقبل يقول للمغيرة : يا مغيرة ذهب ربعك ، يا مغيرة ذهب نصفك ، يا مغيرة ذهب ثلاثة ارباعك حتى اضطرب الرابع فجلد الثلاثة وهلا قال المغيرة لعمر: كيف تسمع فى قول هؤلاء وليسوا من الصحابة وانا من الصحابة ورسول الله ﷺ قد قال : اصحابى كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم ؟ ما رأيناه قال ذلك بل استسلم لحكم الله تعالى .

٣ـ وهاهنا ، من هوامثل من المغيرة وافضل، كقدامة بن مظعون ، لماشرب الخمر فى ايام عمر فاقام عليه الحد و هورجل من علية الصحابة و من أهل بدر

المشهود لهم بالجنة فلم يرد عمر الشهادة ولادرء عنه الحد لعلة انه بدرى ولاقال قد نهى رسول الله ﷺ عن ذكر مساوى الصحابة وقد ضرب عمر ايضا ابنه حداً فمات وكان ممن عاصر رسول الله ﷺ ولم تمنعه معاصرته له من اقامة الحد عليه.

٤- كيف يصح ان يقول رسول الله ﷺ: «اصحابى كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم» لان هذا يوجب أن يكون اهل الشام فى صفين على هدى، وان يكون اهل العراق ايضاً على هدى وان يكون قاتل عمار بن ياسر مهتديا، وقد صح الخبر الصحيح انه ﷺ، قال له: تقتلك الفئة الباغية وقال فى القرآن: «فقاتلوا التى تبغى حتى تفيىء الى امر الله» فدل على انها مادامت موصوفة بالمقام على البغى مفارقة لامر الله، ومن يفارق امر الله لايكون مهتدياً وكان يجب ان يكون بسر بن ابى أرطاة الذى ذبح ولدى عبيدالله بن عباس الصغيرين، مهتديا لان بسرا من الصحابة ايضا وكان يجب ان يكون عمرو بن العاص ومعاوية اللذان كانا يلعنان عليا أدبار الصلاة وولديه، مهتدين وقد كان فى الصحابة من يزنى، ومن يشرب الخمر، كابى محجن الثقفى، ومن يرتد عن الاسلام، كطليحة بن خويلد فيجب أن يكون كل من اقتدى بهؤلاء فى أفعالهم مهتديا.

٥- هذا الحديث (أصحابى كالنجوم) من موضوعات متعصبة الامويه فان لهم من ينصرهم بلسانه وبوضعه الاحاديث اذا عجز عن نصرهم بالسيف، وكذا القول فى الحديث الاخر وهو قوله: «القرن الذى انا فيه» ومما يدل على بطلانه ان القرن الذى جاء بعده بخمسين سنة، شر قرون الدنيا وهو أحد القرون التى ذكرها فى النص وكان ذلك القرن هو القرن الذى قتل فيه الحسين. واوقع بالمدينة، وحوصرت مكة، ونقضت الكعبة وشربت خلفاؤه والقائمون مقامه المنتصبون فى منصب النبوة، الخمور وارتكبوا الفجور، كما جرى ليزيد بن معاوية وليزيد بن عاتكة ولوليد بن يزيد، واريقت الدماء الحرام، وقتل المسلمون وسبىء الحريم، واستعبد أبناء المهاجرين والانصار ونقش على ايديهم كما ينقش على ايدى الروم، وذلك فى خلافة عبدالملك، وامرة الحجاج واذا تأملت كتب التواريخ وجدت الخمسين الثانية، شرا كلها لاخير فيها

ولافي رؤسائها وامرائها ، والناس برؤسائهم وأمرائهم. والقرن خمسون سنة فكيف يصح هذا الخبر؟ .

٦ـ فاما ماورد في القرآن من قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين » و قوله : « محمد رسول الله والذين معه » وقول النبى ﷺ « ان الله اطلع على اهل بدر » ، ان كان الخبر صحيحاً فكله مشروط بسلامة العاقبة ، و لايجوز أن يخبر الحكيم مكلفا غير معصوم ، بانه لاعقاب فيه فليفعل ماشاء .

٧ـ من الذى يجترء على القول بان اصحاب محمد ﷺ لاتجوز البراءة من احدمنهم وان اساء وعصى بعد قول الله تعالى للذى شرفوا برؤيته : «لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين» (١) وبعد قوله: «قل انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم» (٢) ، وبعد قوله : «فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» (٣) ، الا من لا فهم له ولانظر معه ولاتمييز عنده.

٨ـ والعجب من الحشوية وأصحاب الحديث اذ يجادلون على معاصى الانبياء و يثبتون انهم عصوا الله تعالى ، و ينكرون على من ينكر ذلك و يطعنون فيه و يقولون : قدرى ، معتزلى : وربما قالوا ملحد مخالف لنص الكتاب وقد رأينا منهم الواحد و المأة و الالف يجادل فى هذا الباب فتارة يقولون : ان يوسف قعد من امرأة العزيز مقعد الرجل من المرأة ، وتارة يقولون : ان داود قتل اوريا لينكح امرأته ، وتارة يقولون ان رسول الله ﷺ كان كافراً ضالا قبل النبوة وربما ذكروا زينب بنت جحش وقصة الفداء يوم بدر، فاما قدحهم فى آدم عليه السلام واثباتهم معصيته ومناظرتهم من ينكر ذلك ، فهو رأيهم وديدنهم ، فاذا تكلم واحد فى « عمرو بن العاص » وفى «معاوية» وامثالهما ونسبهم الى المعصية وفعل القبيح احمرت وجوههم، وطالت اعناقهم وتخازرت اعينهم ، وقالوا مبتدع ، رافضى، يسب الصحابة ويشتم السلف ، فان قالوا انما اتبعتا فى ذكر معاصى الانبياء نصوص الكتاب

(١) الزمر : ٦٥ . (٢) الانعام : ١٥ . (٣) ص : ٢٦ .

قيل لهم :فاتبعوا فى البرائة عن جميع العصاة نصوص الكتاب فانه تعالى قال : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادالله ورسوله » (١) ، وقال : « فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيىء الى أمرالله » (٢) وقال : « اطيعوالله واطيعوا الرسول واولى الامرمنكم » (٣ـ٤).

قتل الخليفة المفترض الطاعة :

قد تصافق اهل السير والتاريخ ان عثمان بن عفان قد حوصر ثم هو جم و قتل فى عاصمة الاسلام وقدقتلته الصحابة والتابعون لهم باحسان، حتى منعوا عن تجهيزه وتغسيله ودفنه والصلاة عليه، وهذا امام المؤرخين يتلوعلينا كيفية الاجهاز عليه والهجوم على داره بعد محاصرته قرابة اربعين يوماً .

يقول الطبرى : « دخل محمد بن ابى بكر على عثمان فاخذ بلحيته . . . ثم دخل الناس فمنهم من يجأه بنعل سيفه ، واخر يلكزه ، وجاءه رجل بمشاقص معه فوجأه فى ترقوته ودخل آخرون فلما رأوه مغشياً عليه جروا برجله ، وجاء التجيبى مخترطاً سيفه ليضعه فى بطنه فوقته نائلة فقطع يدها ، واتكأبا لسيف عليه فى صدره وقتل عثمان رضى الله عنه قبل غروب الشمس .

وفى نص آخر يقول : طعن محمد بن ابى بكر جنبيه بمشقص فى يده و ضرب كنانة بن بشر مقدم رأسه بعمود ، وضربه سودان بن حمران المرادى بعد ماخرلجبينه، ووثب عمرو بن الحمق فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات الى آخرما ذكره . (٥)

وقد وقعت الواقعة بمرأى ومسمع من معظم الصحابة وليس لاحد ان يتفوه انهم لم يكونوا عالمين بها فانها ماكانت مباغتة ولا غيلة حتى يكونوا فى غفلة

(١) المجادلة : ٢٢ .　　(٢) الحجرات : ٩ .　　(٣) النساء : ٥٩ .
(٤) الشرح الحديدى ج٢٠ ص١٢ـ٣٠ والرسالة مبسوطة مفصلة ـ اخذنا المهم منها
(٥) تاريخ الطبرى ج٣ ص٤٢٣ .

عنها وقد استدام الحوار اكثر من شهرين والحصر حوالى اربعين يوماً كل ذلك يعرب عن انهم كانوا راضين بهاتيك الاحدوثة ، لولم نقل انهم كانوا بين مباشر لها الى خاذل للمودى به الى مؤلب عليه ، الى مثبط عنه ، الى راض بما فعلوا، الى محبّذ لتلك الاحوال كما هو واضح لمن قرأ تاريخ الدار وقتل الخليفة متجرداً عن اهواء وميول اموية .

فعندئذ يدورالامربين امرين بايهما اخذنا يبطل الاصل المزعوم من عدالة الصحابة اجمع .

فان كان الخليفة ، قائماً على جادة الحق غير مائل عن الطريقة المثلى فالمجهزون على قتله والناصرون له مساقان لم نقل انهم مراق عن الدين لخروجهم على الامام المفترضة طاعته .

وان كان مائلاعن الحق ، منحرفاً عن الطريقة ، مستحقا للقتل فما معنى القول بعدالة الصحابة كلهم من امامهم الى مأمومهم .

واما تبرير عمل المجهزين عليه ، المهاجمين على داره بانهم كانوا عدولا خاطئين فى اجتهادهم ، فهو خداع وضلال وتمهل لايصاراليه ، ولايركن اليه اى ذومسكة من العقل اذاى قيمة لاجتهادهم، تجاه نصوص الكتاب العزيز قال عزمن قائل «من قتل نفساً بغير نفس اوفساد فى الارض فكانما قتل الناس جميعاً». (المائدة-٣٢)

هذا غيض من فيض . وقليل من كثير من تاريخ الصحابة واحوالهم وهى مشحونة بالصواب والخطاء والهدى والضلال . ضعه امام عقلك وفكرك فاقض ما انت قاض ولاتتبع اهواء .

«وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين»

(المائدة - ٤٢)

عثرة لاتستقال :

لما انتهت محاضراتنا الى البحث عن عدالة الصحابة وقفنا على كتاب باسم « صورتان متضادتان لنتائج الرسول الاكرم » تاليف الكاتب : السيد ابو الحسن الندوى الهندى - أقال الله عثراته - وقد بالغ فى الذب عن عدالتهم بملفق الكلام وتزويره، مضافا الى مافيه من بوادر وعثرات اعاد فيها ماسبقه الاخرون من رمى الشيعة الامامية الى نسب مفتعلة هم براء منها وكانه لم يك يحسب ان يأتى عليه يوم يناقشه قلم التنقيب اوكان غير مكترث لاية تبعة ومغبة .

وقد صاغ كتابه هذا فى قالب « علم كلام جديد » لم يسبقه اليه احد من ائمة الاعتزال واعلام الاشاعرة فاصبح كحاطب ليل رزم فى حزمته كل رطب ويابس ولذلك - عقدنا الفصل التالى - لتتبع عثراته وزلاته . والى الله المشتكى .

٤

صورتان متضادتان

او

رسالتان متضادتان

«دراسة موجزة وتحليل رائع»

«للشروط اللازمة للرسالة الخالدة»

«والنبوة الدائمة»

في هذا الفصل

١ ـ نظريتان متضادتان حول الشعب الايرانى المسلم .
٢ ـ الحوافز التى دعت الكاتب الى اتخاذ موقفين متضادين .
٣ ـ الملامح العامة للشعب الايرانى فى الرسالة الاولى .
٤ ـ الملامح العامة المناقضة لها فى الرسالة الثانية .
٥ ـ النشاطات القرآنية فى الجمهورية الاسلامية .
٦ ـ موقف الكاتب من الطغمة الاثيمة وركونه اليها فى حله وترحاله .
٧ ـ الشرط الاول للرسالة الخالدة .
٨ ـ نظرية الكاتب تواكب نظرية الملاحدة : ماركس وانجلس والبهائية .
٩ ـ النبى الاكرم كان ناجحا فى دعوته لابمعنى عدالة كل من صحبه .
١٠ ـ ارتداد الصحابة ورجوعهم الى القهقهرى فى الصحيحين : البخارى مسلم .
١١ ـ الشرط الثانى للرسالة الخالدة وموقف الشيعة منه .
١٢ ـ حكم الكتاب العزيز والسنة النبوية فى هذا المجال .
١٣ ـ الشرط الثالث للرسالة الخالدة واصفاق الشيعة والسنة على صحته وتحققه.
١٤ ـ الكتب المؤلفة بيد اعلام الشيعة فى صيانة الكتاب عن التحريف .
١٥ ـ اعتماد الكاتب على روايات ضعاف لاقيمة لها فى سوق الاعتبار .
١٦ ـ نظرية قائد الثورة الاسلامية حول التحريف .
١٧ ـ اقتراح للمتسرعين فى الكتابة وطلب اقامة مؤتمر حرفى احدى العواصم الاسلامية .
١٨ ـ الشرط الرابع للرسالة الخالدة وتحليله وماهى مشكلة المسلمين الاساسية

«صورتان متضادتان» او «رسالتان متضادتان»

فی هذه الظروف الصعبة، التی تمر بها الامة الاسلامیة فی کافة أرجاء العالم ویعانی فیها المسلمون من انواع الابتلات والمحن، وصلنا کتاب باسم «صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الاعظم» نشره المجمع الاسلامی العلمی فی « لکهنو » فی الهند عام ١٤٠٥ هـ ق ـ ١٩٨٥ (م ، الف بقلم العالم الادیب السید ابوالحسن الندوی اصلح الله حاله ، وقد ترجم الکتاب الی لغات عدیدة وتم نشره علی نطاق واسع .

والنتیجة التی أرید للقاری، أن یستنبطها من خلال سبر هذا الکتاب هی ، أن هناك أمـة اسلامیة کبیرة باسم الشیعة الامامیة یعتقدون بأمور ـ علی زعم الکتاتب ـ لاتجتمع مع شروط النبوة الخالدة والرسالة المستمرة .

والکتاب بمادته وصورته ـ الاما شذ ـ علی غرار الرسائل الکثیرة التی ألفت علی مر القرون بهدف النیل من عقیدة هذه الطائفة ، والتی أجیب عنها عشرات المرات علی ایدی المحققین وأصحاب البصائر. والکل یشتمل علی نبش الدفائن واثارة الضغائن ، و ما یشق به عصی المسلمین ، وتنفك به أواصر الوحدة بینهم ، مضافاً الی التهم المفتعلة والنسب الباطلة الی هذه الطائفة ، و کان المترقب من کاتب مثل السید الندوی وخاصة فی ظروفنا الحساسة أن یسعی الی تقریب الخطی بین المسلمین، وازالة النعرات الطائفیة ذات الضرر العظیم ، والخطر الکبیر، علی الرسالة المحمدیة ولکن یالاسف أن الکاتب أطلق عنان قلمه فی بیان معتقدات

هذه الطائفة وتحليلها على نحو لايناسب مقام الكاتب المتحرى للحقيقة .

ولعله كان مجبرا على اتخاذ تلك المواقف من قبل حكام المنطقة أعنى الذين لايروقهم انتشار - الثورة الاسلامية فى مناطقهم واندلاعها فى بلدانهم .

واعجب من هذا أن الاستاذ الف كتيبا باسم «اسمعى يا ايران» قبل قيام الثورة الاسلامية فى ايران ، «ونشرته دار عرفات فى الهند عام ١٣٩٣ (هـ ق - ٩٧٢ ام) وعند مايقارن بين محتوى الرسالتين ، يقف القارى على التناقض الواضح بين التحليلين عن شعب واحد فى فترتين متقاربتين ، وعندئذ يطرح السؤال نفسه. ان الرسالة الاولى كتبت ونشرت قبل قيام الثورة الاسلامية فى ايران ، وكان - الترف والتظاهر بالسفور والحمور ، والانحراف التربوى » والمظاهر اللادينية ، طاغية على المجتمع ، ومع ذلك كله فقدوصف الكاتب الايرانيين حكومة وشعباً بعكس ماوصفهم بعد قيامة الثورة . فاطرى فى الرسالة الاولى عليهم ، بماينناسب الحكومات المثالية ، والامة المسلمة المتكاملة ، وعندما تحولت الملكية الى الجمهورية الاسلامية ، تحولت تلك الصفات الى خلافها وهذا من العجيب جداً .

واليك خلاصة ما فى الرسالة الاولى :

خاطب الاستاذ فى هذه الرسالة الشعب الايرانى على وجه يستظهر منه أنه الفيلسوف الكبير ، العارف بالداء والدواء ، يريد نصح أبنائه وتلاميذه تحت عنوان «اسمعى يا ايـران» وفيها العلماء والقادة ، والحكماء والمفكرون ، ممن لايشق غبارهم علماً ، ولايصل الكاتب مهما جد واجتهد الى شأوهم ومستواهم ، يقوله بنص عبارته :

«كانت زيارة ايران - يونان الشرق أمنية قديمة كانت تراود النفس ، الفضل فى هذة الزيارة وما لقيه اعضاء الوفد من حفاوة بالغة من حكومة ايران الموقرة والشعب الايرانى المسلم ، والمنظمات الدينية والعلمية والشخصات البارزة فى هذا البلد الكبير ، يرجع الى رابطة العالم الاسلامى وكان لرشاسة مجلس الاوقاف بايران ، الذى يشرن عليه معالى الدكتور «منوچر آزمون» نائب رئيس وزراء

ايران ، الفضل الكبير فى تيسير هذه الرحلة ووضع مخططها ، وكانت الايام العشرة التاريخية التى قضاها الوفد فى ايران، حافلة بالزيارات، واللقاءات ، والرحلات، والمحاضرات، وكان التنزل فى «پارك هتل» احد فنادق العاصمة الكبرى وقد زار الوفد خلال هذه الايام عددا من الوزراء الكبار نخص بالذكر منهم «عباس هويدا» رئيس الوزراء ومعالى الاستاذ « كاظم زاده» وزير التعليم العالى ، ومعالى الدكتور آزمون ، فقد اقام الدكتور حفلة عشاء فاخرة ، تكريماً لاعضاء الوفد فى فندق «هلتون» حضرها عدد من الوزرا وغيرهم .

ومن المدن التى زارها الوفد ، مدينة طهران وقم ومشهد واصفهان وشيراز وقد تجوّل الوفد فى أحياء هذه المدن وزار فى مدينة مشهد ضريح شاعر ايران الخالد الفردوسى ، كما زار قبر السيد على بن موسى الرضا عليه السلام ولم يعرف أثراً لضريح «هارون» الرشيد الذى دوى اسمه فى الافاق كما زار قبر الشيخ مصلح الدين سعدى ، وقبر الخاجا حافظ وتخت جمشيد فى شيراز ، وقد عقدت حكومة ايران فى هذا المكان «تخت جمشيد» فى العام الماضى مهرجاناً بمناسبة مرور ٢٥٠٠ ـ سنة على الامبرا طورية ـ الايرانية حضره رؤساء الجمهوريات وملوك العالم ، وانفق عليه الملايين من النقود، وتفاصيل هذا المهرجان لاتقل عن اساطير الف ليلة وليلة» .

ثم يقول . «هذا استعراض مجمل لهذه الجولة التى كان لها صدى فى القلوب والنفوس» . (١)

نظرتنا حول هذه الجولة :

١ ـ كان اللازم على العالم الاسلامى ، العارف بحلال الاسلام وحرامه ، أن يرفض ضيافة حكومة جائرة زائغة عن الحق ، متسلطة على الشعب بقوة السيف ورعب الارهاب ، لأن فى قبول هذه الضيافة تأييداً لها ولا هدافها ، والعجب أن

(١) رسالة «اسمعى يا ايران» ص٤ ـ ٢٠ بتلخيص .

الاستاذ يتقبل تلك الهدية الموهوبة له ولوفده من حكومة ضالة مضلة ولكنه عوض أن يرفضها، أخذ يفتخر بحفلات العشاء ومأدبات الطعام التي اقيمت له في الفنادق الكبرى التي أسست وبنيت من دم الشعب المظلوم.

فلو كان الوفد عارفا بوظيفته، عالما بحدود الأسلام «وما اخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم» لاستنكر هذه الضيافات الفاخرة، بدل الافتخار بها، كيف وفي البلد «بطون غرثى واكباد حرى واقدام حافية».

هذا امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام، الاسوة الحسنة لكل من أراد الاقتداء به، لما بلغه أن عامله استجاب دعوة أحد الاثرياء، كتب اليه: «فقد بلغني أن رجلا من فتية اهل البصرة دعاك الى مأدبة فاسرعت اليها، تستطاب لك الالوان، وتنقل اليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب دعوة قوم، عائلهم مجفو وغنيهم مدعو... فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه، فألفظه، وما ايقنت بطيب وجوهه فنل منه... هيهات، هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي الى تخير الاطعمة، ولعل بالحجاز او اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو ابيت مبطانا وحولي بطون غرثى واكباد حرى، او اكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة　　وحولك اكباد تحن الى القد

٢- لا يشك من طالع كتب الاستاذ او استمع الى محاضراته، انه من المتأثرين بالوهابية ومن دعاتها ومن المعلوم ان الوهابية تعتقد بحرمة شد الرحال الى غير المساجد الثلاثة المعروفة، تمسكا بالحديث النبوي «لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الاقصى».

ولكن نسأل الاستاذ واعضاء الوفد كيف شدوا الرحال الى زيارة قبور ابي حامد الغزالي، وسعدي الشيرازي، وخاجا حافظ الدين وقد دفنوا في مشارق ايران و مغاربها فقد تجول الوفد لزيارة هذه القبور من العاصمة الى الشرق، ومنه الى الجنوب، ماهذا التناقض بين العقيدة والعمل، والفكرة والتطبيق، أفهل يسوغ

شدّ الرحال الى زياره الشعراء واصحاب الملحمات، ويحرم شدها الى زيارة ضريح الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله.

واعجب منه ان الاستاذ اشتاق الى زيارة ضريح هارون الرشيد الذى سم الامام الطاهر موسى بن جعفر عليهما السلام وحبس كثيراً من العلويين فى سجونه الذى لايتميز فيها النهار من الليل وكان له من الجنايات والفضائح ما تزخر به كتب التاريخ.

٣ ـ واعجب من ذلك، التناقضات الصارخة بين ما جاء فى تلك الرسالة فى حق الشعب الايرانى وماجاء فى الرسالة الثانية فى حق هذا الشعب بعد قيام الثورة الاسلامية، مع أن الامة هى الامة لم يتغير منها شيىء الا النظام السائد عليها فى الفترة الاولى: فتبدلت الحكومة الفردية الملكية، الى الجمهورية الاسلامية المباركة.

ومقتضى الطبع ان تكون الامة فى الفترة الثانية، أشد تمسكا بالقيم والاخلاق والكتاب والسنة وأحرى بالمدح والتمجيد ومع ذلك فوصفها فى الكتاب الثانى عنهم، يصور تدهور الشعب الايرانى فيما يرجع الى صلب الدين واليك مقارنة البيانين:

الملامح العامة للشعب الايرانى فى الرسالة الاولى:

أ ـ ان اول شيء بهرنا وأثار فينا الاستغراب مع الاعجاب، والحيرة مع المسرة هى قوة العاطفة الاسلامية وشدة رغبة اخواننا الايرانيين على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم فى الوحدة الاسلامية والالتقاء على صعيد واحد من جوهر الاسلام ومبادئه الاولية، وأعترف هنا أننا لم نكن نتوقع هذه الموجة القوية من حب الوحدة ومد يد الاخوة والصداقة الى سائر المسلمين فى العالم، وتكوين جبهة موحدة ضد اللادينية التى تتحدى جميع الاديان وجميع القيم الخلقية.

با ـ والشيء الثانى مالمسناه فى هذه الزيارة من عناية زائدة بالاثار الاسلامية والتأليف باللغة العربية، واحياء التراث الاسلامى، ونشر آثار علماء الاسلام،

والاعتناء الزائد بالمصاحف الاثرية ، وتزيينها مما يدل على التقدير والاجلال والاحترام والاهتمام وقراءة القرآن واكثره من صوت القراء المصريين المسجل في المشاهد والحفلات باحترامها وذلك يدل على الايمان واجلال القرآن .

جيم - الغيرة الدينية ومحاربة الحركات الهدامة الثائرة على الاسلام .

دال - دماثة الخلق ورقّة العاطفة وكرم الضيافة والتواضع الزائد الذى يلقاه به المسلم الايرانى اخاه الوافد من بلاد الاسلام ، واشعاره بأنه بين اخوانه واحبائه وفى بلده (١) ،

الملامح العامة للشعب الايرانى فى الرسالة الثانية .

هذا ما عرّف به الكاتب الشعب الايرانى بما انهم يمثلون مذهب الشيعة الامامية فى المجتمع الاسلامى ، واليك ما يذكره الاستاذ عنهم فى الرسالة الثانية كأنه نسى ماذكره فى أولاهما .

يقول :

١ - ونتيجة لما مر من آراء ومعتقدات الشيعة عن القرآن الكريم ، فانهم لايهتمون بالقرآن ولايرتبطون به عملياً وان الشيعة لايوجد فيهم حفظة القرآن وذلك نتيجة نفسية الشك فى صحة القرآن الكريم و اصالته وقد جربت ذلك شخصياً لدى رحلتى الى ايران عام ١٩٧٣ م .

بالله عليك أيها الاستاذ ، لو كان الشعب الايرانى - كما زعمت - شاكا فى صحة القرآن الكريم فما معنى قولك فى الرسالة الاولى فى الفقرة الثانية : الاعتناء الزائد بالمصاحف الاثرية وتزيينها . . . وذلك يدل على الايمان واجلال القرآن - فهل يجتمع الايمان بالقرآن مع الشك فيه .

كيف تتهم الايرانيين بعدم الاهتمام بالقرآن وحفظه وقد وقف الأصم والابكم فضلا عن السميع والبصير على أنهم شاركوا فى مسابقات عديدة لقراءة القرآن

(١) اسمعى يا ايران ص ٢٠-٢٣ (بتلخيص)

وحفظه فی البلاد الاسلامیة المختلفة و فازوا بالرتب الاولی ، مرة بعد اخری ، واحیاناً کانوا فی الدرجة الثانیة من الفائزین ، ونحن نکتب هـذه السطور وقد انعقدت مباراة دولیة لتلاوة القرآن وحفظه فی مسجد ارشاد فی طهران ، اشترك فیها قراء من ٢٦ ـ بلداً اسلامیاً آسیویا وافریقیا وتستغرق المباراة خمسة ایـام و ذکرت الانباء ان سیرلانکا ، مالیزیا ، تنزنیا ، موریتانیا ، عمان ، الهند ، غانا ، باکستان ، سوریا ، بالاضافة الی عدد آخر من الاقطار المسلمة ، قد بعثت مشارکین الی المؤتمر وتقیم المباراة مؤسسة الحج والعمرة الایرانیة للسنة الخامسة علی التوالی بمناسبة ذکری تأسیس الجمهوریة الاسلامیة .

وهذه هی اذاعة القرآن التی أسست بصورة مستقلة فی الجمهوریة الاسلامیة وتبث القرآن قراءة وتعلیماً وعلوماً عدة ساعات کل یوم ، فهو خیر شاهد علی ما قلناه .

وهؤلاء هم حفظة القرآن فی عاصمة الجمهوریة الاسلامیة ، وسائر بلدانها یقرؤن القرآن فی المجالس والمحافل عن ظهر القلب ، ویشترکون فی المسابقات الدولیة والمؤتمرات العالمیة ویفوزون وهم بین طفل لم یبلغ الحلم ، اوشـاب یافع ، او کهل او شیخ طاعن فی السن .

النشاطات القرآنیة فی الجمهوریة الاسلامیة :

علی الرغم مما نسب الکاتب الی الشعب المسلم فی ایران من عدم ایمانه بصحة القرآن الکریم والقول بتحریفه، فنحن نجد فی هذا البلد الاسلامی نشاطات واسعة وجادة حول القرآن الکریم بعد الثورة الاسلامیة قلما یوجد لها نظیر فی سائر العواصم والبلاد الاسلامیة .

ونحن نشیر الی ابرز هذه النشاطات باختصار ، مضافاً الی ما اشرنا من تاسیس اذاعة خاصة بالقرآن :

١ ـ تألیف ووضع دائرة المعارف القرآنیة تضم کل المعلومات التی ترتبط

بالقرآن الكريم.

٢ - فتح جناح خاص بكنوز القرآن يضم اقدم المخطوطات القرآنية وذلك في مؤسسة دار القرآن الكريم في مدينة قم و طهران.

٣ - تأسيس مؤسسة خاصة باسم «بنياد قرآن» منذ اكثر من اربع سنوات تهتم بنشر كل ما يرتبط بالقرآن ويدور حوله من مؤلفات وقد طبعت الى الان مايزيد على الخمسين كتابا ورسالة لمختلف علماء الاسلام.

٤ - الاهتمام بتعليم القرآن بطريقة سريعة وميسرة وذلك بابتكار طريقة تتكفل تعليم قراءة القرآن لغير الناطقين بالعربية خلال ثلاثين ساعة او اقل من ذلك.

٥ - تأليف كتاب يضم اكثر من ثلاث مائة حديث مرويا عن النبي الاكرم واهل بيته الطاهرين عليهم السلام تحت ابواب مختلفة باسم «القرآن في احاديث النبي واهل بيته» صلوات الله عليهم اجمعين تأليف جعفر الهادي وقد الف للحث والتشجيع على تعلم القرآن الكريم والعناية به قراءة وحفظا وتجويدا طبعته مؤسسة تحفيظ القرآن الكريم في طهران عاصمة الجمهورية الاسلامية مرة في القاهرة ومرات في ايران ووزع في كثير من البلاد الاسلامية. والروايات المتضافرة المنقولة في هذا الكتاب تمثل نظرية اهل البيت وشيعتهم في القرآن الكريم «وانه لكتاب عزيز. لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد» (فصلت ٤١ - ٤٢) واي باطل اشوه وافظع من تطرق النقصان اليه. سبحانك انت القائل: «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» (الحجر - ٩) وانت حفظته من ابطال المبطلين.

٢ - «ان مكتبات الاثناعشرية لاتحتوي على آثار ونماذج كثيرة لخدمة القرآن والتأليف بمختلف مطبوعاته ولاتشهد بالحركة العلمية القوية في بيان اعجازه ومايشتمل عليه من علوم وحقائق».

اقول: لوكانت مكتبات الشيعة الامامية على ما وصفت فما معنى قولك

فى الفقره الثانية : « والشيىء الثانى مـا لمسناه فى هذه الزيارة من عناية زائدة بالاثار الاسلامية والتأليف باللغة العربية واحياء التراث الاسلامى ونشر آثار علماء الاسلام والاعتناء الزائد بالمصاحف » .

ان الشيعة الامامية تهتم بالقرآن الكريم لانه الثقل الاكبر الذى تركه رسول الله ﷺ بين الامة و ان الكتب والرسائل التى ألفت بيد تلك الامة حول القرآن الكريم، تتجاوز المئات، وان الفهارس المطبوعة تغنينا عن طرح اسمائها.

انى لاعذر الاستاذ فى عدم وقوفه على كتب الشيعة فى التفسير وعلوم القرآن وتبيين طرق اعجازه ، اذ ليست بينه وبينهم آية صلة ، حتى انه بعد زيارته ايران لم يلتق بالعلماء الربانيين الذين كرسوا حياتهم لخدمة العلوم والمسائل الاسلامية ولم يلتق الا بمن سمحت مديرية الاوقاف بزيارته ولقائه ، ولم يزر المكتبـات العامة الكبيرة المليئة بنفائس الكتب المخطوطة والمطبوعة ، ولم يجالس علماء الشيعة الواقعيين الا الشاذ النادر، فان الزيارة الرسمية التى رسم مقدماتها عملاء الطاغوت لاتسمع بانجاز هذه الامور .

كيف ينكر الاستاذ خدمة الشيعة للقرآن وعلومه وتبيين وجوه اعجازه مع أن المفسر الاول هو امام الشيعة وامام المسلمين على بن ابى طالب عليه السلام ثم تلميذه الاكبر ابن عباس حبر الامة ، ثم ائمة اهل البيت عليه السلام كلهم ، ثم تلاميذهم المتربون فى احضانهم و مناهجهم وقد توالى التأليف حول القرآن فى كل ما يرجع اليه من زمن ابن عباس الى زماننا هذا .

ولا يقاف الاستاذ على النزر اليسير من الجهود العلمية التى تحملها علماء الشيعة نأتى باسماء التفاسير التى ألفا اكثرها فى اواخر القرن الرابع عشر الهجرى باللغة العربية فقط ونترك ما ألف بغيرها .

١ ـ الاء الرحمن فى تفسير القرآن : تأليف العلامة المجاهد الشيخ محمد جواد البلاغى المتوفى عام ١٣٥٢ هـ ـ صدر منه جزءان .

٢ـ الميزان فى تفسير القرآن تأليف العلامة المحقق المتأله الاكبر السيد

محمد حسين الطباطبائى المتوفى ، عام ١٤٠٢ هـ وهو فى عشرين جزأ طبع فى بيروت وايران .

٣ـ البيان فى تفسير القرآن تاليف المحقق الاكبر السيد ابو القاسم الخوئى النجفى دام ظله .

٤ ـ التفسير الوجيز للعلامة الفقيه السيد محمد مولانا المتوفى عام ١٣٦٣ هـ وهو تفسير على غرار تفسير الجلالين .

٥ ـ التفسير الكاشف فى سبعة اجزاء تأليف العلامة الحجة المجاهد الشيخ محمد جواد مغنيه رحمه الله من فطاحل علماء بيروت ومن المناضلين ضد البدع وله مع ذلك تفسير آخر صغير ألفه للشباب .

٦ـ الفرقان فى تفسير القرآن للعلامة الحجه الشيخ محمد الصادقى الطهرانى صدرت منه عدة اجزاء فى بيروت.

٧ ـ التمهيد فى علوم القرآن للعلامة الحجة الشيخ محمد هادى معرفة صدرت منه اجزاء.

٨ ـ التفسير الامثل للعلامة الحجة الشيخ ناصر مكارم الشيرازى وهو ترجمة لتفسيره باللغة الفارسية فى ستة وعشرين جزء حياه الله وبياه .

٩ ـ القرآن والعقل للعلامة السيد نورالدين العراقى و هو تفسير بديع فى اسلوبه .

١٠ ـ تقريب القرآن الى الاذهان تأليف العلامة الحجة السيد محمد الشيرازى ويقع فى ٣٠ جزء.

١١ ـ التحقيق فى كلمات القرآن فى اربعة عشر جزء تأليف المحقق الشيخ حسن المصطفوى دام ظله ، وقد خرجت منه سبعة اجزاء .

١٢ ـ مواهب الرحمان فى تفسير القرآن للعلامة الحجة السيد عبدالاعلى النجفى خرج منه جزء ان .

١٣ـ مفاهيم القرآن كتاب يفسر القرآن حسب موضوعاته وهو مبتكر فى

موضوعه ، بديع فى بابه ، تأليف كاتب هذه السطور. صدرت منه خمسة اجزاء .

هذه هى اسماً التفاسير التى ألفت باللغة العربية فى العصر الاخير أتينا باسمائها من دون مراجعة الفهارس المكتبية .

وهناك تفاسير كثيرة باللغة العربية مخطوطة لاعلام المعاصرين لم يسمح لهم الزمان بنشرها و من اراد الوقوف على عناية طائفة الامامية بتفسير الذكر الحكيم طول القرون فعليه الرجوع الى كتاب « الذريعة الى تصانيف الشيعة » (الجزالرابع مادة التفسير) ومع ذلك فقد فاتته اسماء قسم من التفاسير التى ألفت فى العصر الاخير .

ونحن نكتفى بهذا المقدار من التناقض الموجود بين الرسالتين، ولايفوت القارىء الكريم عرفان الحوافز التى دفعت المؤلف الى هذا التناقض .

فان الكاتب فى الفترة الاولى أطلّ بنظره على الحقائق لابعين السخط ، وان قصّر فى كثير من الامور ولكنه فى الرسالة الثانية أطل بنظره عليها بعين السخط بعد قيام الثورة الاسلامية التى اثارت المستضعفين والمحرومين فى المنطقة على اصحاب العروش ، الذين لم يزل الاستاذ واعضاء الوفد ، والرابطة يؤيدونهم وينصرونهم باقلامهم وألسنتهم . فلم يكن له بدّ من النظر الى تلك الطائفة من زاوية السخط والغضب ولاجل ذلك جاء بالطامات والاكاذيب والنسب المفتعلة التى نشير الى بعضها وقد قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

ولكن لم يكن هناك اىّ سوء أبداه سوى النسب المفتعلة .

و هناك مؤاخذة عامة تعم هذا الفريق من الكتاب ولاتختص بالاستاذ ولا بوفده وهى أنهم قداعتادوا على السكوت على الظالم بل الركون اليه والجلوس على موائده ، والتبجح بضيافاته ، وهذه شنشنة نعرفها من هذه الجماعة من عصر الامويين الى يومنا هذا ، ونجلّ العلماء الواقعيين من السنة عن هذه المؤاخذة .

ولذلك ينبغى ان نركز على هذه النقطة التى كانت ولاتزال أساس الكثير

من الانحرافات التى ألحقت بالمسلمين اكبر الاضرار فى حياتهم الاجتماعية والسياسية ، وجعلت الكتّاب والمفكّرين فى خدمة الظالم .

الركون الى الظالم وحكمه فى الاسلام :

لاشك أن الاسلام قد حرم الركون الى الظالم فقال سبحانه : «ولاتركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار» (هود : ١١٢) والكاتب وزملاؤه من مؤيدى الحكومات الجائرة والدعاة لهم فى صلوات الجمعة والجماعة ، فما هو جوابهم عندالله من هذا الركون الذى لايمكن انكاره، هذا هوزميله ابوالاعلى المودودى أول فائز بجائزة الملك فيصل ، وذاك نصيره الاخر «عبدرب الرسول سياف» الفائز بالجائزة الملكية عام ١٤٠٤ هـ - (١) وهكذا دواليك فلايشك ذومسكة ان جميع مشاريعهم وخططهم قائمة بالاجور المبذولة من قبل الحكومات المفروضة على الامة الاسلامية ، وهؤلاء قبال هذه النعم والترف، يسعون بكل قوة وحماس ، فى تدعيم عروشهم وتحكيم دعائمها، ومع ذلك يدّعون أنهم على خط الاسلام والتوحيد وغيرهم على خط الوثنية والشرك .

فما هذا التوحيد الذى يدعونه ويجعلونه واجهة لكل آمالهم وأمنياتهم الدنيوية ، فلو كانت حقيقة التوحيد كسر الاصنام والاوثان ، وحذف الوسائط بين العبد والرب، فما معنى تكريم هذه الطواغيت الجائرة، والدعاء لهم والافتخار بضيافتهم الفاخرة ، والنزول عند رغباتهم واتخاذهم سناداً وعماداً فى الحياة حتى كأنه لولاهم لما استقر لهم العيش ؟

نراهم ونرى كل من كان فى الخط الذى يمشى عليه هؤلاء ، ساكتين فى مقابل طواغيت العصر واعمالهم الاجرامية ومنها تسامحهم بل تعاملهم مع الشيطان الاكبر الذى زرع دويلة اسرائيل فى قلب الامة الاسلامية وهو معلوم للأصم والاعمى فكيف بالسميع والبصير .

(١) جريدة اخبار العالم الاسلامى ، رجب ١٤٠٧ هـ - الموافق ١٦ مارس ١٩٨٧م

نرى انه سبحانه يذمّ الساكتين ويندد بالمحايدين عندما يطرح حياة أمة من بنى اسرائيل الذين كانوا يعيشون فى ساحل من سواحل البحر، فيقسمهم الى ثلاثة اصناف :

الاول : الجماعة الرافضة لحكم الله سبحانه ، حيث حرم عليهم صيدالبحر يوم السبت قائلا : « . . . اذيعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لايسبتون لاتأتيهم». (الاعراف ـ ١٦٣)

الثانى : الجماعة الساكتة التى أهمتهم انفسهم ، لاينهون المعتدين عن عدوانهم بل كانوا يعترضون على القائمين بوظيفة الارشاد، والرد فى وجه العاصين والطاغين بقولهم : «لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً» .

الثالث : الجماعة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ، محتسبين ذلك وظيفة دينية عريقة وقدحكى الله سبحانه على لسانهم وقال : «معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون» .

فالله سبحانه يخبر أنه اباد الطائفتين الاوليين «المنكرين ، والساكتين والمحايدين» وأنجى الطائفة الثالثة قائلا : «فلما نسوا ماذكروابه انجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون» (الاعراف ١٦٣ـ١٦٥) فالاية صريحة فى حصر النجاة فى الناهين عن السوء وشمول العذاب للمعتدين والساكتين .

فما اصرح الاية فى تبيين مصيركم ايها الساكتون فى وجه الطغاة ، الجالسون حول موائدهم العامرة، المرتادون لمجالسهم وضيافاتهم الفاخرة، من دون ان تقابلوهم بوجوه مكفهرّة اوبقلوب مملوءة بالغضب ، ومع ذلك تدعون أنكم دعاة التوحيد وأعلام الهداية وشعاركم الوحيد «الى الاسلام من جديد» ؟ ؟

وهل الاسلام الاّ اصول وعقائد واحكام ووظائف جاء بها خاتم الانبياء والمرسلين وملأ فمه «من رأى منكرا فليغيره بلسانه، فان لم يستطع فبيده، ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان» .

فهل أنت ايها الاستاذ ويا اصحاب الندوة والندويين المرتزقين من الوهابية على هذا النمط؟ فهل رفعتم عقيرتكم على اصحاب الجلالات والعروش بمساهمتهم مع الشيطان الاكبر بايوائه ثغر الاسلام وأم القرى ومن حولها، كلا، لا، فانكم تدركون خطورة الموقف، وأن التخلف عن الادب الرسمى فضلا عن رفع العقيرة، ينتهى الى قطع الرواتب والمنح والجوائز، وبالنتيجة السقوط عن اعينهم واعين من يعينونهم.

فانتم بهذه الحال وعاظ السلاطين وخدامهم لا وعاظ الاسلام وخدام المسلمين غير انكم اتخذتم الأسلام والدين واجهة فى المجتمع، ومع ذلك تتمنون أن يلتف حولكم شباب المسلمين زاعمين أنكم الاسلام المجسد مع أن حياتكم ومنحكم واجوركم كلها على عاتق الملوك، لا على الشعب المسلم، هذا موجز من دوركم فى الحواضر الاسلامية، ولا نريد البسط والاسهاب «فى فمى ماء وهل ينطق من فى فيه ماء».

لقد رأى الكاتب صورتى النبى وأمير المؤمنين على بن ابى طالب فى المساجد والبيوت، وقد عز عليه ذلك.

اقول: ان الكاتب رأى سفور النساء فى شوارع طهران يومذاك ورأى المؤسسات الربوية فى جميع المدن التى زارها، كما رأى التماثيل المنصوبة لطاغوت العصر فى الساحات والميادين، ولمس سنّ القوانين الكافرة فى البلاد، ولاحظ البرامج التربوية المنحرفة فى الجامعات والكليات، ومع ذلك كله - لم ينبس فى شأن تلك الموارد - ببنت شفة ولم يعترض لا على مضتيفه ولا أتى بذكر واحدة من تلك الامور المهمة الهدامة لأس الاسلام فى صميم رسالته، ولكنه عز عليه وجود صورة النبى والولى فى بعض المساجد، التى لا يوافق عليها العلماء ولا يفعلها الا بعض الجهلة والسذج.

فالاسلام الذى يجتمع مع سفور النساء، وانشاء المؤسسات الربوية، وانحراف المناهج التربوية، ويلتئم مع القوانين الكافرة فى جميع المظاهر، ويجتمع مع

الدعاء للطواغيت والخضوع لهم ، واخذ المنح والجوائز من ايديهم ، والتذلل لهم بكل الوسائل ، عليه السلام وعلى مثل ذلك الدين ، العفاو كأني بشاعر المعرة يخاطب تلك الزمرة ويقول :

اذا وصف الطائي بالبخل مادر وعير قساً بالفهاهة باقل
وقال السهى للشمس انت خفية وقال الدجى للصبح لونك حائل
و طاولت الارض ، السماء ترفعاً وفاخرت الشهب، الحصى والجنادل
فياموت زر ان الحياة ذميمة ويانفس جدى ، ان دهرك هازل

ويالله العجب انكم تشاهدون بأم اعينكم السفور والخمور في شوارع العواصم الاسلامية وتعلمون ان الحكومات التي انتم تؤيدونها و تدعمونها ، هي السبب الوحيد لهذه الاوضاع الخلقية المؤسفة ومع ذلك لاتنبسون ببنت شفة ، ولما قامت الثورة الاسلامية في ايران ، فجابهت فوضى الفساد ، وقطعت جذورها ، خرجتم من اوكاركم متسلحين باسم الاسلام، المرعوم تصبون القارعات عليها، وتشنون الغارات اليها بكل قوة ووسيلة ، وتكتبون في كل شهر وشهرين رسالة حولها ابعاداً لها عن قلوب الشباب ، وتحاولون تشويه سمعتها ، ماهذا التساهل في مقابل الطغمة الاثيمة في الحواضر الاسلامية، وماهو الهدف وراء هذه الهجمة الشرسة على الحكومة الاسلامية الفتية التي تريد ايقاظ الطوائف الاسلامية حتى تقوم بواجبها وتركز على التمسك بالوحدة

فبدلا من دعمها وتأييدها وصيانتها عن الزلة حتى تنمو وتصير شجرة مثمرة معطية اكلها كل حين ، قمتم بوجه تلك الحكومة بنشر كتيبات ورسائل تكررون الشبه التي أكل عليها الدهر وشرب واجاب عنها الفطاحل الاعلام ، وقبل كل شيئ تشقون عصا المسلمين وتمزقون الوحدة ولو كان الهدف من نشرها هي الهداية والارشاد الى سبيل التوحيد ، فليست الفرية والافتعال والاعتماد على كتب مخالفيهم وبل على كتب اليهود والنصارى من شروطها، ولانبش الدفائن من

أسسها «فما هكذا توردیا سعد الابل».

ان ما تذكرونه من الشبهات مأخوذة من كتّاب مغفلين او مستغربين كموسى جارالله التركستانى، واحمد امين المصرى، ذلك الكاتب المتحذلق المختلق والقصيمى النجدى ذلك الكيذبان الاشرس على المسلمين جميعاً وعلى الشيعة خصوصاً وغيرهم وقدقام الفطاحل الاعلام من الامامية على نقد هذه النسب المفتعلة اوتفسيرها على نهج الحق نظراء والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والسيد محسن الامين الشامى، وشرف الدين العاملى، وعبدالله السبيتى، والعلامة الامينى قدس الله اسرارهم وأسكنهم فى فسيح جناته، فكان الواجب على الكاتب ونظيره ترك التعرض لهذه المسائل بعد الوقوف على هذه الكتب، غير انه راقه تكرار المكررات واغواء البسطاء وقبل كل شيئى، ارضاء الاسياد الذين يقومون فى وجه الثورة الاسلامية يخافون من اندلاعها فى المنطقة.

لاشك ان الحركة نحو الاسلام قد استفحلت فى جميع الاقطار الاسلامية وتشرف ان تكون ناضجة مثمرة فى الأبعاد الكثيرة، وان الأمنية التى كانت تجول فى خواطر الشخصيات الاسلامية الكبيرة منذ بداية القرن الرابع عشر كالسيد جمال الدين الاسدآبادى، وتلميذه شيخ الازهر محمد عبده المصرى والسيد الكواكبى الشامى وسائر الاعلام، اخذت تتجسد فى المجتمع.

فهل يصح فى هذه الظروف نبش الدفائن والتنقيب عن المسائل التى تفكك عرى الوحدة، وتوجد القلق والاضطراب، اوليست الوظيفة فى هذه الظروف الدعوة الى الوحدة وتناسى البحث عن هذه المسائل او تأجيلها الى آونة اخرى

هذه خلاصة القول فى الرسالة الاولى وكفانا فى نقدها ما كتبه العلامة المحقق الشيخ لطف الله الصافى دام ظله قبل اعوام عندما نشر الكاتب المذكور رسالته الاولى، فاجاب عنها الشيخ برسالة اسماها «ايران تسمع فتجيب» (١) وقد

(١) طبعت الرسالة عام ١٣٩٩ هـ - ونشرتها دارالقرآن الكريم فى قم المشرفة.

قابله بأجوبة رصينة وبما أن الظروف فى تلك الاعوام لم تسمح له بالاصحار بالحقائق باكثر مما فيها ، لذلك طوى الكلام عن كثير من الانتقادات المتوجهة اليها فشكر الله مساعى شيخنا المحقق ونفعنا الله بوجوده وعلومه .

موجز الرسالة الثانية :

ان الرسالة الثانية تشمل قبل كل شيئى على «علم كلام» جديد غفل عنه مشايخ المعتزلة وأئمة الاشاعرة كما تشمل على أمور مفتعلة على الشيعة وهم براء عنها ، وقد طرحت فى كتب المغرضين من القدماء كابنا حزم وتيمية وحجر ، والمتأخرين عنهم كاحمد امين المصرى والخضرى ذلك الاموى المباهت وغيرهم من كتب السلف والخلف والمطلب الجديد الذى أتى به الكاتب مازعم انه يشترط فى النبوة الدائمة تحقق شروط اربعة وانها من ملامح الرسالة الخالدة واليك تحليل تلك الشروط واحداً بعد الاخر .

الشرط الاول للرسالة الخالدة .

يقول : ان معجزة التأثير والهداية يجب ان تتحقق فى حياة الرسول وعلى اثر وفاته ، ويجب على الرسول أن يقدم امام العالم عددا وجيها من نماذج عملية ناجحة بنّاءة ، ومجتمعا مثاليا فى ايامه ، لان الشجرة التى لم تؤت ثمارها اليانعة الحلوة ولم تتلقح ازهارها العطرة الجميلة ايام شبابها ، وفى موسم ربيعها ، (وهو عهد النبوة) لاتعتبر شجرة مثمرة سليمة .

وكيف يسوغ لدعاة هذه الدعوة والدين وممثليهما ـ الذين ظاهروا بعد أن مضى على عهد النبوة زمن طويل ـ أن يوجهوا الى الجيل المعاصر و العالم الحاضر دعوة الى الايمان والعمل ، والدخول فى السلم كافة وهم عاجزون من تقديم نتائج حية باهرة للالباب ، مسلمة عند المؤرخين للمجهودات التى بذلت فى العهد الاول وفى فجر تاريخه فى سبيل ابراز امة جديدة وانشاء جيل مثالى يمثل

التعاليم النبوية أصدق تمثيل ويبرهن على تاثيرها ونجاحها (١) .

وحاصل هذا الشرط الذى ذكره مع ما فيه من التعقيد فى العبارة هو أن من شرائط النبوة الخالدة أن يكون صاحبها ناجحا فى تربية الجيل الاول و أصحابه الذين التفوا حوله اذ لولا ذلك لما صحت لمن يجيىء بعد الرسول ، الدعوة الى دينه ودعوته بحجة أن صاحب الدعوة اذا لم يكن موفقا فى دعوته ، فكيف تكون دعوة الغيرالى سبيله ناجحة ومفيدة .

وبالتالى يجب ان يكون صحابته جيلا مثاليا رائعا، وهذا مايقتضيه الدليل النفسى الاجتماعى، مع ان الشيعة الامامية يخالفون هذا الرأى ويخطئون الصحابة

تحليل هذه النظرية :

ان كمال الدعوة وصحتها يتمثل فى قوة المحتوى ورصانة حجتها ، بحيث تكون الدعوة مطابقة للفطرة ، وموافقة لحكم العقل السليم، ومتماشية مع الحياة الانسانية الفردية والاجتماعية ، عند ذلك تتم الحجة من الله سبحانه على العباد واما اشتراط كون الداعى موفقاً وناجحاً فى دعوته ، وتربية جيله ، فلم يدل عليه شىء من العقل والشرع ، اذ النجاح والفوز ليس دليلاعلى صحة الدعوة ولا تولى الناس وعدم استجابتهم برهاناً لبطلانها ، والعجب ان المنطق الذى اعتمد عليه الاستاذ فى بيانه مما تكرّسه الملاحدة من أتباع «ماركس» «والبهاء» وغيرهم من الاحزاب الباطلة فهم يستدلون على صحة خططهم فى مجال الحياة بالنفوذ والاستيلاء على الافكار فى مختلف الاقطار، ويقولون انه لم يمض على موت ماركس وانجلز حتى اشتملت فلسفتها ربع المعمورة ، واعتنقها ملايين الناس .

و هذه هى البهائية البغيضة تشترط فى صحة دعوى النبوة امورا اربعة : ١- ادعاء النبوة . ٢ - النفوذ والنجاح فى الدعوة . ٣ - ثبات المدعى فى طريقها ٤ - و كونه صاحب شريعة وبرنامج .

---

(١) صورتان متضادتان ص١١-١٢

هذه هى الامور التى نسمعها من الماركسية و البهائية فاذاً نتحير كيف تسربت هذه الافكار المنحرفة الى ذهن الكاتب فقام بادعاء ، لايفترق عن ادعاءهم قيد شعرة .

لو كان من شروط النبوة الخالدة اقبال الناس على الداعى اليها ، وخاصة جيله المعاصر له، يلزم أن يعذّر المولون عن الدعوة فى صدر البعثة نظراء : ابى لهب وابى جهل وأمية بن خلف اذفى وسعهم ان يقولوا ان من شرائط صحة النبوة الخالدة اقبال الناس الى الداعى ونفوذ دعوته فى نفوسهم ونحن لاندرى هل يكون هذا الداعى ناجحا فى دعوته ، وهل الناس يستقبلونها بوجوه مشرقة ، اويردونها بالسنتهم وأكفّهم فاذا نحن لانؤمن بدعوته ونبوته ورسالته للشك فى صحة رسالته واستجماعها شرائط الصحة .

ماأشبه الليلة بالبارحة .

والعجب ان يهود: ابناء قريظة والنضير وقين قاع، تمسكو ابهذا العذر عند مادعاهم النبى الى الطريق المهيع .

فقالوا : يامحمد الى ماتدعو ؟ قال الى شهادة أن لااله الاالله وانى رسول الله ﷺ وأنى الذى تجدوننى مكتوبافى التوراة والذى اخبر كم به علماؤكم ان مخرجى بمكة ومهاجرى بهذه الحرة .... يبلغ سلطانى منقطع الخف والحافر فقالوا له : قد سمعنا ماتقول وقد جئناك لنطلب منك الهدنة على ان لانكون لك ولاعليك ولانعين عليك احداولانتعرض لاحد من اصحابك ولاتتعرض لنا ولالاحد من اصحابنا حتى ننظر الى مايصير امرك . (١)

فقولهم «حتى ننظر الى مايصير امرك» تعليل لتوقفهم فى الايمان برسول الله ﷺ وأن تثبتهم لاجل الاستطلاع عن بلوغ سلطانه منقطع الخف والحافر اولا وكانهم يقولون «فمالم نربام اعيننا انه آمنت بك جمهرة الناس ، فلانؤمن بك» فلو كان هذا الكلام ، دليلا رصينا يصح لكل من كفر ولم يؤمن به فى بدء

(١) اعلام الورى لاعلام الهدى ص ٧٦

الدعوة ، الالتجاء الى هذا العذر . وعند ذاك اصبح ايمان الناس بدعوة النبى أشبه بالدور اذ تلبية كل انسان معاصر فى بدء الدعوة وايمانه بالدعوة النبوية ، يتوقف على تحقق هذا الشرط اى ايمان الجيل المعاصر به . ومن جانب آخر يتوقف تحقق هذا الشرط على تلبية كل انسان معاصر للدعوة وايمانه بـه وهل هذا الا الدور الصريح المحال وعندئذ لايصل الداعى الى نتيجة ايجابية ابدا : ويكون الكفار فى صدر الدعوة معذورين حسب هذا المنطق .

هذا كله راجع الى تحليل هذا الشرط من زاوية قضاء العقل ، فهلم معى نعرض صحة هذا الشرط على القرآن الكريم وهل هو يصدّق الكاتب فى هذا الادعاء اويكذّبه من اساس .

نحن نرى ان هناك انبياء صادقين لم ينجحوا فى دعوتهم طيلة حياتهم ،هذا قوله سبحانه يصف كيفيّة نجاح نوح بقوله :

و«ما آمن معه الاقليل» (هود-٤٠) : وقد قام بالدعوة وارشاد الناس ولبث فى قومه الف سنة الاخمسين عاما فما آمن به الاعدة قليلة اركبها على الفلك

ان الاعتماد على الكثرة هومنطق الفراعنة وقد كان فرعون يصف اتباع موسى بقوله : «ان هؤلاء لشرذمة قليلون» الشعراء /٥٤) وعلى العكس يصف سبحانه اتباع الحق ويقول : «الاالذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل مـاهم» (ص /٢٤) .

على أنه لاملازمة بين صحة دعوة الداعى ، واجابة المدعوّين فربما يكون الداعى كاملا فى دعوته ، قويا فى منطقه ، رصينا فى بيانه ومجرّبـا فى القاء الحجة ، الاان الظروف لاتسمح للتجاوب والتصويت ، اويكون المدعوّون أسراء الشهوة وطلاّب اللذة فلا يكون الداعى مهما بلغ فى صحة الدعوة شأواً شامخا ناجحا فى الدعوة .

فلسفة جديدة :

وان تعجب فعجب أنه جعل نجاح الداعى فى تربية الجيل الاول وصحبه

الكرام شرطا للرسالة الدائمة والنبوة الخالدة لاشرطا لمطلق النبوة والرسالة وان طال الفصل بين دعوة النبى الاول ودعوة النبى الاخر الناسخ لشريعته كدعوة موسى بن عمران بالنسبة الى دعوة المسيح ، حيث ان الفصل بين الدعوتين يقرب من ثلاثة آلاف سنة فنسأل الاستاذ بأى دليل جعل النجاح شرطاً للرسالة الخالدة دون مطلقها مع ان بعض الرسالات غير الخالدة، كانت مستمرة حوالى ثلاثة آلاف سنة اى اكثر مما مضى من بعثة الرسول الاكرم الى زماننا هذا ، فلو كان عدم النجاح فى الرسالة الخالدة دليلا على وهن الدعوة فى نظر الناس الذين جاؤا بعد مضى صاحبها بقرون ، فليكن عدم الفوز والنجاح موهناً فى نظر الناس فى نظائر الرسالات الطويلة وان لم تكن خالدة. وعلى هذا الاساس يكون الكافرون بشرائع ، كشريعة موسى لاجل عدم نجاحه فى طريق دعوته ، معذورين عند الله ولاأظن لمسلم واع ان يصحح ذلك الادعاء ويعذر الكافرين والمتولّين عن دعوة الانبياء و لاجل ذلك يصبح منطق الاستاذ فلسفة جديدة لم يسبق اليها احد من علماء الكلام ولافلاسفة الاسلام .

النبى الاعظم كان ناجحاً فى دعوته .

ان النبى الاكرم قد نجح فى دعوته ولكن ليس معنى نجاح دعوته هو عدالة كل من رآه اوسمع منه شيئا اوصحبه يوما اوايام أوسنة اوسنتين إذ لاملازمة بين نجاح الدعوة وعدالة من صحبه بل المراد من نجاحه هو تأثيرها فى أمم العالم معاصرة كانت اولاحقة ، والدعوة المحمدية اثرت فى امم العالم وشعوبها واصحابه والتابعين لهم باحسان حتى المنافقين من اصحابه ،والكل اخذوا منه حسب قابليته واستعداده ، فقد بلغت عدة من اصحابه الى القمّة كعلى بن ابى طالب وسلمان وابى ذر والمقداد وخزيمة بن ثابت الى غير ذلك من اصحابه الكرام ، كما بلغت عدة منهم درجة المتوسطين فى الايمان والعمل، كما ان هناك عدة اخرى تعد من الراسبين فى كلا المجالين ، ومن قرأ تاريخ الصحابة يعلم انهم لم يكونوا على مستوى واحد فى الايمان والعمل .

نحن نفترض صحة ماادعاه من الشرط وان الصورة الواقعية من الاسلام الصحيح، هوالذى رسمه من لزوم نجاح الرسولفى تربية جيله الاول عامة ،وان كل من رأه وسمع كلامه وصحبه ، كان مؤمنا ورعا متربيا بالتربية الصحيحة الاسلامية ، وبقوا على هذه الحالة حتى انتقلوا الى رحمةالله ، غير اننا نرىان الصحاح والمسانيد ، تقدم صورة معاكسة لما صوره الاستاذ ، فهى تهدم كل مجهودات النبى فى مجال التربية وتوجيه الرعيل الاول ، وتثبت له اخفاقا لم يواجهه اىمصلح اومرب خبير ، وتقدمصورة كالحة جاحدة للنعمة واليكمايذكره البخارى فى صحيحه عن ذلك الجيل المثالى : خريج مدرسة النبى الاكرم ﷺ فروى الشيخان : البخارى ومسلم فى صحيحيهما مايدل علىأن اصحابهﷺ ارتدوا على ادبارهم القهقرى فما هو جوابك ايها الاستاذ عن هذه الاحاديث هوجواب الشيعة عن أخبار الارتداد حرفا بحرف واليك نقل مارواه الشيخان .

١ - روىعبدالله بن مسعودرضىالله عنه قال:قال رسولالله(ص) ، انا فرطكم على الحوض . وليرفعن الىّ رجال منكم، حتى اذا أهويتاليهم لاناولهماختلجوا دونى فاقول : اى رب ، اصحابى فيقال : انك لاتدرى مااحدثوا بعدك ؟ اخرجه البخارى ومسلم .

٢ - روى انس بن مالك رضىالله عنه ان رسول الله ﷺ قال ليردن علىّ الحوض رجال ممن صاحبنى حتىاذا رأيتهم ورفعوا الىّ ، اختلجوا دونىفلاقولن اىرب اصحابىاصحابىفليقالن لىانك لاتدرى مااحدثوابعدك وفى رواية ليردن علىّ اناس منامتى - الحديث - وفىآخره فاقول سحقاًلمن بدل بعدى اخرجه البخارى ومسلم .

٣ - روى ابوحازم رحمهالله عن سهل بن سعد قال : سمعت النبى ﷺ يقول انا فرطكم على الحوض من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ ابداوليردن على اقوام اعرفهم ويعرفوننى ثم يحال بينى وبينهم قال ابو حازم فسمع النعمان بن ابى عياش وانا احدثهم هذا الحديث فقال : هكذا سمعت سهلا يقول ؟ فقلت

نعم قال : وانا اشهد على ابى سعيد الخدرى : لسمعته يزيد فيقول : انهم منى فيقال : انك لاتدرى ماأحدثوا بعدك فاقول : سحقاسحقا لمن بدل بعدى» اخرجه البخارى ومسلم

٤ ـ وروى ابوهريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال يرد علىّ يوم القيامة رهط من اصحابى اوقال من امتى ـ فيحلؤون عن الحوض فاقول يارب اصحابى فيقول انه لاعلم لك بما احدثوا بعدك ، انهم ارتدوا على ادبارهم القهقرى وفى رواية «فيجلون» اخرجه البخارى ومسلم .

٥ ـ روى البخارى : ان رسول الله ﷺ قال «بينا انا قائم على الحوض اذا زمرة حتى اذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم فقال : هلم فقلت : اين ؟ قال الى النار والله فقلت ماشأنهم ؟ قال : انهم قد ارتدوا على ادبارهم القهقرى ، ثم اذا زمرة اخرى ، حتى اذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم .

فقال لهم : هلم فقلت : الى اين ؟ قال الى النار والله قلت : ماشأنهم ؟ قال انهم قد ارتدوا على ادبارهم فلااراه يخلص منهم الامثل همل النعم .

٦ ـ وروى : مسلم : ان رسول الله ﷺ قال ترد علىّ امتى الحوض وانا اذود الناس عنه ، كما يذود الرجل ابل الرجل عن ابله قالوا : يانبى الله تعرفنا ؟ قال: نعم لكم سيما ليست لاحد غيركم تردون على غرّا محجلين من اثار الوضوء وليصدن عنى طائفة منكم ، فلايصلون فاقول : يارب هؤلاء من اصحابى فيجيبنى ملك فيقول : وهل تدرى ماأحدثوا بعدك ؟

٧ ـ روت عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وهو بين ظهرانى اصحابه ـ انى على الحوض انتظر من يرد علىّ منكم ، فوالله ليقتطعن دونى رجال فلاقولن اى رب منى ومن امتى فيقول : انك لاتدرى ماعملوا بعدك مازالوا يرجعون على اعقابهم اخرجه مسلم .

٨ ـ روت اسماء بنت ابى بكر رضى الله عنهما قالت : قال رسول الله ﷺ انى على الحوض انظر من يرد علىّ وسيؤخذ ناس دونى فاقول يارب منى ومن

امتى - وفى رواية فاقول اصحابى - فيقال هل شعرت ماعملوا بعدك ؟ والله مابرحوا يرجعون على اعقابهم اخرجه البخارى ومسلم . (١)

فاذا كان رمز صدق الرسالة الخالدة هو النجاح الذى يلقاه صاحب الدعوة فى دعوته وتربية الجيل الاول فمن هؤلاء الذين يقول فى حقهم النبى ﷺ : سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدى ؟

هذا كله حول الشرط الاول للرسالة الخالدة . وفى مايلى دراسة باقى شرائط الرسالة الدائمة فى ضوء العقل والكتاب والسنة .

الشرط الثانى للرسالة الخالدة :

يقول الكاتب:

يجب ان يكون الداعى الاول متميزا عن مؤسس الحكومات والدعاة الماديين ، فان محور الجهود التى يبذلها مؤسسوا تلك الحكومات هو قيام مملكة خاصة وتأسيس حكومة وراثية ، ثم استنتج من هذا الشرط ان عقيدة الشيعة بالامامة الموروثة على خلاف هذا الشرط . (٢)

اقول : ان الشيعة الامامية عن بكرة ابيهم لم يقولوا بالحكومة الوراثية ، وانما هى تهمة الصقت بهم بسبب الجهل بمعتقداتهم فان الشيعة وان قالت بان الامام المفترضة طاعته بعد على ، هو ابنه الحسن ، فالحسين وهكذا ولكنه ليس لاجل انهما ولدا الامام على بن ابى طالب ، وانما لاجل التنصيص على امامتهما من جانب الرسول خلال حياته ، بقوله : الحسن والحسين ابنای امامان قاما اوقعدا (٣) ولوقالت الشيعة بان الامام بعد الحسين هو ابنه على بن الحسين

---

(١) راجع جامع الاصول ج ١١ ص ١١٩ - ١٢١ وعليك مراجعة ذلك الكتاب لمعرفة مالم ننقل من الاحاديث، لاحظ ص ٣٥٢ من هذا الموسوعة .

(٢) صورتان متضادتان ص ١٢ .

(٣) - اوابنای هذان ... رواه اعلام الفريقين لاحظ « اهل البيت » تأليف ابوعلم طبع مطبعة السعادة بالقاهرة .

لامن جهة انه ولده ووارثه، بل لاجل التنصيب من الله سبحانه لهم ولو كانت الوراثة هى المحور للامامة لكان اخو الأمام الحسين، اعنى محمدبن الحنفية اولى بها من على بن الحسين لانه ابن الامام اميرالمؤمنين علي واكبر سناًمن ابن الحسين على السجاد.

وعلى ذلك فالشيعة تعتقد بامامة الائمة الاثنى عشر اولهم اميرالمؤمنين عليه‌السلام وآخرهم الامام القائم الذى اخبر عنه الرسول وعن غيبته وظهوره وقيامه فى كلماته، وقد ملأت كتب الفريقين احاديثه وذلك لاجل وجودالنص على امامة هؤلاء من النبى الاكرم ومن كل امام بالنسبة الى امام بعده، فباكتمال العدد الاثنى عشر، انتهت الامامة التنصيصية فلو كانت الامامة عندهم بملاك الوراثة لوجبت ادامة الامامة، ادامة وراثية من اهل‌بيت النبى ﷺ واولاد الائمة الاطهار وهذه الحقيقة يلمسها كل من وقف على معتقدات الشيعة.

ثم لوفرضنا صحة مايقوله الاستاذ، فنقول: ان الشيعة والسنة فى‌هذاالامر سواسية، وقد روى مسلم فى‌صحيحه مسألة وراثة قريش الامامة والخلافةواحداً تلوالاخر، منهم الى‌ان ينتهى عددهم‌الى‌الاثنى عشر، فما هوجواب الاستاذ عن‌هذه الاحاديث هوجواب الشيعة عن الامامة الوراثية المزعومة.

روى مسلم فى صحيحه عن رسول‌الله انه قال: لايزال هذا الامرفى‌قريش مابقى من الناس اثنان.

وروى عن جابر بن سمرة، قال دخلت مع ابى على النبى ﷺ فسمعته يقول: ان هذا الامر لاينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة ثم تكلم بكلام خفى‌علىّ قال: فقلت لابى‌ماقال؟ قال: قال كلهم من قريش‌وفى نص آخر يقول: لايزال الاسلام عزيزا الى اثنى عشرخليفة ثم قال كلمة لم افهمها فقلت لابى ما قال؟ فقال: كلهم من قريش. (١)

(١) صحيح مسلم الجزء الثانى كتاب الامارة باب الناس تبع لقريش والخلافة لقريش ص ٣.

فنسأل الاستاذ ما معنى هذه الحكومة الوراثية التى اخبر عنها النبى الصادع بالحق ، وان قبيلة قريش تستلم الخلافة واحداً تلو الاخر الى ان ينتهى عدد الخلفاء الى اثنى عشر خليفة ، فلو كانت الحكومة الوراثية صورة معكوسة عن الحكومة الالهية والدعوة السماوية فلما ذا اخبر عنها النبى كما اخبر بان الاسلام يعتز بهم افهل يتصور عزة الاسلام بحكومة على غرار الحكومات المادية؟

ثم نسأل الاستاذ من اولئك الائمة الاثنا عشر الذين اخبر عنهم خاتم الانبياء والرسل افهل ينطبق ذلك بعد الخلفاء الاربعة ، على خلفاء الامويين او العباسيين وهل الاسلام اعتز بخلافة معاوية ثم ابنه يزيد ثم المروانيين وبعدهم العباسيين ؟

نعم هذه الاحاديث التى جاءت فى صحيح مسلم لاتنطبق الاعلى الائمة الاثنى عشر ، الذين ذهبت الامامية الى خلافتهم وجاءت النصوص على امامتهم من النبى الاكرم واهل بيته على وجه لو جمعت تلك النصوص لصارت كتابا مفردا ضخماً وقد اعتز الأسلام بعلومهم وسلوكهم .

وفى ختام دراسة هذا الشرط نلفت نظر الكاتب الى انه اذا كانت الحكومة الوراثية شعار الحكومات المادية ، فيجب تنزيه النبوات على الاطلاق عنها من غير فرق بين الدائمة والمؤقتة ومع ذلك كله نرى وجود الحكومة الوراثية فى النبوات السابقة قال سبحانه : «ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما» (النسأ / ٥٤) فالله سبحانه وهب الملك العظيم لال ابراهيم ، فجعل من بينهم ملوكا وامراء فلو كانت الحكومة الوراثية رمز الحكومات المادية البشرية ، فلما ذا وهبها سبحانه للانبياء من ذرية ابراهيم عليه السلام اذ قال : «ام يحسدون.... » الخ .

وقال سبحانه اذكروا نعمت الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت احدا من العالمين (المائدة / ٢٠) هذا كله حول الشرط الثانى من الشرائط التى انتخبها الاستاذ للنبوات الخالدة حسب ذوقه ، وقد عرفت ان الكتاب والسنة يخالفاه واليك تحليل الشرط الثالث .

الشرط الثالث للرسالة الخالدة :

قال الاستاذ :

يجب ان تكون الصحيفة السماوية الاخيرة التى نزلت على النبى الخاتم (والتى تعتبرا ساساً لدينه ، ومصدراً لتعاليمه ودعوته ووسيلة دائمة لربط الخلق بخالقه) مصونة سالمة فى كل حرف من حروفها ونقطها .

اقول : لاشك ان الرسول الخاتم لاجل خلود رسالته ودوام نبوته يجب ان تكون صحيفته السماوية مصونة عن كل تحريف ، لان المفروض ان رسالته خاتمة الرسالات ونبوته خاتمة النبوات ، وكتابه خاتم الكتب ، لاينزل بعده اى كتاب وصحيفة الى يوم القيامة وعلى ضوء ذلك لامحيص عن تعلق مشيئته الحكيمة على حفظه وصيانته، ليتسنى للبشر الى يوم القيامة العمل ببرامج وتعاليم تلك الرسالة ولوطرأ عليه التحريف لما تسنى للاجيال الاتية القيام بوظائفهم الحقيقية وعندئذ ضاعت غاية «البعثة» وهدفها ويكون الناس الى يوم القيامة جاهلين بالشريعة .

وقد ذهب المحققون من الشيعة والسنة الى تحقق هذا الشرط فى نبوة النبى الاكرم صلى الله عليه وآله وان وجد بين الطائفتين من الحشوية من السنة ، والاخبارية من الشيعة من ذهب الى طروء التحريف على كتابه لكن القول به شاذ فى كلتا الطائفتين والروايات الواردة فى كتبهم روايات شاذة لايعبأ بها والرأى السائد فى عامة الاجيال بين الفريقين هو صيانة الكتاب عن التحريف ، اما السنة فقد تسالم عليها الاستاذ واما الشيعة فقد نسب اليهم الكاتب التحريف تقليداً لمن سبقه من رماة القول على عواهنهم ومن راجع كتب المحققين منهم يرى اتفاقهم على ذلك، ونحن نأتى باسماء مجموعة منهم ، وان كان الفائت من اسمائهم اكثر مما أتينا به .

١ ـ ابو جعفر محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمى المعروف بالصدوق (م ٣٨١ هـ) يقول : اعتقادنا فى القرآن انه كلام الله ووحيه وتنزيله وقوله وكتابه وانه لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم عليم

وانه القصص الحق وانه لحق فصل وماهو بالهزل وان الله تبارك وتعالى محدثه ومنزله وربه وحافظه والمتكلم به . (١)

٢ - السيد المرتضى على بن الحسين الموسوى العلوى (م ٤٣٦ هـ) قال : ان جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن مسعود، وابى بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبى عدة ختمات وكل ذلك يدل بادنى تأمل على انه كان مجموعا مرتبا غير مبتور ولامبثوث (٢) .

٣ - ابوجعفر محمد بن الحسن الطوسى المعروف بشيخ الطائفة (م٤٦٠هـ) قال : واما الكلام فى زيادة القرآن ونقصه فمما لايليق به ايضاً لان الزيادة فيه مجمع على بطلانها ، واما النقصان فالظاهر ايضا من مذهب المسلمين خلافه ، وهوالاليق بالصحيح من مذهبنا ، وهوالذى نصره المرتضى وهوالظاهر فى الرواية قيل انه رويت روايات كثيرة من جهة الشيعة واهل السنة بنقصان كثير من آى القرآن ونقل شيىء منه من موضع الى موضع ؟ لكن طريقها الاحاد التى لاتوجب علما ولاعملا والاولى الاعراض عنها (٣) .

٤ - ابوعلى الطبرسى ، صاحب تفسير «مجمع البيان» يقول : الكلام فى زيادة القرآن ونقصانه اماالزيادة فيه فمجمع على بطلانها واماالنقصان منه فقد روى جماعة من اصحابنا وقوم من حشوية العامة ان فى القرآن تغييراً اونقصانا والصحيح من مذهب اصحابنا خلافه (٤) .

٥ - السيد على بن طاووس الحلى (م ٦٦٤ هـ) قال : ان رأى الامامية هو عدم التحريف (٥) .

٦ - الشيخ زين الدين العاملى النباطى البياضى (م ٨٧٧ هـ) يقول : فى

---

(١) الاعتقادات ص ٩٣
(٢) مجمع البيان ج ١ ص ١٠ نقلا عن جوات المسائل الطرابلسيات للسيد .
(٣) التبيان ج ١ ص ٣
(٤) مجمع البيان ج ١ ص ١٠　　(٥) سعد السعود ص ١٤٤ .

تفسير قوله : (انا نحن نزلنا الذكر واناله لحافظون) اى انا لحافظون له من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان (١).

٧ ـ القاضى السيد نورالله التسترى صاحب كتاب احقاق الحق (م ١٠١٩) يقول : مانسب الى الشيعة الامامية من وقوع التغيير فى القرآن ليس مما يقول به جمهور الامامية انما قال به شرذمة قليلة منهم ، لااعتداد لهم فيما بينهم (٢) .

٨ ـ الشيخ البهائى نابغة عصره ونادرة دهره محمد بن حسين المشتهر ببهاء الدين العاملى (م ١٠٣٠ ه) قال : الصحيح ان القرآن العظيم محفوظ من ذلك زيادة كان اونقصانا وماشتهر بين العلماء من اسقاط اسم امير المؤمنن (ع) فى بعض المواضع فهو غيرمعتبر عند العلماء والمتتبع للتاريخ والاخبار والآثار يعلم بان القرآن ثابت بغاية وينقل الالاف من الصحابة وان القرآن فى الكريم كان مجموعا فى عهد الرسول (٣) .

٩ ـ المحدث الاكبر الفيض الكاشانى صاحب كتاب الوافى الذى يعدمن الجوامع الحديثية المؤخرة (م ١٠٩١ه) قال : وقال الله تعالى: (وانه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه «وقال وانا نحن نزلنا الذ« كرله لحافظون» عندئذ كيف يتطرق اليه ـ التحريف والتغيير.... مع ان خبر التحريف مخالف لكتاب الله ،مكذب، له فيجب رده والحكم بفساده وتأويله (٤) .

١٠ ـ الشيخ الحر العاملى (م ١١٠٤ ه) يقول فى كتابه والمتتبع للتاريخ والاخبار والاثار يعلم يقينا بان القرآن ثابت بغاية التواتر وينقل الالاف من الصحابة وان القرآن كان مجموعا مؤلفا فى عهد الرسول (٥) .

هذه هى الشخصيات الكبيرة من الامامية الذين عرفت تنصيصهم على عدم طرؤ تحريف على الذكر الحكيم ، وقد جئنا باسماء القائلين بعدم التحريف الى

(١) اظهار الحق ج ٢ ص ١٣٠ (٢ـ٣) آلاء الرحمان ص ٢٥
(٤) تفسير الصافى ج ١ ص ٥١ (٥) راجع الاء الرحمان ص ٢٥

نهاية القرن الحادى عشر واما الذين نصوا على عدم التحريف فى القرون الاخيرة فحدث عنهم ولاحرج ، كيف وقد الفوا رسائل كبيرة وصغيرة حول الموضوع ، ونحن نسأل الاستاذ باى دليل يقول بان تنصيص الشخصيات الاربع الاول على عدم التحريف من باب التقية ، اهكذا ادب العلم وادب الاسلام ؟ اليس الله تعالى يقول : (ولاتقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا» النسأ/٥٩٤) والعجب انه يستشهد على هذا النظر بقول اعداء الشيعة ويترك قول علمائهم وبما ان الكاتب يستند فى بعض ابحاثه الى كلمات قائد الثورة الاسلامية الامام الخمينى دام ظله نأتى بنص كلامه فى هذا الموضع ، وهذا ماجاء فى محاضراته التى القيت قبل بضع وثلاثين سنة :

«ان الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءة و كتابة ، يقف على بطلان تلك المزعمة (التحريف) وانه لاينبغى ان يركن اليها ذومسكة ، وماوردت فيه من الاخبار ، بين ضعيف لايستدل به ، الى مجعول ، يلوح منه أمارات الجعل ، الى غريب يقضى منه العجب ، الى صحيح يدل على ان مضمونه تأويل الكتاب وتفسيره ، الى غير ذلك من الاقسام التى يحتاج بيان المراد منها الى تأليف كتاب حافل ، ولولاخوف الخروج عن طور البحث لارخينا عنان البيان الى تشريح تاريخ القرآن وماجرى عليه طيلة القرون ، واوضحنا لك ان الكتاب هو عين مابين الدفتين والاختلاف الناشى بين القراء ليس الا امراً حديثا لاربط له بما نزل به الروح الامين على قلب سيد المرسلين (١) .

الرسائل المفردة حول صيانة القرآن من التحريف :

ان علماء الشيعة الامامية لم يقتصروا على هذه الجمل القصيرة حول صيانة الذكر الحكيم من التحريف بل الفوا رسائل مفردة منذ اربعة قرون حولها :

١ـ الشيخ الحر العاملى قدافرد رسالة فى هذا الموضوع اسماها تواتر القرآن (٢)

(١) تهذيب الاصول ، تقريرات ابحاث الامام الخمينى ج ٢ ص ٩٦ بقلم جعفر السبحانى

(٢) امل الامل ج ١ ص ٣١

٢ ـ الشيخ عبدالعالى الكركى ، فقد الف رسالة فى نفى النقيصة عن القرآن ، ذكرها العلامة الشيخ محمد جواد البلاغى فى آلاءالرحمن (١) وقد جاء فى الرسالة كلام الصدوق ثم اعترض على نفسه بورود روايات تدل على التحريف فاجاب بان الحديث اذا جاء على خلاف الدليل من الكتاب والسنة المتواترة اوالاجماع ولم يتمكن تأويله ولاحمله على بعض الوجوه ، وجب طرحه.

٣ ـ المتتبع البارع الشيخ آغا بزرگ الطهرانى مؤلف الذريعة الى تصانيف الشيعة ، فقد افرد رسالة اسماها النقد اللطيف فى نفى التحريف .

٤ ـ العلامة الحجة الشيخ عبدالحسين الرشتى الحائرى ، فقد الف رسالة حول الموضوع اسماها كشف الاشتباه .

٥ ـ خصص العلامة المحقق السيد الطباطبائى بحثا مبسوطا فى صيانة الذكر الحكيم فى ميزانه فى تفسير قوله : (انانحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (٢).

٦ ـ ان العلامة المحقق السيد الخوئى دام ظله قد افرد بحثا صافيا حول صيانة الذكر الحكيم فى كتابه البيان فى تفسير القرآن وقد اغرق نزعا فى التحقيق فلم يبق فى القوس منزعا .

٧ ـ وقد قام العلامة الشيخ رسول جعفريان بتأليف رسالة نافعة حول الموضوع اسماها «اكذوبة تحريف القرآن» حياه الله وبياه

وليست عقيدة الشيعة حول الذكر الحكيم امراً مخفياً على المحققين من السنة ، فهذا علامة الهنود رحمة الله الهندى نقل عقيدة الشيعة فى كتابه ، وقال : إن القرآن المجيد عند جمهور علماء الشيعة الامامية الاثنى عشرية محفوظ عن التغيير والتبديل ، ومن قال منهم بوقوع النقصان فيه ، فقوله مردود غير مقبول عندهم (٣) .

---

(١) الاء الرحمان ج ١ ص ٢٦

(٢) الميزان ج ١٢ ص ١٠٦ ـ ١٣٧

(٣) اظهار الحق ، ج ٢ ص ١٢٨ .

واخيرا نلفت نظر القارى ، الى محقق عصرنا السيد عبد الحسين شرف الدين العاملى ، فقد قال فى كتابه اجوبة موسى جارالله نسب الى الشيعة القول بتحريف القرآن باسقاط كلمات وآيات ثم قال : نعوذ بالله من هذا القول : ونبرأ من الله تعالى من هذا الجهل ، وكل من نسب هذا الرأى الينا ، جاهل بمذهبنا اومفتر علينا فان القرآن العظيم والذكر الحكيم متواتر من طرقنا بجميع آياته وكلماته وسائر حروفه وحركاته وسكناته تواترا قطعيا عن ائمة الهدى من اهل البيت (ع) ولايرتاب فى ذلك الامعتوه (١) .

ثم ان المتحاملين على الشيعة فى مسألة تحريف القرآن يستندون الى كتاب »فصل الخطاب« للمحدث النورى الذى جمع فيه المسانيد والمراسيل التى استدل بها على النقيصة ولكن غفل المتحامل عن الرسائل الكثيرة التى الفت ردا عليه وكفى بذلك ماذكره العلامة البلاغى فقال : ان القسم الوافر من الروايات ترجع اسانيده الى بضعة انفار وقد وصف علماء الرجال كلا منهم بانه .

١ - اماضعيف الحديث ، فاسد المذهب ، مجفو الرواية .

٢ - واما بانه مضطرب الحديث والمذهب يعرف حديثه وينكر ،ويروى عن الضعفاء .

٣ - واما بانه كذاب متهم لاستحل ان اروى من تفسيره حديثا واحداً وانه معروف بالوقف واشد الناس عداوة للرضا (ع) .

٤ - واما بانه كان غاليا كذابا .

٥ -واما بانه ضعيف لايلتفت اليه ولايعول عليه ومن الكذابين .

٦ - واما بانه فاسد الرواية يرمى بالغلو ومن الواضح ان امثال هؤلاء لاتجدى كثرتهم شيئا هذه حال المسانيد واما اكثر المراسيل فمأخوذة من تلك المسانيد (٢) .

---

(١) اجوبة مسائل موسى جارالله ص ٣٤ .

(٢) الاءالرحمن ص ٢٦

هذا توصيف اجمالي عن هذه الروايات التي يستند اليها اعداء الشيعة في هذه النسبة ، ويكفي في ذلك ان ثلاثمأة حديث من هذه الاحاديث ، يرويها السياري : ويكفي في ضعفه قول الرجالي المحقق النجاشي : انه ضعيف الحديث فاسد المذهب ، مجفو الرواية ، كثير المراسيل ، متهم بالغلو ، كما ان كثيرا من هذه الروايات ينتهي الى يونس بن ظبيان الذي وصفه النجاشي بقوله :ضعيف جدا لايلتفت الى مارواه كل كتبه تخليط ، كما ان قسما منه ينتهي الى منخّل بن جميل الكوفي وقد نص النجاشي على كونه ضعيفا فاسد الرواية . (١)

الكافي كتاب حديث لا كتاب عقيدة :

ثم ان الكاتب يستند في هذه النسبة الى وجود روايات التحريف في الكافي ولكنه غفل عن ان كتاب الكافي في نظر الامامية ليس كالصحاح في نظر اهل السنة الذين يقولون ان كل ما في البخاري صحيح ، وانما هو كتاب: فيه الصحيح والضعيف والمرسل ومايوافق الكتاب وما يخالفه ، فلايمكن الاستدلال بوجود الرواية فيه على عقيدة الشيعة ، ومايلهج به علماء الحديث في حق صحيح البخاري ومسند الامام احمد ويقولون :

وما من صحيح كالبخاري جامعا ولامسند يلفى كمسند احمد

اقول . انما يلهجون به في حق كتبهم مخصوص بهم فليس كل مافي الجوامع الحديثية عند الشيعة ، صحاحا يستدل بكل حديث ورد فيها في كل موضوع ومورد ، بل الاستدلال يتوقف على اجتماع شرائط الصحة التي ذكرها علماء الدراية والحديث ، ونحن والله نعاني من عدم اطلاع هؤلاء على «ابجدية» عقائد الشيعة ومدارکها ومصادرها .

---

(١) راجع في الوقوف على نصوص النجاشي حول هؤلاء، الثلاثة، رجاله الرقم ١٩٢ ١٢٧ من الطبعة الحديثة .

التحريف فى كتب اهل السنة :

نحن نجل علماء السنة ومحققيهم عن نسبة التحريف اليهم ولكن لو كان وجود الرواية فى كتب التفسير والحديث دليلا على العقيدة . فقد رويت احاديث التحريف فى كتبهم ، ايضا ولاجل ايقاف القارى على نماذج من هذه الروايات نشير الى بعضها .

١ - اخرج ابوعبيد فى الفضائل وابن مردويه وابن الانبارى عن عائشة قالت : «كانت سورة الاحزاب تقرأ فى زمان النبى صلى الله عليه وآله مائتى آية فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها الاعلى ماهو الآن» (١) .

٢ - عن عمر . «لولا ان يقول الناس ان عمر زاد فى كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدى» (٢) .

٣ - نقل عن ابن مسعود انه حذف المعوذتين من المصحف ، وقال : انهما ليستا من كتاب الله (٣) .

وهناك روايات كثيرة مبثوثة فى كتب التفاسير والحديث والتاريخ تحكى عن طرؤ التحريف على الذكر الحكيم ، ونحن نقتصر على الاقل القليل منها ، ومن اراد التفصيل فليرجع الى كتاب «اكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة» (ص ٢٧ - ٣٣)

ونحن نرى ان فى الاصرار على نسبة التحريف الى أية طائفة من الطوائف الاسلامية ضررا واسعا على الاسلام والمسلمين ولايستفيد منه الا المستعمرون واذنابهم .

وعلى الرغم من كثرة هذه الروايات نحن لانؤمن بصحتها كما لايؤمن علماء

---

(١) الدر المنثور ج٤ ص١٨٠ تفسير القرطبى ج١٤ ص١١٣ .

(٢) صحيح البخارى باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولاية القضاء ج٩ ص٦٩ ط مصر ١٣٧٢ هـ .

(٣) الدر المنثور ج٦ ص٤١٦ .

اهل السنة المحققون بهاء ولاتبتنى عقيدتهم عليها فهى بين ضعاف السند، اوضعاف الدلالة وقبل كل شيىء تخالف الذكر الحكيم واجماع الامه.

اقتراح للمتسرعين فى الكتابة:

نحن نرى ان عدة من المتسرعين فى الكتابة حول الملل والنحل، وبالاخص حول الشيعة الامامية، يجترئون فى خلق النسب المخزية الى تلك الطائفة، ويعتمدون فى كل ذلك على كتب المستشرقين اوما الفت بيد المغفلين الجاهلين بعقيدة الشيعة واخيراً يعتمدون على بعض كتب الشيعة التى لاتعد مصدرا رصينا لبيان عقيدة تلك الطائفة.

ونحن نقترح على هؤلاء الكتاب ان يقيموا مؤتمراً علميا حراً فى احدى العواصم الاسلامية تحضره عدة من محققى السنة والشيعة ليتدارسوا تلك النسب المفتعلة، على ضؤ المصادر الصحيحة للشيعة والسنة، فلعل هذا المؤتمر اذا اقيم بشكل صحيح يكون ناجحا فى رفع الاغطية والاغشية عن اعين كثير من غير المطلعين على عقيدة تلك الطائفة. وان علماء الشيعة مستعدون للبحث والنقاش والحوار الصحيح الذى دعى اليه القرآن الكريم، فى كل مكان وزمان بشرط ان يكون المؤتمر محايداحراً غير منحاز الى فئة دون فئة وسياسة دون سياسة، فعند ذلك تتجلى الحقيقة ويرى اخواننا اهل السنة ان هناك مشتركات بين الطائفتين تزيد على مفترقاتهما القليلة وان ما يجمعنا اكثر مما يفرقنا كما تتجلى قوة منطق الشيعة فى مورد المفترقات «فسيعلمون من اصحاب الصراط السوى ومن اهتدى».

هذا كله حول الشرط الثالث واليك الشرط الرابع الذى هو آخر الشرائط الاربعة للنبوة الخالدة.

الشرط الرابع للنبوة الخالدة:

قال الكاتب: الشرط الرابع هو ان يكون النبى بذاته مركز الهداية ومصدر

القيادة ومحور العلاقة القلبية والانقياد الفكرى للامة ، فتعتقد بكونه خاتم الرسل ولاتسمع لاحد بعده بالمشاركة فى النبوة والتشريع المطلق ، ولاتعتقد فى احد آخر ،العصمة وتعتبره مورد الوحى ثم انه استنتج من هذا الشرط ان الشيعة الامامية يخالفونه ويعتقدون بالامور التالية :

١ ـ ان خلفاء الرسول قد تم تعيينهم من عندالله .

٢ ـ وانهم معصومون كالنبى .

٣ ـ انهم مفترضوا الطاعة ، وطاعتهم واجبة كطاعة الرسول.

٤ ـ ان الملائكة تتردد على الائمة ليلا ونهارا .

٥ ـ ان الائمة لهم الخيار فى تحليل الاشياء وتحريمها .

٦ ـ ان المؤمن بالائمة من اهل الجنة وان كان ظالما وفاسقا و فاجراً .

ثم استشهد على ذلك بقول المستشرقين الثلاثة : البطريق «هوجيس» «فيلب حتى» (١) «وايوانو» .

نظريتنا فى هذا الشرط وتحليله :

ان مارتب على هذا الشرط بين صحيح دل عليه الدليل، وبين مختلق مكذوب على الشيعة ، كما ان نفس الشرط امر مجمل يحتاج الى تفسير ، ولاجل ذلك نبحث عن كل واحدة من هذه النتائج واحدا تلو الاخر حتى يتضح مدى صحة هذا الشرط وصحة ما تعتقده الطائفة الامامية من بعض هذه النتائج :

اما الاولى اعنى كون الامامة عندالشيعة الامامية تنصيبية وعند اهل السنة انتخابية، فالشيعة يعتقدون ان الامام بعدالرسول الاكرم يعين من جانبه سبحانه

---

(١) صورتان متضادتان فى ص ١٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ولاتنس ان الكاتب يعد النبى الاكرم مصدر التشريع. والشيعة كما لاتقول بكون الائمة من مصادره لاتقول بانه (ص) مشرعاً و مصدراً للتشريع بل مبلغاً رسالات الله فلو وصفنا النبى احيانا بمصدر التشريع فهو من باب المجاراة لقرم .

واهل السنة يعتقدون بان اهل الحل والعقد يقومون بانتخابه، فكلتا النظريتين بالنسبة الى الشرط الرابع سواسية ، فان كون شخصية الرسول مركز الهداية ومحور العلاقة القلبية، لاينافي ان يأمره سبحانه بنصب الخليفة بعده ، كما لايخالف ان يفوض امر تعيينه الى الامة، فاستنتاج صحة احدى القضيتين وبطلان النظرية الاخرى من الشرط الرابع على فرض صحته ، غريب جدا واى معارضة بين كون الرسول مركز الهداية وكون الامام بعده والخليفة القائم مقامه منصوبا من جانبه سبحانه ، لان للنبى وظائف، وللامام والخليفة وظائف ولايشارك الامام فى جميع شؤون النبى منصوبا كان او منتخبا فتأسيس الشريعة يختص به لايشاركه الامام فى كلتا النظريتين .

لاشك ان الكليم موسى كان مركز الهداية، ومحور العلاقة القلبية ومع ذلك نصب هارون مكانه ، وقال : «اخلفنى فى قومى واصلح ولاتتبع سبيل المفسدين» (١) ولم يكن تنصيبه اخاه مكانه الا برضا منه سبحانه .

ان معنى كون الرسول الاعظم مركز الهداية عبارة عن كونه خاتما للنبوة والرسالة لاخاتما للوصاية والخلافة والامارة ، والاوصياء عند الشيعة ليسوا بانبياء كما انهم ليسوا رسلا، وانما هم خلفاء الرسول شأنهم تنفيذ ماشرع الرسول الاعظم فى غيابه .

واما الثانى اعنى عصمة الائمة من الذنب فتكفى فى ذلك آية التطهير ، اعنى قوله سبحانه: «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً» (الاحزاب / ٣٣) فان الاية بحكم « تذكير الضمائر اعنى «عنكم» و «يطهركم» لاتمت بنسائه وزوجاته بصلة، وقد دلت الاثار النبوية على اختصاص الاية بالخمسة الطاهرة اعنى النبى الاكرم وفاطمة وبعلها وبنيها ، واما دلالتها على نزاهتهم من الذنب فلاجل ان الارادة الواردة فى الاية ارادة تكوينية خلاّقة للمراد لاتنفك عنه،

(١) سورة الاعراف الاية ١٤٢ .

اعنى التطهير من الذنوب ، و ليست الارادة تشريعية بمعنى طلب التطهير عنهم ، لانها لاتختص بطائفة دون طائفة بل تعم المكلفين عامة ، ولكن الاية تخصص هذه الارادة بأهل البيت وتقول : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت » والحال ان الارادة التشريعية عامة تعم جميع المكلفين لاجماعة خاصة.

هذا هوموجز مما فصله المحققون فى رسائلهم وتفاسيرهم حول الاية ومن اراد التفصيل فليرجع الى ماسبق فى هذا الجزء .

والكاتب قدم الفكرة أولا وصورها عند نفسه سالمة عن النقد وهى انحصار العصمة فى النبى الاكرم ولاجل ذلك عاد يصور القول بعصمة الائمة امراً مناقضا لكون النبى مركز الهداية مع ان كون النبى مركزها و مصدرها ليس بمعنى انحصار العصمة فيه ، بل معناها انه صاحب النبوة والرسالة وصاحب الشريعة والملة وغيره ينفّذ ماخطه الرسول ورسمه مع عصمة فى القول وصيانة عن الزلل فى العمل ، وان اردت تصوير كون النبى مركز الهداية و مصدر القيادة فقل : ان النبى الاكرم واقع فى نقطة المركز من الدائرة وغيره كالخطوط النابعة منه يستضيئى بنوره ويقتبس من علمه وهذا لا ينافى ان يكون المستضيئى والمستفيد معصوما مثله ويكون فى الوقت نفسه تابعا له متنورا بنوره .

واما الثالث اعنى كونهم مفترضى الطاعة فليس هذا بامر عجيب فان وجوب الطاعة لايختص بالنبى الاكرم بل تجب اطاعة اولى الامر بنص الذكر الحكيم ، قال سبحانه : «اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم» . (النساء / ٥٩)

ان الاستاذ يعيب على الشيعة بانهم يقولون بان الائمة مفترضوا الطاعة مع انهم يقولون بافتراض طاعة السلطان برا كان او فاجراً ولا اقل يقولون بحرمة الخروج على السلطان الجائر وان بلغ من الجور والفساد ما بلغ (١) :

واما الرابع ، اعنى قوله ان الملائكة تتردد على الائمة ليل نهار ، فلو كان هذا بمعنى كونهم انبياء فالشيعة برءآء منه فان النبوة قد ختمت بالنبى الاكرم

(١) مقالات الاسلاميين لامام الاشاعرة ص٣٢٣ ط القاهرة

بنص الذكر الحكيم واجماع المسلمين وتواتر الروايات وان كان بمعنى كونهم محدثين (بالفتح) وان الملائكة تكلمهم فليس هذا بامر غريب، وهذه مريم البتول قد كلمتها الملائكة وقالت لها: «واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (آل عمران / ٤٢). فلم تكن مريم بتكليم الملائكة اياها، نبية اورسولة وانما صارت محدثة (بالفتح) وكون الانسان محدثا غير كونه نبياً اورسولا، والكاتب لم يفرق بين الرسالة والنبوة ومسألة التحدث مع الملائكة.

وقد اصفقت الامة الاسلامية على ان في هذه الامة على غرار الامم السابقة اناساً محدثون (بالفتح) وقد اخبر بذلك النبي الاعظم كما ورد في الصحاح والمسانيد والمحدث من تكلمه الملائكة بلانبوة ولارؤية صورة، اويلهم ويلقى في روعه شيء من العلم على وجه الالهام والمكاشفة من المبدأ الاعلى او ينكت له في قبله من حقائق تخفى على غيره، اوغير ذلك من المعاني التي يمكن ان يراد منه، فهذا امر مسلم غير ان الخلاف في مصاديقه وجزئياته، فالشيعة تعتقد بان عليا أمير المؤمنين واولاده الائمة من المحدثين واهل السنة يرون غيرهم.

اخرج البخاري في باب مناقب عمر بن الخطاب ج٢ ص١٩٤ عن ابي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «لقد كان فيمن قبلكم من بني اسرائيل رجال يكلمون من غير ان يكونوا انبياء فان يكن من امتي منهم، فانه عمر بن الخطاب».

ونحن نكتفي بهذا المقدار في تحقيق الحال والتبسيط يحتاج الى افراد رسالة في هذا الموضوع على ان الآية الحاكية عن تكريم الملائكة لمريم البتول كافية في الموضوع فانها دليل اولاً على كون مريم محدثة تكلمها الملائكة وهي تسمع كلامهم كما انها دليل على اعتصامها بعصمة الله فهي مصطفاة معصومة، فلاذنب للشيعة اذا اعتقدت ان الائمة من بعد الرسول محدثون بلانبوة ولارسالة، مطهرون من الذنب والخلاف، نظير مريم البتول.

والعجب من الكاتب ومن لف لفه انهم يفرون من نسبة العصمة الى الائمة فرار المزكوم من المسك مع انهم يتعاملون مع الصحابة معاملة العصمة، ويحرمون

البحث حول ماصدرعنهم من الافعال المضادة للكتاب والسنة، والانسان عندمايقف على حساسية القوم الخاصة بحياة الصحابة ، يتحيرانهم كيف يجعلون الصحابة بمقربة من العصمة وفي الوقت نفسه لايبالون عن نسبة الذنب والخلاف الى انبياء الله ورسله ، والكتب الكلامية لاهل السنة لاتأبى عن نسبة الذنب الى الانبياء صغيرة واحيانا كبيرة (١) .

واما الخامس اعنى كون الائمة لهم الخيارفى تحليل الاشياء وتحريمها فهى فرية واضحة على الشيعة فان الشيعة عن بكرة ابيهم قائلون بختم النبوة والرسالة وان حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة .

اتفقت كلمتهم على ان منكر الخاتمية مرتدخارج عن الاسلام ، وقدتضافرت الروايات على ذلك (٢) .

ولعمر الحق ان الرجل قداشرك الشيعة فى امور لاناقة لهم فيها ولاجمل وهم براء منهابرائة يوسف عن تهمة الطاغية .

وبما ان هذه الفكرة الخاطئة قد تسربت الى اذهان البسطاء فى حق هذه الطائفة نبحث عن هذا الموضوع باسهاب :

الشيعة وفكرة التشريع :

ان الشيعة الامامية تعتقد بان مصدر التشريع هوالله الجليل وانه ليس للنبى فضلا عن الائمة حق التشريع وانه محصور فى حقه سبحانه ، وان الاعتقاد بذلك هو احد مراتب التوحيد ودرجاته ، وقد دلت الايات على انحصار هذا الحق به سبحانه وقال: «ان الحكم الا الله امران لاتعبدوا الاياه ، ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون» (يونس/ ٤٠) .

---

(١) لاحظ مفاهيم القرآن ج ٤ ص ١ للوقوف على آراء اهل السنة حول عصمة الانبياء

(٢) ومن اراد الوقوف على عقيدة الشيعة فى الخاتمية وكيفية برهنتهم عليها من الكتاب والسنة فليرجع الى موسوعتنا القرآنية مفاهيم القرآن الجزء الثالث ، ص ١١٧ - ٣١٧ .

وليست هذه الاية هي الاية الوحيدة في هذا الباب بل هناك طائفة من الايات تتحد معها في حصر الحاكمية بالله سبحانه كما تحصر حق التقنين والتشريع به ومن اجل ذلك يندد القرآن باليهود والنصارى حيث اتخذوا الاحبار والرهبان مصادر للتقنين بقوله سبحانه : (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) (التوبة / ٣١) ومعنى الاعتقاد بربوبيتهم هو امتلاكهم زمام التحليل والتحريم ، مع ان زمامهما بيده سبحانه لم يفوضهما لاحد .

قال الامام الباقر عليه السلام: «يا جابر انا لو كنا نحدثكم برأينا وهوانا لكنا من الهالكين ولكنا نحدثكم باحاديث نكتنزها عن رسول الله كما يكتنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم» .

وفي رواية اخرى : « ولكنا نفتيهم باثار من رسول الله واصول علم عندنا نتوارثها كابرا عن كابر» .

وفي رواية محمد بن شريح عن الصادق عليه السلام : « والله ما نقول باهوائنا ولا نقول برأينا ولا نقول الا ما قال ربنا » .

وفي رواية عنه عليه السلام : مهما اجبتك فيه بشيء فهو عن رسول الله لسنا نقول برأينا من شيء » (١) .

ولولا الخوف من تعكير الصفو لاتينا بنصوص كثيرة ممن يحسبون ان الخلفاء والصحابة من مصادر التشريع ، بل لا يختص التشريع بالصحابة ويعم الامراء والسلاطين فتتخذ آرائهم ونظرياتهم احكاما الهية وبما ان البحث في هذه المواضيع يوجب الخروج عن الموضوع فنطوي الكلام فيه وكفى في ذلك ان الاستاذ عبدالوهاب خلاف عد في كتابه « مصادر التشريع الاسلامي » فيما لا نص فيه : اجماع اهل المدينة و قول الصحابي و اجماع اهل الكوفة و اجماع الخلفاء الاربعة من مصادره (٢) .

---

(١) راجع جامع احاديث الشيعة المقدمة ج١ ص١٧ .
(٢) مصادر التشريع الاسلامي ص١٠٩ .

واما الامر السادس اعنى كون المؤمن بالائمة من اهل الجنة وان كان ظالما وفاسقا فهو بهتان عظيم ويكفى فى ذلك قول الامام الباقر عليه السلام لتلميذه جابر الجعفى قال له: ياجابر ايكفى من انتحل التشيع واحبنا اهل البيت، فوالله ماشيعتنا الامن اتقى الله واطاعه، وما كانوا يعرفون ياجابر الا بالتواضع والتخشع وبالانابة وكثرة ذكر الله والصلاة والصوم وبر الوالدين وتعاهد الجيران والفقراء والمساكين والغارمين والايتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الالسن عن الناس الامن خير وكانوا امناء عشائرهم فى الاشياء (١) وقال سبحانه: «قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم» (آل عمران / ٣١).

ماهى المشكلة الاساسية للمسلمين:

ان الكاتب ومن لف لفه يزعمون ان المشكلة الوحيدة التى يواجهها الاسلام هى مشكلة الشيعة والجمهورية الاسلامية الايرانية، ولاجل ذلك لايهمهم شيىء الا الكتابة حول عقيده الشيعة والنيل من مبادئهم واصولهم ولهذا نرى ان الهجمة والصولة اشتدت فى السنوات الاخيرة على الشيعة ومبادئهم وافكارهم لكى يستطيع هؤلاء ان يزيلوا مشكلتهم الصعبة هذه من مسيرتهم ويصلوا الى القمة من السعادة والهناء!!.

وعجيب ان الكاتب يعيش فى شبه القارة الهندية التى تحدق فيها بالمسلمين مشاكل جمة، وكانت العناية بحلها اولى والزوم من النيل من عقائد طائفة ليس لها ذنب الا التمسك بكتاب الله وعترة رسوله الطاهرة اللذين تركهما رسول الله صلى الله عليه وآله حجتين بين الامة الى يوم القيامة وقال: انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى (٢).

اوليس الكاتب يرى بام عينه ان الوثنية هى التى اخذت تتزايد وتتسع فى القطر

---

(١) امالى ابن الشيخ المطبوع مع امالى الشيخ ص٩٧.

(٢) صحيح مسلم ج٧ ص١٢٢ وسنن الترمذى ج٢ ص٣٧ ومسند احمد بن حنبل ج٣ ص١٤ و١٧ وغيره.

الهندى . المكان الذى يقطن فيه الكاتب مع ابناء جلدته ومامن يوم ولااسبوع الاويؤسس فيه معبد بل ومعابد للوثنيين حتى فى البلاد المكتظة بالمسلمين كلكهنو الندوى التى تكون فيها المعابد الوثنية على مقربة من داره .

وهذه الصحف العالمية تتناقل اخبار شروع الحكومة الوثنية الهندية باغتصاب مساجد المسلمين ومعابدهم وتحويلها الى معابد للاوثان بحجج واهية، هذا والندوى وداره واعواته لاينبسون فى ذلك ببنت شفة ولايبضّون بكلمة ، فهم لايعنيهم تبديل بيوت الله الى بيوت اوثان انما تعنيهم مهاجمة الشيعة ومبادئها .

وهذه ايضا مدينة حيدرآباد الاسلامية فى الهند ، مكتظة باتباع الرسالة المحمدية وكان بناء معابد الوثن فيها ممنوعا اشد المنع ، الا ان الحكومة الوثنية هناك ضربت بهذا المنع عرض الحائط، وبدأت ببناء المعابد الوثنية ناوية بذلك استئصال شأفة المسلمين وقطع جذورهم .

وزيادة على ذلك ، فقد اريقت دماء مليون مسلم فى ولاية آسام بيد الحكومة الهندية ، ونشرت خبر ذلك الصحف وتناقلته وكالات الانباء ومع ذلك كله لانرى ولانسمع استنكاراً شديدا مقرونا بحماس من دار الندوة ورواده، اضف الى ذلك انتشار الافلام والكتب التى تهين الاسلام وتتعدى على حرمته وتصور النبى الاكرم صلى الله عليه وآله بصورة معكوسة تقشعر منها الجلود ولكن ياللاسف ان هذه ليست مشكلة الوهابية ودعاتها ، انما مشكلتهم هى مسألة زيارة القبور والتوسل بالارواح المقدسة ودعاء الله سبحانه بحرمتهم ومقامهم .

واما المخازى والجنايات الموجودة فى الهند ضد الاسلام فحدث عنها ولاحرج وهى لازالت فى تزايد كما ان هجمة القوم القوية، ضد الشيعة والجمهورية الاسلامية لازالت تتسع ومنطقهم فى ترك مكافحة الشرك والالحاد الواجبة على كل مسلم، والهجمة على الطائفة الامامية المسلمة المؤمنة بالكتاب والسنة والعترة الطاهرة، هو قول القائل :

اذا لم تستطع أمراً فدعه　　وجاوزه الى ماتستطيع

وفى الختام ندعوا سبحانه بالدعاء التالى :

اللهم انا نرغب اليك فى دولة كريمة تعز بها الاسلام واهله ،

وتذل بها النفاق واهله ، وتجعلنا فيها من الدعاة

الى طاعتك ، والقادة الى سبيلك

وترزقنا بهـا كرامة

الدنيا والآخرة

آمين رب العالمين .

قم المقدسة مؤسسة الامام الصادق (ع)　　جعفر السبحانى

عشية آخر شعبان من سنة ١٤٠٧ هـ

فهرس أمهات المطالب

العنوان	الصفحة
كتاب كريم لسماحة العلامة الحجة آية الله المحقق الصافى دام ظله	٣ ـ ٥
خطاب تفضل به الاستاذ المحقق آية‌الله الشيخ ناصر مكارم دام ظله	٦ ـ ٨
مقدمة المؤلف	٩ـ١٦
الفصل الاول فى عصمة الانبياء :	
١ ـ عصمة آدم (ع) والشجرة المنهى عنها	**١٧**
ما هى نوعية النهى فى «لاتقربا»	٢١
مامعنى وسوسة الشيطان لادم	٢٦
ما معنى قوله «وعصى» و«فغوى»	٢٨
مامعنى قول «آدم» ربنا «ظلمنا أنفسنا»	٣٠
ما هو المراد من قوله «فتاب عليه»	٣١
ما معنى الغفران فى قوله «وان لم تغفرلنا»	٣٢
عصمة آدم وجعل الشريك لله	٣٣
تفسير قوله «فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء»	٣٤
٢ ـ عصمة شيخ الانبياء نوح والمطالبة بنجاة ابنه	**٣٧**
كيف يجتمع قول نوح «ان ابنى من أهلى» مع قوله سبحانه «انه ليس من أهلك»	٣٨

العنوان	الصفحة
لادلالة لقوله «فلاتسألن ماليس لك به علم» على صدور سؤال غير لائق بساحة الانبياء	٤٢
تفسير قوله «والاتغفرلى وترحمنى»	٤٤
٣ - عصمة ابراهيم الخليل (ع) والمسائل الثلاث	**٤٦**
تفسير قوله للنجم «هذا ربى»	٤٧
تفسير قوله «بل فعله كبيرهم»	٤٩
تفسير قوله «انى سقيم»	٥٢
٤ - عصمة يوسف (ع) وقوله سبحانه «وهم بها»	**٥٥**
اسباب هائلة فى صرح العزيزه لوتوجهت الى جبل لهدّته	٥٦
تفسير قوله «ولقد همت به وهم بها»	٥٧
ماهو جواب «لولا ان رأى برهان ربه» ؟	٥٩
ما هو المراد من البرهان ؟	٦٠
دلالة الاية على عصمة يوسف	٦١
الاسئلة الاربعة واجوبتها	٦٣
٥ - عصمة موسى (ع) وقتل القبطى ومشاجرته اخاه	**٦٩**
تفسير قوله «هذا من عمل الشيطان»	٧١
تفسير قوله «رب انى ظلمت نفسى»	٧٢
تفسير قوله «فاغفرلى فغفرله»	٧٣
تفسير قوله «فعلتها اذاً وانا من الضالين»	٧٣
تحليل القائه الالواح ومناقشته اخاه	٧٥

العنوان	الصفحة
٦ ـ عصمة داود وقضائه فى النعجة	**٧٩**
لماذا استغفر داود (ع) ؟	٨٢
٧ ـ عصمة سليمان عليه السلام ومسألة عرض الصافنات الجياد	**٨٤**
عرض عسكرى قام به سليمان فى ايام ملكه	٨٦
تفسير قوله «فطفق مسحا بالسوق والاعناق»	٨٧
الفتنة التى امتحن بها سليمان	٩٠
مامعنى طلبه الملك ؟	٩٣
٨ ـ عصمة ايوب ومس الشيطان له بعذاب	**٩٥**
تفسير قوله «مسنى الشيطان» وقوله «بنصب وعذاب»	٩٧
٩ ـ عصمة يونس وذهابه مغاضباً	**١٠١**
لماذا كشف العذاب عن قوم يونس دون غيرهم	١٠٢
هل كان كشف العذاب تكذيباً لايعاد يونس	١٠٤
مامعنى قوله «مغاضباً» ومن المغضوب عليه ؟	١٠٦
ما معنى قوله «فظن ان لن نقدر عليه ؟	١٠٧
١٠ ـ عصمة النبى الاكرم وما تمسكت به المخطئة	**١٠٩**
دلائل عصمته عن الذنب فى القرآن الكريم	١١٠
العصمة والخطابات الحادة	١١٣
العصمة والعفو والاعتراض	١١٦
العصمة والامر بطلب المغفرة	١١٩
العصمة وغفران الذنب	١٢٢

العنوان	الصفحة
ماهو المراد بالفتح من الآية ؟	١٢٢
كيف يكون الفتح غاية لمغفرة الذنب ؟	١٢٥
ما هو المراد من الذنب	١٢٩
العصمة والتولى عن الاعمى	١٣٠
شأن النزول لاينطبق على اوصاف النبى ﷺ فى القرآن الكريم	١٣١
شأن النزول الثانى لاينطبق على ظاهر الآيات	١٣٣
دين النبى الاكرم ﷺ قبل البعثة	١٣٥
عبدالمطلب وايمانه ومواقفه	١٣٦
ابوطالب وايمانه قبل البعثة وبعدها	١٤٠
ايمان والدى النبى الاكرم ﷺ	١٤٥
ايمان النبى الاكرم ﷺ قبل البعثة	١٥١
الشريعة التى كان النبى ﷺ يعمل بها قبل البعثة	١٥٣
الآيات التى وقعت ذريعة لبعض المخطئة	١٦٤
تفسير قوله «ووجدك ضالا فهدى»	١٦٥
تفسيرقوله «والرجزفاهجر»	١٧١
تفسير قوله «ما كنت تدرى ما الكتاب ولاالايمان»	١٧٣
تفسيرقوله «ما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب»	١٧٩
تفسيرقوله «لوشاءالله ما تلوته عليكم»	١٨١
عصمة النبى ﷺ عن الخطأ والسهو فى القرآن الكريم	١٨٤
نقد أدلة المخطئة على جواز عروض الخطأ والنسيان للنبى ﷺ	١٨٨
الرأى السائد بين الامامية حول سهو النبى ﷺ	١٩٠
كيفية معالجة المأثورات حول سهو النبى ﷺ	١٩٢

العنوان	الصفحة

الفصل الثانى :

فى مفهوم الامامة وملاكها فى الخليل ودلائل عصمة الامام

الامامة منصب اجتماعى عند أهل السنة	١٩٧
الخليفة والعدالة والاجتهاد عند السنة	١٩٩
الامامة منصب الهى عند الشيعة الامامية	٢٠٢
ماهو الهدف من الابتلاء فى قوله سبحانه «واذ ابتلى» ؟	٢٠٦
ماهو المراد من الكلمات فى قوله «بكلمات»	٢٠٩
ماهو المراد من الاتمام فى قوله «فأتمهن» ؟	٢١٤
ليس للامام الامعنى واحد وانما الاختلاف فى ملاك الامامة	٢١٥
ماهو ملاك امامة الخليل ؟ وهل هو النبوة ونقده ؟	٢١٨
الملاك الثانى لامامته كونه اسوة فى المجالات الثلاثة	٢٢١
الملاك الثالث لامامة الخليل كونه معلم الهداية عبر العصور	٢٢٤
الملاك الرابع لامامة الخليل كونه مفترض الطاعة	٢٢٦
الشواهد القرآنية على كون ملاك أمامته هو افتراض طاعته	٢٢٧
ماهى النسبة بين النبوة والامامة الواردة فى الاية ؟	٢٣٥
الامام لايحقق اهدافه الافى ضوء الشريعة .	٢٣٦
هل الامامة رهن الابتلاء فى جميع الادوار والعصور ؟	٢٣٧
هل حقق الخليل اهداف الامامة ؟	٢٤٠
دلالة امامة النبى الاعظم .	٢٤١
الامامة فى الاحاديث الاسلامية .	٢٤٥
الملاك الخامس لامامة الخليل تسيير النفوس الى الكمال بهداية تكوينية	٢٤٦

العنوان	الصفحة
هل الامامة عهد من الله ؟	٢٥٢
ماهو المقصود من الظالمين وبيان دلالة الآية على العصمة .	٢٥٣
آية التطهير وعصمة العترة الطاهرة .	**٢٦٠**
ماهو المراد من الرجس ؟	٢٦١
الارادة فى الآية تكوينية لاتشريعية .	٢٦٣
الارادة التكوينية لاتخالف اختيار المعصوم وحريته .	٢٦٧
ماهو الاساس لتفسير الارادة بالتشريعية عند اهل السنة .	٢٧٣
هل الآية تدل على فعلية التطهير ؟	٢٧٥
هل الاذهاب يستلزم الثبوت ؟	٢٧٥
مفهوم اهل البيت عليه السلام فى اللغة والقرآن .	٢٧٦
ماهو المراد من اهل البيت عليهم السلام فى الاية الكريمة ؟	٢٨٠
القرائن الثلاث على ان المراد هوالعترة الخمسة الطاهرة .	٢٨٠
إهل البيت على لسان النبى الاكرم صلى الله عليه وآله .	٢٨٤
الطوائف الثلاث من الروايات .	٢٨٦
الكلام حول نزول الاية فى نساء النبى صلى الله عليه وآله .	٢٩٥
ترجمة عكرمة وعروة بن الزبير ومقاتل بن سليمان من دعاة هذاالقول	٢٩٦
مشكلة السياق فى الاية .	٣٠٢
الدلائل الثلاثة على كون قوله « انما يريد الله » آية مستقلة .	٣٠٣
ماهو السرفى جعل الآية جزءاً من آية اخرى ؟	٣٠٩
الاقوال الاخرفى الآية .	٣١٠
الشيعة وآية التطهير .	٣٢١

العنوان	الصفحة
الفصل الثالث فى اطاعة السلطان وعدالة الصحابة	
اطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة .	**٣٢٥**
اطاعة السلطان العادل من صميم الدين وحكم اطاعة السلطان الجائر .	٣٢٦
لزوم اطاعة السلطان الجائر اوحرمة الخروج عليه عند اهل السنة .	٣٢٩
عرض هذا القول على الكتاب والسنة .	٣٣٣
صراع بين العقيدة والوجدان عند شباب اهل السنة .	٣٣٧
عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان :	**٣٣٩**
عدالة الصحابة جميعهم .	٣٤١
تقييم هذه النظرية من ناحية المباحث النفسية .	٣٤٣
الصحابة فى الذكر الحكيم واصنافهم .	٣٤٥
الصحابة فى السنة النبوية .	٣٥٢
الصحابة والتاريخ المتواتر وماظهرت من بعضهم بوادر الارتداد	٣٥٤
آراء الصحابة بعضهم حول بعض وثورة الحيان : الاوس والخزرج فى حضرة الرسول ﷺ	٣٥٥
التعزير التافه او اسطورة الاجتهاد فى تنزيه الظالمين	٣٥٧
كلام ابى المعالى الجوينى حول الصحابة ونقد بعض الزيدية له	٣٥٩
ماورد فى القرآن من ابداء الرضا عن المؤمنين مشروط بسلامة العاقبة	٣٦١
قتل الخليفة المفترض الطاعة دليل على عدم عدالة الصحابة	٣٦٢
عثرة للكاتب الندوى لاتقال	٣٦٤
صورتان متضادتان اورسالتان متضادتان	٣٦٧

العنوان	الصفحة
ملامح الشعب الايرانى فى الرسالة الاولى للندوى	٣٧١
الملامح العامة لهذا الشعب المضادة للصورة الاولى ، له ايضاً	٣٧٢
النشاطات القرآنية فى الجمهورية الاسلامية	٣٨٣
الركون الى الظالم وحكمه فى الاسلام	٣٧٨
الكاتب لايتأثر من سفور النساء والمؤسسات الربوية و لكن يتأثر من مشاهدة	
صورة الامام على(ع) فى المساجد	٣٨٠
الشرائط الاربعة التى انتخبها الاستاذ للرسالة الخالدة	٣٨٣
الشرط الاول للرسالة الخالدة :	
نجاح النبى صلى الله عليه وآله فى تربية الجيل الاول ، وتحليل هذا الشرط	٣٨٤
وحدة منطق الكاتب مع منطق يهود بدء الرسالة	٣٨٥
النبى الاعظم كان ناجحاً فى رسالته بلا كلام	٣٨٨
الاحاديث الدالة على ارتداد الصحابة فى الصحاح	٣٨٩
الشرط الثانى للرسالة الخالدة:	٣٩٠
تأسيس حكومة غيروراثية	
براءة الشيعة عن فكرة الحكومة الوراثية	٣٩١
الائمة الاثنا عشر فى صحيح مسلم	٣٩٢
الشرط الثالث للرسالة :	٣٩٣
صيانة كتابه عن التحريف	
صيانة القرآن عن التحريف عند الشيعة	٣٩٤
نصوص المحققين من الشيعة فى المقام	٣٩٥
الرسائل المفردة حول عدم التحريف	٣٩٦

العنوان	الصفحة
الكافى كتاب حديث لا كتاب عقيدة	٣٩٩
احاديث التحريف فى كتب اهل السنة	٤٠٠
اقتراح للمتسرعين فى الكتابة	٤٠١
الشرط الرابع للرسالة الخالدة :	٤٠٢
ان النبى مركز الهداية	
عصمة الائمة وتعيينهم من جانب الله وتكليمهم الملائكة لايخالف ذاك الشرط	٤٠٢
الدلائل القرآنية على عقيدة الشيعة فى هاتيك المواضيع	٤٠٣
الشيعة والسنة وفكرة التشريع	٤٠٦
ماهى المشكلة الاساسية للمسلمين	٤٠٨
تدهور الوضع الاسلامى فى القطر الهندى	٤٠٩
فهرس امهات المطالب	٤١١
«ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب اوالقى السمع وهوشهيد»	(ق-٣٧)

صدر كتابان :

١- الوهابية فى الميزان :

يبحث عن عقائد الوهابيين فى ضوء الكتاب والسنة ، ويركز قبل كل شىء على تمييز الشرك عن التوحيد بقلم : جعفر السبحانى .

٢ - البداء فى الكتاب والسنة :

يبحث عن مسئلة البداء التى تضارب حولها آراء الفريقين ، ويثبت ان المسألة اتفاقية من حيث اللب والمعنى وانما الاختلاف انما هو فى التسمية وهو بقلم جعفر الهادى .

ان اريد الا الاصلاح ما استطعتم

اخطاء مطبعية يرجى اصلاحها

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
عرض	وعرض	٨٩	١
لاالعاديون	ولاالعاديون	٨٩	١٣
الثلاثة	الثلاث	١٠٩	٧
بامور	بالامور	١٧٧	٣
بسورة	لسورة	١٨١	١٢
عنوان	عنوانه	١٨٢	٢٣
دين النبى	عصمة النبى عن الخطأ	١٨٥-١٩١	١
والمحل	والمحمل	١٩٤	١٧
النبىّ	التى	٢٠٣	١٠
الثلاث	الثلاثة	٢٢١	١٢
علية	عليه	٣٢١	٦
قال	القاه	٣٣٦	١٧
المتزين	المتزيين	٣٣٧	١٥

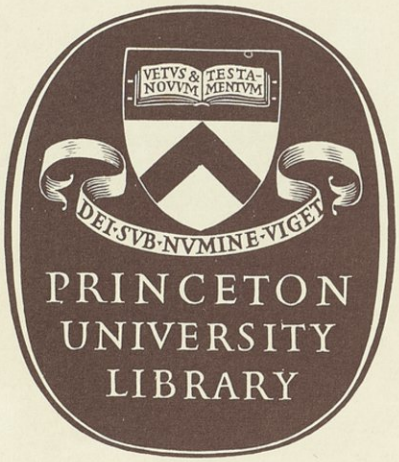
VETVS & NOVVM TESTAMENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY